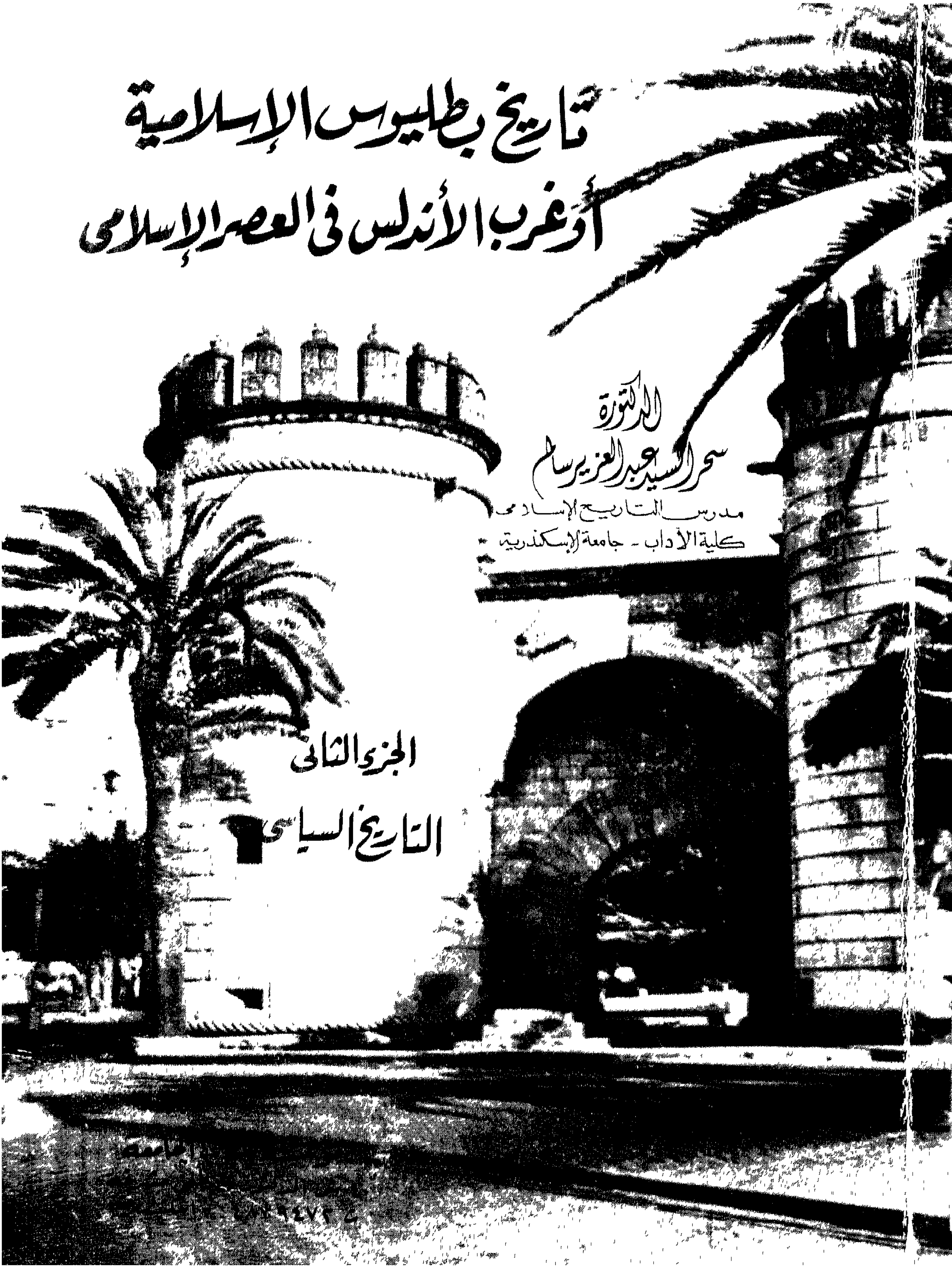
تاريخ بطليوس الإسلامية
أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي

الدكتورة
سحر السيد عبد العزيز سالم
مدرس التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الجزء الثاني
التاريخ السياسي



تاريخ بطليوس الإسلامية
أو غرب الأندلس فى العصر الإسلامى

الدكتورة
سحر السيد عبد العزيز سالم
مدرس التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الجزء الثانى
التاريخ السياسى

مؤسسة شباب الجامعة
٤٠ ش الدكتور مصطفى مشرفة
ت ٤٨٣٩٤٧٢ - اسكندرية



وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

صدق الله العظيم

مقـــدمـة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد : فقد توقفنا فى الجزء الاول من التاريخ السياسى لبطليوس الاسلامية عند نهاية دراستنا لعصر المظفر محمد بن الافطس ومكانته بين ملوك عصره ، وكنا نأمل أن نتم طباعة الجزء الثانى من الدراسة على أثر صدور القسم الاول منها ، ولكن ظروفا غير موانية حالت آنذاك دون تحقيق ذلك ، ونحمد الله تعالى أن وفقنا فى اكمال طباعته بداية بما توقفنا عنده ، وهو عصر المتوكل على الله عمر بن الافطس (٤٦٠هـ - ٤٨٨هـ) حتى نهاية العصر الاسلامى لبطليوس ، أى حتى سقوطها فى أيدى الليونيين سنة ٦٢٧ هـ ، وبهذا نكون قد استوفينا دراستنا للموضوع كله .

لقد حفل عصر المتوكل على الله ابن الافطس بكثير من الحوادث التاريخية الخطيرة ، ابرزها تعرض دويلات الطوائف فى الاندلس لخطر السقوط أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد المسيحى La Reconquista فى أعقاب سقوط مملكة طليطلة سنة ٤٧٨هـ فى يد الفونسو السادس ملك قشتالة الذى تزعم هذه الحركة وفتح فاه لالتهام بقية الدويلات الاسلامية ، وتطلع للسيطرة بعد طليطلة على كل من مملكتى بطليوس واشبيلية تمهيدا للقضاء على دويلات الطوائف الاخرى والاطاحة بالاسلام فى الاندلس . وكان سقوط طليطلة نذيرا بالمصير السيىء الذى ينتظر ملوك الطوائف الامر الذى دفعهم الى الاستنصار بيوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين الفتية ، وتضافرت قوى المسلمين للتصدى لاسبانيا المسيحية ، التى تزعمها الفونسو السادس ، وجاء انتصار المسلمين على قوى المسيحيين فى الزلاقة ٤٧٩هـ مخيبا لآمال الفونسو السادس الذى كان قد نصب نفسه بطلا لحركة الاسترداد .

وفى عصر دولتى المرابطين والموحدين تحولت بطليوس الى ثغر للجهاد ضد قوى النصرانية فى شمال الاندلس ويمثلها الليونيون

والقشتاليون، وفى غرب الاندلس ويمثلها البرتغاليون ، فى الوقت الذى تضافرت فيه هذه القوى للقضاء على الاسلام فى الاندلس ، وشهدت بطليوس فى عصر المرابطين صداما عسكريا ضاريا مع القشتاليين فى موقعة الزلاقة الثانية سنة ٥٢٨هـ حيث دارت معركة عنيفة انتهت بانتصار تاشفين بن على بن يوسف على جيوش القشتاليين .

ان تاريخ بطليوس فى الواقع هو تاريخ للاسلام فى غرب الاندلس كله ، ولهذا فان سقوط بطليوس فى أيدى الليونيين سنة ٦٣٠هـ يسجل فى حقيقة الامر سقوط غرب الاندلس كله .

وبعد فارجو ان اكون قد انتهجت فى دراستى لهذا التاريخ سبيل الصواب ، واوضحت حقائق كانت مطموسة فى هذا التاريخ ، وحققت الهدف الرئيسى من هذه الدراسة ، وابرزت الدور الهام الذى اضطلعت به بطليوس الاسلامية مدينة ، وامارة ، وثغرا متقدما فى الغرب الاندلسى ، واسأل الله التوفيق .

الاسكندرية فى ٦ مايو ١٩٩١م

دكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم

الفصـــل الرابـــع

بطليوس فى عصر المتوكل على الله ابن الافطس

١ ـ مرحلة الانتقال من المظفر الى المتوكل

٢ ـ المرحلة الاولى من عصر المتوكل (٤٧٢هـ ـ ٤٧٣هـ)

٣ ـ المرحلة الثانية من عصر المتوكل (٤٧٣هـ ـ ٤٧٩هـ)

٤ ـ اطماع الفونسو السادس فى مملكتى بطليوس واشبيلية

٥ ـ هزيمة الفونسو السادس فى الزلاقة من بطليوس

٦ ـ تحقيق موقع الزلاقة من اراضى بطليوس (ساجراخاس)

٧ ـ نهاية بنى الافطس اصحاب بطليوس

الفصـــل الرابـــع

بطليوس فى عصر المتوكل بن الافطـــس

(١)

مرحلة الانتقــال من المظفر الى المتوكـل

توفى المظفر بن الافطس فى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) فى قول ابن الابـار (١) ولكـن بريتو اى فيفس Antonio Prieto Y Vives يؤكد استنادا الى درهم يحمـل اسـم يحيى المنصـور ، ابن المظفر وخليفته ، مؤرخ فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) ان المظفـر توفى فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) وان ولده يحيى المنصور هو الذى خلفه فى هـذا التاريخ ، ولم يلبث يحيى أن توفى بدوره فى سنه ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) ، فانفرد أخوه الثانى عمر المتوكل بالحكم (٢) . وياخذ الدكتور حسين مؤنس بهذا الراى (٣) ، بينما يحدد الاستاذ محمد عبد الله عنـان تاريخ وفاة المظفر بسنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) (٤) ، ونحن نميل الى ترجيح التاريخ الاول سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) لسنة الوفاة ونعتقد ان المظفـر اعتزل الحياة السياسية فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٢م) فى أعقاب سـقوط مدينة قلمرية فى يد فرذلند الاول ملك قشتالة وليون ، تاركا حكم مملكة بطليوس الى ابنه يحيى الذى تلقب بالمنصور (٥) . ونستند فى هـذا

---

(١) ابن الابار ، الحلة السيراء جـ٢ ص ٩٧

(٢) Prieto y Vives (Antonio), los Reyes de Taifas, Madrid 1927, P 67.
ويستند فى رايه على ثلاثة دراهم نقش على احدها اسم الحاجب يحيى وعلى درهم آخر اسم المنصور يحيى ، وتحمـل سنوات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧هـ (١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥م) . أما دراهـم المتوكل فتحمل سنوات ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥هـ (١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٧٢م) واستنادا الى هذه التواريخ يؤكـد أن سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) تسجل تاريخ وفاة يحيى المنصور ، ثم أصبحت تحدد خطئا تاريخ وفاة ابيه المظفر (Prieto y Vives, op. cit. P. 137)

(٣) ابن الابار ، المصدر السابق ، هامش ٢ .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الطوائف ص ٨٦ .

(٥) يؤكد ذلك القول ، قول ابن الابار « وكانت وفاة المظفر سنة ستين

الراى على حقيقتين : الاولى تاريخ سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) الذى يحمله نقش درهم من الفضة ضرب باسم الحاجب يحيى (١) ، وتاريخ سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) الذى يحمله نقش درهم ضرب باسم « موفق بالله المنصور يحيى (٢) .

والثانية صمت المصادر العربية عن ذكر اسم المظفر منذ سقوط قلمرية حتى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) ،ونرجح ايضا ان يكون النزاع القائم بين المنصور يحيى الذى خلف اباه المظفر على مملكة بطليوس وبين اخيه عمر والى يابرة قد بدا فى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) ، ولكنه اشتد ووصل ذروته فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) استنادا الى رواية ابن حيان التى اوردها ابن بسام فى الذخيرة وجاء فيها « وقد ذكر ابن حيان بعض ما كان شجر بين المتوكل واخيه فى ذلك الاوان فقال : « وفى صدر سنة احدى وستين نشأ من تلقاء ثغر غربى الاندلس المثغور عارض هم ضاعف الاشفاق ، واكد التوقع بانكشاف فى خبر الاختلاف الواقع بين اميريه : يحيى وعمر ابنى المظفر بن الافطس (٣) » . ومما يعزز رأينا فى ان يحيى انفرد بالملك دون اخيه وتلقب بالمنصور ، وبالحاجب موفق بالله المنصور يحيى ، بينما تولى اخوه عمر (المتوكل) حكم يابرة ان ابن بسام يروى انه قدح فى المتوكل ايام سلطانه بيابرة بمجلس المنصور يحيى اخيه ، فكتب عمر اليه يدفع عن نفسه ما اتهم به ، ونستدل من صوغ الرسالة واسلوبها انها موجهة من امير الى امير اعلى فى المكانة او ملك ، او من اخ اصغر الى اخ اكبر ، فمنها قوله « ... غير انه جرى فى ناديك - لازال معمورا بمعاليك - اننى ابيع الاحرار والحرائر ، واستصغر المعاصى والكبائر ، والله نزهنى عن هذا وابعدنى

=

واربعمائة ، فولى بعده ابنه يحيى بطليوس وتسمى بالمنصور (ابن الابار ، الحلة السيراء ، حـ ٢ ، ص ٩٧)

(١) Prieto Y Vives, op. cit. P. 223

(٢) 4) Ibid, P. 223

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ مجلد ٢ ، ص ٦٥٠ .

عنه ، فلا قدرة لبشر ان ينيطه بى ، ويدنينى منه (١)» .ثم اتى ببعض ابيات من الشعر فذكر منها :

فما بالهم لا انعم الله بالهم ينيطون بى ذما وقد علموا فضلى
يسيئون فى القول جهلا وضلة وانى لارجو ان يسؤهم فعلى
طغام لئام أو كرام بزعمهم سواسية ما اشبه الحول بالقبل
لئن كان حقا ما اذاعوا فلاخطت الى غاية العلياء من بعدها رجلى
ولم الق اضيافى بوجه طلاقة ولم امنح العافين فى زمن المحل
وكيف وراحى درس كل غريبة وورد التقى شمى وحرب العدا نقلى

الى قوله :

فيا ايها الساقى اخاه على النوى كؤوس الفلى مهلا رويدك بالعل
لنطفىء نارا اضرمت فى نفوسنا فمثلى لايقلى ومثلك لا يقلى
الست الذى اصفاك قدما وداده والقى اليك الامر فى الكثر والقل
وصيرك الذخر الغبيط لدهره ومن لى ذخرا غيرك اليوم لامن لى
وقد كنت تشكينى اذا جئت شاكيا فقل لى لمن اشكو صنيعك بى قل لى (٢)

واذا كان النزاع بين الاخوين قد اشتد فى صدر سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) حسبما اورده ابن حيان المؤرخ الثقة ، فمن الواضح اذن ان يكون يحيى المنصور حيا فى هذا التاريخ ، وعلى هذا الاساس لايمكن الاخذ برأى بريتو اى فيفس ، والارجح فى راينا ان يكون النزاع قد بدأ بين الاخوين فى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) بعد وفاة ابيهما المظفر ، وربما ظهرت بوادره فى حياة المظفر ، ثم اشتد وعظم فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) بعد قيام المتوكل عمر بالثورة على اخيه المنصور يحيى ، وترتب على هذا النزاع اقدام المتوكل على سك عملات باسمه ، وهذا

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٤٨ ، ٦٤٩.
(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٤٩ .

يفسر العثور على دراهم باسم المتوكل ضربت فى سنة ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥هـ (١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٧٢م) . ونميل الى الظن بأن يحيى المنصور توفى فى نفس عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) فخلا الجو لعمر المتوكل الذى انفرد بمملكة بطليوس ، وحصلت له جميع بلاد ابيه ، واحتل حاضره بطليوس ، وجعل ابنه العباس فى يابورة » (١) .

وفى رأينا أن المظفر لم يمتثل ما فعله جاره أبو الوليد محمد بن جهور صاحب قرطبة الذى قسم الرئاسة بين ولديه (٢) ، وانما آثر أن يسند امور الدولة كلها الى ولده يحيى الذى تلقب بالمنصور ، بينما ترك ولاية يابرة لابنه عمر ، وعلى هذا الاساس لم يكن ثمة تقسيم فى الرئاسة بين الاخوين يحيى وعمر (٣) ، على نحو ماحدث فى قرطبة ، واستمر الوضع على هذه الصورة طوال حياة المظفر ، وان كانت هناك بعض السحب اخذت تظهر فى الافق وتفسد ما بين الاخوين الى أن توفى المظفر فى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) ، وانفرد يحيى بامر بطليوس ، وعندئذ بدأ النزاع بينهما ، والخلافات بين الاخوة من الامور الشائعة فى حوادث العصور الوسطى الاسلامية والمسيحية على السواء ، ولم يلبث هذا النزاع ان استفحل فى سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) (٤) ، بحيث اصبح لكل من الاخوين مطبلون ومزمرون فى الداخل والخارج ، وظهر الأمر فى لحظة ما ، وكانه نزاع على مناطق نفوذ بين الاخوين او كما لو أن تفسيما فى المملكة البطليوسية قد وقع بالفعل ، وهذا ما يمكن

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٥١

(٢) قسم ابو الوليد رئاسة قرطبة بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك فأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند ، ويصطنع لنفسه من الرعية انصارا ، ولم تلبث العلاقات ان توترت بين الاخوين ، واصبح كل منهما يتربص بالآخر ، وكان ذلك من العوامل الرئيسية التى اطاحت بدولة بنى جهور (راجع د. السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الاموية بالاندلس ، ج ١ ، ص ١٣٣) .

(٣) Manuel Albarran, el solar de los Aftasies, P. 35

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٥٠ - ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٤ .

ان يتبادر الى الذهن اذا قرأنا العبارة التالية لابن حيان « واكد التوقع بانشقاق سبب الاختلاف الواقع بين اميريه ، يحيى وعمر ابنى المظفر ابن الافطس» (١) ، او عبارة ابن الخطيب :«ولما توفى المظفر رحمه الله ولى الامر بعده ولداه عمر ويحى (٢) » .

استغل اذفونش السادس بن فرذلند Alfonso VI ملك قشتالة وليون هذه الفرصة ، وسعى الى اشعال نار الفتنة والتخريب بينهما نكاية فى المسلمين ، فبدأ يطالب يحيى صاحب بطليوس وخليفة المظفر بزيادة الاتاوة السنوية التى كان يدفعها ابوه المظفر بوساطة المامون بن ذى النون ، فلاذ يحيى بالمامون وطلب مساندته على نحو ما كان يحدث فى عهد ابيه ، بينما مال عمر المتوكل الى المعتمد بن عباد ، ولم يلبث النزاع بين الاخوين ان تحول الى فتنة عارمة اصطلت بها البلاد ، وعانت من ويلاتها الرعية ، واصابت اهل المملكة البطليوسية بلظاها .

وكان الفونسو السادس ، كما سنوضح فى ذيل الرسالة ، طامعا فى ان يكون البطل الذى سيتم على يديه تحرير كل بلاد الاندلس من المسلمين، ولهذا السبب تلقب فى سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٧م) بلقب امبراطور كل اسبانيا Emperador de toda España (٣) .

وما كادت تصله الانباء بالخلاف الناشب بين ولدى المظفر حتى

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٦٥٠

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٤

(٣) Aguado Bleye, Manual de Historia de España, p 599
الكردبوس فى كتاب الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ان [illegible] انتحاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، « [illegible] الاعجاب بما احتقر به كل ماش على التراب ، وتسمى بالانبراطور ، وهو بلغتهم امير المؤمنين ، وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه (بعد استيلائه على طليطلة) من الانبراطور ذى الملتين » (تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ، تحقيق الدكتور احمد مختار العبادى، مدريد ١٩٧١ م ، ٨٨ ، ٨٩) .

عمد الى استغلاله وتوسعته للغاية ليكسب من وراثـه مكاسب سياسية تسهل له مهمته فى توسيع مملكته على حساب اراضى بطليوس . فبـدأ يضغط على المنصور يحيى بن الافطس صاحب بطليوس كما راينا ، ويطلب منه ان يزيد فى مقدار الجزية (١) التىكان يدفعها ابوه المظفر، فلما اعتذر يحيى بعدم قدرته على تدبير ذلك القدر من المال ، انتهز الفونسو فرصة الظروف السيئة التى تمـر بها البـلاد الافطسية مـن اضطرابات عنيفة الى جانب ما لمسه من ضعف يحيى المنصور ، واخذ يشن سلسلة من الهجمات على مملكة بطليوس (٢) ، فاصاب عددا من الحصون والمدن . وفى هذه الاثناء كان يحيى المنصور قد استعان بالمامون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، بينما استعان المتوكل بالمعتمد بن عباد، وحاول الاخوان امام الوضع المتفجر فى البلاد ان يعقدا فيما بينهما هدنة لمواجهة الضربات القاسية التى وجههـا اليهمـا اذفونش (الفونسـو السادس) ، ولكن الهدنة كانت رمادا على دخن ، فسرعان ما اشعلت السعايات بين الاخوين نار العداء بينهما ، فتجددت الفتنة ، واحتدمت نيران الحرب ، بعد ان خبت فترة من الوقت ، الى ان انقذ الله هـذه المملكة التعسة بوفاة المنصور ، فوضعت حدا لهذه الحرب الاهلية .

واذا اردنا ان نقوم عصر يحيى المنصور بن المظفر من الوجهـة السياسية يتبين لنا انه عصر الاضطرابات والفوضى وعدم الاستقرار فى تاريخ مملكة بطليوس ، لعدة اعتبارات ، نذكر من اهمها الصراع الذى

---

(١) هى الاتاوة التى كان المظفر بن الافطس قد اضطر الى دفعهـا لفرذلند الاول حين عقد معه الهدنة فى وادى تاجه على مقربـة من شنترين ، وقد بلغ قدرها خمسة آلاف دينار (ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٢٣٨) وكان المامون بن ذى النون كما هـو موضح فى نص ابن حيان قد تدخل عند فرذلند لصالح ابن الافطس ليقبل منه هذه الهدنة فى مقابل الاتاوة المذكورة على ان يرحـل بجيوشه عن شنترين ، وكان المامون قد سبق ان قـدم الهدايـا والاموال لفرذلند الاول طمعا فى ان يساعده فى حربه ضد المستعين بالله بن هود صاحب سرقسطة .

(٢) Luis Suarez, Historia de España : Edad Media, P. 183.

قام بين المنصور وبين اخيه المتوكل بعد ان نجح هذا الاخير فى زعزعة سلطانه السياسى منذ اللحظة الاولى ، وبطبيعة الحال لنا ان نتصور حالة الفوضى والضياع التى عاشها الشعب البطليوسى وقد تمزقت وحدة الدولة بين الاخوين المتصارعين فى البلاد . ومنها عيث الفونسو السادس . السادس ملك قشتالة وليون فى البلاد .

اما من حيث الحياة الثقافية فى مملكة بطليوس فنلاحظ انها بلغت فى ايام المظفر محمد حدا كبيرامن التالق والازدهار ، سيستمر فى عهد ابنه المتوكل عمر ان لم يكن سيزداد قوة وتالقا الى حد الانبهار .

وكل ذلك لايحمل سوى معنى واحدا هو ان الاضطراب السياسى الذى شمل البلاد فى عهد يحيى المنصور لم يكن له صدى عميق فى الحياة الثقافية المزدهرة ، او انه لم ينجح فى اخمادها ولو لفترة قصيرة ، بالتاكيد لقصر فترة حكم يحيى المنصور ، بالاضافة الى الميول الادبية الواضحة فى شخصية المتوكل الذى تولى امارة بطليوس بعد وفاته . هذا التفكك السياسى المؤقت لم يستطع ان يؤثر فى مجرى الحياة العلمية والثقافية تاثيرا ذا فعالية .

صحيح ان سنوات الاضطراب الداخلى سببت خروج عدد من الكتاب والادباء من مملكة بطليوس هروبا من شبح الحرب الاهلية ، ومنهم على سبيل المثال الشاعر الكاتب الوزير ابو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابرى الذى خرج من بطليوس فى عهد المنصور يحيى مستوحشا منه ، ولحق باشبيلية ، ومن هناك كتب الى الوزير ابى بكر بن زيدون بهذه الابيات :

لك الخير من مثرى اليدين من العلا ... اذ تربت ايدى النوى والتطول
بما كان بين الماضيين من الذى ... اليه استنادى او عليه معولى
ولم تتمسك بالمؤيد لى يد ... وقد زهفت رجلى عن المتوكل (١)

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٧١٠

كذلك وجه بعض الابيات الى بنى سعيد بن القبطورنة حين خرج منها مستوحشا نقرأ منها :

خلائى وفى قرب الصدور ظبا تقضى على قمم الدهور
وقد ضمت جوانحنا قلوبا ابت غير القصور او القبور
اذا الكرماء نامت فوق ضيم فما فضل الكبير على الصغير
فقبل ابى الدنية قيس عبس ولم يصغى الى قول المشير
ودلهنى فراق بنى سعيد فما ادرى قبيلا من دبير (١)

فلما ظفر المتوكل بحكم المملكة بعد وفاة اخيه المنصور ، عاد الى حضره المتوكل ببطليوس وانشده قائلا :

خصمت الظبا عنكم على انها لد بقرع له فى كل بارقة رعد
بزرق بما خلف الضلوع بصيرة على انها مما بكت حدق رمد
تركت لمن هز الاسنة رايه وقلت لغيرى الخفض والعيشة الرغد (٢)

الا أن ذلك لم يؤثر تأثيرا عميقا على الحياة الادبية ببطليوس وان كنا لانستطيع ان نبرىء المنصور من مسؤولية الشلل الوقتى الذى اصاب الحياة الثقافية فى بطليوس فى تلك الفترة القصيرة ، **وهذا امر طبيعى ،** ولكن التأثر بالحوادث السياسية جاء طفيفا للغاية ، ربما كان من العسير التحقق منه ، فقد ذاعت قصائد ابى عبد الله محمد بن البين الشاعر البطليوسى (٣) فى احد وزراء المنصور يحيى بن المظفر واسمه ابو الاصبغ بن المنخر ، وكان قد وصله عليها بمائة مثقال (٤) .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٧١١
(٢) المصدر السابق ، ص ٧١٠ .
(٣) هو احد الشعراء العظام بمملكة بنى الافطس بحضرة بطليوس وفيه يقول ابن بسام : «احد الشعراء المجيدين ، كان بحضرة بطليوس ، مستظرف الالفاظ والمعانى وكان يميل الى طريقة محمد بن هانىء » (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص ٧٩٩) ولمزيد من الدراسة ارجع الى ابن سعيد الاندلسى « رايات المبرزين وغايات المميزين » تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضى ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٦٠ – المغرب فى حلى المغرب ، مجلد ١ ، ص ٣٧٠) .
(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٧٩٦

(٢)

المرحـلة الاولى من عصر المتوكـل

لم يرد فى المصادر العربية ما يشير الى تاريخ معين لوفاة المنصور يحيى ، ولكننا نرجح ان تكون وفاته قد حدثت فى اواخر سنة ٤٦١هـ (١٠٦٨م) او صدر سنة ٤٦٢هـ (١٠٦٩م) [١] ، وبوفاته خمدت نيران الحرب الاهلية ، وبادر عمر المتوكل باحتلال بطليوس حاضرة المملكة الافطسية ، وقلد ولده العباس [٢] ولاية يابرة التى كان يتولاها هو ، اى المتوكل من قبل [٣] .

ومن اشهر الحوادث السياسية التى جرت فى عهد المتوكـل حادثة دخول طليطلة فى فلك دولة بنى الافطس ، وانتقال المتوكل اليها فى سنة

---

(١) ذكر الاستاذ محمد عبد الله عنان ان يحيى المنصور توفى فجـاة فى سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ولا ادرى علام استند سيادته فيما ذهب اليه ، اذ ان المصادر العربية لم تنص على تاريخ وفاته (انظـر عبد الله عنان ،عصر الطوائف ص٨٧) . ويؤيد الاستاذ عنان فى هذا التاريخ الدكتور عبد الرحمن علـى الحجى فى كتابه التاريـخ الاندلسى ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٣٩٧) .

(٢) كان للمتوكل عمر بن الافطس من الابناء اربعة : العباس والفضـل وسعد والمنصور ، اما العباس والفضل فقد قتلهما المرابطون عقب دخولهم بطليوس فى سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م)واتبعوهما بابيهما ، واما سعد فقد سجنه المرابطون بعد غلبتهم على ابيه المتوكل ، وقتلهم اياه وابنيه العباس والفضل : واما المنصور فقد فر مـن بطليوس وتحصن بحصن شانجش الواقع على مقربة من حـدود قشتالة . وقد عرف العباس والفضل بالطيبة ، وعرف المنصـور بالدهاء ، وكان كثير النصح لابيه ، اما سعد فلا نعرف عنه سوى انه سجن فترة طويلة فى سجن الملثمة (ابن الابار ،الحلة السيراء، جـ٢ ،ص ١٠٤) ، ومن الامثلة الدالة على طيبة العباس مارواه ابن بسام فى الذخيرة عن تهاونه فى الاحتفاظ بطلحة بن عبيد الله فى يابرة بعد ان اوصاه ابوه المتوكل بالتحفظ عليه ، الامر الذى اثار غضب ابيه (راجع التفاصيل ، فى ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٦٥١) .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ص ٩٨ .

٤٧٢هـ ، ومقامه بها نحوا من عشرة اشهر (١) . حدث ذلك كله بعد احداث خطيرة مرت بها مملكة طليطلة ، وكان لها اكبر الاثر فى مستقبل مملكة بطليوس .

كان يحكم طليطلة انذاك اميرها القادر بالله يحيى بن ذى النون حفيد المامون يحيى (٢) . وكان المامون قبل وفاته قد قسم اعمال الادارة فى دولته بين وزيريه ابى سعيد بن الفرج ، وابن الحديدى ، فجعل تدبير الاجناد والنظر فى طبقات القواد الى سائر الشئون السلطانية والاعمال الديوانية الى ابى سعيد بن الفرج ، اما بقية الاصدار والايراد والنظر لجماهير الناس والراى والمشورة الى الفقيه ابى بكر بن الحديدى ، وكان قد نصح حفيده ان يشد على ابن الحديدى كلتا يديه ، ولايفتات بامر من الامور عليه (٣) ، واخذ المواثيق الغليظة على ابن الحديدى (٤) ان يشد ازر حفيده ، ويعمل على تثبيت امره .

وكان هذا الحفيد يحيى مضعفا كثير الحيلة ، خبيث الفكرة ، يصاحبه مرض بمعدته قلما ينعش به ، واغرته طائفة السوء الغالبة على

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ١٥١ .
(٢) كان هشام بن المامون بن ذى النون قد توفى فى حياة ابيه ، وقيل انه حكم بضعة اشهر ، ثم مات وهو قول لايعتد به (انظر ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧١) .
(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ص ١٥١ .
(٤) هو يحيى بن سعيد بن احمد بن يحيى بن الحديدى من اهل طليطلة ، وكان متقنا فصيحا فطنا مقدما فى الشورى (انظر ابن بشكوال ، الصلة ٦٢٣) وفيه يقول ابن بسام « رجل كان له قدم واقدام ، وعنده قاضى وابرام » ، وكان قد ساند المامون بن ذى النون ، وحفظ له ملكه من الضياع ايام كان غائبا فى بلنسية ، ولهذا كان المامون يراعى لابن الحديدى ، فوضع فى حياته زمامه بيده ، واستخلفه بعد وفاته على بلده وولده » (ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٥١) . وفيه يقول ابن عذارى : « وكان اكبر اهل طليطلة رجلا يسمى ابا بكر بن الحديدى ، وكان شيخها والمنظور اليه من اهل العلم والعقل والدهاء وحسن النظر فى صلاح البلد ، وكانت العامة تعضده وتقوم دونه » (ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ص ٢٧٧) .

امره بابن الحديدى ، فعجل بنكبته ، «وكان جده قد سكن ملكه ، وقرر أسبابه بسجن الطائفة من اهل طليطلة حثات الشرور ، واسباب الفتن باشارة ابن الحديدى ، فتنوسوا بالمطبق ، واطرد الخير بفقدهم » (١).

ولم يلبث القادر بالله ان وقع تحت تأثير العبيد والموالى ، استغلوا فيه ضعف الشخصية وقلة الحنكة السياسية (٢) ، فاخذوا يوغرون صدره على وزيره ابن الحديدى ، « جماع امره وفطنة تاييده ونصره» ، ويصورونه للقادر على انه القيد الذى يحد من انطلاقه ويعوق من مد سلطانه (٣) .

كان هؤلاء الحاقدون قد قبض عليهم من قبل فى ايام المامون بن ذى النون بايعاز من ابن الحديدى خشية ان ينقلبوا على المامون ، ويثيروا حوله الفتن والاضطرابات ، فحقدوا على ابن الحديدى كل الحقد ، وكان اعظم خطأ وقع فيه القادر انه اطلق سراحهم من سجن وبذة Ubeda ، وادخلهم طليطلة سرا من بعض مداخله الخفية فى ١٠ المحرم سنة ٤٦٨هـ (١٠٧٦م) ، واستعان بالقاضى ابن المشاط لاستدراج

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧٩ ـ عبد الله عنان ، مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص ٢٧٠ .

(٢) وفى ذلك يقول ابن الكردبوس : « فقام بالامر بعد اسماعيل بن ذى النون حفيده يحيى وتلقب بالقادر ، وكان ضعيف المنة ، قليل المعرفة ، ربى فى احجار النساء والدايات ، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك امره العبيد ، وحكم عليه كل خصى ومولود ، كل يدبر ملكه ، على ارادته ، وينفرد بوزارته ، فطمع فى بلاده الرؤساء ، واحتقره القرناء والغرباء » . (ابن الكردبوس ، ص ٧٩) .

(٣) يعبر مننديث بيدال عن ذلك بقوله : «ولم يكد يتوارى جثمان المامون فى جامع طليطلة حتى دفن معه مجد طليطلة ، وتلاشت قوتها ، تلك الدولة القوية التى طالما ظهرت فى عصر الطوائف بمظهر الدولة الكبرى ، وشهدت فترات من الازدهار الحضارى لم تشهدها من قبل (انظر
Menendez - pidal, la España del Cid, t.I.P. 262).

ابن الحديدى الى القصر ، ثم اطلقهم عليه ، فقتلوه فى حضرته ، وبداخل قصره ، ونهبوا دوره .

بعد هذه الجريمة الشنعاء توهم القادر انه تخلص من نير ابن الحديدى ومن نفوذه ، فلم يكد يتخلص منه حتى ادرك ان النير الحقيقى هو وقوعه فريسة سهلة لينة فى يد هذه الجماعة الاثمة الغادرة ، خصوم جده القدامى ، الذين كانوا لايزالوا يحقدون على الجد ، وتمثلوا المأمون فى صورة حفيده القادر ، فبدأوا يعيثون فسادا فى كافة انحاء مملكة طليطلة ليثيروا الناس على حكم بنى ذى النون ، ونجحوا فى تحقيق هدفهم الدنىء .فبدات اعراض الثورة تشتعل فى النواحى .

يضاف الى هذا طمع جيرانه من ملوك الطوائف فى بلده ، فكان اول من طمع فيه المعتمد بن عباد الذى كان عدوا لجده ، وكذلك ابن هود صاحب سرقسطة الذى لم يكن قد نسى بعد الحروب القديمة التى شنها جده المأمون على اراضيه ، فعزم على ان يذيق القادر من نفس الكأس التى اذاقه منها المأمون من قبل ، فاستعان ضده بقوى اسبانيا المسيحية ، وتمكن من الاستيلاء على شنتبرية Santaver الواقعة شمالى طليطلة . ثم واجه القادر بالله ثورة عاتية قام بها ابو بكر بن عبد العزيز ببلنسية ، خلع فيها طاعة بنى ذى النون ، ونادى بنفسه اميرا مستقلا ، ثم تحالف مع ابن هود بعد ان خطب ابنته ، وفى نفس الوقت كادت كارثة ثالثة تحل بالقادر حيث ان شانجة راميرث ملك ارغون كاد ان يستولى على قونكة Cuenca احدى مدن مملكة طليطلة ، لولا ان افتداها اهلها بمبلغ كبير من المال (١) . وفى هذه الاثناء سير القادر جيشه ، لمقاتلة ابن هود من جهة وراميرث من جهة اخرى ، ولكن جنده تحت امرة الفتى البشير انصرفوا دون قتال .

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ .

فلم يجد القادر بدا من التماس عون الفونسو السادس ملك قشتالة الذى انتهز هذه الفرصة فاخذ يعدد شروطه ومطالبه ، وكان من بين الشروط ان يسلم له القادر بعض الحصون الطليطلية الواقعة على الحدود ، وتم تسليم هذه الحصون ، وهى حصون سرتـه Zorita وقنتوريـة Canturia وقنالش (١) Canales . وهكذا تجردت مملكة طليطلة من حصونها الامامية فى الوقت الذى كان اعداء القادر يحفرون له قبره فى الداخل ، ونجحوا فى اشعال نيران الثورة فى طليطلة عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) ، وحاولوا اثناءها ان يغتالوه وينالوا منه ، ففر من المدينة ولاذ باحد حصونه الشرقية وهو حصن وبذة .

اصبحت طليطلة بعد هذه الاحداث بدون امير ، الامر الذى اشاع فيها الاضطراب والفوضى ، فتشاور اعيانها فيمن يحكمهم من بين ملوك الطوائف ، واستقر رايهم على دعوة المتوكل عمر بن الافطس بعد ان رغبهم فيه ابو محمد يوسف بن القلاس البطليوسى (٢) ، وكانت له

---

(١) 1) R. Menendez Pidal, la España del cit, Vol. P. 263 .
ومن الجدير بالذكر ان الاستاذ عنان كتب اسم مدينتين منهما محرفتين فكتب سرته Zorita على انها سرية ، وقنتورية Canturia فى صورة قثورية (انظر محمد عبد الله عنان ، عصر الطوائف ص ١٠٦) وفى ذلك يقول ابن بسام « وفغر الطاغية اذفونش ابن فرذلند فمه على ثغوره المثغورة ، فجعل لوقته يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب ، وابن ذى النون يلقمه افلاذ كبده ، ويرجمه بسبده ولبده واذفونش لعنه الله لايقنع منه بصيد العنقاء ، ولابيبض الانوق بل يكلفه احضار الابلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ويطلبه برد امس ، فلما اكل الانفاق ثبج ماله ، واخذ الخناق بكظم احتياله ، واحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما الى معاقله المنيعة ، وذرى املاكه الرفيعة ، عدد الانام ، ودروب الاسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، ومارام اخذه من يديه لم يدركه حتى مزق» (ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ١ ، ص ١٥٦) .

(٢) كان ابن القلاس البطليوسى رجلا داهية ، نبهت الفتنة القائمة بطليطلة على قدره ، فعرض عليهم بصاحبه المتوكل ، « واعرب لهم عن لين مكسره ، وضيق مسافة نظره ، واشتغاله باللذات عن اكثره » ، فرحبوا بقدومه اليهم (ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ١ ، ص ١٥٩) .

عندهم مكانة مرموقة ، فاستجابوا لرأيه ، وأتاه سفيرهم فى بطليوس بدعوة اهل طليطلة له ، فرفض المتوكل فى بداية الامر ما عرضوه عليه، ولكنه استجاب لمطلبهم فى نهاية الامر وهو كاره ، فانتقل الى طليطلة، واخذ يحكمها ويدبر أمورها لمدة عشرة اشهر ، وفى هذه الاثناء كتب القادر بالله ، وقد ثاب اليه رشده ، الى الفونسو السادس يذكره بصداقة جده المامون له ، وايوائه اياه ، فلم يتردد الفونسو فى سماع شكواه واقبل معه الى طليطلة ليعيده الى عرشه ، وعندئذ قرر المتوكل ابن الافطس ان يغادرها ، بعد ان حصل من اسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر (١) تاركا طليطلة بين ناب الطاغية اذفونش وظفره (٢) .

ولنا ملاحظة حول هذا الموضوع ، فالنص الذى اعتمدنا عليه فى تاريخنا لهذه الاحداث هو نص ابن الخطيب الذى اختصره من رواية ابن حيان الواردة فى الذخيرة ، ويدور حول انتقال عمر بن الافطس من بطليوس حاضرته الى طليطلة حاضرة ابن ذى النون ، وفيه نطالع النص التالى « ولحق القادر ببعض حصونه ، واقام اهل طليطلة بعده أياما كالسائمة المهملة ليس عليهم أمير ، ولافيهم بالصواب مشير ، الى ان جنحوا الى المظفر بن الافطس من ملوك الطوائف على بعد داره، وانتزاح اقطاره ، فجاءهم متثاقلا كما قال المؤرخ : كودنا ساموه خصل سباق، فدخل طليطلة عام ٤٧٢هـ ..» (٣) .

وفى هذا النص يشير ابن الخطيب الى أن اهل طليطلة استنجدوا بالمظفر ابن الافطس وهو خطأ واضح،فالمظفر كان قد توفى منذ اثنتى عشر سنة وفقا لما اشرنا اليه ، وقد اكد ابن الخطيب نفسه ذلك فى موضع آخر من كتابه فقال « ولما توفى المظفر – رحمه الله – ولى الامر بعده

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ص ١٨٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ .
(٢) ابن الكردبوس ، نصان جديدان ، ص ٨٣ .
(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٨٠ .

ولداه عمر ويحيى ، وفى سنة ٤٦١هـ عظم بينهما الخلاف (١) » وفى هذه العبارة ما يؤكد أن وفاة المظفر حدثت قبل عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) وواضح ان ابن الخطيب كان يقصد المتوكل عمر بن المظفر فى حديثه عن جنوح أهل طليطلة الى ابن الافطس وليس المظفر كما ورد خطئا فى النص .

وقد يتبادر الى الاذهان سؤال فى غاية الاهمية ، وهو لماذا فكر أهل طليطلة فى الاستعانة بالمتوكل ابن الافطس ليحكم بلادهم دون سائر ملوك الطوائف « رغم بعد داره وانتزاح اقطاره » (٢) ؟ لماذا وضعوا أملهم فى انقاذ بلدهم فى شخص المتوكل عمر بن الافطس صاحب بطليوس بالذات ؟

يرد مانويل البران Albarran على هذا التساؤل بأن دعوتهم للمتوكل لم تتم دون تدبير من احد الموالين له فى طليطلة ، واسمه ابو محمد يوسف بن القلاس (٣) وهو ماسبق ان ذكرناه ايضا نقلا عن ابن بسام (٤) . ويعتقد البران ايضا وهو فى ذلك يجارى الاستاذ منندث بيدال (٥) ان من بين الاسباب التى دعت المتوكل الى الاستجابة لدعوة أهل طليطلة ان الضربة التى وجهها اليه الفونسو ملك قشتالة باستيلائه على قورية (٦) دفعته الى التفكير فى التحصن فى طليطلة التى تشغل

---

(١) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠
(٣) Albarran, El solar, op. cit. p. 272
(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ٢ ، ص ١٥٩ ومابعدها .
(٥) R. Menendez - Pidal, La España del cid, Vol, I, P 264 ,265
(٦) قورية Coria من اهم مدن الثغر الادنى فى غرب الاندلس ، تقع على مقربة من قنطرة السيف ، ولها سور منيع (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٦٤) ومن المعروف ان الفونسو السادس كان قد كتب الى المتوكل يطالبه بتقديم الاتاوة التى كان يدفعها أبوه المظفر ثم اخوه المنصور يحيى ويتهدده بشر العواقب اذا امتنع عن دفعها ، فرد عليه المتوكل ردا شجاعا ينم عن ابائه
=

موقعا اكثر استراتيجية من بطليوس فى استطاعته التصدى لهجوم واسع النطاق يمكن ان يشنه الفونسو السادس ، كما ان اسوارها اكثر حصانة

=

ورباطة جاشه جاء فيه « وقد وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير واحكام العزيز القدير يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ثم يفرق ويهدد بجنوده الوافرة ، واحواله المتضافرة ، . ولو علم ان لله جنودا اعز بهم ملة الاسلام ، واظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام «اذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ، بالتقوى يعرفون وبالتوبة يتضرعون وينصرون ، .... واما تعبيرك للمسلمين فيما وهن من احوالهم ، وظهر من اختلالهم منا للذنوب المركوبة ، والفرقة المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الاملاك لعلمت أى صاب اذقناك ، كما كانت اباؤك مع ابائنا تتجرعه ، فلم تزل تذيقها من الحمام وضروب الآلام ماتراه وتسمعه ، واداء المال تتوزعه وبالامس كانت فطيعة المنصور على سلفك (يقصد برمودة الثانى ملك ليون) اهداء ابنته اليه مع الذخائر التى كانت تفد فى كل عام عليه .

اما نحن ، وان قلت اعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب فروضه ، الا سيوفا تشهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره فى ليلك ولديك ... » . (كتاب الحلل الموشية ، ص ٣٦ - ٣٧) كان ذلك الرد القوى دافعا للهجوم الذى شنه الفونسو على اراضى المتوكل وانتهى باستيلائه على قورية فى سبتمبر ١٠٧٩م (٤٧٢هـ) وكان ذلك اول فتح قام به المسيحيون لضفاف تاجه

Menendez - Pidal, la España del Cid, t. I,P. 264 - Luis Suarez historia de España, p. 188.

ويذكر الاستاذ عنان انها سقطت عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) وقد اشار المتوكل فى رسالته التى وجهها مع القاضى ابى الوليد الباجى الى يوسف بن تاشفين الى النازلة فى مدينة قورية « وانها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء » (راجع كتاب الحلل الموشية ، ص ٣٥) . كذلك عهد المتوكل الى ابى الوليد الباجى قاضى بطليوس بالتطوف على ملوك الطوائف يدعوهم الى التوحيد ، وفى ذلك يقول ابن الابار : « ولما عظم عيث الطاغية اذفونش بن فرذلند وتطاول الى الثغور ولم يقنع بضرائب المال ، انتدب للتطوف على اولئك الرؤساء القاضى ابو الوليد الباجى يندبهم الى لم الشعث ومدافعة العدو ، ويطوف عليهم واحدا واحدا ، وكلهم يصغى الى وعظه » (ابن الابار ، الحلة السيراء ، حـ٢ ، ص ٩٨) .

من أسوار بطليوس التى كانت تغمرها مياه وادى آنة . وأيا ما كان الامر فانه من المؤكد فيه كما يرى البران ان الامير الافطسى قد دخل طليطلة فى يونيو عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) ، وعلى هذا النحو اصبح المتوكل يحكم اكبر دويلتين من دويلات الطوائف من حيث عظم المساحة والاتساع وان كانتا مهددتين فى اكثر مناطقهما حيوية ..

ولعل هذا الرأى الذى ادلى به البران صحيح فيما يختص برغبة المتوكل فى الاستيلاء على طليطلة لاسباب استراتيجية لها علاقة بالدفاع عن مملكته ضد هجوم الفونسو السادس ، وربما لم يتبين البران ان هذه الرغبة كانت مستقرة فى نفوس بنى الافطس منذ زمن أسبق من زمن المتوكل ، فهذه الامنية ترجع الى ايام المظفر ابن الافطس الذى وافق على زواج ابنته من القادر بالله حفيد المامون يحيى بن ذى النون (١) ، رغم الخلافات السابقة القائمة بينهما ، ولعل هذه الزيجة كانت ترمى الى تحقيق ذلك الهدف السياسى الذى تحقق للمتوكل عمر فيما بعد .

ولكن تمسك البران بالرجوع الى المصادر القشتالية فيما يختص بتلك المرحلة الهامة من حكم عمر المتوكل دون الرجوع الى المصادر العربية أوقعه فى خطأ تاريخى ، فالبران يؤكد ان دخول عمر المتوكل الى طليطلة تم فى يونيو عام ١٠٨٠م (أواخر ٤٧٣هـ) اى بعد سقوط قورية الافطسية فى يد الفونسو السادس بعام ، بحيث استطاع خلال هذا العام التفكير فى الحل الذى يستطيع به أن يحمى بقية اجزاء مملكته الشاسعة التى اصبح يتهددها الفونسو السادس بعد استيلائه على قورية ، ولهذا السبب لم يجد امامه حلا سوى ان يدعى له فى طليطلة عن طريق

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٠ وفى ذلك يقول «... الى ان ثار بحفيد ابن دنون تلك الطائفة التى اخرجها من الإعتقال وصاحوا به ، وسعوا فى هلاكه ، فافلت من بعض الابواب المعدة للضرائر لايملك شيئا الا نفسه ، وزعموا أن زوجة بنت المظفر وابنته منها تبعتاه يومئذ راجلتين أزيد من فرسخين الى أن ركبتا ، ولحق ببعض حصونه ...».

ابن القلاس ، ونجح فى خطته على نحو تجاوز كل تقدير ، وارسل اليه اهل طليطلة يدعونه للامارة عليهم ، غير ان هذا التاريخ الذى اورده الاستاذ البران ليؤرخ به دخول المتوكل طليطلة غير صحيح ، ولايتفق مع ما اوردته المصادر العربية ، فابن بسام يذكر نقلا عن ابن حيان ان المتوكل دخلها عقب سنة ٤٧٢هـ ، ويتابعه فى ذلك ابن الخطيب ، وهذا التاريخ فى الواقع اكثر اتفاقا مع سياق الاحداث ، فقد اندلعت الثورة فى طليطلة فى عام ٤٧٢هـ، فبادر اهلها بالاستنجاد سريعا بصاحب بطليوس ليصل اليهم قبل ان يقدم اعداء الاسلام على الاستيلاء عليها . وبذلك يكون دخول المتوكل الى طليطلة قد حدث بعد سقوط قورية بفترة قصيرة لا تزيد على شهر ، وربما يفسر لنا ذلك تثاقل المتوكل بن الافطس فى الاستجابة لدعوة اهل طليطلة لتولى امارة بلدهم ، فقد كان كارها لهذا الامر « الى ان جنحوا الى المظفر بن الافطس من ملوك الطوائف على بعد داره ،وانتزاح أقطاره ، فجاءهم متثاقلا » (١) .

قبل المتوكل ان يتولى امر دولة بنى ذى النون بطليطلة مكرها ، ولكنه قبله على اى حال ، ومضى الى طليطلة متثاقلا ، فقد كانت النازلة بسقوط قورية فى يد الفونسو السادس من العنف بحيث دفعت به الى تبنى فكرة توحيد الاندلس ، ولم شعثها بالاضافة الى الاستنصار بيوسف ابن تاشفين امير المرابطين فى المغرب ، فانتقاله الى طليطلة ربما كان مناورة سياسية بارعة لتحويل نظر الفونسو السادس عن الغرب المهدد بالسقوط بعد انهيار قورية التى كانت تعد خط الدفاع الرئيسى عن مملكة بطليوس ، ومفتاح الغرب كله الى طليطلة التى كانت منتهى أمل الفونسو السادس ، وفى نفس الوقت لم يكن المتوكل يزهد فى ربط دولته بدولة بنى ذى النون فى وحدة سياسية امام خطر الاسترداد الجاثم ، وخلال ذلك يمكنه ان يخاطب ملوك الطوائف الآخرين عن طريق القاضى ابى الوليد الباجى .

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٠ .

ولم يكن المتوكل بن الافطس غافلا عن حقيقة أهــداف الفونسو السادس الذى كان يحلم بالسيطرة على طليطلة حاضرة دولة القوط ، والمدينة الملكية التى يمكن أن تنطلق منها فكرة التسلط الاستعمارى الذي ينبض بين يديه ، بالاضافة الى أمله الاعظم فى تحرير الاندلس من الحكم الاسلامى ، وقد اثار ذلك مخاوف المتوكل ، فلو أن الفونسو تمكن من السيطرة على طليطلة ، وهو أمر أصبح ميسورا بعد فرار القادر بالله ، وما سببه ذلك من شيوع الفوضى والاضطراب فى سائر انحائها ، لاستطاع بكل سهولة ان يسيطر على مملكته البطليوسية ، وهذا فيما ارى كان عاملا ثالثا دفعــه الى ركوب الصعاب وترك حاضرته بطليوس لحماية طليطلة ، ولو ظاهريا من خطر السيطرة القشتالية .

وفى تلك الاثناء كاتب القادر بن ذى النون الفونسو السادس ملك قشتالة من مدينة قونكة (١) التى كان قد انتقل اليها بعد رحيله مــن حصن وبذة ، وفى هذه المكاتبات اخذ القادر يذكر الفونسو بالود القديم الذى كان قائما بينه وبين جده المأمون ، واخذ يطالبه بحق هذا الود ان يمد يد المعونة له ، ولاقت هذه الاستغاثة قبولا حسنا من الفونســو السادس ، فلم يتردد فى مساندته لاسترجاع ملكه ، ويعبر ابن الخطيب عن ذلك بقوله : « ولما استقر حفيد ابن دنون بمامنه بعد الخروج مــن طليطلة راسل اذفونش ملك قشتالة ، يذكره سالف عهده ، اذ كــان قد اضطر الى اللحاق بابن دنون جده ولجأ اليه لما غلبه أخواه عــلى الملك ، فأجاره الى أن عاد اليه أمره ، فلبى دعواه ، وسمع شكواه ،واقبل معه الى طليطلة (٢) ... » .

ويذهب ابن بسام الى التقبيح من سلوك المتوكــل اثناء اقامتــه بطليطلة ، فيذكر انه عكف على حياة الحفلات والشعر فى قصر المأمون بن

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨١ .
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٨١

ذى النون (١) ، وانه كان بها « طليح جفان ، طريح أكواب ودنان ، مكبا على قمش ما نحته المحنة ، وتجافت عن انتهابه الفتنة ، من فرش فخم ، وسرادق ضخم ، وآنية وكتب ، وصعد من آلة الملك وصبب » (٢)

فلما بلغ المتوكل قرب وصول القادر بالله الى طليطلة ملأ يديه من كل ما استطاعت الوصول اليه من ذخائر واموال ارسلها تباعا الى بطليوس ، ثم فر من طليطلة مبادرا الى حاضرته ، ويقال أن الفونسو

---

(١) يصف ابن حيان مجلسه المكرم (نقلا عن ابن جابر) بقوله «وكنت ممن اذهلته فتنة ذلك المجلس ، واغرب ما قيد لحظى من بهى زخرفه الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه الى ما فوقه ، ازاره الرائع الدائر بأسه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الابيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ونصاعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم واطيار واشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من افنان اشجار واشكال الثمر ، ما بين جاد وعابث ، وتعلق بعضها بعضا بين ملاعب ومثاقف ، ترنو الى من تاملها بالحاظ عاطف ، كانها مقبلة عليه ، او مشيرة اليه ، وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلى الى ما فوقها ، قد فصل هذا الازار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، قد خطه المنقار ابين من خط التزوير ، قائم الحروف ، بديع الشكل ، مستبين على البعد ، مرقوم كله باشعار حسان قد تخيرت من اماديح مخترعه المأمون ، وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الابريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان واطيار ، وصور انعام واشجار ، تذهل الالباب ، وتقيد الابصار (ابن بسام ، الذخيرة المجلد الاول ، القسم الثانى ، ص ١٣٣ ، وما يليها) . وحكى ابن بدرون فى شرح العبدونية ان المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة بنى بها قصرا تانق فى بنائه وانفق فيه مالا كثيرا ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء الى راس القبة على تدبير احكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من اعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لايفتر ، والمأمون بن ذى النون قاعد فيها لايمسه من الماء شىء ، ولو شاء ان يوقد فيها الشمع لفعل » (المقرى ، نفح الطيب ، ج٦ ، ص ٨٥) .

(٢) ابن بسام الذخيرة قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٦٠ .

حاصر طليطلة والمتوكل مقيم بها بعد ، فلما ادرك عجزه عن مواجهة قوات الفونسو عمد الى الخروج منها فارا (١) ، وذلك فى نهاية عام ٤٧٣هـ (ابريل من عام ١٠٨٠م) بعد عشرة اشهر من وصوله اليها .

وهكذا عاد عمر المتوكل الى بطليوس تاركا طليطلة وراءه تحت رحمة الفونسو السادس وعسكره الذين نكلوا باهالى طليطلة اشد التنكيل فقد ظل يحاصر طليطلة الى ان كان يوم عيد الاضحى عام ٤٧٤ هـ (١٠٨١م) ، وفى هذا اليوم خرج اهل طليطلة لمقاتلة القادر بالله فى عددهم وعديدهم ، وزحفوا اليه بكل اسلحتهم ، ولكنهم لم يتوصلوا الى اى نتيجة ، فتراموا الى الفونسو يشكون اليه ابن ذى النون ويستصرخونه عليه ، فتصدى لهم واظهر انه يؤيده ويناصره ، فتفرقوا بكل سبيل . وتمكن الفونسو من اعادة القادر بالله الى ملكه . ثم انتهج الفونسو سياسة تهدف الى الاستيلاء على طليطلة وانتزاعها من ايدى اهلها ، فهاجم نواحيها ينتسف مرافقها ويحرق مزارعها (٢) ، ولما اشتد البلاء على اهل طليطلة ، وفدحت فيهم البأساء واتى على اكثرهم القتل والجلاء ، نزل الفونسو بالمنية التى كان يعتز بها ، فاتخذ عروشها مرابط لافراسه ، وايواناتها ملاعب لاراذله ، اما اهل طليطلة فقد اخذوا يستصرخون من حولهم وكأنهم يضربون فى حديد بارد ، فلما يئسوا مكنوا الفونسو من بلدهم .

ويذكر الاستاذ عنان ان القادر بن ذى النون استنجد بجيرانه من ملوك الطوائف المسلمين ، فلم يساعده منهم سوى المتوكل عمر بن الافطس (٣) الذى خرج بجموع عسكره لمدافعة جند قشتالة ، ولكن

---

(١) ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ١٨١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ص ١٠٩ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٦٠ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ ، يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ص ٥٧ ، وقد اورد اشباخ بخصوص هذا الخبر العبارة التالية « ومن ثم فانه لم يستطيع انجاد طليطلة من بين =

الفونسو السادس لم يشأ ان يقحم نفسه فى معارك خاسرة ، فآثر الانسحاب حتى يوفر جنده وطاقته للخطة الحاسمة . ولا ادرى من اين اتى الاستاذ عنان بهذا الخبر ، فالمصادر العربية لاتشير الى محاولة قام بها المتوكل للدفاع عن طليطلة ، ولهذا فالخبر الذى اورده الاستاذ عنان لا اساس له ، اذا اخذنا فى الاعتبار ان المتوكل فر من طليطلة عندما بلغه وصول القادر بالله فى حماية الفونسو السادس وقواته ، ولا يعقل ان يعود اليها من جديد لمواجهة الفونسو ثم يشتبك ويعود من حيث اتى .

= الامراء المسلمين سوى امير بطليوس يحيى بن الافطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار الى لقاء الفونسو ، وكان الفونسو قد اثخن عندئذ فى ولاية طليطلة حتى صيرها قفرا بلقعا ، ولم يكن يبغى بهذا العيث والتخريب سوى تجريد القلاع من كل وسيلة للحصول على القوت ، ومن ثم فانه لما شعر باقتراب المنصور ارتد أدراجه ، فعاد المنصور بجيشه من حيث اتى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى مبكيا عليه من شعبه (٤٧٤هـ / ١٠٨٢م) فخلفه أخوه ابو محمد عمر بن محمد المتوكل .. » وواضح من هذه العبارة أن اشباخ قد التبس عليه الامر فخلط بين المتوكل عمر بن الافطس وبين يحيى المنصور الذى كان قد توفي منذ عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) .

(٣)
المرحلة الثانية من عصر المتوكل

فى منتصف المحرم سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) دخل الفونسو السادس مدينة طليطلة (١) واستولى عليها ، وبذلك تحقق اول اهدافه فى ضم اراضيها الى مملكته ، وقد ترتب على سقوط طليطلة نتائج خطيرة للغاية ، فقد احدث سقوط طليطلة فى ايدى القشتاليين دويا هائلا فى الاندلس ، وقرعت نواقيس الخطر تنذر ملوك الطوائف بسوء المصير ، فأحسوا بضعفهم ، وايقنوا بنهايتهم الوشيكة ، والمحتومة ، وعبر شعراء الاندلس عن هذه الحقيقة المرة باشعارهم ، من ذلك قول الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن الغسال :

يا اهل اندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من اطرافه وارى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقال آخر :

يا اهل اندلس ردوا المعار فما ... فى العرف عارية الا مردات
الم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الابيات شهمات (٢)

---

(١) النويرى (شهاب الدين) نهاية الارب ، جـ٢٢ ، نسخة خطية مصورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، لوحة ٤٧ . وذكر النويرى أنه استولى عليها بعد ان حاصرها سبع سنين (انظر المقرى ، نفح الطيب ، جـ٦ ، ص٨٤ ، وراجع ايضا الحميرى ص ١٣٥ — ابن خلدون ، جـ٤ ، ص ٣٤٨) ، ويحدد ابن علقمة تاريخ استيلاء الفونسو على طليطلة فى يوم الاربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ (١٠٨٥م) بينما يحدده ابن خلكان بيوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٦ ، ص ٨٥ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٦ ، ص ٨٤ ، وراجع ايضا ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٤ ، ص ١١٨ .

كانت طليطلة تعنى الكثير بالنسبة لالفونسو ، فقد اعتبرها قرارة الملك وسويداء الاندلس ونقطة الانطلاق نحو استرداد كل اراضى شبه جزيرة ايبريا ، كذلك كانت تعنى الكثير بالنسبة للمسلمين ، فقد كانت رمز بقائهم فى تراب الاندلس ، وسقوطها غير المتوقع اثار هلعهم (١) ، وادركوا انها البداية للنهاية ، وقد تحققت بالفعل مخاوفهم ، فاستفحل خطر الفونسو السادس بعد ان ذاق حلاوة الانتصار على المسلمين ، وعزم على فتح الاندلس كلها ، وعرض عليه رعيته ان يلبس التاج ، ويحيى عادة اسلافه القوط ، فارجأ ذلك حتى يستولى على دار المسلمين بقرطبة (٢) . ولم يلبث ان شمخ بانفه ، « ورأى ان زمام الاندلس قد حصل فى كفه ، فشن غاراته على جميع اعمالها حتى فاز باستخلاص جميع اقطار ابن ذى النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا سوى البنيات (اى المدن الصغرى) والقرى المعمورات ، وجاز من وادى الحجارة الى طلبيرة Talavera La Reina وفحص اللج واعمال شنتمرية كلها Albarracin. فلم يكن بالجزيرة من يلقى اقل كلب من كلابه ... وانتحى الفنش انتحاء الجبابرة ، وانزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما احتقر به كل ما شيء على التراب ، وتسمى بالانبراطور وهو بلغتهم امير المؤمنين وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه : من الانبراطور ذى الملتين ، واقسم لارسال (اى لوفود) الرؤساء « انه لايترك فى الجزيرة من الثوار احدا ، ولا يبقى لهم متحدا سوى من اكتنفته رعايتى وشملت عنايتى » (٣) .

---

(١) يقول صاحب الحلل الموشية «كان الطاغية اذفنش فى سنة ثمان وسبعين واربعمائة قد غلب على طليطلة واستولى على اعمالها ، وحازها لنفسه ، وكثر الروع على الاندلس واشتد الخوف ، وتطرق لبلاد المعتمد على الله بن عباد ، ولما ملك اذفنش اعمال طليطلة طمع فى الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وهابت الملوك امره لكون طليطلة نقطة دائرتها (الحلل الموشية ، ص ٣٨) .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٤ .

(٣) تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ، تحقيق د . احمد مختار العبادى ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص ٨٧ — ٨٩ .

كان لتلك الاحداث المفجعة اثرها العميق على المتوكل عمر بن الأفطس فقد ادرك هول الكارثة التى حلت بالاسلام فى الاندلس ، وعز عليه أن يقف مكتوف اليدين الى ان يحل دوره ، ورأى ضرورة التحرك السريع لانقاذ الموقف الاسلامى المتدهور .

وقد اثار الدكتور عبد الرحمن الحجى قضية للمناقشة حول دعوة القاضى العلامة الفقيه ابى الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن ايوب المعروف بالباجي [1] بلاد الاندلس الى توحيد الصف وجمع الكلمة ، فقد تساءل الدكتور الحجى هل قام الباجى بدعوته هذه لوحدة الاندلس من تلقاء نفسه ام بتكليف رسمي من المتوكل ابن الافطس ؟ ومتى بدات هذه الدعوة ، وكم من الزمن استغرقت ؟

ويذهب الدكتور الحجى بعد قراءته لعدد من النصوص الى ان الباجى قد قام بهذه الدعوة فى بادىء الامر من تلقاء نفسه ، وكان ذلك عقب عودته من رحلته الى المشرق الاسلامى التى استغرقت ثلاثة عشر عاما (٤٢٦ - ٤٤٠هـ) [2] (١٠٣٤ - ١٠٤٨م) ، واعتمد فى ذلك الرأى على نصوص استمدها من المقرى (نفح الطيب ، جـ٢ ، ص

---

(١) ابو الوليد الباجى (ت ٤٧٤هـ) (١٠٨١م) فقيه كبير ، شهير ولد ببطليوس فى النصف من ذى القعدة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) ونشأ بها وتولى التدريس والقضاء فى كثير من بلاد المشرق الاسلامى ، وله العديد من المصنفات والاشعار التى جمعها ابنه ابو القاسم . وقد قام ابو الوليد الباجى بمناقشة ابن حزم فى جزيرة ميورقة ، واقام فى سرقسطة عدة سنوات اثناء حكم المقتدر احمد بن هود ، هذا الى جانب توليه الرد على رسالة راهب فرنسى ، فند فيها مزاعم هذا الراهب ودعاه الى اعتناق الاسلام (انظر ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ ، جـ١ ، ص ٩٤ ، وابن خاقان الفتح ص ١٩٦ ، ابن الابار التكملة جـ١ ص ٣٩١ ، جـ١ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٧٢) .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٢ ، طبعة احسان عباس ، ترجمة ٢٧٥ ، ص ٤٠٨ - النباهى المالقى ، تاريخ قضاة الاندلس ص ٩٥ ، المقرى نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٢٧٢ .

٢٧٣) وعلى نصوص لابن بسام ، (الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ١) تشير الى ان الباجى كان كثير التنقل والطواف بين ملـوك الطوائف يصحبهم ويرسل بينهم [1] وكان ذلك من الاسباب التى دعت المتوكـل ابن الافطس الى ان يعهد اليه رسميا بالقيام بهذه الدعـوة ، وانتهى الدكتور الحجى الى ان الباجى كان قد بدأ دعوته هذه من تلقاء نفسـه عقب رجوعه من المشرق بعد احداث سرقسطة ، وعلى الاخص بعـد حادثة بربشتر عام ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) . وعندما ادرك ابـن الافطس الجهود الموفقة التى بذلها الباجى لتوحيد الصف الاسلامى فى الاندلس وتصديه لجمع شمل المسلمين امام الموجة الاسبانية الشرسة التى كانـت تهدد وجود المسلمين فى الاندلس ، لم يتردد فى الافادة من تلك الجهود ، وعزم على دعمه وتاييده ، ولم يكن ابو الوليد الباجى وحده الذى تطوع من بين علماء الاندلس لهذا الهدف ، فقد شاركه فى الدعوة الى جمع كلمة المسلمين عدد من العلماء منهم ابو عمر بن عبد البر الذى كـان يتولى قضاء الاشبونة وشنترين فى عهد المظفر ابن الافطس ، فقـد انتقل من قرطبة متجولا فى بلاد غرب الاندلس ، ثم انتقل الى شرق الاندلس ، وتردد ما بين بلنسية ودانية وشاطبـة ، يدعـو الى التوحيـد ونبـذ

---

(١) يقـول ابن بسـام فى ذلك انـه نازعـه وهـو بالشرق الـى مسقط راسه ومنبت غرسه من ارض الاندلس ، فورد وعشب بلادها ناب وظفر ، وصوب عهادها دم هدر ، ومالها لا عين ولا اثـر ، وملوكها اضداد ، واهواء اهلها ضغائن واحقاد ، وعزائمهـم فى الارض فساد وافساد ، فاسف على ما ضيعه ، وندم لو اجدى عليه ذلك او نفعه ، على انه لاول قدومه رفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك اهل الجزيرة بصلة ما انبت من تلك الاسباب ، فقـام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف اسماعا واعية ، بل نفخ فى عظام ناخرة ، وعكف على اطلال داثرة ، بيد انه كلما وفد على ملك منهم فى ظاهر امره لقيه بالترحيب واجزل حظه بالتأنس والتقريب ، وهو فى الباطن يستجهل نزعته ، ويستقل طلعته ، وما كان افطس الفقيه رحمه الله بامورهم ، واعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجـو حالا تثوب ، ومذنبا يتوب ... » (ابن بسام ، قسم ٢ ، مجلد ١ ، ص ٩٥ – ٩٦) .

٤٥٠هـ) (١٠٥٨م) الذى قام بمحاولة لازالة الخلافات بين ملوك الخلاف (١) .

ومنهم ابو حفص عمر بن حسن الهوزنى (٣٩٢هـ – ٤٦٠هـ) (١٠٠١ – ١٠٦٧م) ، وهو من اهل اشبيلية ،كتب الى المعتضد بن عباد عقب نكبة بريشتر ٤٥٦هـ (٢) (١٠٦٣م) رسالة يحثه فيها على الجهاد (٣) .

ومنهم ابو المعالى ادريس بن يحيى بن يوسف الواعظ الاشبيلى ، وكان يجول هو الآخر فى البلاد يعظ الناس ويذكرهم (٤) ، وابو بكر محمد بن احمد بن محمد بن حسن بن اسحاق القرطبى (ت. نحو عام

---

(١) الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٣٤٧ . وله رسالة فى ذكر الجهاد واستنفار كواف البلاد بعد سقوط بربشتر فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) اوردها ابن بسام (الذخيرة ، قسم ٣ ، مجلد ١ ، ص ١٧٣) .

(٢) لمزيد من المعلومات عن سقوط بريشتر ، ارجع الى ابن بسام ، الذخيرة ، قسم٣ ، جـ١ ص ١٧٩ – ١٨٩ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ط . ليفى بروفنسال ، ص ٢٢٥ – ٢٢٨ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار ، ص ٤٠ ، المقرى نفح الطيب ، جـ٦ ، ص ١٩١ – ١٩٨ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ص ٢٦٤ ، وما يليها – عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٣٥٩ – ٣٦١ .

(٣) استفتح رسالته الى المعتضد يستحثه على التصدى للعدو فيقول :

عباد جل الرزء والقوم هجع . . على حالة من مثلها يتوقع

فلق كتابى من فراغك ساعة . . وان طال فالموصوف للطول موضع

اذا لم ابث الداء رب دوائه . . اضعت واهل للملام المضيع

وفى فصل منها « وكتابى على حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد ، كما تغير لورود وجه الصعيد ، بدؤها ينسف الطريف والتالد ، ويستاصل الوليد والوالد ، تذر النساء ايامى ، والاطفال يتامى ، فلا ايمة اذا لم تبق انثى ولا يتيم ، والاطفال فى قيد الاسرى ... كان الجميع (يقصد جميع المسلمين فى الاندلس) فى رقدة اهل الكهف ، او على وهدها دق من الصرف والكشف ، من اين لنا دفعهم بالكفاية وكيف ، ولم يختلط اليهم الخوف ونساجلهم السيف» (ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٢ مجلد ١ ، ص ٨٤) .

(٤) ابن الابار ، التكملة لكتاب الصلة ، جـ١ ، ترجمة رقم ٥١٩ ، وراجع الحجى ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

الطوائف (١) .

وفى نفس الوقت الذى كان المتوكل عمر بن الافطس يعانى فيه من تقدم حركة الاسترداد داخل مملكته كان المعتمد على الله بن عباد يتعرض لنفس الموقف ، الا ان وضعه كان اقل خطورة بكثير من وضع ابن الافطس الذى كان الضحية التالية لالفونسو السادس منذ ان استولى على مملكة بنى ذى النون بطليطلة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) .

ومن المعروف ان الفونسو السادس كتب الى المعتمد بن عباد على نحو ماكتب لابن الافطس «يطلب منه تسليم اعماله الى رسله وعماله ، واشتط عليه فى الطلب ، واظهر له السرور بالغلب ، فمما خاطبه به :

« من الكنبيطور ذى الملتين ، الملك المفضل ، الاذفنش بن شانجة الى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد ، سلام عليك ، من مشيد ملك شرفته القنا ، ونبتت فى ربعه المنى ، فاعتز إعتزاز الرمح بحامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد ابصرتم ما نزل بطليطلة واقطارها ، وما صار باهلها حين حصارها ، فاسلمتم اخوانكم ، وعطلتم بالدعة زمانكم ، والحذر من ايقظ باله ، قبل الوقوع فى الحبالة ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء امامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الغزو ووارده ، لكن الانذار ، يقطع الاعذار ، ولايعجل الا من يخاف الفوات فيما يرومه ، او يخشى الغلبة على مايسومه ، وقد حملنا الرسالة اليكم القومط البرهانس وعنده من التسديد الذى يلقى به امثالك ، والعقل الذى يدبر به بلادك ورجالك (٢) ... » .

وقد رد عليه المعتمد بن عباد ردا يماثل رد المتوكل بن الافطس على الفونسو ان لم يكن انكى واشد (٣) .

---

(١) راجع التفاصيل فى عبد الرحمن الحجى ، المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .
(٢) الحلل الموشية ، ص ٣٨ - ٣٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(٤)

اطمياع الفونسو السادس في مملكتي بطليوس واشبيليـــة

كان الفونسو السادس قد استولى على قورية من الاطراف الشمالية لمملكة بطليوس كما سبق ان ذكرنا في عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) ، وانفتح الطريق امامه ممهدا للسيطرة على اهم قواعدها ، وتبين للمتوكل بن الافطس خطورة الوضع ، وكان عليه ان يبادر بالتحرك ، فدعوة ابي الوليد الباجي لرأب الصدع ولم شعث ملوك الطوائف لم تثمر ، بل ساءت الاوضاع عندما تفككت عرى الروابط بين هؤلاء الملوك إمام الخطر المسيحي الجاثم ، وساد الصلات بينهم جو من التحاسد والتغاير ، وادرك المتوكل ان الركون الى امل المصالحة لن يجدم شيئا ، وآثر ان يخاطب امير دولة المرابطين الفتية في المغرب .

ويؤكد صاحب الحلل الموشية ان عمر المتوكل كان اول ملوك الطوائف ، في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، فقد كتب اليه حين كلب العدو على بلاده يستصرخه ، ويوضح له سوء المصير الذي ينتظر ملوك الطوائف بالاندلس ، ويوضح لنا صاحب الحلل ان هذه الرسالة الاولى التى ارسلها ابن الافطس وجهت في ٤٧٤هـ (١٠٨١م) اى قبل سقوط طليطلة بأربع سنوات (١) ، اثر رجوع وفد اندلسي من عند أمير المرابطين بالمغرب كانوا قد وفدوا اليه يشكون اليه حالهم ، وما حل بهم من اعدائهم ، فوعدهم بامدادهم واعانتهم ، ثم صرفهم .

وكانت هذه الرسالة وهى من انشاء الوزير الكاتب ابو عبد اللــه محمد بن أيمن (٢) ، تحمل معاني الالم والحسرة على اثر سقوط

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٦٥٣ ، وفي ذلك يقـول ابن بسـام : « ولما اشتد يومئذ كلب الروم بهذا الاقليم على ما تقضيه شهادة المنثور والمنظوم بلسان =

قورية ٤٧٢هـ فى يد الاعداء ، وجاء من فقراتها ما يلى : « لما كان نور الهدى ايدك الله دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت فى الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بانك لدولة الاسلام اعز ناصر ، وعلى غزو الشرك اقدر قادر ، وجب ان تستدعى ، لما اعضل الداء ،وتستغاث فيما احاط بالجزيرة من البلاء ٠

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها، وشدة ظلمها واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال ، وتستنزل بالاموال ، ويخرج لها من كل ذخيرة ، وتسترضى بكل خطيرة ، ولم يزل دابها التشطط والعناد ، ودابنا الاذعان والانقياد ، حتى نفذ الطارف والتلاد ، واتى على الظاهر والباطن النفاذ ، وايقنوا الآن بضعف المدن ، وقويت اطماعهم فى افتتاح المدن ، واضرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين اسنتهم وشغارهم ، ومن اخطاه القتل منهم ، فانما هم أيديهم أسارى وسبايا ، يمتحنونهم بانواع المحن والبلايا ٠٠٠٠

الا ناصر لهذا الدين المهتضم ، الا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ؟ وأنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزة من ذل ، فانها الرزية التى ليس فيها عزاء ، والبلية التى ليس مثلها بلاء٠

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ، اعزك الله بالنازلة فى مدينة قورية أعادها الله للاسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم مازال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد حتى تخلطت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو مدينة سرية (١)

= من اندرج ذكره فى هذا الديوان من كل زعيم استصرخ ملوك الطوائف بافقنا امير المسلمين وناصر الدين ابا يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، وقد القوا بايديهم ، فكتب ابو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه واراها كانت ثالثة المفاتحة أو ثانية المداخلة ٠٠٠ » ٠

(١) سريه ، من مدن قشتالة القديمة وكانت من بين مدائن الثغر الاعلى ولهذا فقد مثل سقوطها ضربة خطيرة فى قلب الاندلس ٠

وعليها قلاع ، تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع ، وهى من المدينة كنقطة الدائرة ، تدركها من جميع الجهات دائرة بنواحيها ، ويستوى فى فىء الارض بها قاصيها ودانيها ، وما هو الا نفس خافق ، ورمق زاهق ، استولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، ان لم تدركوها بجماعتكم عجالا ، وتبادروا ركبانا ورجالا (١) ... » .

ولما بلغ هذا الكتاب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين كتب اليه يعده بالجواز والانجاد ، وارسال المدد والعتاد .

كذلك يؤكد صاحب الحلل الموشية أن المتوكل عمر بن الافطس كان قد وصلته قبل ذلك رسالة من الفونسو السادس يهدده فيها ويطالبه تسليم بلاده قبل سقوط طليطلة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) ، وقد رد عليه المتوكل ردا عنيفا ، وفند كل ما اثبته الفونسو فى رسالته من طعن للمسلمين ،وعلى اثر ذلك بادر المتوكل بمكاتبة أمير المرابطين ، يوسف بن تاشفين (٢) ، بعكس ما يراه الاستاذ محمد عبد الله عنان الذى يذكر أن « الفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة فى صفر ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) تصور أنه صار قادرا على تحدى دول الطوائف جميعا والقضاء عليها واحدة بعد الاخرى ، وكان من اثر ذلك ان أرسل الى المتوكل يطلب اليه تسليم بعض قلاعه وحصونه، وأن يؤدى له الجزية ويتوعده بشر العواقب اذا رفض ، ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا الوعيد بعد ان سقطت طليطلة حصن الاندلس على نهر التاجة ، وعبر النصارى على هذا النهر لاول مرة ، ومع ذلك ابى المتوكل أن يستجيب الى الوعيد ، ورد على ملك

---

(١) ابن بسام الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الثانى ، ص ٦٥٣ - ٦٥٥ ، الحلل الموشية لمؤلف مجهول ، ص ٣٥ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٣٦ . ويقول صاحب الحلل الموشية « وانه لما بلغ هذا الخطاب لامير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، كتب اليه يعده بالجواز والامداد على العدو . وقد كان المتوكل على الله بن الافطس وصله كتاب من عند عدو الاسلام المواجه الى بلاده ومن الجواب يفهم مقصده والجواب عليه » .

قشتالة برسالة قوية حازمة تفيض شجاعة واباء ونبلاء [١] ... » .

ثم اورد الاستاذ عنان نص رسالة المتوكل كما اوردها صاحب الحلل ، ومما يسترعي الانتباه أن المصدر الرئيسى الذى اعتمد عليه الاستاذ عنان هو نفسه المصدر الذى اعتمدنا عليه فى اثبات ان رسالة الفونسو السادس الى عمر المتوكل ارسلت اليه قبل سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وهو كتاب الحلل الموشية ، فقد اكد صاحبه بوضوح تام وصول الوفد الاندلسى الى يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١م) يدعوه الى مساعدة المسلمين فى الاندلس ، ويحثه على انقاذ الاسلام فى هذا البلد ، ثم ذكر المصدر فى نهاية هذا الخبر « وكان ممن كتب اليه بذلك المتوكل على الله بن الافطس » بمعنى ان رسالة المتوكل بن الافطس وصلت الى يوسف بن تاشفين قبل مجىء هذا الوفد الاندلسى عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) وبالتالى قبل سقوط طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ ، ويضيف صاحب الحلل الموشية فى نهاية حديثه عن خطاب المتوكل هذا « وقد كان المتوكل على الله ابن الافطس وصله كتاب من عند عدو الاسلام المواجه الى بلاده » أى ان المتوكل كتب الى امير المرابطين اثر وصول رسالة الفونسو اليه ، وواضح ان كل هذه الحوادث وقعت قبل سقوط مدينة طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بدليل أن سطور الرسالة التى رد فيها ابن الافطس على الفونسو السادس لاتتضمن اية اشارة عن سقوط طليطلة ، وعلى هذا الاساس يتضح لنا ان الفونسو السادس كان يطمع فى مملكة بطليوس فى نفس الوقت الذى كان يفكر فيه فى الاستيلاء على طليطلة ، ولعله بادر بالاستيلاء على طليطلة بسبب الظروف السيئة والاحوال المضطربة التى كانت تعانيها مملكة بنى ذى النون فى تلك الآونة ، فقد كان القادر بالله قد فر الى وبذة ، ومنها الى قونكة اثر ثورة اهل طليطلة عليه فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) مما أتاح الفرصة لالفونسو السادس للوثوب عليها ، ثم جاءت استعانة القادر

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٩٠ .

بالله بن ذى النون به مبررا وذريعة لتحقيق أطماعه فى استعادة عاصمة عرش أجداده القدامى ، وكان القادر بالله قد كتب اليه من وبذة «يذكره سالف عهده اذ كان قد اضطر الى اللحاق بابن ذنون جده ولجأ إليه لما غلبه أخواه على الملك ، فأجاره الى أن عاد اليه أمره ، فلبى دعواه ، وسمع شكواه ، واقبل معه الى طليطلة ، وقد عاقده على أن يخلى بينه وبين المدينة اذا أبلغه أمله من دخولها ، فنازلها وشد حصارها الى أن بلغ الجهد من اهلها مبلغه ، وعجزوا عن الصبر ، وتبرأوا من المسكة ، وأعذروا فى الدفاع ، الى أن أعيد حفيد ابن ذنون الى طليطلة على شروط للنصارى لايطاق حملها ، فدخلها والطاغية بين يديه يتبجح بيده عنده ، واستقر بها شر استقرار ، واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد ، وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرحم ، ونفذ عقاب الله فى أهلها جاحدى الحقوق ، ومتعودى العقوق ، ومقيمى أسواق الشقاق والنفاق ، والمثل السائر فى الآفاق ، ولم تطل مدته شطر السنة حتى ملك الطاغية طليطلة » (١) .

ونستنتج من هذا النص التاريخى أن الفونسو السادس عندما شرع فى مساعدة القادر بالله صاحب طليطلة كانت قد اختمرت فى ذهنه فكرة استيلائه عليها قبل بطليوس ، اذ كانت مملكة طليطلة اكبر دويلات الطوائف مساحة ، واكثرها ثراء ، فكأنما أراد بمساعدته للقادر أن يتحكم فيه بعد ذلك ، ليتمكن عن طريقه من احتلال المملكة ، ويورد لنا الاستاذ عنان بعض الروايات القشتالية التى تشير صراحة الى أن القادر حينما استعان بالفونسو لاسترجاع طليطلة كان قد تعهد له بأن يحكمها باسمه ، وإن يسلمها له متى شاء ، فى مقابل أن يعاونه الفونسو فى الاستيلاء على بلنسية ليستقر بها (٢) .

وقد اغفل الاستاذ عنان نص ابن بسام الذى وضح فيه كل الوضوح

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨١ .
(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ١٠٩ .

الاتفاق الذى تم بين القادر بالله وبين اذفونش بن فرذلند الذى «فغر فمه على ثغوره، فجعل لوقته يطويها طى السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب ، وابن ذى النون يلقمه افلاذ كبده ويرجمه بسبده ولبده ، واذفونش لعنه الله لايقنع منه بصيد العنقاء ولا بيض الانوق ، بل يكلفه بأحضار الابلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ويطلبه برد امس . فلما اكل الانفاق شبح ماله ، واخذ الخناق بكظم احتياله، واحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما الى معاقله المنيعة ، وذرى املاكه الرفيعة ، عدد الانام ، ودروب الاسلام ، فما راهنه عنها عليه غلق ، وما رام اخذه من يديه لم يدركه حتى فرق» . ويضيف ابن بسام « واخذ ابن ذى النون اهل طليطلة لحين استقراره فيها بفك تلك المعاقل، واداء ما كان ضمن لاذفونش من الاموال الجلائل ، فضرب مدبرهم بمقبلهم ، وولى آخرهم كبر اولهم ، حتى طمع فقيرهم فى غنيهم ، واجترا ضعيفهم على قويهم .... ، وانكدر اذفونش على طليطلة ينتسف مرافقها ، ويقعد لجالية اهلها ثناياها ومصايقها ، يأسر ويقتل ، ويحرق ويمثل ، وسما السعر ، وتفاقم الامر ، وانكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر » .

كانت خطة الفونسو مضايقة اهل طليطلة وارهابهم ، بهدف ارغامهم على تسليم بلدهم ، وكان قد اتفق مع القادر بالله ان يتخلى له القادر عنها فى الباطن بينما يوهم الناس فى الظاهر انه يؤدى له من الاموال ما يفى بما قدمه له من عون ليرغمهم فى النهاية على الاستسلام له . يقول ابن بسام « وكان عاقده ابن ذى النون انه اذا ضرح قذاها ، واماط اذاها ، واقتضى دينها ، خلى بينه وبينها ، هذا ما اضمر ، فأما الذى اظهر فانه وعده اداء جملة من المال لاتفى به مدة الاقبال ولا ارخاء الحال (١) ... » .

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ١٦٢ ، ومايليها .

وهكذا وطن الفونسو العزم على البدء بطليطلة اذ لم يكن يهدف من وراء مساعدته لابن ذى النون سوى « عرصة الدار وام الاوطار » . وعلى هذا النحو اضطر اهل طليطلة الى ان يخلو بينه وبين بلدهم ، كل هذا يؤكد ان الفونسو كان يفكر طوال سنوات لاتقل عن اربع فى الاستيلاء على مملكة بنى ذى النون ، ومع ذلك فان هذا لاينفى وجود رغبة عارمة لديه للاستيلاء على مملكة بطليوس فى بداية امره بدليل اغاراته المتواصلة على بعض ثغورها ([1]) ، واستيلائه على قورية فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) وعلى بعض المدن الهامة الاخرى فى مملكة بنى الافطس مثل شنترة ([2]) .

ونستدل على رأينا بدليل آخر ، هو احساس المتوكل عمر بن الافطس بالخطر المحدق به وبمملكته ، وعجزه عن رد هذا الخطر ، واستنجاده بامير المرابطين ، وذلك كله قبل سقوط مملكة طليطلة فى يد الفونسو السادس ([3]) بنحو خمس سنوات ، ولذلك فقد كان المتوكل كما تؤكد الكثير من المصادر اول من استغاث بامير المرابطين ([4]) ، ورسالته هذه التى اوردناها فى الصفحات السابقة ، كانت اول رسالة كتبها واحد من ملوك الطوائف فى الاندلس الى ابن تاشفين يستنجد به ، ويدعوه

---

(١) Albarran, El solar de los Aftasiés p. 272.

(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، حاشية رقم ١ ، ص ٩٩ . وقد علق د. حسين مؤنس بهذه المناسبة بقوله أن الفونسو السادس قد استولى على قلمرية وشنتره وغيرها من البلاد حتى اصبح هدفه بطليوس نفسها ، والحقيقة أن الفونسو السادس لم يكن هو الذى استولى على قلمرية وانما استولى عليها فرناندو الاول فى عام ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) كما سبق أن أوضحنا ، وكان ذلك فى عهد المظفر ابن الافطس وليس فى عهد ولده المتوكل عمر بن الافطس (فى سقوط قلمرية انظر ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٤ ، ابن عذارى ، البيان ، جـ١ ، ص ٢٥٣ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٨٦) . «Abbarran, Op. Cit., P. 201.

(٣) الحلل الموشية ، ص ٣٣ .

(٤) ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٩٩ — الحلل الموشية ، ص ٣٣ .

الى الجواز الى الاندلس. ولو ان الفونسو كان يركز اطماعه فى تلك الآونة تجاه طليطلة وحدها لكان أولى بأميرها القادر ان يبادر بالاستصراخ بابن تاشفين ، وان كان من الصعب عليه ان يفعل لانه كان متواطئا مع الفونسو السادس طمعا فى الاستقرار ببلنسيه ، ولو ان الفونسو كان يركز انظاره على طليطلة وحدها ، لكان اهل طليطلة قد بعثوا وفدا منهم الى امير المرابطين يستنجدون به (١) ، ولكن حتى لحظة رجوع القادر بالله الى مملكته طليطلة (٤٧٣هـ) (١٠٨٠م) كان الفونسو لايزال يضرب ذات اليمين وذات اليسار فى مملكة بنى الافطس ، وقد نجح فى انتزاع قورية فى سنة ٤٧٢هـ واستمر يهاجم اراضيها طوال ذلك العام وما يليه ، وارسل الى اميرها يهدده عسى ان يضعفه نفسيا ويرهبه ، ولكنه لم يجد من المتوكل الا كل اعتداد بنفسه ، وثقة فى دينه ، واستهانة بتهديده له ، فلما يئس من محاولته معه لم يشأ ان يضيع فرصة الاستيلاء على مملكة طليطلة التى اصبح اميرها

---

(١) اكتفى اهل طليطلة باستصراخ ملوك الطوائف ، ولكن هؤلاء تقاعدوا عن انجادهم ، بل ترامو الى الفونسو ، ولاذوا له بالجزيات والهدايا والمال ، وتجرعوا من اهانات الفونسو لرسلهم الملح الاجاج ، ويعبر ابن بسام عن ذلك بقوله « وطفق اهل طليطلة يستصرخون من حولهم ، ويعملون فى ذلك فعلهم وقولهم ، فيعكفون على طلل بائد ، ويضربون فى حديد بارد ... » . ولما مثل وفد اهل طليطلة امام الفونسو يطلبون منه ان يرحل عن بلدهم ، قال لهم : « الى متى تتخادعون ، وبأى شئ تطمعون ؟ قالوا : بنا بغية ولنا فى فلان وفلان امنية ، وسموا له بعض ملوك الطوائف ، فصفق بيديه وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : اين رسل ابن عباد ؟ فجئ بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بالسنة السمع والطاعة ، فقال لهم : منذ كم تحومون على » ؟ وترومون الوصول الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وابن ما جئتم به لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة ميرة ، واحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . ثم مازاد على ان ركل ذلك برجله ، وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا احضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله ، وجعل اعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، واهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم » ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ١٦٦ .

مطية له ، ودمية يحركها بين يديه ، لذلك حول أنظاره شطر المملكة الطليطلية . واذا طالعنا تفاصيل سقوط مملكة طليطلة فى ايدى القشتاليين نحس لاول وهلة بتخاذل سائر ملوك الطوائف عن نجدة اهلها باستثناء المتوكل على الله بن الافطس ملك بطليوس فهو الملك الوحيد الذى حاول مساندة طليطلة فى محنتها . فالى جانب تشجيعه لقاضيه الجليل ابى الوليد الباجى قبيل سقوط طليطلة مباشرة ليطوف بمختلف دويلات الطوائف مستهدفا استنهاض الهمم ، واثارة حماس هؤلاء الملوك الضعاف للجهاد ، والوقوف صفا واحدا امام هذا الملك الطاغية العاتى [1] ، فانه تقدم بكل شجاعة اثناء حصار الفونسو السادس لطليطلة لانجاد هذه المملكة المتهالكة ، وسير ابنه الفضل بن الافطس والى ماردة فى قوة كبيرة من حيرة قواته فى محاولة مستميتة لرد هذا العدو الغاشم عن طليطلة ، ورغم فشله فى ردهم لكثرتهم وتفوقهم عددا وعدة ، ورغم الخسائر الجسيمة التى لحقت به ، ورغم الاعداد الهائلة من جنده الذين استشهدوا فى ميدان القتال اثناء التحامهم بالعدو القشتالى فى معارك دامية ، رغم كل ذلك سجل التاريخ هذا الموقف البطولى لذلك الملك الافطسى الشجاع خاصة وان هذه المعونة العسكرية بطليطلة لم تكن المعونة الاولى ، وانما سبقتها مثلها عام ٤٧٠هـ [٢] (١٠٧٨م) .

واذا قارنا هذا الموقف البطولى لعمر المتوكل ملك بطليوس بالموقف المخزى الذى وقفه غيره من ملوك الطوائف فسنجد ان معظم ملوك الطوائف كانوا قد فقدوا الحمية والغيرة والحماس ، واصيبوا بحالة من الذعر واليأس ، الامر الذى جعلهم يبادرون بالخضوع لتهديدات الفونسو السادس ، ويوادعونه بالجزيات درءا لشره وحماية لعروشهم ، فالمعتمد

---

(١) ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٩٨ .
(٢) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٤٤ ، محمد عبد الله عنان دول الطوائف ، ص ١١٠ (ولا ادرى على اى مصدر اعتمد كل من ليفى والاستاذ عنان فى سوق هذا الخبر .

بن عباد ملك اشبيليه اهم واقوى دويلات الطوائف ، هذا الملك الشهير، تقاعس عن نجدة اهل طليطلة بل انه لم يتورع عن محالفة الفونسو السادس ضد طليطلة ، وهذا التحالف له جذور عميقة ترجع الى ايام والده المعتضد بالله بن عباد الذى لم يكن يتردد فى تقديم الجزية لفرناندو ملك قشتالة منذسنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) (١) ٠ وبعد وفاته قام ابنه المعتمد بتأدية نفس الجزية ، وكان يمثل الفونسو السادس الى المعتمد بن عباد لتسلم هذه الجزية الفارس الشهير رودريجو دياث دى بيفار الملقب بالسيد الكمبيادور او الكنبيطور كما تسميه المصادر العربية (٢) ، هذا

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٧٢ ، وراجع الملحق الاول ٠

(٢) السيد كنبيطور : اقترن اسم السيد الكنبيطور بمغامراته فى بلنسية وفتحه لها ، وحكمه لها اعواما قبل وفاته وهو يدافع عنها ضد المرابطين ويرجع السيد الى اصل قشتالى ، واسمه الحقيقى رودريجو دياث دى بيفار ولقبه El Cid ، وشهرته الكنبيطور أى المحارب ٠ وقد ولد السيد فى برغش Burgos فيما يقرب من عام ٤٣٦هـ (١٠٤٣م) ، وما نعرفه عن حياته يختلط بين الحقيقة والروايات الاسطورية ، ويرتبط بدء ظهوره بالخلافات التى نشبت عقب وفاه فرناندو الاول ملك قشتالة وليون فى اواخر سنة ١٠٦٥م بين ابنائه ، ولم يتردد السيد انذاك فى الانضمام الى شانجة ، واشترك مع قوات حليفة احمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة فى محاربة ردميره ملك ارغون ٤٦١هـ (١٠٦٨م) ٠ وقد نال السيد مكانة كبيرة فى التاريخ القشتالى ، فهو بطل اسبانيا القومى ، وكان وقوف السيد فى بداية حياته الى جانب شانجة ضد الفونسو قد اثار حنق الفونسو السادس عليه ، فلم ينس له قط هذا الموقف ، وهذا الذى ادى الى ابعاده عن بلاطه وعن سائر اراضيه فى عام ٤٧٤هـ (١٠٨١م) ٠ وهنا بدات الاساطير تحكى عن هذا الكنبيطور الذى خرج يجرى وراء رزقه دون وضع اى اعتبار للدين او القومية ، فكان يساند المسلمين تارة ، وتارة أخرى يساند الامراء النصارى ٠ وقد وجد السيد مجالا له فى هذه الفترة من عصر الطوائف لانها كانت تمتلىء بالثورات والحروب التى وجد فيها الكمبيطور مجاله وحياته (لمزيد من التفاصيل عن السيد وعن علاقته بالمستعين صاحب سرقسطة وعن استيلائه على بلنسية انظر ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٣١ - ٤١ ابن بسام، الذخيرة ، قسم ٣ ، مجلد ١ ، ص ٩٥ ٠

الى جانب ان صداقة شخصية كبيرة كانت تجمع بين المعتمد والفونسو بعد ان دافع هذا الملك عنه ضد اعتداءات ملك غرناطة على اراضى اشبيلية .

ويورد الاستاذ محمد عبد الله عنان بعض الروايات القشتالية التى تشير الى رحلة ابن عمار (١) وزير المعتمد ابن عباد الى ليون حيث تفاوض على مقدار الجزية وما سوف يتم انفاقه ، وانتهى الاتفاق

= Menendez - Pidal, la España del Cid, 2 vols. Madrid, 1947 - Huici Miranda, Historia musulmana de Valencia y su region, t. II, Valencia, 1970.
ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٣١ — ٢٥٣) .

(١) **ابن عمار** : هو ابو بكر محمد بن عمار الحسين بن عمار المهرى اصله من قرية شنبوش من ارباض شلب ،ولد عام ٤٢٢هـ(١٠٣١م) من اسرة بسيطة متواضعة ، ودرس فى قرطبة على يد اعظم شيوخها ونبغ فى الشعر والادب ، ثم انتقل الى اشبيلية أيام المعتضد بن عباد ، ثم مدح المعتضد ، فجعله من بين شعرائه وامنائه ثم اتصل ابن عمار بالمعتمد بن عباد ، وكان ايامها حاكما لشلب ، وتوثقت اواصر المحبة بينهما ، وحين ادمج المعتمد ملكا على اشبلية أصبح وزيره واثيره بل وسفيره فى سفاراته الهامة لملوك النصارى .
ثم تزوج المعتمد بن عباد من السيدة اعتماد الرميكية التى اخذت تدس له الدسائس ، وقد غدرت به هذه السيدة حين اثارت عليه زوجها المعتمد خاصة وانه نسبت اليه مجموعة من الابيات هجا فيها المعتمد وزوجته الرميكية ومن الابيات التى هجا فيها الرميكية :
تخيرتها من بنات الهجين رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار ليتم النجادين عما وخالا
قصار القدود ولكنهم اقاموا عليها قرونا طوالا
وكان ابن عمار قد حاول ان يستقل بمرسية بعد ان استردها لحساب سيده مما اغضب المعتمد عليه ، وزادت هذه الابيات من غضبه ، وكانت كل من اعتماد الرميكية والشاعر ابن زيدون يحيكان له المؤامرات التى انتهت بمقتل ابن عمار بيد سيده المعتمد بن عباد لتكون مأساة ذلك العصر وتلك المملكة (انظر ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٩٨ ، ابن عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٦٧ — ٦٨ ، ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ١٨١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٦٤ — ٦٩)

على ان يساعد الفونسو السادس ملك قشتالة المعتمد بن عباد فى كافة حروبه ضد اى عدو له من ملوك الطوائف المسلمين فى مقابل الجزية السنوية التى يؤديها له ابن عباد ، هذا الى جانب تسليم جبل الشارات (سيرامورينا) لالفونسو وزواجه من زايدة (١) كنة المعتمد بن عباد، ولكن الامور لم تتم وفقا لما كان يشتهيه المعتمد بن عباد ، ففى عام ٤٧٥هـ (١٠٨٢م) أرسل الفونسو السادس سفارته المعتادة الى المعتمد لتلقى الجزية السنوية ، فوصل اليه رسول الفونسو ومعه اليهودى ابن شالب ، فقد كان الفونسو قد أقصى السيد الكنبيطور ونفاه من بلاده ونزل الوفد القشتالى خارج اشبيلية ، فسير اليهم المعتمد المال المعلوم مع بعض اشياخ اشبيلية وأعيانها من بينهم الوزير ابو بكر ابن زيدون ، فلما قدموا له المال العين والسبائك ، رفض اليهودى ان يتسلمها ربما لانه ظن انها من عيار اقل من المتفق عليه ، وامر الا يتلقى من الذهب الا ما كان منجرا اى خالصا ، ويبدو انه تلفظ بألفاظ مهينة للمسلمين ، فبلغ ذلك المعتمد فغضب غضبا شديدا ، وأرسل نفرا من عبيده وبعض جنده وامرهم ان يقتلوا اليهودى ابن شالب ويأسروا من كان برفقته

(١) زايدة المسلمة : تشير جميع الروايات الاسبانية النصرانية الى ان زايدة المسلمة هذه هى ابنة المعتمد بن عباد التى قدمها لالفونسو السادس مع الجزية لتكون حظية له وان هذه الابنة كانت بارعة الجمال ، ولذلك فقد كانت من مغريات تحالف ابن عباد مع الفونسو ، وقد قام الاستاذ محمد عبد الله عنان بمناقشة هذه القضية واثبت اعتمادا على نصين احدهما لابن عذارى والآخر للونشريشى ان زائدة كانت زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون الذى كان حاكما لقرطبة، مؤيدا بذلك رأى ليفى بروفنسال الذى نشره فى سنة ١٩٣٤ وحين هاجم المرابطون المدينة هربت زايدة بأولادها بعد أن رأت زوجها يقتل امام عينيها ، فكرهت المرابطين ولجأت حينئذ الى بلاط الملك الفونسو السادس حيث تنصرت وتسمت بايزابيل فتزوجها الملك ، وماتت أثناء ولادتها لشانجة ابنها وولى عهد قشتالة الذى سيقتل فى واقعة اقليش (٥٠١هـ / ١١٠٨م) (ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ١٥١ — ١٦٤ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٤٥ — ٣٤٩) .

من النصارى (١) ، فكان ذلك الحادث سببا فى فساد الصلح بين المعتمد وبين الفونسو (٢) ، فقد اقسم ايمانا مغلظة على الانتقام من ابن عباد ، فحشد لذلك جيشا كثيفا من الجلالقة والقشتاليين والبكشنس اجتاح مملكة ابن عباد ، وعاث فسادا فى أحواز باجة ولبلة ، اما هو فقد هاجم شرف اشبيلية واخذ يدمر ويحرق ويخرب كل ما كان فى طريقه ، ولم يتردد فى حصار اشبيلية ذاتها لمدة ثلاثة أيام ، مخربا ما حولها والمدن التى تقع فى نواحيها ، وهنا تبين لابن عباد مدى الخطأ الذى وقع فيه بتحالفه مع الفونسو على رفاقه ملوك الطوائف ، وادرك المصير السىء الذى ينتظره وينتظر الاسلام فى الاندلس ، وربما كان ذلك سببا فى مبادرته بالاتصال بيوسف بن تاشفين والاستنصار به عليه . وجاء سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس نذيرا لملوك الطوائف ، فتوالت رسلهم على ابن تاشفين يلتمسون منه العون والانجاد ، فوعدهم بالنصرة وارجأ تسيير قواته حتى ينتهى تماما من برغواطة .

أما الفونسو فقد أسكره استيلاؤه على طليطلة ، فعربد فى اراضى الاسلام ، وراح يهدد ملوك المسلمين الواحد بعد الآخر ، فكتب الى المعتمد ابن عباد رسالة يطالبه فيها بتسليم أعماله ، ويحذره من مخالفته له ،

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٢ .
(٢) يعلل الحميرى سبب توتر العلاقات بين المعتمد والفونسو بأن المعتمد اشتغل عن أداء الاتاوة التى اعتاد اداءها فى فترة معينة من السنة الى الفونسو بغزو ابن صمادح صاحب المرية ، فتأخر عن ادائها فى وقتها ، فاستشاط الفونسو غضبا وتشطط ، فطلب بعض الحصون زيادة على الاتاوة « وامعن فى التجنى فسأل فى دخول امرأته القمطيجة الى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها حيث اشار اليه بذلك القسيسون والاساقفة لمكان كنيسة كانت فى الجانب الغربى منه معظمه عندهم ، عمل المسلمون عليها الجامع الاعظم وسفر بذلك بينهما يهودى وكان وزيرا لابن فردلند .. فاغلظ له اليهودى فى القول وشافهه بما لم يحتمله ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه ، فأنزلها على رأس اليهودى فألقى دماغه فى حلقه ، وامر به فصلب منكوسا بقرطبة » .
(الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٤) .

ويضرب له المثل بما حدث فى طليطلة ، ورد عليه المعتمد ردا قويا فند فيه اقوال الفونسو ، وسخر فيه من تهديداته ، والظاهر ان المعتمد لم يكن ليستطيع الرد على الفونسو بمثل هذه القوة لو لم يكن واثقا كل الثقة فى العون الخارجى الممثل فى دولة المرابطين فى المغرب ، وكان قد كتب الى يوسف بن تاشفين رسالة فى غرة جمادى الاولى سنة ٤٧٨هـ يستصرخه فيها على الفونسو ويدعوه الى الجواز الى الاندلس للجهاد واحياء شريعة الاسلام ، ثم اعقب ذلك بزيارة سريعة الى المغرب بعد ان استوثق من صدق نوايا ابن تاشفين فى مساعدته (١) ، ولهذا فاننى اعتقد انه وجه رسالته الى الفونسو بعد زيارته لابن تاشفين ووثوقه من نصرته له .

ولما بلغ الفونسو اعتزام يوسف بن تاشفين الجواز الى الاندلس لنصرة ملوك الطوائف ، وتبين له تجرؤ المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس عليه بعث من بلدة طريف رسالة الى يوسف بن تاشفين يتحداه فيها ، وجاء فيها « فلا خفاء على ذى عينين انك امير المسلمين ، بل الملة المسلمة كما انا امير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه رؤساكم بالاندلس من التخاذل والتواكل ، والاهمال للرعية ، والاخلاد الى الراحة وانا اسومهم الخسف فاخرب الديار ، واهتك الاستار ، واقتل الشبان ، واسر الولدان (٢) ... » .

وطلب من يوسف بن تاشفين اما ان يجوز الى الاندلس ليقاتله ، واما ان يرسل اليه المراكب ليجوز هو اليه ، فان غلبه ابن تاشفين كان له ملك المغرب والاندلس ، وان انتصر الفونسو عليه ، فان ذلك يكفل لالفونسو الانفراد بحكم الاندلس ، فلما وصل كتاب الفونسو الى ابن تاشفين اكتفى بأن كتب على ظهر الرسالة « من امير المسلمين يوسف

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٤٥ ، المغرب الكبير ، ص ٧٢١ .

(٢) الحلل الموشية ، لمؤلف مجهول ، ص ٤١ — ٤٤ .

ابن تاشفين الى اذفونش ، أما بعد ، فان الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه باذنك والسلام على من اتبع الهدى» . ثم سجل بيت ابى الطيب المتنبى :

ولا الكتب الا المشرفية والقنا ولا رسل الا الخميس العرمرم (١)

وعلى الرغم من ان نص الرسالة يوحى بالتلفيق ، الا ان ليفى بروفنسال وغرسية غومث واوليفر اسين نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين الى الناصر تميم بن المعز بن باديس يذكر فيها هزيمته لالفونسو السادس بالزلاقة تتضمن هذه الحقيقة (٢) .

وعلى اية حال لقد سبق ابن الافطس المعتمد فى مكاتبة يوسف ابن تاشفين سنة ٤٧٤هـ اى قبل سقوط طليطلة بثمان سنوات ، ويتمثل ذلك فى الرسالة التى نسخها له ابن ايمن (٣) . بل ان المتوكل عمر بن الافطس لم يكتف برسالة واحدة فقد سبقت تلك الرسالة التى جئنا بنصها رسالتين اخريين من نسخ ابن ايمن ،كذلك يقول عنها ابن بسام «لما اشتد كلب الروم بهذا الاقليم على ما تقتضيه شهادة المنثور والمنظوم بلسان من اندرج ذكره فى هذا الديوان من كل زعيم استصرخ ملوك الطوائف بافقنا امير المسلمين ، وناصر الدين ابا يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمة الله ، وقد القوا بايديهم ، فكتب ابو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه ، واراها كانت ثالثة المفاتحة او ثانية المداخلة» (٤) .

وما كاد ابن عباد يعود الى حاضرته عقب زيارته لابن تاشفين (٥)

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٠ ، الحلل ، ص ٤٣ .
(٢) Lévi - Provençal, Garcia Gomez, Oliver Asin, Novedades sobre la batalla llamada al - Zallaaa, al - Andalus, Vol. XV, 1950, P. 112.
وراجع السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٣
(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ج٢ ، المجلد الثانى ، ص ٦٥٣
(٤) المصدر السابق ، ص ٦٥٣
(٥) النويرى ، نهاية الارب ، ج٢٢ ، لوحة ٥٤ .

حتى اخذ يتاهب للمعركة المقبلة . ويعلق ابن الكردبوس على تلك الاحداث بقوله : « ولما تيقن كل من ثار ورأس ، ولاسيما رؤساء غرب الاندلس كابن عباد وابن الافطس مذهب الفنش فيهم ، وانه لا يقنع منهم بجزية ولاهدية ، راوا ان الرجوع الى الحق احق ، فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بامير المسلمين يوسف بن تاشفين على ان ينخرطوا فى سلكه ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له بابا الى الجهاد كانوا قد سدوه ، فاجابهم الى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما طلبوه ، اذ كان راغبا فى جهاد المشركين ، والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التاييد من خلال غمامه » (١) .

واول من فكر جديا فى الاستعانة بقوى المرابطين الامير تميم بن بلقين ، امير مالقة ضد اخيه الامير عبد الله صاحب غرناطة (٢) . ولكن هذا الهدف الذى من اجله اراد تميم الاستنجاد بالمرابطين لم يكن بقصد الجهاد والذب عن الاسلام فى حين يعتبر المتوكل بن الافطس اول من فكر من ملوك الطوائف فى الاستعانة بالمرابطين ضد قوى المسيحية فى اسبانيا ، وتبعه فى ذلك المعتمد بن عباد ، ومما لاشك فيه ان المعتمد ابن عباد باعتباره اعظم ملوك الطوائف قدرا واشدهم باسا واكثرهم هيبة ، تحمس تحمسا شديدا لفكرة الاستعانة بالمرابطين ، ولم يلبث ان تزعمها بعد ان وجد تجاوبا من جاريه المتوكل على الله صاحب مملكة بطليوس والامير عبد الله بن بلقين صاحب مملكة غرناطة ، وعمد بالاتفاق مع صاحبيه الى تحريك كل من القليعى قاضى غرناطة وابى اسحق بن مقانا قاضى بطليوس الى الاجتماع بابى بكر عبيد الله بن ادهم قاضى قرطبة فى مقره باشبيلية (٣) . وتم الاجتماع بحضور الوزير ابن زيدون ، وفيه تقرر ارسال سفارة مشتركة منهم الى يوسف بن

---

(١) ابن الكردبوس ، نصان جديدان ، ص ٨٩ — ٩٠
(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٢ — ١٠٦
(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٩٨ ، ٩٩ — الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٨٣

تاشفين ، وكان ذلك أول احتكاك على المستوى الرسمى بين ملوك الطوائف وبين امير المرابطين ، ثم اعقبت ذلك زيارة المعتمد بن عباد ليوسف بن تاشفين فى المغرب (١) ، وتنازله له عن الجزيرة الخضراء للمجاز الى الاندلس ، وقد رسخت هذه الزيارة الصلات بين ملوك الطوائف يمثلهم ابن عباد وبين يوسف بن تاشفين .

---

(١) ذكر ابن الابار إن المعتمد بن عباد عبر البحر بنفسه مع جماعة من الزعماء للالتقاء بيوسف بن تاشفين . وتأييدا لهذا الخبر يذكر ابن الابار ان ابا عبيد الله البكرى الجغرافى الشاعر قال فى المعتمد بعض الاشعار عند اجازته البحر مستجيرا بابن تاشفين . (ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ١٨٦) .

(٥)

هزيمة الفونسو السادس فى الزلاقة من ارض بطليـوس

ا ـ مقــدمات المعركـة :

اشرنا فيما سبق الى ان ابن عباد تبين له بعـد طـول محالفته لالفونسو السادس ان هذا الملك المسيحى كان يتخذ من تحالفه معـه قناعا زائفا يخفى حقيقة نواياه فى انتزاع اراضى المسلمين ، وتوحيد اسبانيا تحت لوائه ، فقد اخذ يحقق اهدافه بعيدة المدى ، الهدف بعد الآخر ، فبعد ان جرد مملكة ابن ذى النون من حصونها المانعة ، انفرد بطليطلة نفسها واستولى عليها ، وبدأ ينفذ نفس السياسة مع المعتمد ابن عباد ، الذى تنبه بعد غفلته الى حقيقة ما يسعى اليـه الفونسو السادس ، وآثر ان يكون تابعا لامير مسلم ، وان كان بدويا جلفا على ملك مسيحى (١) .

وكان ذلك بداية لاتصالاته المكثفة بابن تاشفين على النحو الذى اشرنا اليه (٢) ،وهى اتصالات انتهت بعزم ابن تاشفين على الجـواز

---

(١) يذكر الامير عبد الله الزيرى أن « الفونش » سال المعتمد وكـان قد عقد معه محالفات كثيرة ان يتخلى له عن معاقل « كان الموت عنده اولى من اعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة ورام كسره بطوائف المرابطين » (ص ١٠٢)

(٢) بدات هذه الاتصالات بمكاتبات وانتهت فى اواخر عـام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بزيارة قام بها المعتمد الى ابن تاشفين قيل فى موضع من طنجة يعرف ببليطة على بعد ثلاثة مراحل من سبتة (ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٣) . ويذكر ابن الخطيب أن المعتمد جاز اليه فى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بأسطـول الاندلس جوازا فخما ، واختار لمصاحبته فى سفره الخواص والاعيان بعد ان استخلف على اشبيلية ولده الرشيد (ابن الخطيب ، اعمـال الاعلام ، ص ٢٤٦) ويجعل المراكشى تاريخ هذه الزيارة فى سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) (عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص٣) .

الى الاندلس بعد أن خصص المعتمد لقواته مدينة الجزيرة الخضراء (١) لتكون قاعدة لهم ، فنزلتها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة .

ولما اطمئن ابن تاشفين الى صدق نوايا المعتمد تجاهه ، اذكان يخشى ان يكون متفقا مع حليفه الفونسو السادس على كسره (٢) ، امر قواته بالعبور الى الاندلس ،فعبرت أعداد لاتعدولاتحصى الى الجزيرة الخضراء. ويسوق ابن ابى زرع رواية عن عبور ابن تاشفين الى الاندلس جاء فيها: « فلما كمل جواز الجيوش واستوفت عساكر المجاهدين بساحل الخضراء جاز هو فى اثرهم فىجيش عظيم من قواد المرابطين ،وانجادهم وصلحائهم، فلما ركب السفينة واستقر على ظهرها رفع يديه ودعا الله تعالى وقال فى دعائه « اللهم أن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيرا وصلاحا للمسلمين فسهل على جواز هذا البحر ، وان كان غير ذلك فصعبه على حتى لا اجوزه ، فسهل الله عليه الجواز فى أسرع ما يكون ، فكان يوم الخميس عند الزوال بنصف ربيع الاول المبارك سنة تسع وسبعين واربعمائه (٣)، ونزل بالخضراء فصلى بها صلاة الظهر من يومه ذلك ، فالتقاه بها المعتمد فى جميع أمراء الاندلس (٤) ... » .

ثم بدأ فى تحصين الجزيرة الخضراء واصلاح أسوارها وأبراجها قبل ان يمضى فى حشوده الى اشبيليه (٥) .

وفى تلك الاثناء كان الفونسو السادس يحاصر سرقسطة ، فلما علم بجواز أمير المرابطين الى الاندلس « أسقط فى يده وانحلت عزائمه (٦) .. » .

---

(١) عبد الله الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٢ ، وما يليها .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣
(٣) الموافق ٣٠ يونيو ١٠٨٦ م
(٤) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٣
(٥) الحلل الموشية ، ص ٥١ .
(٦) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

وكان الفونسو قد عزم عزما صادقا على الاستيلاء على سرقسطة بعد ان سقطت طليطلة فى قبضته ، فبادر باحكام الحصار حولها فى صفر سنة ٤٧٨هـ (مايو ١٠٨٥م) ، واقسم الا يرفع حصاره عنها حتى تسقط فى يده او يهلك دونها (١) . وكان صاحب سرقسطة انذاك هو احمد المستعين (٢) بن هود ، الذى سرعان ما ادرك مدى خطورة

---

(١) ابن الكردبوس ، تاريخ الاندلس ، تحقيق د. مختار العبادى ، ص ٩١ .

R. Menendez - Pidal, La España del Cid, t. I, P. 300 - A. Huici Miranda, la invasion de los Almorávides y la batalla de zallaca, Hespéris, t. XL, Paris, 1953, P. 32.

(٢) احمد المستعين بالله بن هود ، هو ولد يوسف المؤتمن بن هود ويعرف بالمستعين الاصغر ، وشهد فى بداية عهده (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) هجوم الفونسو السادس على سرقسطة وحصاره لها ، وما كاد يتخلص من مشكلة الحصار القشتالى عند نزول المرابطين الاندلس حتى زج نفسه فى سلسلة من المغامرات للظفر ببلنسية ، كلفته التحالف تارة مع « السيد الكمبيطور » وتارة مع برنجير كونت برشلونة ، ولم تسفر هذه المغامرات الا عن فشل ذريع لخططه ، اذ تمكن السيد الكمبيطور من السيطرة على بلنسية . ثم تعرضت سرقسطة فى عهده ايضا لاطماع شانجة راميرث ملك ارغون الذى استولى على منتشون فى ٤٨١هـ (١٠٨٩م) واقام امام وشقة ثانية قواعد مملكة بنى هود حصنا منيعا تمهيدا للاستيلاء عليها ، ثم حاصرها شانجة راميرث ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) ، وتابع بطره الاول ولده حصار وشقة التى سقطت بعد معركة طويلة عرفت بالكرازة ، دارت بين جيوش المستعين تؤيده قوات الفونسو السادس وبين بطره الاول فى اواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٥هـ) وانتهت بهزيمة المسلمين ومقتل قائد قوات الفونسو السادس وسقوط وشقة فى ايدى نصارى ارغون ، واصبحت عاصمة لهم .

وكان المستعين بالله اثناء الحصار قد ارسل الى يوسف بن تاشفين امير المرابطين يستنجد به ، فاستقبل ابن تاشفين رسوله استقبالا حسنا ، ورد على المستعين ردا طيبا . واستشهد المستعين فى رجب سنة ٥٠٣هـ (يناير سنة ١١١٠ م) فى معركة دارت بينه وبين الفونسو المحارب (ابن ردمير) ملك ارغون بالقرب من حصن ارنيط (انظر ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧٣ ، الحلل الموشية ، ص ٦٩ — ٧٠ ، ابن خلدون ، العبر ، المجلد الرابع ، ص ٣٥٢

Menendez - Pidal, la España del Cid, t. I, P. 301.

محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٨٩) .

الموقف، فبذل قضارى جهده للتصدى لهجوم الفونسو ورد عدوانه ، كما عرض عليه أموالا طائلة عسى أن يقبلها لقاء فك حصاره عن سرقسطة ورحيله عنها ، ولكن الفونسو ، وكان مصمما على انتزاع المدينة عنوة من يد بنى هود ، رفض أن يرفع الحصار ، واصر على أن يستولى عليها مع الاموال المقدمة (١) ، وبدأ يشيع انه فى حالة سقوط سرقسطة فى يده فسوف يحكم بالعدل بين ابنائها ، ووعد أهلها بأنه لن يفرض عليهم من الضرائب الا ما جاءت به شريعة المسلمين (٢) .

وظل الفونسو يحكم الحصار على سرقسطة الى أن وصلته الانباء بقدوم المرابطين ، فحاول حينئذ خداع المستعين ظنا منه أن المستعين لم يكن على علم بجواز ابن تاشفين ، فبعث اليه من يبلغه باستعداده لقبول الجزية التى سبق أن عرضها امير سرقسطة ، ولكن المستعين بن هود ، وكان قد اطمأن جانبه بقرب مجىء اللمتونيين ، ابى أن يدفع اليه درهما خشية أن يتقوى به ويستعين (٣) ، وعندئذ اضطر الفونسو الى رفع الحصار عن سرقسطة ، وقفل عائدا الى بلاده لمواجهة خطر المرابطين الداهم ، فبعث الى ابن ردمير (الفونسو المحارب) Sancho Ramirez والى البرهانس Alvar Hañez ، وكان ابن ردمير يحاصر مدينة طرطوشة ، اما البرهانس فكان يحاصر بلنسية ، فبادرا بموافاته بجيوشهما ، ولحقا به ، وكذلك بعث الى بلد قشتالة Castilla وجليقية Galicia وبيونة Bayona ، فأتته من قوات الروم حشود لاتحصى ، فلما

---

(١) Huici Miranda, op. cit. P. 33.

(٢) ذكر ابن الكردبوس ان الفنش « جعل لكل من دان له من الاسلام البر والرعاية واخذ نفسه بالعدل فيهم والامان ، والرفق فى اليسر والاعلان ، ووعدهم الا يلزمهم غير ما توجبه السنة الاسلامية ، وانه يحملهم فى سائر ذلك على الحرية . وقد كان قد تحقق أنه فرق على ضعفاء اهل طليطلة مائة الف دينار ليستعينوا بها على الزراعة والاعتمار ، فاستدل اهل طليطلة على صدق مقاله ، وتحقق فعاله » (انظر ابن الكردبوس ، تاريخ الاندلس ، ص ٩١) .

(٣) ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص ٩٢ . وانظر
Menendez - Pidal, op. cit. P. 331.

تجمعت لديه هذه القوى شرع فى التحرك للقاء يوسف بن تاشفين وجيوش المسلمين (١) .

وذكر الحميرى انه استنفر جميع اهل بلاده وما يليها وما وراءها، فاجتمع له من الجلالقة والافرنجة وما يليهم مالا يحصى عدده (٣) .

ولا نشك فى ان المعركة التى كان يقودها الفونسو السادس ومن تابش اليه من الجلالقة والافرنجة والرومية ، كانت حربا صليبية واضحة المعالم فقد كان الفونسو قد دعا قومه وجيرانه من الافرنجة الى هذه المعركة ، ويذكر الحميرى أن القسيسيين والرهبان والاساقفة شاركوا فى المعركة، «ورفعوا صلبانهم ونشروا اناجيلهم» (٢) ، فالمعركة كانت معركة مصير بين بقاء الاسلام فى الاندلس او انتصار كفة المسيحية .

ويذكر الحميرى ان المعتمد بن عباد اوفد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بن تاشفين عند جوازه الى الجزيرة الخضراء ، واستقبل اهل الجزيرة المرابطين استقبالا حافلا ، فاقاموا لهم الاسمطة ، وزودوهم

---

(١) ابن الكردبوس ، ص ٩٢ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٢ ،
Huici Miranda, op. cit. P. 35.
وتبالغ مدونة لوزيتانو المسيحية فى ذكر من توافد من الممالك المسيحية الى الفونسو السادس، فتذكر انه تقاطرت عليه سيول من الفرنجة ومن بلاد الالب
«Ubi unanimites convenerunt cum rege nostro christiani a partibus Alpes, multique Francorum in adjutorium ci affuerunt» انظر
Franc. Henrique Florez, España sagrada, t XIV, chronicon lustanum, P. 405, AEra 1125.
وراجع Menendez - pidal, la España del Cid, t. I, P. 331.
وعن وفود القوات الافرنجية (الفرنسيين) يذكر الفونسو العاشر أنه انضم الى قوات الفونسو قوة كبيرة من الفرنسيين
Primera Crónica general de España, P. 577

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨

(٣) الحميرى ، المصدر السابق ، ص ٨٨

بالاقوات والضيافات (١) ٠

وفى تلك الاثناء ، كان يوسف بن تاشفين قد انتهى من تحصين الجزيرة الخضراء (٢) ، وبدات حشوده تتجه نحو اشبيلية قوة بعد قوة٠ويذكر المؤرخون ان ابن عباد تلقاه على مقربة من اشبيلية على بعد مرحلة من الجزيرة فى مائة فارس (٣) ووجوه اهل رجاله ، فالتقيا منفردين ، وتصافحا وتعانقا فى محبة واخاء ٠ ويصف صاحب الحلل الموشية مادار بينهما فى هذا اللقاء بقوله « فسلم عليه ، وهم ابن عباد بتقبيل يديه » ، فبادر لمعانقته وسأله عن حاله وانبسط معه فى الحديث ، وهناه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابن عباد ، فعمت جميع المحلة على حال كبرها (٤) ٠٠٠٠ « ثم ركب ابن عباد واستعرض العساكر اللمتونية واخذ يدور بمحلتها ، فألفى أمامه جندا اقوياء ، تتفجر فى وجوهم الحمية والحماسة ، فاطمأن قلبه ، وهدأت نفسه ، وايقن بنصر من الله قريب ، وحمد الله وسجد له » ، وعفر وجهه فى التراب تواضعا لله سبحانه وتعالى (٥) ٠

وبعد هذا اللقاء العاطفى عاد يوسف الى محلته ، وعاد ابن عباد الى معسكره ، فبات الجميع تلك الليلة ، وفى اليوم التالى ارتحلوا جميعا الى اشبيلية ، وهناك اقاموا ثلاثة ايام أنتقلوا بعدها الى بطليوس (٦) ٠

---

(١) الحميرى ، نفس المصدر ، ص ٨٧ ٠
(٢) الحلل الموشية ، ص ٥١ ، يقول صاحب الحلل الموشية بهذا الصدد « ولما احتل يوسف بن تاشفين بالجزيرة شرع فى بناء أسوارها ، ورم ماتشعث من ابراجها ، وحفر الحفير عليها ، وشحنها بالاطعمة والاسلحة ، ورتب فيها عسكرا انتقاه من نخبة رجاله »٠
(٣) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ ، الحلل الموشية ، ص ٥١ ٠
(٤) الحلل الموشية ، ص ٥١ وما يليها ٠
(٥) المصدر السابق ، ص ٥٢ ٠
(٦) نفس المرجع ، ص ٥١ ٠

وكان ابن تاشفين اثناء اقامته فى اشبيلية ، قد ارسل الى جميع ملوك الطوائف بالاندلس (١) ، يستنفرهم للجهاد ويدعوهم لقتال العدو ، فبادر جميعهم بالاستجابة لدعوته ، واخرجوا مالديهم ، واقبلوا من كل صقع من اصقاع الاندلس صابرين ومجاهدين (٢) ، باستثناء المعتصم بالله ابو يحيى محمد بن معن بن صمادح ، صاحب المرية الذى اعتذر بضعفه وكبر سنه وانشغاله بحصار العدو لحصن لييط (٣) ، ولكنه كان فى حقيقة الامر متخوفا من نوايا المرابطين ، وكان يشك فى انتصارهم على الفونسو السادس « فبقى متربصا ليرى كيفية الامر ، ومخرجه مع الروم » (٤) ، واكتفى بارسال ابنه معز الدولة ليعتذر عن غياب ابيه .

ويتفق صاحب الحلل الموشية ، والامير عبد الله الزيرى على موقف ابن صمادح المتخاذل تجاه يوسف بن تاشفين ، وان كان ابن ابى زرع وهو مشكوك فى روايته قد اورد فى روض القرطاس نصا يفهم منه ان ابن صمادح صاحب المرية قد خرج بنفسه للقتال مع المرابطين ، فيذكر أسماء من شارك فى موقعة الزلاقة من ملوك الطوائف مع ابن تاشفين فيقول : "وتقدم ايضا المعتمد بن عباد امام ابن عائشة مع امراء الاندلس وجيوشهم ، منهم ابن صمادح صاحب المرية ، وابن حبوس (٥) صاحب

---

(١) عبد الله الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٤ ، الحلل الموشية ، ص ٥٢ ، وقد ادركه الامير عبد الله الزيرى بقواته عند جريشه Jerez de los Caballeros وهو فى طريقه الى بطليوس (Huici Miranda, op. cit, p. 40). كذلك ادركه المتوكل ابن الافطس فى عسكره ببطليوس (مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٤ ، (كما لحقه تميم صاحب مالقة . (الحلل الموشية ، ص ٥٢) .

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨

(٣) الحلل الموشية ، ص ٥٢

(٤) عبد الله الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٤

(٥) المقصود به الامير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيرى الصنهاجى .

غرناطة وان مسلمة صاحب الثغر الاعلى (١) ،وابن ذى النون (٢) ، وابن الافطس ، وبنوعزون (٣) ٠٠» ٠

ولكن يبدو أن ابن ابى زرع كان يقصد معز الدولة بن صمادح الابن وليس الاب محمد بن معن بن صمادح الذى كان موقفه واضحا كل الوضوح فى الحلل الموشية الى جانب مذكرات أحد أمراء الطوائف وهو الامير عبد الله الزيرى الذى شارك مشاركة فعلية فى المعركة ٠

وتجمع المصادر العربية على ان المتوكل عمر بن الافطس كان من بين المشتركين فى معركة المصير فى الاندلس ، فقد تأهب للجهاد ، واسرع للقاء يوسف بن تاشفين ، ووطن العزم على الموت فى هذه المعركة الفاصلة (٤) ، وقد خرج ليلقى ابن تاشفين على ثلاثة مراحل من بطليوس « احتفل لهم بالتضييف والعلف والقرى الواسع » (٥) ٠ وكان المتوكل خلال الفترة التى شغل فيها المعتمد بدعوة المرابطين الى الاندلس يحصن ثغوره ،ويسد عورات مدنه، ويرمم ما هى من أسوارها ، ومع ذلك فلم يكن بمنأى عن الاحداث، فقد ظل متابعا لكل ما يطرأ على الموقف ، وتحول عداؤه القديم لبنى عباد الى تحالف من أجل انقاذ الاسلام فى

---

(١) يذكر صاحب الروض القرطاس هذا الاسم خطئا،فبنو مسلمة هم بنو الافطس أصحاب بطليوس ، والافطس اسم الشهرة ، اما أصحاب الثغر الاعلى فهم بنو هود الجذاميون ٠

(٢) لم يكن ابن ذى النون ، ويقصد به القادر بالله ، مشاركا للملوك الطوائف فى هذه المعركة ، فقد كانت طليطلة قاعدته قد سقطت قبل ذلك بعام فى حين رحل هو الى بلنسية ، فى رفقة البرهانس القائد القشتالى فدخلها بدون قتال ، وكان مكروها من رعاياه ، ثم اضطر البرهانس الى ترك بلنسية للاشتراك مع ملكه الفونسو السادس فى معركة الزلاقة ، وانتهز المنذر صاحب لاردة ، هذه الفرصة فهاجم القادر الذى استنجد فى نفس الوقت بملك قشتالة وملك سرقسطة ٠

(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ ٠

(٤) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٤

(٥) الحلل الموشية ، ص ٥٣ ٠

الاندلس ، وكان هو والامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة والمعتمد ابن عباد يؤلفون حلفا ثلاثيا يمثل دول الطوائف ضد الفونسو السادس ، وقد رايناه أول من بدأ بمخاطبة يوسف بن تاشفين يستحثه لانقاذ أهل الاندلس ، ويؤكد ابن بسام انه كتب اليه رسالتين اخريين نسخهما وزيره الكاتب ابن أيمن (١) .

واقام ابن تاشفين في جيوشه ببطليوس عدة أيام حتى بلغتهم الانباء بوصول الفونسو السادس ملك قشتالة ، بعد أن رفع حصاره عن سرقسطة واتجه بحشوده الكثيفة التي تقاطرت اليه من سائر اسبانيـا وجنوبي فرنسا وايطاليا (٢) نحو بطليوس ، يروم الملاقاة ويحدوه الامل في قهر المرابطين .

ويبدو أن حشود المسلمين تجمعت بازاء مدينة بطليوس ، لم تبعد عنها كثيرا ، ويعبر الامير عبد الله الزيرى عن ذلك في مذكراته بقوله « ونحن بازاء المدينة متربصون ان كانت لنا ، فيها ونعمت ، وان لم تكن : كانت وراءنا حرزا ومعقلا نأوى اليها ، وامير المسلمين يدبر هذا الامر بحسن رايه ويلتوى ، عسى ان تقع الملاقاة بتلك الناحية دون أن يحوج الى التوغل في بلادهم » (٣) .

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، المجلد الثاني ، القسم الثانـى ، ص ٦٥٤ وما يليها .

(٢) Menendez - Pidal, op. cit. P 334 . وذكر ابن الكردبوس أن الفونسو كتب الى جميع النصارى « معلما بجواز المرابطـين ، فوافاه اهل قشتالة في عدد لا يحصى ، واقلع قائده البرهانس عن بلنسية فلحق به ، واقبلت عليه العساكر من أقصى الرومية حتى ملأوا البطاح والافضية فاعجب بنفسه ، وقد وثق بكثرة من اجتمع اليه من ابناء جنسه واقسم انه لا يقوم له طالب لا يغلبه مغالب .... وانفصل عن طليطلة بجيوشه التي ضاقت بها البطاح ، ولم يصحبها نصر ولانجاح ، كأنها الليل الدامس ، والبحر الطامس ، قد لبسوا الدروع الضافية ، وتقلدوا السيوف الماضية ، وتقلسوا بالحديد ، وتقدموا ببأس شديد ، طبولهم القرون ، والويتهم كأنها السحاب الجون » (ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ص ٩٢) .

(٣) مذكرات عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥ .

وما ان اقتربت حشود الفونسو من تجمعات المسلمين حتى بادر بارسال رسالة الى يوسف بن تاشفين عن طريق المتوكل بن الافطس (١) يقول له فيها : « هاانا قد اقبلت اريد ملاقاتك وانت تتربص وتختبىء لاهل المدينة (٢) » . فلما وصلت رسالته هذه الى يوسف بن تاشفين عن طريق عمر المتوكل لم يكن امام امير المرابطين سوى ان ينتقل اليه ليقترب بجيشه من جيش العدو ، وانتهى الامر بأن تواعد معه على اليوم الذى يبدأ فيه القتال (٣) .

ويورد صاحب الحلل الموشية رواية تفسر السبب فى الكتاب الذى ارسله الفونسو الى المتوكل ليبلغه بدوره الى ابن تاشفين وفيه يطلب منه تحديد يوم اللقاء للمعركة الفاصلة ، جاء فيها ان يوسف بن تاشفين حين اقترب من بطليوس ، ارسل وهو قريب من فحص الزلاقة «كتابا على مقتضى السنة » خير فيه الفونسو السادس بين ثلاثة : الدخول فى الاسلام أو الجزية أو القتال ، وختم خطابه بقوله « وقد بلغنا يا اذفنش انك دعوت الى الاجتماع بك ، وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر

---

(١) بينما يذكر الحميرى أن الفونسو كتب الى يوسف بن تاشفين عن طريق ابن عباد ، يقول الحميرى « وبعث ابن فردلند الى ابن عباد ان صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحور وانا اكفيه العناءفيما بقى ،ولا اكلفكم تعبا ، امضى اليكم والقاكم فى بلادكم رفقا بكم وتوفيرا عليكم » يقصد ان يدعو الى المضى الى المرابطين لمحاربتهم فى بلادهم (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨)

(٢) عبد الله الزيرى ، التبيان ، ص ١٠٥ .

(٣) ذكر صاحب الحلل الموشية انه لما احتلت عساكر المسلمين بظاهر بطليوس واحتل اذفونش بفحص الزلاقة على اربعة فراسخ من بطليوس كتب الى امير المسلمين مكرا منه يقول « ان غدا يوم الجمعة ولانحب مقاتلتكم فيه لانه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثيرون فى محلتنا ونحن نفتقر اليهم،وبعده الاحد عيدنا،فنحترم هذه الاعياد ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال امير المسلمين « اتركوا اللعين وما احب» (ص ٥٧) .
ولا نستبعد من الفونسو هذا التصرف المخادع ، ولا من ابن تاشفين موافقته على اليوم الذى حدده الفونسو للقاء ، فقد كان يوسف متلهفا على الجهاد واثقا بنصر الله .

عليها الينا، فقد اجتزناه اليك وجمع الله فى هذه العرصة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك « وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » (١) .

فلما وصلت هذه الرسالة الى الفونسو السادس ، اشتد غضبه ، وقرر الايبرح مكانه، واصطنع الحيلة فى استدراج ابن تاشفين اليه ويفاجاه بالهجوم بدلا من أن يمضى هو اليه ،وقد احتمى بمدينة بطليوس، فاذا ما انتصر النصارى تمكن الفونسو من قتله بسهولة ، وختم كلامه بأن بينهما هذا البسيط المتسع وكان يقصد به فحص الزلاقة (٢) .

ونفهم من رواية صاحب الحلل ان الرسالة التى ارسلها يوسف بن تاشفين الى الفونسو السادس عند اقترابه من بطليوس يخيره فيها بين الاسلام او الجزية او الحرب انما كتبها وهو فى طريقه من اشبيلية الى بطليوس اى قبل ان يمضى الى فحص الزلاقة ، وهو امر نستبعده ، فلا يعقل أن يوجه ابن تاشفين هذه الرسالة قبل أن يعبىء قواته للقتال فى أرض المعركة ، ثم أن الفونسو لم يكن قد وصل بعد الى موقعه من الزلاقة .ويسوق صاحب روض القرطاس رواية أقرب الى رواية صاحب الحلل،فيذكر أن قوات المسلمين نزلت بمدينة طرطوشة فاقاموا بها ثلاثة أيام وكتب منها يوسف بن تاشفين كتابا الى الفنش يدعوه فيه الى الجزية أو الحرب او الاسلام ، فلما وصل كتابه الى الفنش أدركته الانفة وداخله الكبر، وقال للرسول : قل للامير لاتتعب نفسك انا أصل اليك .فارتحل يوسف وارتحل الفنش حتى نزل بالقرب من بطليوس ، ونزل يوسف بموضع يعرف بالزلاقة من احواز بطليوس (٣) ... » .

ونستنتج من ذلك ان ابن تاشفين وجه رسالته الى الفونسو بعد رحيله من بطليوس فى طريقة الى ارض المعركة بعد اقامته فى بطليوس

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٣
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤
(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ .

واثناء خروجه منها لتحديد موقع المعركة • ومع ذلك فنحن نشك فى انه كتب اليه من طرطوشة الوارد ذكرها فى روض القرطاس لوقوعها فى اقصى الشمال الشرقى من بلاد الاندلس ، والارجح انه كتب اليه عندما كان معسكرا بقواته بازاء بطليوس اى قبل ان يتفق مع الفونسو على موعد القتال وهو ما يؤكده الحميرى اذ يقول «فاناخوا بظاهرها،وخرج اليهم المتوكل عمر بن محمد فلقيهم بما يجب من الاقوات والضيافات ، وبذل مجهوده ••• ثم كتب يوسف الى ابن فرذلند يدعوه الى الاسلام او الجزية او ياذن بحربه ، فامتلا غيظا وعتا وطغا (١) ••••

ويمكننا من خلال مذكرات الامير عبد الله الزيرى ان نربط سلسلة الاحداث ببعضها البعض ، فالامير عبد الله الزيرى يؤكد ان الفونسو أرسل الى ابن تاشفين اثناء اقامته فى بطليوس ذاتها رسالة عن طريق ابن الافطس سبق ان اوردناها يقول « ها انا قد اقبلت اريد ملاقاتك ، وانت تتربص وتختبىء لاصل المدينة » (٢) •

ويؤكد الامير الزيرى انه عقب رسالة الفونسو هذه لم يكن امام ابن تاشفين سوى ان ينتقل خارج بطليوس ليكون على مقربة منه • وفى ذلك يقول الامير عبد الله الزيرى « فلم يكن بد ان ينتقل اليه ليكون الجيش على مقربة منه ،وتواعدا اللقاء فى يوم سمياه (٣) •••» •

ومن سياق الكلام يتبين لنا انه على اثر رسالة الفونسو للمرابطين وهم فى بطليوس امر ابن تاشفين بالانتقال خارج المدينة فى مكان المعركة الذى حدده كل من الحميرى (٤) وابن الكردبوس (٥) وصاحب الحلل

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٠
(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٥
(٤) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧ — ٩٣
(٥) ابن الكردبوس ، نصان جديدان ، تحقيق د• مختار العبادى ، ص ٩٣ •

الموشية (١) بفحص الزلاقة الذى دارت فيه المعركة ، ونستنتج من هذه النصوص المختلفة الحقائق التالية :

١ ـ انه لايمكن باى حال من الأحوال ان يكون ابن تاشفين قد انتقل من بطليوس الى طرطوشة كما ذكر ابن ابى زرع واقام بها مدة ثلاثة ايام أرسل خلالها رسالته الى الفونسو السادس،ثم عاد ابن تاشفين مرة ثانية الى فحص الزلاقة ليكون قريبا من الفنش الذى كان قريبا من بطليوس ، فطرطوشة تبعد عن بلنسية بنحو مائة ميل وعشرين ميلا (٢) ، وهى فى اقصى الشمال الشرقى من الاندلس ومن المحال ان ينتقل جيش باكمله من غرب الاندلس الى شرقه مرتين ذهابا وايابا فى فترة وجيزة قدرها بضعة ايام ، هذا الى جانب انه لم يكن هناك اى مبرر لذهابه الى مدينة طرطوشة . وحتى لو افترضنا أن ابن ابى زرع قد اختلط عليه الامر وان ذهاب ابن تاشفين الى طرطوشة واقامته بها مدة ثلاثة ايام كان عقب جوازه للاندلس واقامته بالجزيرة الخضراء مباشرة فان هذا الافتراض لايتمشى مع المنطق ولا مع تسلسل الاحداث ولا مع ما ذكرته المصادر العربية فى هذا الصدد ، فجميع المصادر اجمعت على أن ابن عباد قد ارسل ابنه عبد الله لاستقبال أمير المرابطين فى الجزيرة الخضراء بعد ان اخلاها له ابنه الراضى،ثم توجه ابن تاشفين بعد ان انتهى من تحصينه للجزيرة الخضراء الى اشبيلية حيث استقبله المعتمد بن عباد فى منتصف الطريق ، يضاف الى هذا ان طرطوشة تبعد كثيرا عن الجزيرة الخضراء وعن بطليوس .

وبهذا لم يتبق امامنا الا ان نرفض ذهاب ابن تاشفين بقواته الى طرطوشة اللهم الا اذا كان قد توجه على راس جزء من قواته اليها فى الفترة ما بين انتقاله من الجزيرة الخضراء ، وبين تحديده لتاريخ وموقع

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٣
(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٤

المعركة مع الفونسو السادس لفك حصار ابن ردمير (شانجة راميرث) ملك ارغون عنها وكان يحاصرها فى ذلك الوقت ، ولكن لم يحدد أى مصدر من المصادر المعاصرة هذا بوضوح او حتى باشارة بسيطة ، هذا الى جانب ان الفونسو السادس كان كما سبق أن اوضحنا قد طلب من ابن ردمير (شانجة راميرث) أن يهرع لنجدته ، وحشد كل قوات المسيحية ضد المرابطين [1] ، وبهذا يتضح لنا أن حصار شانجة راميرث لطرطوشة قد انتهى بمجرد جواز امير المرابطين الى الاندلس . ونعتقد ان صاحب روض القرطاس انما كان يقصد بطرطوشة مدينة جريشة أى شريشة Jerez de Los Caballeros ، فاسمها اقرب فى رسمه الى طرطوشة ، ومع ذلك فاننا نستبعد ذلك لان جريشة تقع الى الجنوب الشرقى من بطليوس على مسافة تبعد عنها بما لايقل عن ٧٠ كيلو مترا ولاعجب فى هذه الاخطاء التى يقع فيها صاحب روض القرطاس .

٢ ـ فيما يتعلق برواية صاحب الحلل الموشية ، فقد سبق أن استبعدنا قوله بان رسالة ابن تاشفين لالفونسو وجهت اثناء سيره من اشبيلية الى بطليوس ، وان كنا نعتقد ان هذه الرسالة ارسلت من فحص الزلاقة بعد خروج جيوش المسلمين من بطليوس فى طريقهم الى ارض المعركة استعدادا للقتال وليس قبل وصولهم الى بطليوس كما ذكر صاحب الحلل .

٣ ـ وفقا لرواية الحميرى ، فسر الفونسو السادس لاصحابه السبب فى اصراره على التحرك للقاء المرابطين ، ورفض مجيئهم اليه لكى يحاربوه بانه كان يخشى فى حالة اذا ما حاربه المرابطون فى عقر داره وعلى ابواب مملكته ، ثم دارت عليه الدوائر ، وهزم فى هذه الواقعة ان يكتسح المرابطون بلاده ويستولوا على عرشه . وكما اوضح لهم كيف

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢

انه يخطط للاستيلاء على كافة أراضى المسلمين عند انتصاره هو عليهم وهو يقاتلهم فى أراضيهم وفى قلب ممالكهم (١) .

ب ـ القوات المسيحية والقوات الاسلامية امام بطليوس

ولقد تعددت الروايات بشأن تقدير عدد قوات المسلمين والنصارى غير ان جميع المصادر تجمع على أن عدد المسلمين كان اقل من عدد النصارى (٢) ، فصاحب الحلل الموشية يذكر أن عدة جيش النصارى بلغت ثمانين الف فارس يلبسون الدروع ، بينما كان عسكر المسلمين يناهز خمسين الف فارس : ٢٤ الفا من فرسان الاندلس ما بين مدرع ولابس ومثلها أو اكثر منها مرابطون وأهل العدوة (٣) .

ويذكر الحميرى ان المختارين من اجناده بلغوا على اقل تقدير اربعين الف دارع (٤) ، كما يذكر أن عدة المسلمين كانت اقل من عدة المسيحيين (٥) ، وذكر ابن الكردبوس فى تاريخه أنه كان قد خرج للقاء المسلمين فى ستين الف فارس (٦) ، اما صاحب روض القرطاس فقد بالغ فى ذكر عدد قوات الفونسو ، فذكر ان عدد الروم فيما نقل ثمانين الف فارس ومائتى الف راجل وانهم قتلوا جميعا ولم ينج منهم الا الفنش فى مائة فارس (٧) ويجعل عبد الواحد المراكشى عدد قوات المسلمين عشرين الفا من المتطوعة والمرتزقة (٨) .

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨
(٢) الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢ .
(٣) الحلل الموشية ، ص ٥٦
(٤) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٨
(٥) المصدر السابق ، ص ٨٨
(٦) ابن الكردبوس ، ص ٩٤ Huici Miranda, op. cit, P. 47
(٧) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦
(٨) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٣

انتقل يوسف بن تاشفين بعد ذلك الى موقع الزلاقة « من أحواز بطليوس (١) ...»، ويقول صاحب الحلل الموشية فى ذلك انه « لما احتلت عساكر المسلمين بظاهر بطليوس واحتل اذفنش بفحص الزلاقة على اربعة فراسخ من بطليوس (٢) ...»، انقسم جيش المسلمين الى قسمين، القوات الاندلسية ، والقوات المرابطية ، فقد تقدم المعتمد بن عباد وامراء الاندلس فنزلوا بجهة غير الجهة التى نزل بها ابن تاشفين والمرابطون ، ويغلب على الظن أن جيوش أهل الاندلس ، وكان يتولى قيادتها من ملوك الطوائف المعتمد بن عباد والمتوكل بن الافطس ، وعبد الله وتميم ولدى بلقين (٣) ، اختبأت خلف ربوة حاجزة ربما للاحتماء وراء هذا المانع أو لتعمية رجال الفونسو عن تقدير عددها الحقيقى، وليس كما يزعم صاحب روض القرطاس (٤) . وهذا يعنى بصراحة وجود تموجات فى أرض المعركة كانت تحمى قوات المسلمين ، وهو ما اشار اليه يوسف بن تاشفين فى خطابه الذى أرسله الى تميم بن المعز ابن باديس بالمهدية يصف فيه انتصاره الساحق على جيوش النصارى ، وفيه يقول « واستشهد الكل بحمد الله ، وصاروا الى رضوان الله ، ونحن فى ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد الينا قاصد، **فخرجنا من وراء الشعب** كقطع اللهب بجميع من معنا (٥) ... » وتصف مدونة الفونسو العاشر المعروفة بتاريخ اسبانيا العام ، معسكر

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

(٢) الحلل الموشية ، ص ٥٧ ، ويجعل ابن الكردبوس المسافة ثلاثة اميال (ابن الكردبوس ، ص ٩٣)

(٣) ذكر صاحب الحلل أن ملوك الطوائف بالاندلس اتفقوا على أن يكون المعتمد ابن عباد فى قلب المقدمة والمتوكل بن الافطس فى ميمنتها واهل شرق الاندلس فى ميسرتها وسائر أهل الاندلس فى الساقة ، والمرابطون واهل العدوة كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء (ص ٥٩)

(٤) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

(٥) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ملحق ١ ، ص ٤٤٩

يوسف بن تاشفين الذى تحصن وراء خندق اقامه حوله Que estavan bien cercadas de carcaua (١)

وربما كان الفونسو العاشر يعنى بهذا الخندق ما ذكره ابن الكردبوس بقوله « نزل بين جبلين » (٢) ، وكان يفصل بين المسلمين والمسيحيين رافد لواديانه يسمى اليوم جيريرو Guerrero (٣) . ويعزو كل من مانويل البران Manuel Albarran (٤) ومننديث بيدال Menendez - Pidal (٥) توفيق المسلمين فى المعركة الى ذكاء يوسف ابن تاشفين الحاد الذى جعله يحسن استغلال طبوغرافية الموقع لتنفيذ مخططه ، وان كان أويثى ميراندا Huici Miranda (٦) يرى أن ما اوردته المصادر العربية عن اختباء جيوش المسلمين خلف وهدة لايعدو قصة مختلقة تماما لانه حين زار ساحة الزلاقة لم يجد شيئا من هذه التموجات الارضية ،هذا الى جانب اعتماده على الحميرى فى تعريفه للزلاقة بانها « بطحاء (٨) أى انها منطقة مسطحة ، وكذلك يعتمد على مذكرات الامير عبد الله الزيرى الذى لايذكر شيئا بخصوص هذا الموضوع .

وقد اتيحت لنا الفرصة لزيارة موقع المعركة اى ساحة الزلاقة ، فرأينا سهلا ممتدا لا اثر فيه لاية مرتفعات ،ولكن هذا لايمنع من وجود بعض الوهاد أو المرتفعات على أيام المرابطين ،وقد تكون هذه الوهدة قد تعرضت لبعض العوامل الطبيعية التى ازالتها اليوم أو سوتها مع سائر المنطقة المسطحة .

---

(١) Primera Cronica general de España, ed, R Menendez Pidal, t. II, P. 558,

(٢) ابن الكردبوس ، ص ٩٣

(٣) Menendez pidal, la España del Cid, p. 333.

(٤) Albarran, el solar de los Aftasies, P. 237-238.

(٥) Menendez - pidal, la España del Cid, t. P. 333.

Huici Miranda, op. cit., p. 48.

(٦) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٣

ورغم أن أويثى لم ير هذه المرتفعات على سهل الزلاقة ، فانه لايوجد شاهد او دليل افضل من المصـــادر التى ذكـرت وجـوده واكدته ،وربما يكون الشىء الوحيد الذى لانستطيع أن نثبته معرفة عدد المرتفعات الصغيرة التى كانت ترتفع على سطح الفحص ، وأى من هذه المرتفعات استخدمه يوسف لاخفاء كمينه ؟

وهنا اتساءل اذا كان Huici يتشكك فيما ذكر من لجوء ابن تاشفين الى هذه الحيلة بحجة أن يوسف لم يسبق له أن زار هذه المنطقة من قبل ، فكيف له أن يتكهن بوجود هذه المرتفعات لو كانت حقـا موجودة ؟ ويرى البران Albarran أن الاجابة على ذلك أمر فى غاية السهولة ولايحتاج الى معرفة سابقة بالموضع ، فبمجرد ملاحظة وجود التموجات الطبيعية أوحى اليه بضـرورة استغـلالها للاستتارة خلفها (١) .

اقام المسلمون فى مواقعهم مدة ثلاثة أيام والرسل تجىء وتذهب بينهم وبين العدو الذى لم يكن يفصله عنهم سوى «نهر بطليوس » وهو نهر حاجز يشرب منه هؤلاء وهؤلاء (٢) ،وكان الفونسو كما ذكرنا قد اتفق مع ابن تاشفين على أن يبدأ القتال يوم الاثنين .

ولكن المعتمد بن عباد وكان على دراية كبرى بكل حيل الفونسو السادس داخله الشك فى نوايا الفونسو ، فنصح يوسف بن تاشفين بألا يثق فى اقواله فهذه خديعة منه يريد بها الايقاع بالمسلمين ، كما امر عساكره بأن يظلوا على اهبة الاستعداد طوال يوم الجمعة (٣) . وتختلـف الآراء حول هذا الموضوع وهو أمر طبيعى بالنسبة لجميـع الإحـداث

---

(١) Albarran, op. cit, P. 239.

(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ص ١٣٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩١ .

الهامة،فقد أورد الحميرى رواية تبدو مختلقة وان كنا سنوردها هنا لتوضيح مدى اهتمام المسلمين بهذه الواقعة وأثر هذه المعركة فى تغيير مسار التاريخ الاسلامى فى الاندلس الى حد أن المصادر العربية لم تكف عن احاطتها بجو اسطورى غامض . يقول الحميرى « وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس ، بجميع المحلات ، خائفين من كيد العدو ، وبعد مضى جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك ابو العباس احمد بن رميلة القرطبى ، وكان فى محلة ابن عباد ، فرحا ، مسرورا ، يقول انه راى النبى ﷺ فبشره بالفتح والشهادة فى صبيحة غد وتاهب ودعا ودهن راسه وتطيب ، وانتهى ذلك الى ابن عباد ، فبعث الى يوسف فخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر ابن فرذلند ، فحذروا اجمعين ،ولم ينفع ابن فرذلند ما حاوله من غدر (١) .

وذكر عبد الله بن بلقين فى مذكراته ان عسكر الفونسو فاجا المسلمين « وهم على غير اعداد ، وكان مختلسا ، انما له ما الفى فى تلك الساعة ، والقى سمه فى الرجل ، ومات منهم خلائق ممن لم يكن يقدر على نفسه (٢) » .

وفى رواية صاحب الحلل الموشية ان الفونسو استعد للغدر بالمسلمين يوم الجمعه بدلا من الاثنين ، وهو اليوم الذى اتفق عليه مع ابن تاشفين على القتال ،«ليأخذهم على حين غفلة ،غدرا منه ، وارتقى فى ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر اعداد جيوشه ، فاعجبه ما راى من كثرتهم ولمعان دروعهم ... فلما اعلم ابن عباد بقدوم الطاغية عليه ، بادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسيل ، وعمتهم كقطع الليل (٣) ... » .

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٠ ـ ٩١
(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥
(٣) الحلل الموشية ، ص ٥٩

وفى رواية عبد الواحد المراكشى أن الفونسو السادس وابن تاشفين اتفقا على ان يبدأ الاشتباك يوم الاثنين ، « وقصد ــ لعنه الله ــ مخادعة المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد ، فلما كان يوم الجمعه تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ، ولا أمارة عندهم للقتال ، وبنى يوسف بـن تاشفين الامر على ان الملوك لاتغدر ، فخرج هو واصحابه فى ثيـاب الزينة للصلاة ، فأما المعتمد فانه أخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكى السلاح ،وقال لامير المسلمين : صل فى أصحابك ، فهذا يوم ماتطيب نفسى فيه وها أنا من ورائكم ، وما أظن هذا الخنزير الا وقد أضمـر الفتك بالمسلمين ،فأنفذ يوسف وأصحابه فى الصلاة ، فلما عقدوا الركعـة الاولى ثارت فى وجوههم الخيل من جهة النصارى وحمل الاذفنش ــ لعنه الله ــ فى أصحابه يظن انه قد أنتهز الفرصة ، واذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ،فاغنى ذلك اليوم ، غناء لم يشهد لاحد من قبله (١) ..»

وأورد صاحب روض القرطاس نص رسالة موجهة من يوسف بن تاشفين الى بلاد العدوة جاء فى فقرة منها « فان العدو لعنه الله لما قربنا من حماه ، وتواقفنا بازائه ، بلغناه الدعوة وخيرناه بين الاسلام والجزية والحرب ،فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة فى يوم الاثنين الخامس عشر لرجب ... فافترقنا على ذلك ، واضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلناه أنهم أهل خدع ونقض عهود ، فأخذنا أهبـة الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا أحوالهم ، فأتتنا الانباء فى سحر يوم الجمعة من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين (٢) ... »

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الفونسو اصطنع الحيلة والدهاء فى حمل المسلمين على التواعد على القتال يوم الاثنين ، ولكن المعتمد تشكك

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٤
(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٧

فى الامر لما كان يعهده فى الفونسو من مكر وغدر ، وتأهب من يوم الخميس لخوض المعركة. فلما اقبل الليل من يوم الخميس العاشر من رجب عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) اخذ المعتمد بن عباد يعبىء جيشه ويصف صفوفه استعدادا للمعركة، وجعل عيونه يسهرون لمراقبة جيش العدو ويوافوه باخبارهم فى حالة تحركهم تجاه معسكر المسلمين ، واستمر على استنفاره حتى فجر يوم الجمعة، وبينما كان المعتمد بن عباد يؤدى الركعة الاخيرة من صلاة الصبح ، دخل عليه رجاله المراقبون للعدو فى عجلة من أمرهم وابلغوه بغدر العدو بالمسلمين وزحفهم نحوهم « بأمم كالجراد المنتشر » (١) .

فقد سمعوا ضوضاء الجيوش، وصليل الاسلحة ، وبعد لحظات بسيطة لحق بهذه المجموعة من طلائع ابن عباد ، مجموعة اخرى من عيونه ، وكانوا قد استرقوا السمع بداخل معسكرات الفونسو السادس ، فسمعوه يامر قواته بالهجوم على الجناح الذى يقوده ابن عباد لانه هو الوحيد فى اعتقاد النصارى الذى يفهم فى اصول الجهاد والحرب ، وانه وحده أدرى بالطبيعة الجغرافية للبلاد ، فاذا تمكن النصارى من هزيمته يسهل عليهم بعد ذلك التغلب على ابن تاشفين ، وكان الفونسو السادس يستهين بابن عباد ويظن ان بامكانه القضاء عليه بكل بساطة ويسر ، فارسل ابن عباد كاتبه ابا بكر بن القصيرة الى يوسف بن تاشفين يبلغه بهجوم العدو ويستحثه على الجهاد فجاءه ابن تاشفين يطمئنه بأنه وراءه يحميه ويدافع عنه (٢) .

وكان جيش المرابطين ينقسم الى قسمين :

القسم الاول : كان يضم فرسان البربر على مختلف قبائلهم ويتولى

---

(١) ابن ابى زرع ، نفس المصدر ، ص ٩٤ .
(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩١

قيادته داوود بن عائشة وكان « لا نظير له فى الحزم والعزم والنجدة » (١) .

القسم الثانى : ويشكل الجيش الاحتياطى كان يقوده يوسف بن تاشفين بنفسه وقد استبقى ابن تاشفين معه افضل جنده من لمتونه وصنهاجه (٢) ومصمودة وزناتة وغمارة مع الحرس الزنجى الاسود الخاص بالامير المرابطى شخصيا (٣) .

اما قوات الفونسو فكان يقود مقدمتها القائد القشتالى البرهانس وكان معظمها من جنود أرغون والمتطوعة (٤) . اما معظم جيشه فقد كان بقيادته شخصيا . وقبل أن نبدأ فى سرد تفاصيل واقعة الزلاقة يجدر بنا أن نذكر الطريق الذى سلكه كل من جيش المرابطين وجيش النصارى للوصول الى ساحة القتال فى فحص الزلاقة ، وهو سهل يمتد فى الاراضى الواقعة الى الشمال الشرقى من حاضرة بنى الافطس .

فمن المعروف أن أمير المرابطين كان قد اتجه مع جيوش اشبيلية نحو بطليوس لان ذلك كان الموقع الاستراتيجى الذى يجب على الفريقين المتنازعين من حيث المنهج التكتيكى البحث عنه ، مع الاخذ بعين الاعتبار أولية تقديم العون للمتوكل عمر بن الافطس على غيره من ملوك الطوائف باعتباره أكثر هؤلاء الملوك تعرضا للخطر القشتالى ، لاسيما بعد أن قضى الفونسو على مملكة طليطلة . أما القول بان يوسف لم تكن لديه النية فى ضياع وقت طويل للوصول الى بطليوس ، وان هذه المدينة كانت الهدف الرئيسى لحملته التالية كما يذكر البران (٥) فقول

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ — ٩٥
(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٢
(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٤٩٦ . Albarran, op. cit., p. 135.
(٤) صاحب الحلل الموشية ، ص ٧٢
(٥) Albarran, op. cit, P. 210.

نرفضه تماما لان يوسف بن تاشفين فى جوازه الثانى قد جاز الى الاندلس لفك الحصار عن حصن لييط ، وفى جوازه الثالث الذى حدث فى اوائل سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) استهدف منه الاطاحة بملوك الطوائف بدءا بالامير عبد الله بن بلقين ولو أنه كان يريد بطليوس كما يعتقد البران بحجة انه قد اختار أن يذهب الى بطليوس قبل حربه مع الفونسو وان يستقر بظاهرها لاطماعه الشخصية فيها ، لكان قد سارع بالاستيلاء عليها فى جوازه الثانى أو حتى بعد جوازه الثالث الى الاندلس بدلا من توجهه الى غرناطة فى الجواز الثانى وخلعه لملكها ثم نفيه الى أرض المغرب ، واصداره الامر لقائده الاكبر سير بن ابى بكر بمحاصرة ابن عباد فى اشبيلية ونفيه باغمات بينما ترك أمر ابن الافطس لسنوات اربعة مضت من وقعة الزلاقة (١) .

ولقد سلك المرابطون اقصر الطرق الى بطليوس وهو الطريق الذى يمر عبر سيرا مورينا بدءا بفريجينال ومرورا بشريشة وهى التى اطلق عليها العرب اسم جريشة (٢) Jerez de los caballeros وباركاروتا Barcarrota ثم لابويره la Albuera واخيرا وصل الى بطليوس ، هذا الطريق هو نفس الطريق الذى يسلكه المسافر اليوم من اشبيلية الى بطليوس (٣) .

وقبل أن نبدأ فى سرد تفاصيل معركة الزلاقة ينبغى ان اوضح أمرا هاما وهو أن اختيار أمير المرابطين يوسف بن تاشفين لبطليوس على وجه الخصوص دون غيرها من المناطق الثغرية الاخرى ، لتكون ميدان قتاله ضد العدو ، تم نتيجة ادراكه التام من خلال الرسائل العديدة التى سبق لابن الافطس أن أرسلها له ، بان هذه المملكة الغنية بخيراتها ، اصبحت عرضة للخطر المسيحى عقب استيلاء الفونسو على مملكة

---

(١) صاحب الحلل الموشية ، ص ٧٢

(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٤

(٣) تقع باركاروتا على بعد ٢٧ ك٠م ٠ الى الشمال من جريشه و٤٧ ك٠م الى الجنوب من بطليوس ٠ اما لابويره وهى مشتقة من العربية « البحيرة » فتقع فى منتصف الطريق بين باركاروتا (٢٣ كم) وبطليوس (٢٤م) .

طليطلة مما يؤكد وجهة نظرنا التى سبق ان اوضحناها وهى ان الفونسو السادس كان يطمع فى بطليوس بنفس قدر طعمه فى مملكة طليطلة ،وانه لو كانت لمملكة بطليوس نفس الظروف السياسية المضطربة التى اقترنت بمملكة طليطلة لكان قد استفتح بها حروبه ضد المسلمين • ونستدل على رأينا بما ورد فى رسالة يوسف بن تاشفين الى الناصر تميم بن المعز بن باديس فى المهدية ، وفيها يشير الى خروجه من بطليوس فى طريقه للقاء الفونسو وجاء فيها : « فجمعنا عساكرنا وسرنا اليه (اى الى الفونسو) وصرنا قفل قورية عن بلاد المسلمين ، صرف الله فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد وردنا واحتل بفنائها منتظرا لنا » •

ونستنتج من ذلك النص ان ابن تاشفين عزم على الخروج من بطليوس نحو قورية ولكن الفونسو عجل بالمجىء الى بطليوس للقائه، وواضح من النص ان اهتمام يوسف ابن تاشفين كان موجها الى مملكة بنى الافطس •

ولقد انتظر يوسف بن تاشفين فى بطليوس عدة ايام لاراحة قواته من جهة ، ولكى يترك للملك المسيحى فرصة التوغل فى اراضى المسلمين من جهة اخرى ، اى ان انتظاره هذا كان ضربا من الايقاع به فى شباك المسلمين ،واستمر فى ذلك الى ان تأكد له ان الفونسو قد اقترب اكثر فاكثر من معسكر المسلمين • هذه الخطة تؤكد ان اللقاء قد جرى فى اراضى قريبة للغاية من العاصمة بطليوس ، وهذا سيساعدنا على تحديد موقع الزلاقة فى يومنا هذا كما سنوضحه فى الصفحات التالية ، ومما لاشك فيه ان نزول ابن تاشفين بظاهر بطليوس يعبر عن ذكاء واضح اذ انه باتخاذه ارض المعركة فى ظاهر بطليوس سيضمن لنفسه ولجيشه ملجا امينا لهم فى حالة الهزيمة امام العدو والشىء الغريب الذى اورده الامير عبد الله الزيرى ان يوسف بن تاشفين اصابه التياث ويعتقد البران ان هذا الخوف يصيب عادة كبار السن من الخوف او

القلق (١) لاسيما فى المواقف الحاسمة وقد أشار عبد الواحد المراكشى الى ذلك بقوله « ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف امرا عظيما هالهم من كثرة عدد وجوده سلاح وخيل وظهور قوة قتال للمعتمد : ماكنت أظن هذا الخنزير لعنه الله يبلغ هذا الحد » (٢) ...
اما الطريق الذى سلكه الفونسو السادس ليصل بقواته الضخمة الى ساحة القتال ، فقد قام أوليفر اسين Asin بدراسته وان كان البران يرفض نتائج دراسة أسين Asin ويرى أن الجغرافية الطبيعة هى التى تتحكم فى مسيرة الجيوش ، لذا فقد وضع خطا آخر لسير الفونسو غير الذى اقترحه اسين (٣) . ومن يتتبع الخريطة الجغرافية يتبين له من المنطقى ان يكون الفونسو السادس قد هبط من قورية التى كان قد استولى عليها فى عام ٤٧٢هـ (سبتمبر ١٠٧٩م) نحو الجنوب سالكا الطريق المؤدى الى العمق الاسلامى حيث قوات المسلمين . وكان على الفونسو لكى ينحدر من قورية أن يسلك الطريق الى القنطرة المؤدى الى الجنوب ، وكان طريقا معروفا ومسلوكا .

ولكننا لانستطيع ان نحدد على وجه اليقين هل سلكه الملك الليونى مع قواته ام لا ، حيث أن القنطرة فى ذلك الوقت كانت تابعة للمسلمين، وليس لدينا من المصادر العربية أو النصرانية ما يشير الى انها سقطت فى يد الملك المسيحى الفونسو السادس أو من قبل فى يد أبيه فردلند (فرناندو الاول) .

ولذلك نرجح ان يكون الفونسو ورجاله قد سلكوا قطاعا من الجادة الرومانية التى كانت تربط بين بودوا القديمة وهى القرية التى كانت تقوم فى موضع مدينة بطليوس او قريبا منها Budua وسبتم آراس

---

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥ .
(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٣
(٣) Albarran, op. cit, p. 213

Septum Aras التى تقـــع بالقـــرب مـــن حصـــن كركر Albuquerque وهذا القطاع من الجادة يحف بمجرى خيفـورا Gevora وينتهـى ببطليوس والسهول ، وكانت هذه الجادة تربط بطليوس بالشمال وكان المسلمون يستخدمونها فى أسفارهم الى قورية ، بمعنى أن الفونسو سلك الطرق القديمة لكى يصل الى سهول بطليوس من الشمال ، وكان عليه ان يعبر سلاسل جبال سان بدرو التى تعترض طريقه ، ويهبط منهـا فيتجه المرابطون نحوها للقائه ، وفى هذه الحالة يكون الفونسو السادس قد اصبح قريبا للغاية من بطليوس .

واذا دققنا فى تاريخ المعركة فسنجد ان الاشتباك قد تم فى فصـل الخريف ، وهو فصل معتدل بالنسبة لاقليم استراما دورا ، أيامه طويله ، اما النهر الذى كان يفصل بين المتحاربين وهو نهر جاريرو ، فقد كان ما يزال آنذاك شحيح المياه فهو لا يمتلىء بالماء الا فى مواسم السيول ، وظاهرة وجود شريعة او نهر كحاجز طبيعى كانت تؤخذ فى الاعتبـار دائما فى التكتيك العسكرى فى العصور الوسطى خاصة فى المعارك التـى كانت تدور بين المسلمين والمسيحيين ، ويؤيد هذا الاتجاه ابيات مـن الشعر نظمها الشاعر ابو بكر الصيرفى من شعراء القرن السادس الهجرى يدعو فيها المرابطين أن يفصل بينهم وبين النصارى نهر عند الشروع فى القتال ، لايتخطونه (١) .

ونطالع فى هذه القصيدة الابيات التى تعبر عن سياسة المسلمين فى الحروب :

خندق عليـــك اذا ضربـــت محلـــة   سيـــان تتبـــع ظاهـــرا أو تتبـــع
وتوق مـــن كـــذب الطلائـــع انـــه   لا رأى للكـــذاب فيمـــا يصنـــع
فاذا احترســـت بذاك لم يك للعدى   فى فرصـــة او فى انتهـــاز مطمـــع

(١) Henri Péres, la poesie andalouse, P. 355.

لا تبقين النهر خلفك عندما تلقى العدو فامره متوقع
اجعل مناجزة العدو عشية ووراءك الصدف الذى هو امنع (١)

ويعتقد البران اعتقادا راسخا ان يوسف بن تاشفين استعرض قواته امام الفونسو السادس لتخويفه وبث الذعر فى نفوس قواته ، واعتمد البران فى رايه هذا على نص الحميرى ، الذى قال فيه « فلما صلوا الصبح ، ركب الجميع ، واشار ابن عباد على يوسف بالتقدم الى اشبيلية ففعل ، وراى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر واعان وخرج (٢) ... » .

ولكننا لانرى ما يراه البران ، فاذا امعنا النظر فى هذا النص يتبين اولا ان هذا الاستعراض الذى ذكره البران (٣) لم يكن فى ظاهر مدينة بطليوس او فى فحص الزلاقة ميدان القتال كما ذكر البران ، وانما حدث اثناء خروج الجيش من الجزيرة الخضراء الى اشبيلية ونص الحميرى صريح لايحتاج الى تفسير فى تحديد ذلك ، وثانيا ان هذا العرض لم يكن يهدف تخويف العدو او بث الذعر فى نفسه فالعدو كان مايزال بعيدا عن عيون المسلمين ، وانما كان بهدف بثروح الطمأنينة فى نفوس مسلمى الاندلس واعادة ثقتهم فى احراز النصر ليواجهوا العدو باقدام ثابتة ونفوس مجبورة ، واذا كان هناك ثمة عرض عسكرى امر به يوسف بن تاشفين فهو العرض الذى اجراه عند موضع يعرف بالرقة .

فقد اورد عبد الواحد المراكشى نصا يثبت ان امير المرابطين قام بعرض عسكرى قبل الوصول الى بطليوس ولبس بعد وصوله اليها وامام العدو كما يرى البران ، يقول المراكشى « ثم ان يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة ، فراى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على

---

(٢) الحلل الموشية ، ص ١٢٦ ، وما يليها
(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٧
(٣) Albarran, el solar, op. cit, p. 226.

الله : هلم ماجئنا له من الجهاد ، وقصد العدو (١) .. » . ولانعرف على وجه التحديد اين يقع حصن الرقة هذا ، فلم يات ذكره فى الروض المعطار للحميرى ، ولا فى نزهة المشتاق للادريسى ، ولكن كل مانستطيع ان نؤكده هو ان هذا الحصن يقع فى الطريق الى بطليوس على مسافة بعيدة منها بدليل ان ابن تاشفين بعد استعراضه لجنده فى هذا الحصن ، طلب من المعتمد الاسراع فى لقاء العدو وتحقيق الهدف الرئيسى الذى من اجله جاز الى الاندلس .

واورد صاحب روض القرطاس ما يشير الى قيام ابن عباد بتعبئة كتائبه يوم الخميس العاشر من رجب استعدادا للقتال، والنص كما يلى « فلما جاء الليل من يوم الخميس العاشر لرجب المذكور عبأ ابن عباد كتائبه وصف جيوشه واستعد للقتال » (٢) .

ونستنتج من رسالة الفونسو السادس الى ابن تاشفين التى طلب منه فيها ان يكون يوم الاشتباك بينهما هو الاثنين لان الجمعه عيد المسلمين والسبت عيد اليهود والاحد عيد النصارى ، ان جماعة كبيرة من اليهود شاركوا فى الحرب الى جانب الفونسو . ويشير اما دور دى لوس ريوس (٣) فى بحثه عن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لليهود الى ايثار الفونسو السادس لاصحابه اليهود الذين حاربوا معه بشجاعة فى الزلاقة وانه كان يميزهم بعمائمهم السوداء والصفراء ، وكان من نتيجة ذلك المعاملة الكريمة التى عومل بها اليهود فى « كتاب قوانين المدن فى دولة ليون » .

واستخدم المرابطون الجمال ، وقد ارعب وجودها خيول المسيحيين

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٢

(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤

(٣) Amador de los Rios, Historia social y económica de los Judios, P 104 - 105.

فنفرت عند رؤيتها وعند سماع رغائها (١) . وبينما يؤيد منندبث بيدال (٢) ذلك نجد البران يعارض بحجة أن الجمل لايصلح للقتال وانما لنقل المتاع ، والمسلمون كانوا يحاربون على الخيل ، ويستطرد البران عرض رايه قائلا « ثم أن هذه الجمال حتى لو افترض انها شاركت فى القتال ، فانها لم تكن لترهب قوات الفونسو او تنفر منها الخيول لانها كانت معروفة فى اسبانيا ، ففى عصر الامارة الاموية حمل جسد المنذر من ببشتر الى قرطبة على جمل ، وفى القرن العاشر وصلت الى مدينة الزهراء قافلة من ١٣٠ جملا ارسلت من المغرب (٣) ،واستخدم المنصور بن ابى عامر فى حملته الاخيرة (٣٩٣هـ) (١٠٠٢م) جيشا من الجمال لحمل أدوات القتال ، كما وصف ابن جاخ الشاعر البطليوسى جملا فى قصيدته الوداع (٤) .

ونضيف الى هذه الامثلة التى ساقها الاستاذ البران مثلا آخر لنقش يمثل جملا نحتت صورته نحتا بسيطا فى احد الجوانب الخارجية لحوض صغير من الرخام مزين بالزخارف البارزة من جوانبه الداخلية وتمثل صور بط يصيد سمكا (٥) .

ومع ذلك فاننا نميل الى الاعتقاد بأن يوسف بن تاشفين استخدم

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت جـ٧ ص ١١٦ ، يقول ابن خلكان « وأمر (يوسف بن تاشفين) بعبور الجمال ، فعبر منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأواقط جملا ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها ، وكانت تذعر منها وتقلق ، وكان ليوسف بن تاشفين فى عبورها رأى مصيب كان يحدق بها معسكره وكان يحضرها الحرب ، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها » .

(٢) Menendez - pidal, Espana del cid, op. cit, p. 335

(٣) Levi - Provençal, op. cit., v IV, P 201.

(٤) Albarran, el solar, op. cit., p. 231.

(٥) جومث مورينو ، الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة د. لطفى عبد البديع ، ود. السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٢٤ .

الجمال بكثرة فى موقعة الزلاقة وان وجود الجمال فى حد ذاته لخدمة أجناده فى القتال واجابة نجابته فى مهاجمة الاعداء ، كان ثورة فى الفن التكتيكى الحربى عند المرابطين فى أرض الاندلس .

ومن حيث الاسلحة استخدم المرابطون درق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان (١) .

جـ - تفاصيل المعركة :

حدث ما توقعه ابن عباد ، فقد هاجم الفونسو قوات المسلمين يوم الجمعة الثانى عشر من شهر رجب من سنة ٤٧٩ هـ الموافق ٢٣ اكتوبر سنة ١٠٨٦م على حين غفلة (٢) ، وبدأ القتال بهجوم مقدمة القشتاليين

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٧ ، ص ١١٨

(٢) تختلف الروايات الاسلامية بشأن تحديد تاريخ معركة الزلاقة ، فابن الاثير يذكر أن الزلاقة وقعت فى أوائل شهر رمضان ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) (ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٥٣) وعبد الواحد المراكشى يذكر أنها كانت يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) (انظر المعجب ، ص ١٣٥) أما ابن ابى زرع وصاحب الحلل الموشية فقد اجمعا على انها دارت يوم الجمعة ١٢ رجب من سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) (انظر الحلل الموشية ، ص ٥٩ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦) وهذا التاريخ هو الذى أخذ به الاستاذ محمد عبد الله عنان (دول الطوائف ، ص ٣٢٣) - ونأخذ به نحن حيث أن يوسف بن تاشفين قد حدده وذكره صراحة فى رسالته الرسمية التى ارسلها الى الناصر لدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية ، فهو يقول له « وبنينا على لقاية يوم الخميس لاحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين واربعمائة ، فلما كان يوم الجمعة ثانية ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق ... » (انظر محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٤٤٨) وهذا التاريخ ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ يوافق الثالث والعشرين من شهر اكتوبر العجمى كما يذكر ابن أبى زرع فى روض القرطاس ،ص ٩٨ من =

والارغونيين على مقدمة القوات الاندلسية بقيادة القائد البرهانس . أما جانب الدفاع الاسلامى / الاندلسى ، فكان يقوده ابن عباد ، وكان هذا الهجوم من العنف والقوة بحيث ارتدت القوات الاندلسية جميعهـا الى بطليوس ماعدا قوات المعتمد ، وذلك يعنى أن عمر المتوكل بـن الافطس تراجع مع قواته (١) التى كانت تشكل الميمنة فى المقـدمة الاسلامية الى حاضرته محتميا بها من ضربات العدو ، كذلك تراجعت معه قوات الميسرة ، ويمثلها عسكر شرق الاندلس (٢) .

اما ابن عباد فقد كان له دور بطولى فى هذه المرحلة الاولى من واقعة الزلاقة ، فقد استمات فى القتال ، وتلقى الطعنات الى حد انـه اثخن بالجراح العديدة (٣) اما جنده فقد استشهد منهم اعداد كبيرة ،

= سنة ١٠٨٦م ، وذلك هو نفس التاريخ الذى تضعه الرواية الاسبانيـة باستثناء مدونة الفونسو Huici Miranda, op. cit, p. 65.
العاشر فقد حدد الفونسو العاشر فى مدونته عن تاريخ اسبانيا العام التاريخ الذى دارت فيه المعركة بيوم الجمعة الموافق اول نوفمبـر Esta batalla fue fecha, assi como cuenta la estoria, viernes primero dia de noviembre (Cronica general de España p. 558).

(١) نستدل على ذلك من قول ابن الابار فى الحلة السيراء « ونكـل المتوكل يومئذ وغيره من الرؤساء وكان فيه للمعتمد ظهور مشهور » (الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ١٠١) .

(٢) الحلل الموشية ، ص ٥٩ .

(٣) ابن الكردبوس ، ص ٩٤ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٢ ، ويقول الحميرى فى ذلك « وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد مثله لاحد ، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقة وغضبة الحرب ، واشتد البلاء وابطأ البصحراويون ، وساءت ظنون أصحابه ، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله ، واثخن ابن عباد جراحات وضرب على راسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه ، وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى احد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة افراس ، كلما هلك واحد ، قدم له آخر ، وهو يقاسى حياض المـوت ، ويضرب يمينا وشمالا ، وتذكر فى تلك الحالة ابنا له صغيرا كان مغرما به ، تركه باشبيلية عليلا ، اسمه العلاء وكنيته ابو هاشم » =

ولم يكتف العدو الغادر بهذا الهجوم العنيف الذى تراجع له المسلمون وانما تتبع الكثير منهم فلول المسلمين فى المناطق المجاورة لارض المعركة وتلفت ابن عباد حوله فألفى معظم جيوش الاندلس قد فر من ساحة القتال الى بطليوس ، وثبت وحده وسط عسكره واجناده وابلى بلاء حسنا ولكنه صبر رغم الخسائر الفادحة التى تعرض لها جيشه ، وكان اول من وافاه من قادة المرابطين داود ابن عائشة ، فخفف عنه عبء القتال وانتظم به شمل ابن عباد . وفى نفس الوقت انحطت قوات يوسف ابن تاشفين بقيادة سير بن ابى بكر على مؤخرة جيوش الفونسو ، واقتحمت محلته واضرمتها نارا ، واهتزت ساحة المعركة بطبولهم ، فارتاعت لها قلوب عسكر المسيحيين وسقط فى ايديهم ، فالووا اعنتهم وتراجعوا ، فانحصروا بين قوات المرابطين فى المؤخرة وقوات ابن عباد واستمر القتال ، ولم تلبث صفوف العدو ان انهارت واذرع المسلمون فيهم بالسيوف ثم دارت الدائرة على جيش الفونسو فمزقه المرابطون شر ممزق ، وسحقوه سحقا ، وتداعى الاجناد والحشم والعبيد للنزال ، كما عادت فلول الاندلسيين بعد سماعهم بأخبار النصر فكانت الهزيمة النكراء التى منى بها الفونسو السادس وحلفاؤه وتمكن احد الغلمان السود من طعن الفونسو بخنجره ففر امامه مع فئة قليلة من رجاله ، فاقتفى المسلمون اثرهم وركبوهم بالسيف ، وتمكن الفونسو من التسلل اثناء الليل فى ثلاث مائة فارس من رجاله (١) ، ولحق بطليطلة مهزوما (٢) .

= (وانظر مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٥ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٤ ، الحلل الموشية ، ص ٥٦) .

(١) ابن الكردبوس ، ص ٩٤ ، ويجعل صاحب روض القرطاس عدد الناجين معه خمسمائة فارس (ص ٩٦) ويعطى الحميرى نفس الرقم ، وذكر صاحب الحلل الموشية انه لم يفلت معه من اصحاب سوى اربعمائة (الحلل ، ص ٦٣) .
اما عبد الواحد المراكشى فيبالغ فى تقدير عدد الناجين ، فيقلل من عددهم تعظيما للنصر ويجعلهم تسعة (المعجب ، ص ١٣٤) =

ومما لاشك فيه ان يوسف بن تاشفين كان يستهدف ايهام الفونسو بأن الهجرم الذى شنه على قوات ابن عباد الاندلسيين كان موجها أيضا الى جيوش المرابطين ، فاذا ما ركز الفونسو هجومه على ابن عباد تحركت جيوش ابن تاشفين المتوارية وراء الربوة لتضرب مؤخرة جيوش الفونسو وبذلك يجعل قوات الفونسو بين شقى رحى ويطوقها تطويقا شاملا فيبيدها ابادة تامة وهو ما تحقق له فى النهاية .

وخطة يوسف على هذا النحو تعبر عن مدى الذكاء والمهارة الحربية التى كانت تتوفر لدى هذا القائد الصحراوى ، فقد تقدم وسط قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة قاصدا المعسكر المسيحى نفسه فهاجمه بكل عنف وشدة ، وكان من حسن طالع الامير المرابطى أن كانت القوة المسيحية التى تتولى حراسة هذا المعسكر محدودة العدد ،فاثخن فيهم من الخلف وسحقها تماما . ثم أطلق يوسف بن تاشفين مفاجاته الاخيرة حين دفع بحرسه الاسود ، وكان عددهم يصل الى اربعة آلاف مقاتل الى قلب المعركة ، وقد تمكن احد هؤلاء الفرسان السود من طعن الملك الفونسو فى فخذه طعنة انهارت لها البقية الباقية من قوته فلاذت بالفرار.

= والارجح أن عدد الذين افلتوا مع الفونسو السادس من سيوف المسلمين بلغ ١٥٠٠ استنادا الى الرسالة التى بعث بها يوسف بن تاشفين الى بلاد العدوة (انظر نص الرسالة فى روض القرطاس ، ص ٩٧) .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن معركة الزلاقة ارجع الى ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ١٠٠ ، ١٠١ ، مذكرات الامير عبد الله الزيرى، ص ١٠٤ — ١٠٦ ، ابن خلكان،وفيات الاعيان ، ج٧ ، ص ١١٣ — ١٢١ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ص ١٣٢ — ١٣٥ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٤ — ٩٧ ، الحلل الموشية ص ٥٩ — ٦٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس فى كتاب الروض المعطار ، ص ٨٣ — ٩٥ وراجع ايضا .

A. Huici Miranda, La invasión de Los Almravides y La batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, P. 17 - 76 & P. R. Menendez Pidal La España del Cid, Vol, pp. 328 - 339.

ورغم اجماع كافة المصادر العربية على الدور البطولى الذى قام به المرابطون فى واقعة الزلاقة الا ان ابن الكردبوس قد اورد ما يتعارض مع ماجاء فى تلك المصادر ، فابن الكردبوس يبرز مدى الشجاعة والفروسية التى ابداها المعتمد بن عباد دون سائر ملوك الطوائف فى بدء المعركة « ووقف لهم المعتمد كالاسد الورد، وناطحهم مناطحة الاقران وثبت ثبوت راسخات الرعان حتى اثخن بالجراح ، وتبع الروم فل المسلمين، ثمانية عشر ميلا فى تلك البطاح يقتلون ويأسرون وينتهبون (١) » ثم يصور ابن تاشفين على انه لم يكن بالبسالة والوفاء الذى اوضحته المصادر الاخرى فيذكر انه عندما علم بالهزيمة النكراء التى منى بها مسلمو الاندلس فى بادىء الامر قال « اتركوهم قليلا للفناء فكلا الفريقين من الاعداء ، فلما تحقق ان اكثرهم قد اسر وقتل راى انه قد آن ان يفترس العدو اذ قد تباعد عن محلته وتحمل،وقصد بجيشه محلة العدو فتغلبها واستأصلها وانتهبها وقتل فيها نحو عشرة آلاف راجل وفارس وما منهم الا بطل مداعى ، ومضى على وجهه فى اثر الفنش وقد تفرق له فى اتباع الاسلام اكثر الجيش ، فوضعوا السيوف فى ظهورهم ، والارسل فى نحورهم ، فانهزموا وولوا مدبرين (٢) .... » .

وهذه الرواية التى اوردها ابن الكردبوس تتناقض تناقضا تاما مع غيرها من الروايات الموثوق بها والتى ساقها مؤرخون معاصرون للمعركة امثال الامير عبد الله الزيرى ، ويبدو ان ابن الكردبوس قد اختلط عليه الامر ، فهناك خلاف من نوع آخر ، وقع بين ابن تاشفين وبين المعتمد ابن عباد بعد انتصار المسلمين فى الزلاقة ، فالمعتمد كان يرى الاستمرار فى مطاردة العدو اثناء انسحابه مفلولا ، اما يوسف بن تاشفين فكان يرى الكف عن مطاردته حتى تعود فلول المسلمين التى ولت الادبار بعد

---

(١) ابن الكردبوس ، نصان جديدان ، تحقيق د. مختار العبادى ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

الهجوم الذى شنه الفونسو السادس على جيوش الاندلسيين ، وقال انصار ابن عباد «لم يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الصواب والراى فى معالجته ، ولكنه خاف ان يهلك العدو الذى من اجله استدعاه فيقع الاستغناء عنه وقالت شيع يوسف : انما اراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الاندلس • وقال آخرون : كلا الرجلين اشهر حسوا فى ارتغاء ، وان كان ابن عباد احرى بالصواب [١] •»

ويرى اويثى ميراندا Huici Miranda ان الانتصار الذى احرزه المسلمون فى واقعة الزلاقة انما يدينون به للفرسان المغاربة [٢] وعلى نقيض ذلك نجد منندث بيدال يشير الى ان الامر يتعلق بتخطيط عسكرى جديد يكفى لارباك الروح القتالية عند عسكر المسيحيين ، فقد عمد المرابطون الى القتال فى صفوف متراصة متناسقة ، ولم يكن الفرسان المسيحيون على علم بهذا الاسلوب القتالى ، اذ كانوا قد اعتادوا على القتال الفردى ، ويعزو اسباب الهزيمة الى دور الطبول اللمتونية التى سمعت لاول مرة فى اسبانيا فى هذه الموقعة مما ادى الى ارباك جيوش الفونسو السادس [٣] •

واذا حاولنا تقدير الخسائر التى لحقت بكل من الفريقين يتبين لنا ان خسائر الجانب المسيحى فاقت الى حد كبير خسائر المسلمين ، فكما سبق أن رأينا من نص ابن ابى زرع انه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس او اقل ، هم الذين تراجعوا متقهقرين مع ملكهم الفونسو السادس عقب اصابته فى الواقعة ، وقد تابعوا فرارهم مع فلوله

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٩٣ ، الحلل الموشية ، ص ٦١ •

(٢) Huici Miranda, La invasion de los almoravides y la batalla de Zalaca, p. 70 - Albarran, el solar, op cit., p. 133.

(٣) R. Menendez - Pidal, la España del Cid, pp. 335 - 339.

ولم يتوقفوا الا عند قورية ، ولما كان معظمهم مثخنين بالجراح فقد مات معظمهم فى الطريق ولم يصل الى طليطلة مع ملكهم سوى مائة (١) .

وهذا نفس ما ذكره ابن تاشفين فى خطابه الرسمى الذى ارسله الى بلاد المغرب عقب واقعة الزلاقة ، فهو يقول « وتسلل الفنش تحت الظلام فارا لايهدى ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق اربعمائة فلم يدخل طليطلة الا فى مائة فارس (٢) ...» .

ويرى صاحب الحلل الموشية ان خسائر النصارى من القتلى بلغت نحو ثلاثمائة الف ، اما من نجا من هؤلاء الاعداء ، « لم يفلت منهم اكثر من اصحاب غرسية الذى اعتزل عن القتال ، وهو نحو اربعمائة افلتوا مع الطاغية (٣) ... » .

ويذكر ابن ابى زرع ان عدد من استشهد من المسلمين قد بلغ فى هذه الموقعة نحو الثلاثة آلاف رجل وان امير المرابطين قد امر بقطع رءوس القتلى من الروم فتقطعت وجمعت بين يديه « كامثال الجبل وبعث منها الى اشبيلية عشرة آلاف راس ، والى قرطبة كذلك والى بلنسية مثلها والى سرقسطة ومرسية مثلها وبعث الى بلاد المغرب اربعين الف راس فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والخير العظيم (٤) .... » .

ويقدر ابن ابى زرع عدد النصارى الذين اشتركوا فى المعركة بنحو ثمانين الف فارس ومائتى الف راجل قتلوا جميعا ولم ينج منهم سوى

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٩٦ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ملحق ٢ ، ص ٤٥١ .
(٣) الحلل الموشية ، ص ٦٢
(٤) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٦ .

المائة الذين وصلوا مع ملكهم الى طليطلة (١) . اما صاحب الحلل الموشية فيرى ان عدد الرؤوس التى اجتمعت لابن عباد بلغت اربعة وعشرين الف فارس (٢) .

ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان (٣) انه لابد وان تكون خسائر المسلمين اعلى بكثير مما ذكرته المصادر العربية فليس من المنطقى ان تقتصر على ثلاثة آلاف خاصة وان اهل الاندلس فوجئوا بهجوم قوات الفونسو عليهم فخرجوا للقتال من غير تعبئة فانهزموا وولى معظمهم الادبار الى بطليوس وثبت المعتمد بن عباد فى اصحابه الى ان وافتهم قوات ابن عائشة . وواضح ان الارقام التى اوردها ابن ابى زرع مغالى فيها للغاية من حيث تقدير القوة المسيحية ومن حيث عدد القتلى منهم .

واذا اردنا بعد سردنا لاهم احداث تلك المعركة ان نقيم اهم المصادر التى تناولت هذه المعركة فسوف نجد ان النصوص المتاخرة وفيرة فى هذا الصدد لاسيما من الجانب الاسلامى ، اما النصوص المعاصرة للموقعة فشحيحة وتقتصر على النصوص العربية واهم هذه النصوص المعاصرة بلا شك ما احتوته مذكرات ملك غرناطة عبد الله بن بلقين ابن باديس الزيرى ، ولقد شهد هذا الملك الزيرى موقعة الزلاقة ، ولهذا فان رواياته لها اهمية خاصة ، وقيمة كبرى كما أن تحليله للاحداث وما وراءها عميق ورائع يعبر عن حقيقة الاوضاع ، ويتميز بالصدق فى التفاصيل الواردة .

وهناك نص آخر معاصر اذا ما استبعدنا الشكوك فى صحته ، ذلك هو الرسالة التى كتبها يوسف بن تاشفين الى امير بنى زيرى بافريقية يبلغه فيها بهزيمة الفونسو السادس ، هذه الرسالة وثيقة رسمية صحيحة ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٣ .
(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٨ .

عثر عليها بين المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبة الاسكوريال اكتشفها الدكتور العراقى صلاح الدين عبد الرحمن خالص ، وقد نشر ليفى بروفنسال وغرسية جومث النص العربى لهذه الوثيقة بالاضافة الى الترجمة والتعليق ([١]) .

ولكن أويثى ميراندا Huici Miranda تشكك ووضع تحفظات على صحة هذه الوثيقة ، فذكر أن الرسالة لاتسجل الرواية الرسمية عن المعركة ([٢]) ، ويرى البران Albarran ان هذه الرسالة لاتتضمن حقا اسم الكاتب الذى كتبها فى ديوان يوسف بن تاشفين ، ولا تاريخ الرسالة ولا حتى موضع المعركة وهى ظروف لاحظها المترجمان والمعلقان عليها فى المقال سالف الذكر ، ولكن رغم ذلك فان اغفال أى من هذه الامور لاينهض دليلا على التشكك فى صدقها تماما ، فان صياغتها تتفق وتخضع للاسلوب الشائع عند كتاب الاندلس فى تلك الفترة ([٣]) . كذلك تشكك كارلوس كيروس فيما بعد فى هذه الرسالة اذ اعتبرها غير رسمية وغير موثوق فى انها صدرت من ديوان يوسف ([٤]) . ونحن لانميل الى الاخذ بهذه الآراء التى تتشكك فى صحة الوثيقة فمهما كان مؤلف هذه الوثيقة فلا ينبغى ان نشك فى انه كان مطلعا على جلية الامر ، فهو يؤكد حقائق معروفة ويزودنا بأخرى ليس مشكوكا فيها ، وسواء اكانت الوثيقة قد صدرت من ديوان يوسف أم لم تصدر منه ذاته فانه يتعين علينا أن نقبل

---

(١) راجع : E. Lévi - Provençal, Garcia Gomez, Oliver, Novedades sobre la batalla llamada de la zallaca, '1086 en «al Andulus t, XV, 1950, pp. 114 - 124. Huci miranda, op. cit., p. 71.

(٢) ويعلل طعنه فى صحتها بأنها لاتتضمن اسم الكاتب الذى نسخها ولا التاريخ الذى كتبت فيه ، ولا الموضع الذى وقع فيه الاشتباك .

(٣) Albarran, el solar de los Affasies, p 139.

(٤) Carlos quiros, los almoravide, en archivo del instituto de estudios Africanso, Madrid, no 32, 1955 p. 21 - 22.

النص لنستخرج منه مادة علمية وتفاصيل تضعنا على الاثر الصحيح لدراسة كاملة وحكم صادق على المعركة ، ولاينبغى أن نغفل مثل هذه الرسالة اذ لابد من اعتبارها مستندا معاصرا له قيمته ووزنه التاريخى ٠

ومن المصادر التاريخية المتأخرة :

١ ـ ابو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى صاحب كتاب الاكتفاء الذى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى وكتبه فى حدود عام ٥٧٠هـ (١١٧٠م) والكتاب مخصص للتاريخ العالمى وفيه يظهر جانب كبير من ادب الاساطير يتجلى بصورة واضحة فى مجال وقعة الزلاقة ولما كان المؤلف مغريبا فقد طغى فى الكتاب تحيزه للمرابطين وتحامله الشديد على اهل الاندلس ، ويصور ملوك الطوائف بالوان قاتمة فيتهمهم بالجبن ، والخور ويوصمهم بالفساد (١) ٠

٢ ـ الحلل الموشية ، يرجع بعض الباحثين المحدثين ان مصنف هذا الكتاب ـ وكان يظن حتى عهد قريب أنه مجهول الاسم وان كان بعض مؤرخى المغرب ينسبونه الى اديب مالقى يدعى ابا عبد الله محمد بن ابى المعالى بن السماك العاملى (٢) ٠ هو محمد بن ابى العلاء محمد بن سماك العاملى المتوفى فى النصف الثانى

---

(١) A. Huici Miranda, La invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, pp. 46 et sq.

(٢) أرجع الى : احمد مختار العبادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، العدد ٥ ، لسنة ١٩٦٠ ، ص ١٣٩ ـ ١٥٨ ، محمود على مكى مقدمة كتاب الزهرات المنثورة فى نكث الاخبار المأثورة ، لابن سماك العاملى ، تحقيق د٠ محمود مكى ص ٤١ ، هامش ٢ ٠

من القـرن الثـامـن الهجـرى (١) . والكتـاب تـاريخ مفصـل يتضمن تاريخ دولة المرابطين وصدر من دولة الموحدين حتى نهاية عبد المؤمن بن على ، ثم عرض سريع لهذه الدولة حتى نهايتها ثم سرد لاسماء سلاطين بنى مرين حتى سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م) والكتاب صنف فى عام ٨٧٢هـ (١٣٨١م) ، ويهمنا من مادته الخطابين اللذين وجههما المتوكل ابن الافطس صاحب بطليوس الى الفونسو السادس والى يوسـف ابن تاشفين ، الاول يرفض فيه دفع الاتاوة ، والثانى يلتمس عون الامير المرابطى ويبلغه بسقوط قورية (انظر ملحق ٢) هـذا بالاضافة الى التفاصيل الدقيقة لمعركة الزلاقة .

٣ ـ عبد الواحد المراكشى ، صاحب كتاب « المعجب فى تلخيص اخبار المغرب » الفه فى سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م) ، اما وصفه للمعركـة فهو يتسم بالبساطة اذ سجله فى الشرق الاسلامى بعيـدا عن ضغـوط الموحدين ، ويخلو هذا الوصف من الاسلوب الدعائى الخيالى ، ونظرا لقلة ما كان لديه من مصادر ، فقد التبس عليه الامر فى تواريخ الزلاقة وحصار اليط (٢) .

٤ ـ ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، كتبه فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ووصف تحت مادة الزلاقة كل تفاصيل المعركة ، وقد نقده اويثى ميراندا Huici Miranda نقدا علميا مطولا ، وفيه سجل كثيرا مما تواتر من قبل من اخبار وهمية مختلقة عن المعركة (٣) ولكن نص الحميرى

---

(١) من هؤلاء الباحثين الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا فى بحثها القيم عن « حول مؤلف محتمل لكتاب الحلل الموشية » .
Maria Jesus Rubiera, sur un possible auteur de la chronique intiulée Al-hulal al Mnuwsiyya fi - Dikr al Ajbar al Marrakusiyya. on el II coloquio hispano tunecino madrid, p. 143 - 146.

(٢) Huici, Miranda, op. cit, p. 48.

(٣) Huici, Miranda, op. cit, p. 49 - 52.

على الرغم من ذلك موضوعى الى حد كبير وفيه حقائق على جانب كبير من الاهميــة .

٥ ـ ابن عذارى المراكشى ، كتب فى أواخر القرن السابع ، ولــم يصل لنا ما كتبه ابن عذارى عن موقعة الزلاقة ، ولكن تعليقه عليها عند حديثه عن موقعة الارك فيه شىء من التفصيل ، فقد ذكر كيف تعمــد يوسف بن تاشفين ترك المعتمد بن عباد هو واهل الاندلس يحاربون وحدهم طوال الليل حتى ضحى النهار الى أن اتى القتل على المسلمين ولم يتحرك لنجدتهم الا بعد ان أرسل اليه المعتمد كاتبه ابا بكــر بن القصيرة ، كما قدر عدد قوات الفونسو السادس تقــديرا اقرب الــى الحقيقة فجعل عدته ستين الفا بين فارس وراجل ، وحدد عدد الناجين مع الفونسو بثلاثة عشر فارسا ([1]) ، ولكن الناسخ للمخطوط يخطىء فى ذكر سنه المعركة فيذكر سنة ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) بــدلا مــن ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) وقد صحح المحققون للبيان هذا الرقم .

٦ ـ ابن ابى زرع من الثلث الاول من القرن الثامن ، أورد وصفا مطولا عن الموقعة ، وقد انتقد أويثى ميراندا روايته نقدا شديدا ، ويذكر ان كتاب روض القرطاس يعتبر من بين جميع المصــادر التاريخيــة الاسلامية ، اقلها قبولا للثقة ، ويتفق كل من أويثى ميراندا ودوزى ([2]) على أن روايته لاتوحى اطلاقا بالثقة ، فأرقام عدد المقاتلين ، وعــدد القتلى من الجانبين غير معقولة كما أن وصفه للمعركة لا يمت بصلــة الى الحقيقة .

اما المصادر القشتالية فعلى نقيض الوثائق التاريخية العربيــة ،

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثــالث ، تحقيــق أويثى ميراندا ، ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى ، تطوان ١٩٦٣ ، ص ١٩٦ .

(٢) Huici Miranda, op. cit., p. 54.

تبدو فقيرة ولايوجد مصدر منها معاصر للموقعة فكل المدونات التاريخية التى تعرضت لها متأخرة عن تاريخ الموقعة وكلها باستثناء مدونة لوزيتانو زهيدة لاقيمة لها ، وبعض هذه الوثائق كتب فى القرن ١٣م ، وتتزامن فى ذلك مع نظائرها العربية المتأخرة التى اشرنا اليها . ولقد زودتنا الحوليات الطليطلية Annales Toledanos بما يلى « وتقاتل الملك دون الفونسو مع المسلمين فى الزجالة Zagalla »(١) بينما اشارت مدونة برغش Cronicon Burgense فقط الى الذهاب الى بطليوس فى حين تشير مدونة دون بلايو الى اشتباك الفريقين فى الزلاقة حيث تقاتل الفونسو فى Sacralias مع الملك يوسف (٢).

اما مدونة لوزيتانو فقد اطنبت فى وصف المعركة ، ويذكر أويثى ان الوصف الذى ورد فيها يشابه كثيرا الوصف الخيالى الذى شاركهم فيه مؤرخو العرب لاسيما صاحب الحلل الموشية . وقد جاء فى هذه المدونة « واشتبك الملك دون الفونسو فى معركة عنيفة مع ملك العرب يوسف امام مدينة بطليوس فى الموضع المسمى ساكرالياس Sacralias حيث اشترك مع ملكنا جميع المسيحيين من مناطق الالب وكثير من الافرنجة جاءوا لنصرته ، ولكن بسبب معارضة الشيطان ، سرى رعب شديد فى نفوس كثير من رجالنا وولى الادبار الوف كثيرة منهم دون أن يطاردهم احد . ودخل الملك وهو يجهل فرارهم بكل ثقة فى المعركة التى حضرها جميع المسلمين من كل اسبانيا مدججين بالسلاح ، وكان يوسف بن تاشفين قد امر بأن يعبر معه الوف كثيرة من البربر من الجانب الاخر من الزقاق ، وقاتل الملك دون الفونسو ، ومعه من بقى منهم حتى الليل ولم يستطع احدهم ان يقاوم هجومه ، ولكن المسلمين وقد احكموا صفوفهم ، قتلوا عددا كبيرا من النصارى ، واثناء ذلك غزا

---

(١) Ibid, p. 59 - Albarran, el solar de Los Aftasies, op. cit., p. 185.

(٢) Florez, Chronicon de don Pelayo, p. 473 «Fecit litem in campo in Sacralias cum rege juceph.»

الملك الحصن وخطوط المسلمين ، وهو يقتلهم ويشتتهم ويدفعهم من جانب الى آخر حتى وصل الى المحلة التى نصبت فيها خيمة الملك يوسف وقد طوقت بسياج ضخم ، وعندما هاجمها الملك بحماس ، والح عليها بالقتال جاءه واحد من عسكره ، وافضى اليه قائلا « اعلم يامولاى الملك انه اثناء قيامك بالقتال هنا ، فان كمائن من المسلمين غزت مخيمك »» وعندما سمع الملك ذلك ، واخذ بنصائح اتباعه ترك ملك المسلمين ، ورحل عن محلته ، ثم اتى متعجلا مع ذلك مع من كان برفقته ضد لسلمين الذين كانوا قد اغاروا على معسكره ، وقتلوا كثيرا منهم ،وحملهم على الفرار عن هذا المعسكر ، ولكن قتل من المسيحيين هناك عدد كبير، ومن بقى ناجيا ، انضم الى الملك . ولما كان الفونسو قد طعن برمح فقد احس بالعطش بسبب نزيف الدم الذى تسبب فيه الجرح ، فسقوه نبيذا بدل الماء لعدم توافره فى معسكرهم واذ اصيب باغماءه عاد مع رفاقه الى قورية ، وعاد المسلمون ايضا ، كل الى موقعه » (١) ...

وتذكر المدونة العامة الاولى رواية مشابهة لرواية مدونة لوزيتانو، فتشير باختصار الى مبادرة الفونسو بترك حصاره لسرقسطة ، وارساله فى طلب البرهانس ببلنسية وسيره الى امير المرابطين ، والاشتباك مع المسلمين فى موضع قريب من بطليوس يسمونه بالعربية زلاقة Zallaqua وباللغة القشتالية يسمونه ساكر الياس ، ويؤكد ان الفونسو قد اصيب بطعنة رمح ، وحمل اتباع الملك ملكهم الى قورية (٢) .

---

(١) Florez, España sagrada, Chronicon Lusitano, p. 405 - 406 Huici Miranda, la invasión de los Almorávides y la batalla de Zalaca, p. 59.

(٢) Primera Cronica General

(٦)

تحقيق موقع الزلاقة من اراضى بطليوس (ساجرا اخاس) Sagrajas

هناك خلاف كبير لدى بعض المؤرخين حول تحديد موضع الزلاقة الامر الذى يدعو الى التساؤل ، هل الزلاقة هى موضع الزجالة الحالى Azagala ام المسمى حاليا Sagrajas

ولقد وردت اشارة فى مدونة برغش Cronicon Burgense وهى Fuit la de Badajoz « اى ان الموقعة دارت عند بطليوس » ان من درس طبوغرافية بطليوس ، وعلى الاخص القسم الشمالى منهـا يمكن ان يدرك ان واديانه يصل طاميا فياضا متبعا مجراه حتى يصل الى بطليوس ، وعندما يصل الى هذه المرحلة ينثنى برفق نحو الغرب ليواصل مجراه حيث يلتقى برافد الكايـا Caya (على الحـدود البرتغالية الحالية) ثم يمضى الى الجنوب ، ويلتقى برافده نهر خيفورا Gevora عموديا عليه عند انحداره من الشمال مع بعض الانحراف نحو الشرق ويتحدد نهر خيفورا Gevora مع نهـرى ثاباتـون Zapaton والبراجنة Albarragena اللذين يرتبطان ارتباطا وثيقا بارض المعركة . ويوازى نهر خيفورا وعلى مسافة تبعـد نحو ٢ك٠م نهر جيريرو Guerrero الذى يلتحم مع احد فرعى واديانه (١) على مسافة قدرها ٧ك٠م من نقطة التقائه بنهر خيفورا ، الى الشـمال الشرقى من بطليوس ، وتبدو المنطقة الفسيحة التى تخترقهـا هـذه الروافد على شكل فحص رائع ، يمتد فيه سهل من جهة نهر الخيفورا يسمى ساجرا خاس يبعد عن بطليوس بنحو ٧ك٠م ، ويبلغ ارتفاع هذا السهل عن سائر الاراضى المحيطة به بما يقل بعض الشىء عن مائتـى

---

(١) يؤلف واديانه فيما بين نقطة التقائه بنهر خيفورا ونهر جيريـرو جزيرة بين فرعيه تسمى جزيرة رومو Romo

متر (١) فوق سطح البحر ، ويبرز فى هذا السهل ، على بعد اربعة عشرة ك٠م من بطليوس ، تل يسمى كاربونيراس Carboneras ، يفوق ارتفاعه ارتفاع سهل ساجراخاس Sagrajas بنحو ٥٠ مترا ، ولكنه ينشطر الى شقوق واضحة ويمكن تمييز تل كاربونيراس هذا تماما عن المسطح الافقى للمنطقة ، واذا تتبعنا هذا الخط الى اليسار حيث تبدأ الحدود الحالية مع البرتغال نجد تلا آخر يأخذ فى الارتفاع يسمى ليفيانا Liviana ، يقع على بعد ١٢ ك٠م من بطليوس ويمكننا تمييزه بوضوح على مقربة من الضفة اليمنى من خيفورا ويبلغ ارتفاع هذا التل نفس ارتفاع تل كاربونيراس .

وما زال الموضع يحتفظ اجمالا بكل مظاهره الطبيعية ، وان كان قد تحول الى اراضى مزروعة تعتبر جزءا مما يسمى بالفحوص السفلى «Vegas bajas» (٢) .

اما غابة البلوط القديمة التى كانت تكسو الموقع فقد تناقصت اليوم ، وما زالت اشجارها الكثيفة التى كانت تصل منذ عهد قريب الى ضفاف واديانه هى العالية على الصورة العامة للمنطقة ، وهى صورة يمكن ان نتاملها من اعلى بقايا اسوار مدينة بطليوس الاسلامية (٣) .

أما السهل فقد اصبح يتخذ شكل مثلث راسه يمكن ان تشغله مدينة بطليوس نفسها وتنفرج زاوية الراس من المدينة ، وتنبسط نحو الشمال الغربى فى اتجاه معاكس فى حين تحف بواديانه من الشرق ، حيث ما تزال ترى فى الجهة الشرقية المتجهة نحو ماردة تحصينات قديمة .

ويتالف فحص واديانه من سهول فيضية ، وكذلك فحص نهر

---

(١) Huici Miranda, op. cit. p. 61.

(٢) Albarran, el Selar, op. cit., p. 189.

(٣) Huici Miranda, op. cit., p. 62.

خيفورا ، وان كانت نسبها اقل • اما بقية الاراضى فطينية باستثناء مناطق كلسية بجوار بطليوس تتيح وجود جرفين مرتفعين تقوم على احدهما القصبة ، وتواجه المرتفع الآخر المسمى بقمة سان كريستوبال حيث ينفتح باب فسيح يسمى باب النخيل يمر منه واديانه •

واذا ارتقينا ببصرنا الى خط الافق نجد ان السهول تتوقف عند خط ازرق يمثل سلاسل الجبال • وبحذاء نهر آنة يخترق الفحص اجزاء قديمة من الجادة الرومانية القادمة من ماردة ، والى الشمال الشرقى من هذا الموضع تتفرع الجادة الى فرعين نحو الغرب حيث تقوم قرية بودوا Budua التى تعرف اليوم باسم Botoa ، وكانت فيما مضى تابعة لبطليوس •

وبهذا الوصف نكون قد اوضحنا اهم النقاط عن المواضع التى سنعالجها فيما يتعلق بواقعة الزلاقة المشهورة •

وهناك ثلاثة مناطق خالية أو مناطق قضاء محددة تماما دارت حولها المناقشات ، واحدى هذه المناطق كانت تعرف عند المسلمين بالزلاقة ، وأول هذه المناطق التى تحدثت عنها المصادر العربية ، بطحاء بطليوس الفسيحة الممتدة بحذاء واديانه وتتسع لمجرى نهر خيفورا ، وهى التى تعرف اليوم باسم Sagrajas ، والثانية أرض خزان اخيلا حتى حصن الزجالة وهو حصن قائم على قمم مرتفعة يبعد عن بطليوس بنحو ٦٠ ك•م (١) وتجتمع أدناه روافد ثلاثة هى البراجنة ، وسان فوسترى وثاباتون ، ولعل تشابه الزجالة مع الزلاقة فى النطق كان من الاسباب التى دعت الى القول بأن المعركة دارت فى ٤٧٩هـ (١٠٨٦م)

---

(١) J. Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias, al - Andalus, vol XV, 1950, p. 135 - Huici Miranda, op. cit. p. 62.

بين المرابطين والنصارى ، فى الفحص الممتد حول الحصن ، والثالثة هى المروج الفسيحة الممتدة الى الشمال .

والزلاقة اسم يطلقه جميع مؤرخى العرب على الموقعة الشهيرة التى دارت بين مسلمى الاندلس والمرابطين وبين قوات الفونسو السادس ، ومعناه فيما يبدو المناطق التى يفيض فيها النهر ويغطس ، وتغطى مياهه اراضى هذا الفحص فى زمن السيول ، وهو معنى مجازى باعتبار ان الزلاقة الموضع الذى لايمكن الثبوت عليه من شدة زلقه (١) . وربما كان للاسم علاقة ما بكلمة « زلالق » كما يعتقد اوليفر آسين (٢) وهى الاسوار المائلة التى تتخذ فى التحصينات الدفاعية لاسيما على الانهار مثل سور اشبيلية القبلى من جهة الوادى ما بين باب مقارنة وباب قرطبة الذى اقيمت له زلالق فى عهد ابى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن ٥٦٧هـ (١١٧١م) بعد أن تاثر هذا السور قبل ذلك بسيل جارف ، وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة : « وابتنى الزلالق لابواب اشبيلية من جهة الوادى احتياطا من السيل الخارج عليها » (٣) .

ويرى الاستاذ البران أن الاسم ربما اشتق من كلمة « سهلة » بمعنى الارض السهلة المنبسطة استنادا الى ان خيمينث دى رادا اوردها فى حولياته فى صورة مقطعين Zalla - Quae ، الاول ينطق زلا ، وهو نطق أقرب الى سهلة ، والمقطع الثانى ويعنى « التى » زائد ، وهذا التفسير فى رأينا غير مقبول لان معنى زلاقة فى هذه الحالة يصبح

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة زلاقة .

(٢) Jaime oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias, al - Andalus, vol XV, Fasc. I, 1950, p 147.

(٣) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣٥ ، وراجع السيد عبد العزيز سالم ، اضواء على مشكلة تاريخ بناء اسوار اشبيلية ، مجلة المعهد المصرى بمدريد ، مجلد ١٨ ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٨ .

« السهلة التى » (١) .

اما المصادر المسيحية فتتحدث عن ساكرا لياس Sacralias بصور متعددة ولكن بعضها يشير الى الاسم العربى زلاقة كما ورد فى مدونة خيمينث دى رادا (٢) .

ومن المعتقد أن الاسم العربى « زلاقة » كان معروفا فى القرن الثالث عشر الميلادى أى فى نفس الوقت الذى كتب فيه المؤرخون المسيحيون اخبار هذه الموقعة ، ولكنهم فضلوا عليه بدافع من الشعور القومى استعمال الاسم المستعرب ثم عمموه من خلال التقريب اللاتينى ، ولامجال للمناقشة فى ان الزلاقة تعادل ساكر الياس ، ويؤيد ذلك ما روته المدونة العامة الاولى التى كتبت فى القرن الثالث عشر الميلادى بقولها « التى يقال عنها بالعربية زلاقة ، وباللغة القشتالية سلكر الياس ... »

«Un lugar corca de Badajoz a que dizien en arauigo zalläque et en el lenguage de casticlla dizenle sacralia».

وبقى علينا أن نتعرف على موقع الزلاقة من الوجهة الجغرافية ، ولايعدو هذا الموضع أن يكون سهلا يمتد بالقرب من بطليوس ، ويمكننا أن نشاهده من الشرفة الكبرى بقصبة بطليوس التى يرى الناظر منها كل المناطق الشمالية ، وعلينا أن نطرح من تفكيرنا من البداية كل الافكار القائلة باتجاهات اخرى غير الجهة الشمالية التى قدمت منها جيوش الفونسو السادس .

ولكن علينا ايضا ان نقرر اولا بأن الوثائق المعاصرة لم تتحدث عن

---

(١) Albarran, op. cit. p. 195 - Oliver Asin, la invasión de los Almorávides y la batalla de Zálaca, p. 140.

Albarran, op. cit., p. 194.

(٢) Primera Crónica General de España, ed. por Menendez - Pidal, p. 557.

هذا الاسم ولكنه ورد فى المصادر المتأخرة التى توسعت فيها المعرفة الجغرافية ، فالحميرى فى الروض المعطار ، الذى اعتمد فيه على الادريسى والبكرى يعرف الزلاقة بقوله « بطحاء الزلاقة من اقليم بطليوس من غرب الاندلس فيها كانت الوقيعة الشهيرة للمسلمين على الطاغية عظيم الجلالقة اذفونش ابن فرذلند » (١) .

اما الادريسى فقد اغفل الاشارة اطلاقا الى الزلاقة ، واما الحلل الموشية فقد اشار اليه بقوله : « ولما احتله عساكر المسلمين بظاهر بطليوس ، واحتل اذفنش بفحص الزلاقة على اربعة فراسخ من بطليوس ، كتب الى امير المسلمين مكرا منه (٢) ... » .

ويفسر أوليفر آسين فقرة الحلل بالمفهوم الجغرافى الواسع الذى يشير اليه المؤلف مجهول الاسم ، وفيه يتحدث عن فحص الزلاقة على انه منطقة او اقليم فسيح يمكن أن يضم مساحة كبيرة فى الجزء الذى يشغله اليوم المرج المذكور شأنه فى ذلك شان فحص البلوط .

ولابد قبل البحث فى تحديد الموضع توضيح اسم الزلاقة (٣) ، على نحو أكثر تحديدا ، فليس هناك جغرافى عربى واحد تحدث عن تقسيم اقليمى بهذا الاسم ، لاالرازى قبل القرن الحادى عشر الميلادى ، ولا واحد من الجغرافيين المتأخرين ، امثال الادريسى ، ولا حتى ياقوت الذى يعرف الزلاقة بأنها « ارض بالاندلس بقرب قرطبة كانت عندها وقعة فى أيام امير المسلمين يوسف ابن تاشفين مع الاذفنش » (٤) . ومن المعروف أن ياقوت فى أوصاف اخرى للمواضع يحرص دائما على توضيح اذا ما كان الموضع المذكور منطقة أم اقليم أم حصن .

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٨٣

(٢) الحلل الموشية ، ص ٥٧

(٣) Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca, p. 144.

(٤) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مادة زلاقة

والمشكلة القائمة اليوم هى التحديد الجغرافى لمنطقة الزلاقة ، وهل الزلاقة هى نفس الزجاله التى ورد ذكرها فى بعض المصادر المسيحية ، وما زالت تطلق على حصن يقع على بعد ستين ك٠م شمالى بطليوس ؟

ولقد تعرفت منذ عامين على حصن الزجالة ، وقمت بزيارته خلال رحلتى الى بطليوس ونواحيها ، ولاشك فى ان موقعه ومناطقه المجاورة اثرية ، فقد تم العثور باعلى السلاسل الجبلية التى لاتبعد عنه سوى عدة كيلو مترات على مذبح رومانى ، ويحتاج الامر الى اجراء حفريات فى نفس مستوى الارض التى يرتفع عليها الحصن ٠ ومن الجدير بالذكر ان بالامكان تمييز اجزاء اثرية فى الجانب الشمالى من اسوار الحصن تثبت ان الموضع كان ماهولا فى عصور سابقة ، ومعنى ذلك ان الموقع استراتيجى منذ القدم ، ولم يلبث هذا الموقع ان اصبح فى القرن الثالث عشر الميلادى قرية تابعة لمدينة بطليوس ٠

ومن انصار الراى القائل بان اسم الزجالة هو مجرد تحريف طرا فى القرن الثالث عشر على اسم الزلاقة بمعنى ان الاسم الاصلى وهو الزلاقة تم تعرضه لتحريف لغوى فتحول بذلك الى الزجالة ، كل من مارتينث اى مارتينث واوليفر آسين (١) ، وهما يعتقدان ان حصن الزجالة الحالى هو نفسه الزلاقة التى ذكرها المؤرخون المسلمون ، وتفسير

---

(١) وانضم اليهما امبروسيو اويثى ميراندا فى مقاله عن الزلاقة (Huici, op. cit. p. 75.) ، ولكنه يتحفظ فى قبوله لراى اوليفر آسين فى نهاية مقاله فيقول « وعلى اى حال فلفظ الزجالة على الرغم من بنائه العربى وتشابهه الواضح مع الزلاقة ، لايمكن قبوله مرادفا للزلاقة ما دمنا لانملك مادة جديدة نعتمد عليها فى حسم الموضوع ، وعلينا اعتبار ان الزلاقة هى موضع مفقود ، لم يرد ذكره سوى فى المصادر القديمة ، ولم يترك اثرا فى اللغة الشعبية عند اهل غرب الاندلس » ، (Huici Miranda, op. cit. p.76)

هذا التحريف على حد زعمهما يرجع الى سهولة نطق القاف العربية بالجيم الاسبانية ، والاقتصار على اللام بدون تشديد يرجع الى قرب المنطقة من البرتغال حيث ينطق كذلك .

هذا التفسير أخذ به اوليفر آسين واويثى ميراندا وان كان اويثى ميراندا Huici Miranda قد انتهى بأن الزلاقة هى اسم موضع مفقود لا يوجد له اثر فى اللغة الشعبية عند اهل غرب الاندلس .

اما البران ونحن نميل الى الاخذ برايه فهو ممن يرفضون الراى القائل بأن الزلاقة هى الزجالة ، فهو يرفض تفسير اوليفر آسين الذى يحل اللفظة القشتالية الزجالة محل الكلمة العربية الزلاقة . فالبران يعتقد أن راى اوليفر آسين غير صحيح على اساس ان اقرب لفظ الى الزجالة هو لفظ زغل zaghal وهذا اللفظ لم يشتق من زلاقة (١) . ولقد حاول آسين ان يتجنب وجود اية صلة بين اللفظة زجالة ولفظة زغل العربية بمعنى شاب حدث قوى ونشط حتى يدعم رايه السابق (٢) .

ويرى البران إن المرة الاولى التى ورد فيها اسم الزجالة Azagala حدث فى وثيقة تاريخية من القرن الثالث عشر وهى الفترة التى كتبت فيها المدونات المسيحية ، ولما كانت هذه الوثيقة تشير صراحة الى الزجالة فاننا نستنتج نفس الراى الذى استنتجه البران وهو ان الموضع وقتئذ فى القرن الثالث عشر الميلادى كان يعرف فى تلك الحقبة بهذا الاسم الحالى ، وعلى هذا الاساس لاتكون الزجالة تحريفا للزلاقة حدث فيما بعد القرن ١٣ .

واول وثيقة جاء فيها ذكر الزجالة كحصن ومنطقة صريحا وواضحا

---

(١) Albarran, op. cit. p. 200

(٢) J. Oliver Asin, el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias, p. 141.

يرجع تاريخها الى عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) ، وهنالك وثيقة اخرى يرجع تاريخها الى ٦٥١هـ (١٢٥٣م) ورد فيها اسم الزجالة .

ثم بدأ الاسم يتردد وروده فى وثائق عديدة (١) . والزجالة فى هذه الوثائق هى اسم موضع أو قرية ، كانت تابعة لبطليوس ثم ضمت فيما بعد الى بلدة كركر Albuquerque ، وحول مسجدها بعد الاسترداد الى كنيسة ، وكان هذا المسجد مايزال قائما حتى القرن الخامس عشر الميلادى .

لهذا كله لانوافق الرأى القائل بأن ذلك السهل الذى دارت فيه واقعة الزلاقة الشهيرة هو سهل الزجالة حيث يقوم حصن الزجالة .

فالزلاقة العربية هى ذاتها ساكر الياس Sacralias التى وردت فى المدونات المسيحية وهى ذاتها سجراخاس Sagrajas التى تردد ذكرها فى المراجع الاسبانية الحديثة . أما عن تحويل سكرالياس الى سجراخاس الحالية ، فلا يشكل مشكلة على الاطلاق فى اعتقاد الاستاذ أوليفر آسين والاستاذ البران ، فاسم Sacralias لفظ مستعرب يدل على موضع خاص بالمستعربين ، كأن يكون أرضا مجاورة لكنيسة او موضع مقدس من اللفظة اللاتينية sacraria وتحولت بمرور الزمن الى Sagrajas (٢) .

ومن الجدير بالذكر ان نفس الاستاذ البران Albarran كان قد ادلى قبل ذلك بسنوات برأى اكد فيه ان موقعة الزلاقة دارت بجوار حصن الزجالة (٣) ، وعلى وجه التحديد الى الشمال من هذا الحصن وفى السهول المتموجة التى تشغل اليوم مروج وادى La Jarron

(١) Albarran, op. cit. p. 201.

(٢) J. Oliver Asin, op. cit, p. 148 - Albarran, op. cit., p. 201.

(٣) Manuel Torron Albarrán, la sierra de tornada, Badajoz, 1955, pp. 57 - 65.

ولكن هذا المؤلف سرعان ماعدل عن رأيه حين وجد ان المسافة ما بين هذا الموقع وبطليوس تصل الى ٦٠ك م ، وهذا يتعارض مع ما ذكرته المصادر الاسلامية التى حددت موقع المعركة بصراحة ، ثم ان هذا البعد لساحة المعركة يتعارض مع امكانية وصول امدادات من بطليوس فى نفس اليوم ، ومن المنطقى ان تكون الموقعة قد دارت فى موقع اكثر قربا من بطليوس ، كذلك رفض البران رأيا اخر كان قد سبق ان ساقه وهو ان المنطقة الجنوبية من حصن الزجالة هى المنطقة التى دارت فيها المعركة ، ولكن سرعان ما غير رايه حيث ان هذه المنطقة الجنوبية من الزجالة لاتصلح سوى لكمين ، بينما اكدت المصادر العربية والاسبانية ان موقعة الزلاقة دارت فى منطقة مفتوحة .

اما الرأى الثالث القائل بأن الزلاقة قد تكون السهول الفسيحة الممتدة نحو الشمال فنرفضه لان جميع المصادر الاسلامية حددت على وجه التقريب المسافة بين ارض المعركة ومدينة بطليوس ، وهذا فى حد ذاته يكفى لاعلان رفضنا لهذا الرأى لبعد هذه السهول عن بطليوس .

وعلى اية حال فقد انتهت مهمة المرابطين عند انتصارهم فى الزلاقة فلم يشأ يوسف بن تاشفين ان يتتبع فلول النصارى ، وسرعان ما تفرق الجيش الاسلامى ، فعاد كل ملك من ملوك الطوائف الى مملكته ، فعاد ابن الافطس الى بطليوس ، وعاد ابن عباد الى اشبيلية ، وعبد الله الزيرى الى غرناطة بعد ان اطمأنت نفوسهم بهذا الانتصار الذى كسر به المرابطون شوكة الفونسو السادس ولو الى حين . اما يوسف بن تاشفين فقد عجل بالقفول الى المغرب بعد ان تكدر لوفاة ابنه ابى بكر ولى عهده ، وكان قد تركه مريضا بسبتة (١) ، وان كان الامير عبد الله الزيرى لا يشير الى شىء من ذلك ، ويعلل عودته السريعة الى المغرب ، بضيقه من اختلاف كلمة ملوك الطوائف ، وتظاهره بعدم رغبته التدخل

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨

فى شؤونهم ، يعبر عن ذلك فى مذكراته بقوله « واخذ أمير المسلمين فى الانصراف الى بلاده وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ، مالم ير وجها لبقائنا فى الجزيرة . وانس الجميع ، ولم يتربص فى البلاد الا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم اليه ، فكل من شكا اليه ذلك الوقت من رعية يقول له « لم نات لهذا والسلاطين اعلم بما يصنعون فى بلادهم » (١) .

وهكذا لم يتمخض تدخل المرابطين فى الاندلس وانتصارهم فى الزلاقة على قوى المسيحية عن شىء ذى قيمة ، فلم يستفد المسلمون من من هذا الانتصار فى استرجاع طليطلة او قورية ، بل لم يحاولوا مجرد محاصرة احدى المدينتين (٢) .

عاد يوسف الى المغرب بعد ان اكتفى بترك قوة من ثلاثة آلاف من المرابطين فى خدمة المعتمد .

ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان « ان لقاء الاسلام والمسيحية فى سهول الزلاقة انما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها والتى اضطرمت بعد ذلك بقليل فى المشرق ، فى الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانية » (٣) فانتصار الزلاقة كان يعنى أكثر من هزيمة ملك مسلم لملك مسيحى ، فهذا الانتصار قد جعل الغرب المسيحى يتوجس خيفة (٤) من غلبة الروح الدينية عند المرابطين ، فها هو الاسلام ، يهدد من جديد الغرب المسيحى ، وتتقدم موجاته ما كان قد انحسر من ملك المسلمين بعد وفاة المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر عبد الملك ، وليس أدل على صدق ما ذكرناه من تتبع تصرف الفونسو السادس عقب الموقعة ، فتصرفه يؤكد هذا المعنى

---

(١) مذكرات الامير عبد الله المزيرى ، ص ١٠٧

(٢) R. Menendez - pidal, la España del Cid, p. 339.

(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٢٩

(٤) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٠٨

الصليبي ، فكما تضامن المرابطون في المغرب مع مسلمي الاندلس ، بدأ الفونسو يبعث رسله وكتبه الى ملوك المسيحية في اسبانيا وفيما وراء البرانس ، يدعوهم الى نجدته وقد استجابت ملكيات وامارات فرنسا الفرنجية لصيحات الفونسو السادس ، وبادر Eudes Borel أوديوس دوق بورجونيا ، صهر الفونسو السادس في بداية سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) بارسال جيشه بقيادته ، وقيادة اخيه انريكي Enrique . كما لبى نداءه عدد من امراء فرنسا الجنوبية ، وعلى راسهم ريمون دى سان جيل (الصنجيلي) Rìmond de saint Gilles كونت طولوشه وفي رفقته عدد كبير من محاربي لانجدوك وبروفانس وعدد من فرسان ليموسين Limosin وبواتو Poitou ونورماندى Normandie . ولما راى الفونسو السادس انه لم يعد لوجود هذه الامدادات التي وصلت متاخرة ، ضرورة فقد شكر الوافدين وامرهم بالقفول . ولكن الفرنسيين رفضوا العودة الى بلادهم ، فوضعوا انفسهم في خدمة ابن ردمير (شانجة راميرث) (١) .

أما يوسف بن تاشفين ، فقد عاد الى المغرب . ويعلق المستشرق الاسباني كوديرة في كتابه عن (ظهور دولة المرابطين وسقوطها في الاندلس) على موقف يوسف بن تاشفين بقوله « كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى ان يوسف الذي حاز النصر في الزلاقة ، تلقى عقب انتصاره نبأ وفاة ولده ، الامير ابي بكر سير ، فاضطر الى العودة الى مراكش تاركا فكرة مطاردة الجيش المنهزم وجني الثمرة التي يمكن ان تجنى من مثل هذا النصر العظيم ، وهى الاستيلاء على طليطلة ، وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ، ولكنها لم تكن قد استقرت بعد في ذهنه بصورة عملية وذلك على الرغم مما يزعمه مؤرخو العرب من انه لولا موت ابنه لما غادر الاندلس بهذه السرعة » (٢) .

(١) R. Menendez - Pidal, op. cit. p. 340.

(٢) F. Codera, Decadencia y desaparición de los Almorávides en España, Zaragoza, 1899, p. 243.

(٧١)

نهايـة بنى الافطس اصحـاب بطليوس

١ ـ الجفوة بين ابن تاشفين وملوك الطوائف :

بعد ان عاد ابن تاشفين الى مراكش ، اضطربت احوال ملوك الطوائف بالاندلس اضطرابا شديدا ، وقبل ان نبدأ فى سرد تلك الظروف السيئة التى ادت فى نهاية الامر الى سيطرة المرابطين الكاملة على الاندلس تجدر الاشارة الى ان مصير هؤلاء الملوك اصبح بعد واقعة الزلاقة مشتركا ، فالخطر المرابطى لم يعد يتهدد مملكة واحدة ، وانما يتهدد الاندلس كلها ، تماما كما كان الخطر المسيحى يتهددهم جميعا ، وكان سقوط اية مملكة فى يد احد العدوين يعنى سقوط جميع ممالك الطوائف ، الواحدة تلو الاخرى .

ويعتقد ان هؤلاء الملوك اخذوا بعد عودتهم الى بلادهم يشعرون بالخطر ، يحيط بهم ، وان كانوا لا يدركون تمام الادراك مصدر هذا الخطر فهل هو خطر المرابطين ؟ ام هو الخطر المسيحى ؟ وحتى لو انهم ايقنوا بحقيقة هذا الخطر لما استطاعوا ان يفعلوا ازاءه شيئا ، فقد كانوا جميعا فى مرحلة من الاضطراب والشعور بالضياع ، ففى الوقت الذى كان يخشى فيه ملوك الطوائف العدو المسيحى ، ويتوجسون منه ويستصرخون أهل العدوة لنصرتهم ، والتصدى له ، كان عدد منهم ، بل كبارهم امثال ابن الافطس ، وعبد الله الزيرى ، يلتجاون الى الملك المسيحى الفونسو السادس ، ويسعون الى خطب وده ومودادعته .

وفى نفس الوقت اسرع كل من ابن عباد وابن الافطس لاستقبال ابن تاشفين عندما جاز الى الاندلس جوازه الثانى مرحبين به ، مقدمين له انفس الهدايا .

لقد بلغ ملوك الطوائف فى تلك الفترة درجة كبيرة من التخبط والاضطراب ظهر اثرها فى سياساتهم المرتبكة وكل ما نود ان نوضحه انه

ربما كانت سياسة واحد من هؤلاء الملوك السبب الرئيسى فيما حل بباقى دويلات الطوائف الاخرى من مصائب ٠

فبعد ان عاد ابن تاشفين الى بلاده ، عاد اهل الاندلس يستصرخونه وعادت الوفود الاندلسية الى التردد على المغرب ، وفى هذه المرة تنوعت الوفود القادمة من الاندلس ، فقد « وفدت على امير المسلمين ، يوسف ابن تاشفين بحضرة مراكش جملة من وجوه الاندلس من اهل بلنسية (١)، ومرسية (٢) ٠

---

(١) بلنسية Valencia ، من مدن شرق الاندلس ، كانت فى تلك الآونة من قواعد الاندلس ، وأهم ثغوره ، عرفت بانها مدينة التراب لخصوبة ارضها ، وكان لها سور منيع احكمه المنصور واشتهرت برخائها الاقتصادى ورواج تجارتها ، فعنها يقول الحميرى «والسفن تدخل نهرها ، وسورها مبنى بالحجر والطوابى ، ولها أربعة ابواب (وعند العذرى خمسة) وهى من امصار الاندلس ، الموصوفه ، وحواضرها المقدمة ، ولاهلها احسن زى ٠٠٠) وقد ظهر العنصر الصقلبى واضحا فى زمن الطوائف فى مملكة بلنسية ، هذا الى جانب الدور الكبير الذى لعبه السيد الكمبيادور فى تاريخ هذه المملكة (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٤٧ ، الحلل الموشية هامش ٣٣ ، ص ٦٧ ، العذرى ، ص ١٧ ، ١٨ ٠
R. Menendez Pidal, la España del Cid, op. cit. P. 593 - 604.
محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢١٦ — ٢٥٢ — راجع رسالة الماجستير المقدمة من السيد كمال ابو مصطفى عن بلنسية ، تحت عنوان : تاريخ مدينة بلنسية الاسلامية من الفتح العربى حتى نهاية عصر المرابطين ، ونوقشت بكلية آداب الاسكندرية فى ١٩٨١

(٢) مرسية Murcia ، مدينة على نهر شقورة ، كانت قاعدة كورة تدمير ، بنيت على عهد الامير عبد الرحمن الاوسط سنة ٢١٠هـ (٨٧٥م) وقد أزدهرت مرسية ازدهارا كبيرا فى عهده ، واشتهرت مرسية بمسجدها الجامع ، وكان لها من الحمامات والاسواق العامرة الكثير ، وقد عرفت مرسية بثروتها وثرائها الاقتصادى فهى « رخيصة الفواكة كثيرة الشجر والاعناب واصناف الثمار بها معادن فضة عزيزة متصلة المادة ،وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريف =

ولورقة (١) ، وبسطة (٢) ، فشكوا اليه ما عاناه اهل بلنسية من الكنبيطور ، وكان من ملوك الروم قد لازم حصارها سبع سنين حتى دخلها ، وشكوا له ما حل باهل مرسية واعمال لورقة وبسطة من شأن لييط ، وهو حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم ، يملكه العدو ، وكانت سراياه تغير شرقا وغربا ، اذ كان فى موسطة بلاد المسلمين ، فلم يزل وجوه الاندلس من تلك البلاد ،

= ارجع الى العذرى المعروف بابن الدلائى ، نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار ، تحقيق د٠ عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٦ ، الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٦٧ ــ الحلل الموشية ، ص ٦٧ هامش ٣٤ ، وراجع كذلك السيد عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية موطن ابى العباس المرسى ، مجلة جمعية الآثار بالاسكندرية

Salem, Historia de Murcia musulmana, articulo publicado por la Univ. del Cairo en memoria del defunto profesor Abdel Aziz al Ahwani.

وراجع كذلك رسالة الماجستير المقدمة من السيد عزت قاسم ونوقشت فى مايو ١٩٨٤ بقسم التاريخ بعنوان « تاريخ مدينة مرسية الاسلامية منذ تأسيسها حتى استيلاء المرابطين عليها » ٠

(١) لورقة Lorca ، من بلاد تدمير فهى احدى المعاقل السبعة التى عاهد عليها تدمير ، تبعد عن مرسية نحو أربعين ميلا ، مقامة على ظهر جبل ، واشتهرت بتوافر المعادن (انظر الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٧٠ ، الحلل الموشية ص ٣٥) ولورقة باللاتينية تعنى « الزرع الخصيب » ٠ وهذا الاسم يناسب هذه المدينة تماما لانها من المدن الخصيبة التى لها نهر يجرى الى الشرق منها مما تسبب فى رواجها وازدهارها فى المجال الاقتصادى٠ ويفسر بعض العلماء اسمها بالدرع الحصين ٠

(٢) بسطة Baza ، مدينة بالاندلس ، تقع بالقرب من وادى آش ، امتازت بحسن موضعها ، وحصانتها وبرواجها الاقتصادى ، فهى « عامرة ، آهلة ، حصينة ، ذات أسواق ، وبها تجارات وفعلة بضروب الصناعات ٠٠٠ وشجر التوت فيها كثير وعلى قدر ذلك غلة الحرير والزيتون ، وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة وارضها ، غداة كثيرة الريع ٠٠٠ » ٠

يترددون اليه بالشكوى حتى وعد بالجواز اليهم اذا تمكن الفصل [١] »..

ومن هذا النص يتبين لنا أن شرق الاندلس ، كان مصدر الصريخ في هذه المرة ، فشئون هذا الاقليم كان قد سادها الاضطراب من جراء تدخل قشتالة في شئون مملكة بلنسية عن طريق صنيعهم القادر بن ذى النون من جهة وعن طريق السيد الكنبيطور من جهة أخرى . هذا الى جانب الاعتداءات المستمرة التى كان يشنها النصارى على بلاد المسلمين من حصن لييط Aledo [٢] خاصة على أراضى المعتمد بن عباد

= واشتهرت بسطة بانتاج الكحل الاسود من جبل يعرف بالجبل الاسود . وتبعد بسطة عن غرناطة بنحو ١٢٥ كم ، وعن مدينة وادى آش بنحو ٤٨ كم .
(انظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٤٥ ، الحلل الموشية ، ص ٦٧) .

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٧ .

(٢) حصن لييط Aledo أو اليط : بعد سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس بادر هذا الملك بارسال قائده الشهير غرسية خيمينث الى أراضى شرق الاندلس للاغارة عليها ، فاجتاحت قواته هذه المنطقة وعلى وجه التحديد المنطقة الواقعة بين لورقة ومرسية ، ونكاية فى المسلمين وامعانا فى مضايقتهم قاموا ببناء حصن فى هذه المنطقة الواقعة بين لورقة ومرسية فى مكان يسمى لييط يقع على مقربة من لورقة وبهذا أصبح هذا الحصن المنيع ، قاعدة للنصارى يهاجمون منها الاراضى الاسلامية فى مرسية والمرية ، مما دفع الاهالى الى مراسلة أمير المرابطين ، يوسف بن تاشفين طلبا فى النجدة والغوث وقد كان المعتمد ابن عباد وصاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، فكان بطبيعة الحال أكثر ملوك الطوائف انزعاجا من هذه الضربات المتتالية التى كان يوجهها اليه النصارى مما دفعه الى العبور بنفسه الى المغرب ليلقى يوسف بن تاشفين بوادى سبو ليشرح له الظروف القاسية التى يعانى منها ، فوعده يوسف ابن تاشفين بأن يجيبه على مطلبه بالعبور الى الاندلس ، وكان ابن تاشفين فى ذلك الوقت قد تلقى العديد من الرسائل والمكاتبات من أهل الاندلس كما سبق أن أوضحت وجميعها تلح عليه راجية الغوث ، لوضع حد لهجمات النصارى وضرباتهم ، وللاستيلاء على =

فى مرسية ولورقة (١) انتقاما منه لاستدعائه المرابطين الذين الحقوا بالنصارى الهزيمة المروعة فى واقعة الزلاقة ٠

« ولما رتب اشغاله ومهد احواله وكمل من ذلك مراده ، اتصل به قدوم امير المسلمين ، وجوازه البحر ، واستقراره بالجزيرة الخضراء ، فتلقاه ابن عباد على عادته بما يقدر عليه من الكرامات والمبرة ، وانفذ امير المسلمين كتبه لملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد معه ، والموعد حصن

= هذا الحصن المنيع لييط ، ولهذا فقد كان جواز ابن تاشفين الثانى عام ٤٨١هـ (١٠٨٨م) بهدف النظر فى امر حصن لييط وقد زرت حصن اليط او لييط المذكور Aledo ويقع قريبا من مرسية على هضبة شديدة الارتفاع تشرف على الطرق المؤدية الى مرسية والمرية ولورقة ويتحكم فى هذه الطرق ٠ والحصن لايعدو برجا مربع الشكل شديد الضخامة قيل انه كان يتسع لالف فارس واثنى عشر الف راجل (الحلل الموشية ، ص ٦٩) وعلى الرغم من اجتماع المسلمين على حصار الحصن المذكور فقد ظهر لهم من حصانته ومنعته ما ايأسهم عنه ٠ (انظر ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ ، محمد عبد الله عنان ، ص ٣٣٤ ، ٠

(M. pidal, op. cit. p. 361

(١) كان المعتمد يستهدف من وراء استدعائه لامير المرابطين يوسف بن تاشفين اغتنام فرصةوجوده لتحقيق اكبر قدر ممكن من الاهداف ، فهو يريد ضرب اكثر من هدف بحجر واحد ، فلو ان المرابطين تمكنوا من الاستيلاء على حصن لييط فانه يتخلص اولا من عيث النصارى ويسترد سلطانه الحقيقى على مرسية ثانية ، فقد كانت يومئذ تحت حكم ابن رشيق ، وكان ابن عباد قد توجه مع عسكر المرابطين الذين تركهم ابن تاشفين رهن اشارته فسار الى لورقة وحاصرها ولكنها امتنعت عليه ، فتركها الى مرسية وحاصرها ، ولكن ابن رشيق تمكن من ان يكسب ود قوات المرابطين وان يقنعهم بأن يتركوه فى سلام ، فعاد ابن عباد وهو يعانى من خيبة الامل الى اشبيلية ٠

لييط» (١) .

كان يوسف يتمنى لو انه تمكن من الاستيلاء على حصن لييط ، ورغم آلات الحصار الضخمة التى استخدمها المرابطون لاستنزال حامية الحصن الا أنه امتنع على ابن تاشفين « وشن يوسف الغارات على بلاد الروم ، كل يوم فدام الحصار على لييط أربعة اشهر لايفتر عنه القتال ليلا ولا نهارا ... » (٢) .

وجاء استنجاد ابن عباد بأمير المرابطين نذير شؤم على ملوك الطوائف ، فأثناء حصاره للييط ادرك مدى الضعف الذى انتهى اليه أمر هؤلاء الملوك ، واتضحت له الخلافات العميقة التى كانت قائمة بين هؤلاء جميعا : فالخلاف والوقعية كانا سائدين بين الاخوين الزيريين ، الامير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة واخيه الامير تميم صاحب مالقة بحيث اخذ كل منهما يشكو الآخر لابن تاشفين ويوقع به ويتهمه باغتصاب حقوقه ، هذا الى جانب الخلاف الذى كان قائما بين ابن عباد والمعتصم ابن صمادح كل منهما يتهم الآخر بمختلف التهم أمام ابن تاشفين ، وبالغ ابن عباد فى شكاياته ، فقد ابدى ضيقه بابن رشيق وسخطه عليه ، واتهمه بانتزاع ولاية مرسية منه ، اثار كل ذلك اشمئزاز ابن تاشفين من هؤلاء الملوك الذين تهافتوا لتحكيمه فيما شجر بينهم من خلافات ، واستغرقوا فى منازعاتهم الشخصية ، ناسين القضية الرئيسية وهى الدفاع عن الاسلام فى الاندلس واستاء ابن تاشفين من استغراقهم فى مشاحناتهم الامر الذى

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٨ .

(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ ، ولكن صاحب الحلل الموشية يرى أن الحصار دام شهرا واحدا ، وفى ذلك يقول «وجاءهم من مرسية النجارون والبناءون والحدادون ، واضطربت المحلة محدقة بحصن لييط ، وكان بداخله من الروم الف فارس واثنا عشر الف راجل ، واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلا ونهارا مدة شهر ، وكل أمير من امراء الاندلس يقاتل فى يوم بخيله ورجله ... » .
(أنظر الحلل الموشية ، ص ٦٩)

دعاه الى التفكير جديا فى اسقاطهم عن عروشهم الواحد تلو الآخر ، فقد سعى ابن عباد للاطاحة بابن رشيق بأن اتهمه لدى امير المرابطين بانه يتعاون مع الحامية المسيحية فى الخفاء ضد المسلمين ، واقنعه بأن ابن رشيق هو السبب الذى اخر سقوط حصن لييط فى ايديهم حتى ذلك الحين واحتار ابن تاشفين فى امر ابن رشيق ، ولكنه انحاز فى النهاية الى ابن عباد . ويروى عبد الله الزيرى ذلك فى مذكراته فيقول « اعمل فى ذلك عقله ودبره برايه وقال ماتنبغى لنا مفاسدة ابن عباد من اجل ابن رشيق لاحتياجنا اليه فيما نحن بسبيله ، ونحن لم نأمن امر الرومى والاوكد علينا فى هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى ترينا الامور وجوهها ، فتعسف على ابن رشيق فى الذى اظهر من الخلاف على صاحبه ... » (١) .

ثم انه استفتى فى امر ابن عباد وابن رشيق الفقهاء ، فحكموا على ابن رشيق « فامر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه ، واسلامه فى يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفه ابن عباد ، فهرب للحين اصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محلته الى مرسية وانتزوا بها .... » (٢) .

ومن النص السابق يمكننا ان نتبين الاثر السىء الذى ترتب على هذا الحادث ، وصداه على ما تلى ذلك من احداث ، فان قادة مرسية ، وكان معظمهم من اقارب ابن رشيق ورجاله ، انسحبوا من الميدان ، فاختل التوازن فى المعسكر ، وانتهى الامر بانسحاب امير المرابطين حين علم بقدوم الفونسو السادس الى الحصن لعدم كفاية قواته (٣) .

وكان لهذا الاخفاق فى افتتاح الحصن اكبر الاثر فى نفس ابن

---

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١١١
(٢) الحلل الموشية ، ص ٧٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٦ .
(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ ، الحلل الموشية ، ص ٧٠ ، ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ٢٤٧ .

تاشفين ، فقد عاد يوسف الى المغرب (١) وهو ناقم على مواقف ملوك الطوائف المخزية ، عاد الى المغرب بعد ان ترك جيشا قوامه اربعة آلاف جندى تحت امرة داود بن عائشة فى مرسية وبلنسية ، وعزم فى قرارة نفسه عزما قاطعا على وضع حد لهذه الاوضاع المؤسفة والاطاحة بعروش ملوك الطوائف لوهنهم الشديد أمام العدو فى معركة قد تصبح حاسمة بالنسبة لمصير الاسلام فى الاندلس وانشغالهم عن الجهاد بأطماعهم الشخصية وخلافاتهم المتواصلة ، واستهتارهم بما تتعرض له البلاد من أخطار حرب صليبية لا مجال للشك فيها . ومن هـذا المنطلق : الغيرة على الاسلام ، والرغبة فى توحيد الصف الاسلامى ، اعد يوسف ابن تاشفين للجوار الثالث الى ارض الاندلس عدته فى اوائل عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، ولم يكن جوازه هذه المرة الا لاسقاط ملوك الطوائف اللاهين عن الجهاد بما اختلقوه من خلافات ، المستغرقين فى متع الحياة الرخيصة داخل قصورهم الاسطورية ، الغافلين عن مسؤوليات شعوبهم بشهوات النفس والترف ومتاع الدنيا .

وأيا كانت الدوافع التى حركت ابن تاشفين (٢) على الجواز الى

---

(١) بعد أن رجع يوسف بن تاشفين الى المغرب جاء الفونسو السادس الى حصن لييط فأخلاه بعد أن وجد بداخله مائة فارس نصرانى مع الف راجل مما جعله يتأكد من عدم جدوى الدفاع عنـه ، فقرر تقويض أسواره وابراجه ، وتم ذلك فى عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) واحتل ابن سعاد اطلال هذا الحصن بعد ان غادره الفونسو السادس بمن فيه من النصارى (انظر ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ ، الحلل الموشية ص ٧٠ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٦) .

٢) هناك العديد من الدوافع التى دفعت يوسف بن تاشفين الى العبور للاندلس فمنها العامل الدفاعى والاستراتيجى الذى ساقه الاستاذ عنان ، ففى اعتقاده ان يوسف بن تاشفين ادرك منذ ان جاز الـى الاندلس فى المرة الاولى أن مثل هؤلاء الملوك الاندلسيين المترفين المنعمين لايمكن لهم ان يتحدوا لحركة الركنكستا التى نشطت فى =

الاندلس فقد قدم هذه المرة وهو يتلمس الاعذار لتبرير ما سيقدم عليه ،

= عهدهم نشاطا لم تشهده الاندلس من قبل ، فاثارت غيرته على الاسلام ، حماسة الدينى ، فان سقوط الاندلس فى ايدى المسيحيين يعنى سقوط جناح المغرب الدفاعى فى الشمال ، ولذلك بادر بالدفاع عن الاندلس ، لانه فى حمايته له حماية للمغرب الاسلامى ، (انظر محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٣٩) .
ويأتى عبد الواحد المراكشى بدافع هام هو طمعه فى الاستيلاء على الاندلس لما تنعم به من ثراء ، فحين رجع الى مراكش قال لاصحابه « كنت أظن اننى ملكت شيئا فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟) وبالتالى فان هذه الرواية توضح لنا بصراحة تامة ووضوح مدى اطماع ابن تاشفين فى الاندلس ورغبته الشخصية فى الاستيلاء على تلك الاراضى المغنية (انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٨) وقد ذكر ابن الخطيب رواية تشابه رواية عبد الواحد المراكشى وفيها ما يؤكد طمعه فى السيطرة على الاندلس ، جاء فيها « ولما استوثق ليوسف بن تاشفين بسعيه امر الجهاد ، وراقه حسن ما بالاندلس من البلاد ، واغرى بملوك الطوائف ، وقررت لديه مساومتهم ازمع على خلعهم ...) (انظر ابن الخطيب أعمال الاعلام ، ص ١٦٣ وكذلك المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ، ص ٥٢٣) . ومن الدوافع أيضا دافع نفسى هو كراهته للحياة التى كان يحياها ملوك الطوائف كما سبق أن عبر عنه الامير عبد الله الزيرى ، فيوسف ابن تاشفين حين شهد الخلافات الشديدة بين امراء الطوائف وملوكها ، طمع فى الاستيلاء على بلادهم وممتلكاتهم «واخذ امير المسلمين فى الانصراف الى بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ، مالم يروجها لبقائنا فى الجزيرة ... » (انظر مذكرات الامير عبد الله الزيرى ص ١٠٧) ولم يتخذ امير المسلمين هذا القرار الخطير فجأة ، وانما لجأ الى مشاورة الفقهاء فى المغرب والاندلس فى ذلك الامر ، وقد افتى له العديد من الفقهاء امثال الامام الغزالى وابى بكر الطرطوشى بجواز خلعه لملوك الطوائف ، وايدوه فيما اتخذه من اجراءات بعد ان بدأ امراء الطوائف فى الاندلس فى الاتصال بالفونسو السادس وممالأته وامداده بالاموال والهدايا ، وقد كان هذا التصرف باعثا جديدا لدى ابن تاشفين لغزو الاندلس والاستيلاء عليه (انظر ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن خلدون ، جـ٢ ، ص ١٨٧ ١٨٨) .

فتظاهر بانه ما قدم الا للجهاد وكان هدفه مدينة طليطلة ، مقر الفونسو ، وكانت غاية امانيه ان يعيدها الى الاسلام ولكن ملوك الطوائف لم يقدموا له هذه المرة العون اللازم ، فأثار ذلك عليهم ابن تاشفين ، فقد استاء من موقفهم حياله ، فكان ذلك مبررا مباشرا لموقفه العدائى منهم « فنوى الشر لهم » (١) ، ولم يعقه هذا التقاعس عن قيامه بحصار طليطلة « والفنش بها ، وهتكها ، وقطع اثمارها » وخرب احوازها ، وقتل وسبا ، ولم يأته احد من امراء الاندلس ولم يعرج عليه فغاظه ذلك » (٢) .

ويورد عبد الواحد المراكشى خبراً هاما وهو ان ابن تاشفين عندما كان بالعدوة اشار عليه اصحابه ان يراسل الطوائف يستأذنهم فى ارسال مجموعة من رجاله يرغبون بالرباط بالاندلس « ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم الى ان يموتوا : ففعلوا ، وكتبوا الى المعتمد بذلك ، فاذن لهم بعد ان وافقه على ذلك ابن الافطس المتوكل صاحب الثغور ، وانما اراد يوسف واصحابه بذلك ان يكرن قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فاذا كان امر من قيام بدعوتهم او اظهار لملكتهم وجدوا فى كل بلد لهم اعوانا ... » (٣) .

وبالاضافة الى ان هذا النص قد اثبت بما لايدع مجالا للشك فى ان رصد العيون للتجسس كان امرا شائعا ومألوفا فى العصر الاسلامى ، فانه سلط الاضواء كذلك على الدور الهام الذى لعبه عمر المتوكل بن الافطس فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الاندلس . ويوضح لنا هذا النص كذلك ان المعتمد بن عباد لم يوافق على رسالة ابن تاشفين وعلى طلبه الا بعد ان استشار ابن الافطس ، فوافقه على ذلك ، ويحمل هذا

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩
(٢) المصدر السابق ، ص ٩٩
(٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٩

السلوك من جانب المعتمد على الاعتقاد بأن ابن الافطس ، وابن عباد كانا يشكلان فى تلك الفترة محورا أندلسيا هاما ، وسنرى فيما بعد انهما سيتوجهان معا الى ابن تاشفين فى غرناطة بعد استيلائه عليها ، وانهما سيتصلان سرا بالفونسو السادس ملك قشتالة بهدف أن يتعاون معهما ضد المرابطين ، فسياستهما كانت موحدة ومشتركة مما يدل على خطورة هذا الحلف الذى الفه هذان الملكان ، ضد أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ، واذا كان ابن عباد قد اتهم فى فترة ما بممالأة إلفونسو السادس ، وتخليه له عن قلاعه وحصونه ، واذعانه لمشيئته فى دفع الجزية ، وموافقته له على تزويج ابنته زايدة المسلمة (١) منه ، فان هذا الاتهام كان له مايبرره وهو موقفه العدائى المخزى من المرابطين وتحالفه مع الفونسو السادس ضدهم ، وقد ظهرت آثار هذا التحالف عندما أرسل ابن عباد الى الفونسو السادس يستغيث به عندما علم بحصار المرابطين له فى اشبيلية « فبعث اليه الفنش قائده القومس فى جيش من عشرين الف فارس واربعين الف راجل ..... » (٢) .

ونعتقد أن هذا القول مبالغ فيه للغاية ، ولو أن الفونسو امده حقا بهذه الاعداد الضخمة من الرجال لما كان المرابطون قد أفلحوا فى اقتحام اشبيلية واسقاط المعتمد بن عباد ، واعتقد أن هذا الخبر مختلق مدسوس على المعتمد ، شأنه شأن كثير من الاخبار التى يسوقها صاحب روض القرطاس .

أما بالنسبة لابن الافطس فقد كان جزاء اتصاله بالفونسو السادس وتحالفه معه ، وتنازله له عن شنترة وشنترين واشبونة ، لقاء مساعدته

---

(١) وكنا قد اوضحنا كذب هذا الإفتراء على ابن عباد وان زايدة انما كانت زوجة ابنه الفتح بن عباد صاحب قرطبة وكنة المعتمد بن عباد .

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠

له ضد المرابطين ان قتل هو وولدان له بعد فتح المرابطين لبطليوس كما ستوضح فى الصفحات التالية ، وانما اردنا ان نؤكد تلك الحقيقة الهامة ، وهى ان المتوكل بن الافطس اصبح فى تلك المرحلة التاريخية الاخيرة من عصر الطوائف ، هو والمعتمد ابن عباد نجمين ساطعين فى سماء السياسة الاندلسية يمثلان فى ذلك ملوك الطوائف المناهضين فى الاندلس للوجود المرابطى ، وايا ما كان الامر ، فقد اقام يوسف بن تاشفين بعض الوقت محاصرا لطليطلة ، ولكنه ادرك استحالة افتتاحها وحده لقوة دفاع الفونسو السادس وابن ردمير عنها ، اذ كانا يتوليان مسؤولية الدفاع عنها انذاك ، ولذلك فقد غادرها ابن تاشفين الى غرناطة (١)

---

(١) كان عبد الله الزيرى قد جهر بالاعراض والتغير على ابن تاشفين ، وفى ذلك يقول صاحب الحلل الموشية « ولما تبين لهم تغيره عليهم واعراضه عنهم ، نظر كل منهم لنفسه ، بغاية عزمه ، فاول من جهر بذلك وتظاهر به ، وجد فيه ، المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس ، واتصلت انباؤه بيوسف بن تاشفين ، فاشتد غضبه وزاد حرجه عليه ... » (الحلل الموشية ، ص ٧١) هذا وكان عبد الله الزيرى قد عقد معاهدة مع الفونسو السادس تعهد فيها بدفع الجزية فى مقابل الا يعترض الفونسو له بلدا ، ولا يغدر به بعد هذه المعاهدة (انظر مذكرات عبد الله الزيرى ، ص ١٢٥) وشرع عبد الله الزيرى فى تحصين بلاده لمواجهة يوسف بن تاشفين ، كما بدأ بالفعل فى نقل امواله ومتاعه الى قصبة المنكب لمناعتها وحصانتها .

وكان الفونسو السادس قد اكد لعبد الله الزيرى وقوفه الى جانبه ومساعدته له ، وفى تلك الاثناء كان مؤمل احد موالى باديس جد الامير عبد الله الزيرى قد وشى به لدى ابن تاشفين بالاضافة الى اقدام فقهاء غرناطة على اصدار فتوى بخلع عبد الله الزيرى من غرناطة ، واخيه تميم من مالقة بسبب الخروج عن احكام الدين والشرع ، فحاصر ابن تاشفين غرناطة ، وعرض على عبد الله الامان فى النفس والاهل دون المال ، فاستمهله عبد الله فترة من الوقت بحجة تقليب الامر ، واتخاذ قرار حاسم فى ذلك رغم الحاح اصحابه وامه عليه بقبول امان امير المرابطين ، اذ كان ينتظر قدوم الفونسو السادس لانجاده ، فلما اقترب ابن تاشفين من المدينة ، =

لمواجهة صاحبها عبد الله الزيرى الذى قرر البدء باسقاطه ، فقد استقر فى ذهن يوسف أن ملوك الطوائف عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية يتعهدون فيها بالامتناع عن بذل العون للمرابطين ، ومن المعتقد أن ابن تاشفين بدأ بتنفيذ سياسته تجاه ملوك الطوائف بدويلة غرناطة اصغر دويلات الطوائف شأنا واقلها قوة ، ولم تلبث غرناطة أن سقطت فى يده (١) .

= واشتد الهياج بها ، وافق الامير عبد الله على أمان ابن تاشفين الذى بادر بضبط أمواله المكدسة التى ورثها عن جده باديس ، ولم يلبث أن أصدر ابن تاشفين أمره بنفيه واهله الى أغمات حيث عاشوا موضع تكريم ورعاية حتى وفاته (انظر فى ذلك ، مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، من ص ١٦٢ الى ص ١٧٢ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٣٥ ، خاصة فى وصفه لكيفية استسلام الامير عبد الله لابن تاشفين ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، الحلل الموشية ص ٧١ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٤١ ، ٣٤٢) .

(١) بلغ يوسف بن تاشفين وهو بمراكش بعد عودته من حصاره الفاشل لحصن لييط أن الامير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة اتفق مع البرهانس وكيل الفونسو السادس فى جهات غرناطة والمرية وتعاقد معه على نصرته نظير ثلاثين الف دينار ، كما ثبت ان ابن رشيق تعاون مع النصارى اثناء حصار المسلمين لحصن لييط ، اذ كان يقويهم ويعينهم ، خوفا مما قد يحل عليه بفقدهم ، (مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٥) لذلك عزم ابن تاشفين على استئصال شأفة ملوك الطوائف وخلعهم عن عروشهم مبررا لذلك بانه لاينبغى لهم اى للمرابطين « قتال الروم ، ويتركوا وراءهم الاعداء ممن يؤسى عليهم معهم » (مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٥) .
فلما جاز الى الاندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، وكان قد عزم على الاطاحة بعروش ملوك الطوائف ، بدأ بنكبة عبد الله الزيرى ، فعزله عن عرشه ونفاه الى مكناسة (الحلل الموشية ، ص ٧١) ثم أردفه باخيه تميم .

ب - خلع المعتمد بن عباد عن مملكته اشبيلية ونفيه

وكان يوسف بن تاشفين قد وعد المعتمد بن عباد بغرناطة قبل قدومه اليها بأن يسلمها اليه لانه ادرى أكثر من غيره من ملوك الطوائف، بمصالح المسلمين ، ويذكرون فى ذلك انه قال له « انا رجل مغربى ، وليس قدمنى اخذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع على صاحب غرناطة، ونتوقع عليها من الرومى ، وليس غرضى اكثر من تخليصها ، فاذا صارت فى يدى ولا يمكننى امساكها لبين بلاد الاندلس من العدوة وضعتها عند ذلك فى يدك فتكون اعلم بما تصنع بها ،واقعد لمايصلح للمسلمين ٠٠»(١)

وكان على ابن عباد وصاحبه ابن الافطس أن يبادرا من قبيل التظاهر والمجاملة بتهنئة ابن تاشفين بعد دخوله غرناطة ، فلما التقيا به « لم يقبل عليهما ، واعرض عنهما وانصرفا عنه الى بلادهما ، وادرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس ، وقال لحليفه المتوكل ابن الافطس : والله لابد له ان يسقينا من الكأس التى سقى بها عبد الله بن بلقين ٠٠٠ » (٢) ٠

هذا ويسوق الامير عبد الله الزيرى فى مذكراته رواية أخرى يوضح فيها كيف أن الحليفين ابن عباد وابن الافطس ، استشعرا الخطر المرابطى عند مقابلتهما لابن تاشفين فيقول « وان المعتمد بن عباد ، لما ابصر بدخول الامير غرناطة واستنجز وعده ، فلم يلتفت ، ورأى ثقافها بالمرابطين واخراج من فيهامن الحشم ، وكل من طمع بالبقاء على حاله ، جزع جزعا شديدا ، وخاف ان يثنى به ، اذ رأى الامير مذهبه

---

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٦٤ - ٦٥ ٠

(٢) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ، ومرة أخرى يؤكد صاحب الحلل الموشية قيام حلف اندلسى يجمع بين ابن الافطس وابن عباد ، فاستخدام صاحب الحلل الموشية لكلمة « حليفه ابن الافطس » يؤكد الرأى الذى ذكرناه ٠

فى البلاد واستصراخه ، ولم يمكن للامير ان ياخذه بغير ذنب فيقبح ذكره ، واشار اليه المرابطون بثقافه ، فأبى حتى يلوح قبله ذنب يؤخذ به . ثم انه بعد أن نهض واتبعه قرور ، يقول له « الامير يحتاج الى تذكارك بعض الامراء » ، فابى ، ومضى لوجهته فارا بنفسه ، واطوى المراحل حتى وصل قرطبة ، وقال له فى طريقه الى ابن الافطس « انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة ، وغدا بنا » (١) .

ومن هنا أدرك الحليفان الحقيقة المروعة ، وعلما بأن نهايتهما اصبحت محتومة ، فعاد كل منهما الى بلده يحصنها ، ويعتزم الدفاع عنها حتى الرمق الاخير . اما عن ابن الافطس فقد عاد لبلاده مضطربا حائرا ، واختلط عليه الامر اذ كان لايعرف كيف يتصرف أمام هذا الخطر المرابطى المائل ، وتصمت المصادر العربية عن ذكر اى تفاصيل عن هذه الفترة الدقيقة من عهده ، وكل ما يمكننا ان نتصوره انه استمر على اتصال بحليفه ابن عباد ،وفى الوقت الذى راى كل منهما ضرورة معاودة الاتصال بالفونسو السادس عدو الامس للاحتماء به والاستعانة بقواته ضد المرابطين ، رأى ابن الافطس أن يمسك بالعصا من وسطها ، فبدأ سلسلة من الاتصالات الودية بالامير سير بن ابى بكر ، كان لها اثر كبير

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٦٩ ، وتؤكد هذه الرواية أن ابن الافطس وابن عباد قد ربطتهما روابط الخوف والتوجس من نوايا أمير المرابطين مما قربهما وزادهما تعلقا وصداقة ، وتؤكد هذه الرواية أيضا ان تلك الزيارة التى قاما بها لابن تاشفين فى غرناطة كانت نذيرا لهما بنوايا ابن تاشفين حيالهما.
ومن الجدير بالذكر أن اسم قرور ، ورد فى نص الامير عبد الله ، وقرور هذا هو فى حقيقة الامر جرور الحشمى الذى ورد اسمه فى الحلل الموشية ص ٧٣ ، باسم « جؤذر الحشمى » وتصويبها « جرور » « الحشمى » وهو كما سنشير اليه فيما بعد القائد الذى ولاه يوسف بن تاشفين على احد جيوشه ليحاصر يزيد الراضى فى رنده ، ورغم ان يزيد سوف يسلم له رنده فى مقابل حصوله على الامان الا ان جرور يقدم على قتله .

فى الابقاء على عرشه الى حين ، . فبعد سقوط مملكة اشبيلية فى ايدى المرابطين كان للعلاقة الطيبة التى ربطت بينه وبين سير بن ابى بكر الفضل الاعظم فى حماية دولته طوال ثلاث سنوات من السقوط الى أن تاكد للمرابطين خيانة المتوكل لهم واتصاله بالفونسو السادس (١) .

وكان ابن الافطس شديد الاهتمام بتطور العلاقات بين ابن عباد ، الضحية التالية لابن تاشفين ، والمرابطين ، وقد تبين له هذا الامر منذ أن دعا يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد للحضور اليه ، فامتنع ، ثم عاد فطلب منه اتباع أحكام الشرع ، والغاء المكوس الجائرة ، ولكنه لم يستجب الى طلبه (٢) . ولاشك ان ابن عباد كان على يقين من أن ابن تاشفين يبغى استذلاله والتقليل من شأنه ، وربما أراد أن يتخذ أى مبرر للانقضاض على بلاده واسقاطه عن عرشه .

ولم يلبث ابن تاشفين أن قفل عائدا الى المغرب فى شهر رمضان ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) بعد أن اطمأن الى احتلاله لغرناطة تاركا على الاندلس قائده سير بن أبى بكر ويرى ابن أبى زرع أن ابن تاشفين اكتفى بترك قائده سير فى الاندلس مطمئنا بذلك الى حسن ادارته وكفايته ، فانه لم يأمره بفتح أى حاضرة أخرى من حواضر دويلات الطوائف ، ويعبر عن ذلك بقوله « وقدم على الاندلس قائده سير بن أبى بكر نحو اشبيلية ، وهو يظن أن ابن عباد اذا سمع به يخرج اليه ويتلقاه على بعد بالضيافات ، فلم يفعل ، وتحصن منه ، ولم يضيفه ، ولم يلتفت اليه ، فراسله سير بن أبى بكر أن يسلم اليه ويدخل فى طاعته ، فامتنع المعتمد من ذلك ، فأخذ سير فى احصاره وقتاله وبعث قائده بطى الى جيان فحاصرها حتى دخلها صلحا ... » (٣) .

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٦٨ .

(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠ - مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠

أما صاحب الحلل الموشية فيؤكد أن ابن تاشفين كان قد قدم « ابن عمه الامير سير بن ابى بكر على عسكر وامره بمحاصرة ابن عباد باشبيلية واوعز اليه انه اذا فرغ من شأنه يتقدم لبلاد المتوكل ابن الافطس ، لشبونة ، وشنترين ، وغير ذلك مما كان بيده » (١) . كما ارسل ابن تاشفين قائده ابن الحاج لفتح قرطبة حيث كان بها الفتح بن عباد الملقب بالمامون زوج زايدة المشهورة كنة المعتمد بن عباد وأم ولد الفونسو السادس فيما بعد (٢) .

كذلك سير قائده ابا زكريا بن واسينو على راس جيش ثالث لمحاصرة المعتصم بن محمد بن معن بن صمادح بالمرية ، وجيشا رابعا بقيادة جؤذر الحشمى على عسكر رابع ، وامره بمنازلة يزيد الراضى بن المعتمد بن عباد والى رندة (٣) .

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ، وانظر ايضا ابن الكردبوس ، تحقيق د. مختار العبادى ص ١٠٦ .

(٢) عندما افتتح المرابطون قرطبة ، واستشهد المامون ولد المعتمد ووزيراه ابن زيدون وأبو بكر بمداخله من أهل قرطبة (مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٠) امتلأ قلب زايدة زوجة المامون بالحقد على قتلة زوجها وسجانى أبيه فيما بعد ، والظاهر ان حقدها على المرابطين دفعها الى الاقدام على ارتكاب خطأ فاحش فقد فرت من الاندلس واولادها ، والتجأت الى طليطلة ، واصبحت زوجة غير شرعية لالفونسو السادس ملك قشتالة بعد أن ارتدت عن الاسلام ، واعتنقت المسيحية حتى تستحثه على محاربة المرابطين ، وقد انجبت منه ولدها الامير شانجة الذى قتل فى موقعة الاقماط السبعة المعروفة باقليش (٥٠١هـ) (١١٠٧م) (الونشريشى ، اسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، تحقيق د. حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧ ، ص ١٨٩ ، وانظر ايضا التفاصيل فى الاسلام فى المغرب والاندلس تأليف ليفى بروفنسال وترجمة السيد عبد العزيز سالم ، ص ١٦٢) .

(٣) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٤٣ .

وأياما كان الامر (١) ، فان سير بن ابى بكر وباقى القادة الذين ارسلوا لفتح مملكة اشبيلية والمناطق التابعة لها ، قد نجحوا فى تنفيذ ما كلفهم به أميرهم ، وتمكن سير بن ابى بكر بعد طول مقاومة من فتح اشبيلية والاستيلاء عليها (٢) ، وتمكن المرابطون من اقتحام اشبيلية من جهة باب الفرج ، واستولوا على القصر ، وقبضوا على المعتمد بن عباد ، وساقوه اسيرا الى اغمات فى صحبة زوجته الرميكية وبناته ، وهناك انتابه شعور بالحزن والاسى عبر عنهما بقصائد تقطر الما الى ان توفى فى اغمات سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) وتم العثور على قبره الذى دفن فيه (٣) .

---

(١) نحن اميل الى الاخذ برأى صاحب الحلل الموشية فلا يمكن لقائد مهما كانت مكانته ان يتحرك لفتح مملكة كبيرة مثل مملكة اشبيلية دون ان يتلقى تعليمات سيده ، الامر الذى يدعونا الى ان نرجح أن ابن تاشفين هو الذى امر سير بن ابى بكر بفتح تلك الممالك قبل عبوره الى المغرب .

(٢) سقطت مملكة اشبيلية فى ايدى المرابطين بعد مقاومة عنيفة من جانب المعتمد ، وقد بدأ سير بن ابى بكر هجومه على هذه المملكة باستيلائه على طريف اقصى ثغور اشبيلية الجنوبية (انظر عبد الواحد المراكشى المعجب ، ص ١٣٩) ثم توجه الى اشبيلية نفسها ، بينما كانت سائر الجيوش الاخرى التى ارسلها ابن تاشفين تتخذ طريقها الى جهاتها المختلفة : قرطبة ورندة والمرية (انظر ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠) . وقد دافع ابن عباد عن بلاده دفاع الابطال ، وظل محاصرا داخل مدينته عدة اشهر ، وفى احدى المعارك مع المرابطين خرج يدافع فيها عن مدينته وليس عليه سوى غلالة رقيقة تشف عن بدنه ، وقد أصيب فى هذه المعركة بطعنات قاتلة ، وذكروا انه استنجد بالفونسو السادس فبادر بارسال جيش لنجدته ، ولكنه انهزم امام المرابطين (انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجب ص ١٤٠ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٦٣) .

(٣) راجع مقال :

Emilio Garcia Gómez, un supuesto sepulcro de Mu'tamid : do Sevilla en Agmat, al-Andalus, vol. XVIII, Fasc. 2, 1953, pp. 402 - 411.

جـ - نهاية المتوكل على الله وسقوط دولة بنى الافطس

ذكرنا من قبل ان ابن الافطس ادرك حين رأى الخطر المرابطى باشبيلية أن دوره هو الآخر اصبح وشيكا ، ولذلك بدا يتودد الى الامير القائد سير بن ابى بكر ، ومن الغريب ان هذه السياسة تكللت بالنجاح واثمرت بدليل انه وفق فعلا فى حماية دولته من السقوط فى أيدى المرابطين مدة ثلاث سنوات . ويبدو ان سير بن ابى بكر ارسل احد اعوانه من المرابطين الى بطليوس ، وهو ابن الاحسن السجلماسى الذى كان قد ارسل من قبل يوسف بن تاشفين الى المعتمد بن عباد قبل جوازه الاول مع عبد الملك القاضى لتمهيد الامور لامير المسلمين ليقيم مع المتوكل ابن الافطس فيكون بمثابة رقيب عليه ، ويطلع على احوال البلاد ، ويحصى عليه كل تحركاته . ويؤكد الامير عبد الله الزيرى ذلك فى مذكراته فهو يقول « وبقى ابن الافطس يتخدم امره ، وكان يدارى ابن الاحسن وينفعل له فى كل ما اراد طمعا منه فى البقاء لحينه ... » (١) .

وقد بدا ابن الاحسن فى الايام الاخيرة لابن الافطس يتدخل فى امور المملكة البطليوسية ويتشدد مع المتوكل مما جعل الاخير يتوجس خيفة من المرابطين لاسيما بعد توتر العلاقات بينه وبين الامير سير بن ابى بكر (٢) ، الامر الذى دعاه الى ان يلجأ فى نهاية الامر الى الفونسو السادس . ويورد اشباخ فى كتابه « تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين » خبرا غاية فى الاهمية ، فهو يذكر انه بعد أن ترك يوسف بن تاشفين قائده سير بن ابى بكر فى الاندلس ورجع الى المغرب ، توجه سير بن ابى بكر مع امير بطليوس الى وسط البرتغال الحالية مما يلى نهر تاجة

= وعن ابن عباد ومصيره التعس انظر ، ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢١ - ٣١ ص ١٣٨ - ١٤٦ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ٦ ، ص ١٠ ، ١٣ ، جـ٥ ، ص ٣٧٩ .

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢

(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .

وانخنا فى هذه الانجاد تخريبا ونهبا واسرا فى سكانها (١) . ونحن نميل الى الاخذ بهذا الخبر ، فابن الافطس قد لجأ فى فترة ما بعد سقوط اشبيلية فى أيدى المرابطين الى التودد الى الامير سير بن ابى بكر كما أسلفنا القول ، وربما كانت مشاركة ابن الافطس لسير بن ابى بكر فى بعض المعارك جزءا من سياسته لكسب قلوب المرابطين وصرف انظارهم عن بلاده . وقدم المتوكل عمر لالفونسو نظير مساعدته له ، ثلاثة مدن من اهم مدن مملكة بطليوس هى شنترة واشبونة وشنترين (٢) ، وفى ذات الوقت كان المتوكل « يخاطب الامير باظهار الطاعة والمشاركة فى امر الرومى ، ويخاطب الفونس ليستعين به على ملمة دهته من المرابطين ... » (٣) .

فلما رأى اهل بطليوس ما فعله بهم عمر بن الافطس ، بدات بوادر الثورة فى الاشتعال داخل المدينة ، ولعل هذا الوضع يذكرنا بما حل بابن عباد حليف عمر المتوكل ، فقد اشتعلت الثورة فى مملكة اشبيلية ضد ابن عباد اثناء حصار المرابطين لها بتحريض بعض الخونة ، وهكذا كانت الاحداث فى هاتين المملكتين متشابهة الى حد كبير فيما يخص هذه الفترة الحرجة على وجه التحديد ، فقد انزعج الناس فى بطليوس حين سلم عمر المتوكل شنترين وشنترة واشبونة لالفونسو السادس ثمنا لمساعدته له ، فأرسلوا الى المرابطين فى أوائل عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) يستدعونهم، فقدموا بجيش يتقدمه سير بن ابى بكر ، وفى تلك الاثناء استصرخ المتوكل ابن الافطس حليفه الفونسو السادس واقام منتظرا وصول امداداته ، ولكن انتظاره طال بلا نتيجة (٤) . وحين علم اهل بطليوس بوصول

---

(١) بوسف اشباح ، تاريخ الاندلس ، فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عبد الله عنان ، ص ٨٩ .
(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٦ .
(٣) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢
(٤)
Menendez - Pidal, la España del Cid, p. 504.

جيش المرابطين الى مدينتهم فتحوا ابواب بطليوس للمرابطين فدخلوها، واقتحموا قلب المدينة متجهين الى قصبة بطليوس حيث امتنع المتوكل عمر ، ومن المعروف أن قصر المتوكل عمر كان قريبا من القصبة وكانت تحيط بقصره وبالقصبة أسوار المدينة بأبراجها البرانية (١) .

ويمكن تفسير عدم تمكن ابن الافطس من الفرار من باب الغدر قبل وصول جيش المرابطين بأن وصولهم كان مفاجئا وسريعا بحيث فوجىء ابن الافطس بهم فأسقط فى يده . ومن المحتمل ان يكون الفونسو السادس قد وعد ابن الافطس بالقدوم لمساعدته ، ولهذا فقد ظل ابن الافطس منتظرا فى قلعته على امل وصول هذا الحليف ، ولكن بدون جدوى ، حتى فات الاوان ، فتم القبض عليه حيث كان مختبئا .

ويرى اشباخ أن المتوكل ابن الافطس دافع عن بلاده دفاع الابطال شانه فى ذلك شأن ابن عباد ، ويأخذ بذلك الرأى الكثير من المؤرخين الاسبان امثال فرناندو فالدث الذى يؤكد انه لولا قتال عمر بن الافطس وأولاده بشجاعة فائقة ضد المرابطين ، ولولا استنجادهم بقوى المسيحية، لما تعرضوا لغضب سير بن أبى بكر وجنده المرابطين بحيث انتهى مصيره بالقتل ، فابن الافطس يعد الملك الوحيد من بين ملوك الطوائف الذى

---

(١) قمنا مرتين بزيارة بطليوس ودراسة تخطيطها العمرانى ونظامها الدفاعى الممثل فى أسوار المدينة والقصبة ، ومن بينها برج اسبنتابروس الذى يشبه برج الذهب باشبيلية ، كما اشتركت مع بعثة جامعة مدريد ، قسم الآثار فى الحفريات الاثرية التى أجروها برئاسة الدكتور فرناندو بالدث داخل القصبة وفى الربض ، واطلعنا على احدث الاكتشافات التى توصل اليها سيادته ، وتتمثل فى باب صغير لايعدو نقبة او خوخة فى السور القبلى لبطليوس كانت تصل بين قصر المتوكل ، والقصبة ، وقد سماه الدكتور فالدث « بباب الغدر » وفى نقطة انفتاح هذا الباب اقيم برج برانى ، ربما تم بناؤه زمن المتوكل تقية لباب الغدر وتمويها للناظرين ، وكان المتوكل يستخدمه فى أوقات الخطر .

قتل على ايدى المرابطين ، ولم يكن هذا بسبب تحالفه سرا مع الفونسو السادس ، فيكون قتله عقابا له على خيانته ، فمن الثابت فى جميع المصادر العربية ان ابن عباد قد اتصل هو الآخر بالفونسو السادس كما اتصل ابن رشيق من قبل وكذلك عبد الله الزيرى .

اذن فلم يكن تعاون ابن الافطس مع الفونسو هو المبرر الوحيد لقتله ، واعتقد ان هناك اسبابا اخرى تضافرت مع ذلك العامل لتبرير قتله ، لعل من اهمها المقاومة الشديدة التى ابداها المتوكل بن الافطس ، وان كان ابن عباد قد تصدى قبله للمرابطين ولم يقتل . ويرى اشباخ انه بينما كان داوود بن عائشة يفتتح شرقى الاندلس ، كان سير بن ابى بكر يقتحم منطقة الغرب Algarvo ، وقد بدأ باستيلائه على شلب ويابرة بعد مقاومة تكاد لا تذكر ، ثم ظهر بعد ذلك فى مروج بطليوس التى كانت ماتزال تحتفظ بعظام النصارى الذين قتلوا على ايدى المسلمين فى واقعة الزلاقة ، وقد خرج اليه عندئذ ملك بطليوس عمر بن الافطس واولاده يقاتلون ببسالة نادرة على راس جيشهم ، ولكنهم انهزموا امام المرابطين . ويؤكد اشباخ أن السبب الرئيسى فى هزيمة ابن الافطس وغضب المرابطين عليه غضبا شديدا هو الشعور العدائى الشديد الذى كان يحمله جمهور بطليوس لبنى الافطس بسبب تسليمهم المدن الثلاثة للعدو المسيحى ، يضاف الى ذلك أن أهالى بطليوس ، كانوا يؤثرون اسقاط الحكم الافطسى لان نفقات البلاط البطليوسى ، وان كانت تساعد فى نمو التجارة الا انها كانت تزيد فى المكوس زيادة كبيرة ، هذا الى جانب انتشار نبوءة فى تلك الآونة بين أهل الاندلس خاصة فى هذا الجزء الغربى كما يذكر اشباخ خلاصتها أن الامراء الاندلسيين سوف يقهرون على يد فاتح من المغرب ، ومن ثم فقد انحاز اهل بطليوس الى المرابطين مؤثرين الا يناهضوا القدر بمعركة خاسرة (١) . ولعل اتفاق ابن الافطس مع

---

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

سير بن ابى بكر وتعاونه معه ثم خيانته له واتصاله بالفونسو السادس بعد ان كان سير قد تركه يحكم مع ابن الاحسن لمدة ثلاث سنوات ، اغضب سير وجعله يصمم على نكبته .

وقد ادت هذه الاسباب مجتمعة الى تحامل المرابطين عليه الى حد انهم قتلوه هو وولديه صبرا ، اما العامل الرئيسى والمباشر فيتمثل فى تسليمه ثلاث من اهم مدن مملكته الى الفونسو السادس . وبعد ان تغلب المرابطون على قوة المتوكل ، تراجع الى بطليوس وتحصن بقصبتها المنيعة ، ولكن الاحداث تتابعت سريعا ، بحيث انه لم يتمكن من الهروب عبر باب الغدر ، ويبدو انه انخدع بامان منحة المرابطون له ووعد قطعوه على انفسهم بانهم سينقلونه هو وولديه الى اشبيلية ليعيشوا هناك [1] . ولكن بدخول المرابطين القصبة اسرعوا بالقبض على المتوكل « وعلى بنيه وعبيده واستخراج ما كان له من مال وذخيرة [2] » بعد ان عذبوه لكشف مخابئها ، فقد كانت كل اموال بنى الافطس مدفونة فى القصبة بعد ذلك امر سير بنقل عمر المتوكل ابن الافطس مع ولديه الفضل وعباس الى اشبيلية ، وبالفعل سار الامراء الثلاثة مع حراسهم فى طريق اشبيلية، ولكن ما كاد المتوكل يغادر المدينة مع ولديه ليحتلها سير بن ابى بكر وقواته حتى ارسل سير سرية من فرسان المرابطين وراءهم « وفى اثناء الطريق لما بعد من بطليوس ، انزل وأمر بالتاهب للموت ، فسال ان يقدم ابناه قبله ليحتسبهما فكان ذلك ، وقتل الجميع صبرا وذلك فى اخريات سنة ٤٨٨هـ » ويؤكد ابن خاقان فى قلائد العقيان ان المتوكل « رغب فى تقديم ولديه بين يديه ليحتسبهما عند ربه ، ويكتسبهما حسنة تمحو بعض ذنبه [3] » . ويشهد قاتل الفضل ابن الافطس والعباس اخيه بانهما كانا فى غاية الجلد مما حير قاتليهما من المرابطين ، وان

---

(١) اشباخ ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٠١
(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص١٨٦
(٣) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٣٨ .

المتوكل عمر بن الافطس كان مثالا للاب الحنون ، الذى تجيش نفسه بالعاطفة الابوية الخالصة فما ان رأى ولديه يقتلان امامه حتى قام « عند صرعتهما مختبلا من لوعتهما ليصلى ، وقد افرط فى ملامه وتشطط فى كلامه واختلط افتتاحه بسلامه » (١) .

ولكن المرابطين لم يمهلوه حتى ينتهى من صلاته فبادروه بأسنتهم فى الصلاة « وناهشوه متاهشة الطير لقتيل الفلاه ، حتى خرلا لسجود ، واستقلى لغير هجود ....» (٢) ثم ترك المرابطون هؤلاء القتلى الثلاثة فى الفلاه دون أن يدفنوهم ، فصارت اجسادهم غذاء للسباع ، ودماؤهم طعاما للنسور . وقد رثاهم ابن خاقان بقوله « فرويت الارض من دمائهم، وتعطلت المنابر من اسمائهم ، وعاد صبح ملكهم عاتما ، واقامت النجوم عليهم ماتما ، فخروا على الثرى بدورا ، وسعروا بالجوى صدورا ، وغدوا صرعى تسفى عليهم الشمال ، وتنتفى منهم الآمال ، مجدلين على وجه الارض ، معفرين الى يوم النشور والعرض ، قد توسدوا التراب بدل الارائك ، وتضرجوا بالدماء بعد التضمخ بالمسك الصائك ....» (٣)

وكان للمتوكل بن الافطس ولد آخر هو المنصور ، كان قد ارسله بكثير من الذخائر الى حصن شانجش بالقرب من حدود قشتالة ، فلما علم بما حل بوالده واخويه « وجه الى اذفونش باهله وماله ، ودخل - زعموا - فى دينه ، وصدر معه الى بلاده بعد ان ثقف الحصن برجاله ، وانتهى أمر بنى الافطس » (٤) .

وكان المنصور داهية بالامور وغاية فى الذكاء ، وقد حذر والده من ابن الاحسن ، فقد استطاع ان يتبين اهداف ابن الاحسن منذ مجيئه الى

---

(١) ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٣٨
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨
(٣) نفسه ، ص ٣٧ .
(٤) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٨٦

بطليوس « وقد رأى طريقة ابن الاحسن وسعيه على ابيه وهو رجل سجلماسى فقيه ، متصرف فى امور الامير ، استوطن بطليوس ، واكتسب فيها مالا ، يرى أن كونه فى الثغر ، لما ينفع المسلمين ، وهو يعمل فى خلع صاحبها .... » (١) كما كان دائم التنصح لوالده عمر المتوكل لاسيما ما يتعلق بسياسته مع ابن الاحسن هذا ، فقد كان المتوكل متبعا لهوى هذا الرجل السجلماسى « لو سأله روحه مالا يحل عليه ، عمل به متوقعا لشره ، وكل شىء يحذره الانسان ويكرهه بقلبه ، ولا يكون عليه بالخيار ، فهو متورط لا محالة فيه ، فان المدارة فيه مما لاتنفع .... » (٢) .

« فنصح الابن اباه بألا يحاول استمالة هذا الرجل الذى يمثل سلطان المرابطين ، وقال له « فلن تبلغ مرضاته الا بالانخلاع له ووضع البلد فى يديه وتقنع بأن تكون متحريا ، متخليا عن الرياسة ، فعاجل ذلك تجد عنده الامان » (٣) فان قبل ذلك فسوف يجد الراحة من الخطر المرابطى ، وكان الولد يعرف اباه فان المتوكل كان يرفض تسليم اموره الى ابن الاحسن والى المرابطين ، لذا فقد استطرد المنصور فى النصح بأن طلب منه ان يفر الى الفونسو السادس يلتجا اليه تاركا بطليوس ؛ ولكن المتوكل اباه ، رفض نصيحة ولده المنصور وسفه رايه ، فلما راى الابن ذلك نجا بماله واهله ، واخذ لنفسه بالرأى الذى اشار به على ابيه ، وبقى الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه .... » (٤) .

وهكذا نرى أن الروايات الواردة فى المصادر العربية اختلفت فى شان المنصور الثانى بن عمر المتوكل بن الافطس ، فمنها ما يؤكد أن والده هو الذى قام بارساله الى حصن شانجش بماله وذخيرته (٥) ، ومنها

---

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢
(٢) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٢
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٢
(٤) نفسه ، ص ١٧٢
(٥) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٦

ما يذكر أن المنصور هو الذى فر من تلقاء نفسه الى الفونسو السادس تاركا بطليوس خلفه لادراكه وتيقنه بخطورة ابن الاحسن والمرابطين (١) .

وايا ما كان الامر فقد انضم المنصور مع جيوش النصارى ، وشاركهم فى حرب المرابطين ، وفى ذلك يقول الامير عبد الله الزيرى « ثم صار ابنه المنصور فى جملة الروم حنقا لما جرى على ابيه ، يطلب الثار ويتطرق معهم بلاد المسلمين » (٢) .

ويرى الامير عبد الله الزيرى أن الذى دل الامير سير بن أبى بكر على طريقة الهجوم على مملكة بطليوس هو ابن رشيق الذى كان له عليه من الايادى الكثير من قبل فى لييط ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية لانه اندلسى عالم ببواطن وخفايا الامور والفتن ، وقد كان ابن رشيق فى اسر جرور الهاشمى ، فاطلق سراحه على ان يقوم بارشاد المرابطين على الكيفية التى يفتحون بها بطليوس وقد كان لابن رشيق دور كبير فى تاليب الناس فى بطليوس وثورتهم على بنى الافطس « فلما وصل . تخدم امر بطليوس بكل وجه من المداخلة لاهل البلد ومن معه فى القصبة من الحرس وغيرهم حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلا ويفتحون له الباب فكان من ذلك ما حاولوه .... » (٣) .

وقد اذكت محنة بنى الافطس كما أذكت محنة بنى عباد من قبل

---

(١) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٣

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤ ، هذا وقد ذكر ابن عذارى ان المنصور فارق أرض النصرانية فى صفر عام ٥٠٥هـ (١١١١م) ونزل باشبيلية ومن هناك نقل الى المغرب ليمثل فى حضرة أمير المسلمين على بن يوسف حيث قربه اليه وأدناه منه ورفع منزلته ، واصبحت له مكانة رفيعة فى دولة المرابطين (راجع ابن عذارى البيان ، جـ٤ ، ص ٥٦) .

(٣) مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ١٧٤

فجيعة الشعر الاندلسى ، فقام شاعر يابرة العظيم أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون الذى كان وزيرا للمتوكل بن الافطس بكتابة مرثيته الشهيرة التى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر   فما البكاء على الاشباح والصور

انهاك انهاك لا آلوك موعظة   عن نومة بين ناب الليث والظفر (١)

(١) انظر باقى القصيدة فى ابن خاقان ، القلائد ، ص ٣٩ - ٤٠ ، ومن الغريب ان يسفه الدكتور حسين مؤنس صاحب القصيدة ويزعم انها مع شهرة هذه المرثية واجماع المصادر العربية على أعتبارها من أروع ما قيل فى الرثاء أبرد مع الثلج . (راجع ردى على د. مؤنس فى مجلة اكتوبر ١٩٨٤) .

البـــــاب الثـــالث

بطليوس منذ دخولها في فلك دولـة المرابطـين عـام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) حتى سقوطها في أيـدى الليونيـين عـام ٦٢٧هـ (١٢٣٠م »

الفصـــل الخامس

بطليوس في عصر دولتى المرابطــين والموحــدين

(١) بطليوس فى عهد على بن يوسف

(٢) الثورة فى غرب الاندلس وانهيار سلطان المرابطين

(٣) بطليوس فى عهد عبد المؤمن بن على وابنه يوسف

(٤) بطليوس فى عهد الخليفة ابى يوسف يعقوب المنصور

(٥) بطليوس فى عهد خلفــاء المنصور

(٦) سقوط بطليوس فى أيدى الليونيين سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م)

الفصــل الخامس

بطليوس فى عصر دولتى المرابطــين والموحــدين

(١)

بطليوس فى عهــد على بن يوســف

ا ـ نشــاط عسكر المرابطين فى الغرب :

بعد سقوط بطليوس فى ايدى المرابطين ، تصمت المصادر العربيــة عن ذكرها فى الفترة الباقية من عهد يوسف بن تاشفين ، وكل ما استطعنا ان نستنتجه من خلال دراستنا لعصر يوسف أن بطليوس اصبحت احــدى القواعد المرابطية الرئيسية فى غرب الاندلس : ففى ذى الحجة من سنة ٤٩٦هـ (١١٠٢م) جمع يوسف بن تاشفين فى قرطبة أمراء المرابطــين واشياخهم وفقهاءهم لعقد البيعة لابنه على ، فقد كان يوسف قد جــاز الى الاندلس للمرة الرابعة فى أواخر هذا العام ٤٩٦هـ (١١٠٢م) لاستئناف الجهاد ضد القشتاليين ، وقد تم لابن تاشفين ما اراد ، ووفق فى اخــذ بيعة اهل الاندلس بولاية العهد لابنه على ، وكان من شروطهم أن ينشىء ابن تاشفين فى الاندلس جيشا مرابطيا عدته سبعة عشر الف فارس ، يخصص منهم سبعة الاف فى اشبيلية ، وأربعة الاف فى شرق الاندلــس والف بقرطبة ، والف بغرناطة ، والباقون يتم توزيعهم على الثغور (١) . ولما كانت بطليوس ثغرا من أهم ثغور الاسلام فى الاندلس بحكم مجاورته لدولتين مسيحيتين تزعمتا حركة الاسترداد ، ونعنى بهما مملكتى قشتالة وليون ، ثم ان بطليوس كانت مسرحا لاهم مواقع المرابطـــين ، ففى أحوازها دارت موقعة الزلاقة المشهورة ، وفى فحصها ايضا دارت موقعة أخرى فى عهد على بن يوسف انتصر فيها المسلمون ، ونعتقد أنها اتخذت فى عصر المرابطين قاعدة حربية لقواتهــم فى الغــرب ، بحكم موقعهــا

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٨٠ .

الاستراتيجى الهام ، كانوا يحرصون على شحنها بقواتهم المحاربة فى مواجهة العدو (١) .

ثم توفى يوسف بن تاشفين فى يوم الاثنين مستهل شهر المحرم سنة خمسائة ٥٠٠هـ (٢) (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦م) فى مراكش ، وخلفه على امارة المرابطين ابنه ابو الحسن على الذى كان يوسف قد اختاره لولاية العهد من دون ابنائه جميعا ، وبالذات ابنه أبى طاهر تميم الذى يكبر ولى العهد فى العمر (٣) . وكان قد عقد البيعة له فى الاندلس سنة ٤٩٦هـ (١١٠٢م) وحضرها بقرطبة عبد الملك بن المستعين بن هود ، وكتب العقد الكاتب ابو بكر بن القصيرة (٤) .

وقد تعرض على بن يوسف فى بداية امارته لثورة محلية تزعمها يحيى بن ابى بكر ، وهو ابن اخى على بن يوسف فى فاس ، فبادر على بالتوجه اليها على راس قواته ، فلما رأى يحيى قدوم عمه اليه فى فاس، فر منها الى تلمسان حيث احتمى بحاكمها الامير مزدلى الذى شفع له

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .

(٢) يخطىء عبد الواحد المراكشى فى تاريخ وفاته فيجعله سنه ٤٩٣هـ (١٠٩٩م) بدلا من ٥٠٠هـ (١١٠٦م) (راجع عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٧٠) .

(٣) الحلل الموشية ، ص ٧٧ . والظاهر ان يوسف كان يفضله على سائر بنيه ، لما كان يفضلهم باتزان تفكيره وحسن تدبيره ، رغم كونه اصغر من اخيه تميم سنا ، وفى ذلك يقول أحد شعراء الاندلس معبرا عن فضائله :

وان كان فى الاسنان يحسب ثانيا ** على ففى العلياء يحسب اولا
كذلكم الايدى سواء بنانها ** وتختص فيهن الخناصر بالجلا
(الحلل الموشية ، ص ٧٨) .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، ج٣ ، ص ٤٣ ، وورد فى الحلل أن الذى كتب نص البيعة الوزير الفقيه ابو محمد بن عبد الغفور ، وقد سجل صاحب الحلل نص العهد كاملا (راجع الحلل الموشية ، ص ٧٨ ، ٧٩) .

عند على بن يوسف ، وانتهى الامر بان عفا الامير على عنه ، فجاء الى مراكش ليعيش بها ثم عاد من جديد يسعى لثورة جديدة ، فامر عمه الامير على بن يوسف بالقبض عليه ونفيه الى الجزيرة الخضراء حيث اعتقل الى ان توفى (١) .

ثم جاز جوازه الاول الى الاندلس فى منتصف عام ٥٠٠هـ (١١٠٧م) (٢) ليبايعه زعماء الاندلس وفقهاؤها وقضاتها وشعراؤها ، وادباؤها ، وفى ذات الوقت كان على بن يوسف يرغب فى تعديل بعض النظم الادارية فى الاندلس ، فقام بعزل اخيه ابى طاهر تميم عن ولاية المغرب ، وولاه على غرناطة بالاندلس ، ونصبه قائدا اعلى للجيوش المرابطية فيما وراء البحر . ووضع على ولاية المغرب ابا عبد الله محمد بن الحاج ، ولم يلبث ان عزله عن منصبه هذا بعد ستة اشهر ، وولاه على بلنسية وشرقى الاندلس . اما قرطبة فقد جعل على ولايتها ابا عبد الله محمد بن ابى بكر اللمتونى (٣) . ثم قفل عائدا الى المغرب ، ومن هناك ارسل الى اخيه تميم قائد الجيوش المرابطية فى الاندلس يأمره ببدء الجهاد ضد النصارى فى الاندلس ، بينما تخلف على بن يوسف فى المغرب ، ولم ينتقل الى الاندلس للمرة الثانية الا فى عام ٥٠٣هـ (١١١٠م) (٤) . ويرجع السبب فى صدور الامر من مراكش الى قادة المرابطين بالاندلس بالجهاد الى اقدام الفونسو السادس على مهاجمة احواز اشبيلية وعيثه فسادا فيها بمجرد سماعه بنبأ وفاة يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ، فخرج سير بن ابى بكر ، حاكم اشبيلية ، ومعه قوات غرناطة بقيادة ابى عبد الله بن الحاج لمطاردة القشتاليين ، ثم اتجهت قوات المسلمين لمهاجمة وغزو النصارى فى عقر دارهم ، وانضمت

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٣ .
(٢) الحلل الموشية ، ص ٨٥
(٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٤٩ — ٥٠ .
(٤) الحلل الموشية ، ص ٨٥ .

اليهم فى تلك الاثناء حشود من مرسية بقيادة أبى عبد الله محمد بن عائشة ، وقوات من بلنسية بقيادة محمد بن فاطمة ، واتجهوا جميعا الى اقليش أحصن معاقل كورة شنتبرية (١) ، التى سرعان ما سقطت فى أيدى المرابطين فى اليوم التالى وهو يوم الخميس ١٥ شوال (٢٨ مايو) والتجأ النصارى الى قصبة اقليش العليا ، فامتنعوا بها فى انتظار مساعدة مواطنيهم بينما حاصرتهم قوات المرابطين مجتمعة ، وكان الفونسو السادس فى تلك الآونة ، قد هدمه المرض ، واعياه الضعف والوهن ، فأرسل حملة قوية بقيادة ولى عهده شانجة ومؤدبه غرسية اردونيث Garcia Ordoñez ، ويعرف بالفم المعوج ، والبار هانس ، ولا يهمنا فى هذا المجال الحديث عن تفاصيل موقعة اقليش ، وكل ما يهمنا ان نعرفه

---

(١) أقليش Uclés ، لقد قام اويثى ميراندا بكتابة بحث مفصل عن هذه الموقعة فى كتابه سالف الذكر ، ثم ترجم ذلك البحث الى العربية ونشر تحت عنوان « وقعة أقليش ومصرع الامير شانجة » ، صدر فى مجلة تطوان سنة ١٩٥٧ (العدد الثانى ، ص ١١٥ - ١٣٠) وقد اعتمد اويثى ميراندا فى هذا البحث على نص ابن القطان (نظم الجمان ، ص ٥ - ١٠)وعلى رسالة تميم التى وجهها الى أخيه على يبشره بهذا الفتح ، وعلى نص مخطوط من كتاب البيان المغرب (مخطوط تامجروت) ، وقد عرف الحميرى اقليش بقوله « مدينة لها حصن فى ثغر الاندلس وهى قاعدة كورة شنتبرية ، وهى محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذى النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره فى سنة ١٦٠هـ ، ثم اختار اقليش دارا وقرارا فبناها ومدنها ، وهى على نهر منبعث من عين عالية على رأس المدينة فيعم جميعها ، ومنه ماء حمامها ، ومن العجائب ، البلاط الاوسط من مسجد جامع اقليش ، فان طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر « (أنظر الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ٢٨) . ويرفض الاستاذ محمد عبد الله عنان رأى الحميرى القائل بأن من بناها كان الفتح بن موسى بن ذى النون لان ثورة الفتح حدثت فى مستهل عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م) (انظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٦١) . ويرفض الدكتور محمود مكى رأى عنان ويؤكد استنادا الى المقتبس أن الفتح هو الذى ابتنى حصن أقليش (ابن حيان ، المقتبس ، ص ١٧) .

أن انتصار المرابطين على أعدائهم النصارى فى تلك الموقعة كان عظيما ، وهو انتصار يذكرنا بيوم الزلاقة ، وتعرف هذه الواقعة فى الروايات النصرانية باسم « موقعة القوامس السبعة » نسبة الى سبعة قوامس ، كانوا فى حاشية ولى عهد قشتالة شانجة (١) ابن الفونسو السادس من زوجته زايدة المسلمة ، وعندما سقط شانجة الصغير صريعا ومعه مؤدبه غرسية اردونيث ، حاول هؤلاء القوامس السبعة الفرار الى حصن بلشون Belinchon القريب ، ولكن جماعة من فرسان المرابطين تمكنوا من اللحاق بهم وابادتهم عن آخرهم (٢) ..

ثم جاز على بن يوسف للمرة الثانية ، وكان ذلك عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) « برسم الجهاد ، ونصر الملة ، واعزاز الكلمة » (٣) . وبدأ سلسلة حروبه للجهاد بطليطلة حيث نزلوا على بابها . واخذت

---

(١) شانجة Sancho ، كان يبلغ من العمر فى تلك المعركة نحو خمسة عشر عاما ويذكر ابن ابى زرع فى (روض القرطاس ، ص ١٠٤) ان زوجة الفونسو هى التى اشارت عليه أن يرسل ولده شانجة على راس الجيوش حين علمت بأن تميم بن يوسف بن تاشفين هو قائد الجيوش الاسلامية « فيكون مقابلا لتميم لان تميم ابن ملك المسلمين وشانجة ابن ملك الروم » وكان شانجة هو ابن الفونسو السادس من زوجته المسلمة زايدة . وواضح أن رواية روض القرطاس خيالية ، فلم يكن تميم ابنا لعلى بن يوسف وانما أخاه ، ثم ان الفونسو كان يجتاز السنة الاخيرة من عمره وقد أصابه المرض والوهن .

(٢) انظر الروايات المختلفة فى : ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، تحقيق د. محمود على مكى ، تطوان ، ص ٥ — ٦ .
Huici Miranda, Las Grandes batallas de la reconquista, p. 118-119 - Primera Cronica General de España, (Ed. M. Pidal) parte II, p. 554 - 556.

(٣) الحلل الموشية ، ص ٨٥

جيوش المرابطين تعيث فسادا فى نواحى طليطلة ، ثم استولوا على طلبيرة (١) Talavera وقنالش Canales ومجريط Madrid ووادى الحجارة Guadalajara ، وبعدها عادوا الى طليطلة فحاصروها . ولكن على بن يوسف لم يتمكن من افتتاحها بعد أن طال حصار المرابطين لها ، وتفشى بينهم الوباء ، فعاد الى مراكش . وعلى الرغم من رحيله الى المغرب ، فقد واصل المرابطون غزوهم لبلاد النصارى ، واشتد عيثهم فى اراضيهم ، وفى نفس الوقت الذى كانت فيه جيوش المرابطين تحت اسوار طليطلة ، كان سير بن ابى بكر يتجه بقواته صوب البرتغال فى الغرب (٢) ، وكانت مملكة مسيحية ناشئة ، امرها هنرى البرجونى زوج تيريسا بنت الفونسو السادس غير الشرعية . وكانت قاعدة هذه المملكة البرتغالية الصغيرة مدينة قلمرية Coimbra التى كانت قد سقطت فى ايدى الليونيين ايام المظفر ابن الافطس فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) وكانت تضم بعض ولايات الغرب التى كانت تابعة لمملكة بنى الافطس من قبل ، وكنا قد ذكرنا ان المتوكل عمر بن الافطس كان قد تنازل لالفونسو السادس عن اشبونة Lisboa وشنترين Santarem وشنترة Cintra

وفى خروج سير بن ابى بكر نحو الغرب يقول ابن ابى زرع : « وفى سنة اربع وخمس مائة فتح الامير سير بن أبى بكر سنترين (شنترين) ، وبطليوس ، وبرتقال وبافورة (يقصد يابرة Evora) والاشبونة وجميع بلاد الغرب ، وذلك فى شهر ذى القعدة منها » (٣) .

---

(١) عن غزوة طلبيرة ، انظر : ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، ص ١٤ .

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ويؤكد هذا النص الوارد بالمتن ان سقوط يابرة تم على يدى سير

=

ويتشكك الاستاذ محمد عبد الله عنان فى صحة هذا النص ، لان بطليوس كانت ماتزال فى حوزة المرابطين منذ ان دخلوها عنوة فى سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) .

ولو ان شكوك الاستاذ عنان كانت فى موضعها ، فان ظهور اسم بطليوس فى هذا النص ينهض دليلا على ان بطليوس كانت منطلقا لغزوات المرابطين فى غرب الاندلس وقاعدة عسكرية لهم : منها كانوا يخرجون لقتال العدو ، واليها يعودون بعد تحقيق اهدافهم . ونخلص من ذلك بأن الاستاذ عنان يرى ان وجود اسم بطليوس بين اسماء المدن التى استولى عليها سير بن ابى بكر فى هذه السنة (٥٠٤هـ) (١١١٠م) رغم بقائها فى ايدى المرابطين منذ سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) هو مجرد تحريف فى نص ابن ابى زرع ، ونعتقد ان ما اراد ان يعنيه من هذا النص ان سير بن ابى بكر امير اشبيلية خرج الى بطليوس قاعدة المرابطين فى الغرب والثغر الجوفى للاندلس ، ومنها زحف الى يابرة التى كانت قد سقطت بالفعل فى ايدى القشتاليين منذ فترة طويلة ، ثم اتجه بعد سقوط يابرة فى ايدى قواته الى الاشبونة وضاحيتها شنترة ، ونجح فى استردادهما : فهما المدينتان اللتان كان عمر المتوكل ابن الافطس قد سلمهما مع شنترين الى الفونسو السادس لقاء مساعداته له ضد المرابطين .

وبالرجوع الى كتاب تاريخ بطليوس الاسلامية للمؤرخ الاسبانى مارتينث اى مارتينث Martinez y Martinez نجد تحليلا آخر — يستند فيه على الرواية المسيحية — يلقى مزيدا من الضوء على نص ابن ابى زرع سالف الذكر الذى تشكك الاستاذ عنان فى صحته ، ورجح أن

بن ابى بكر فى عام ٥٠٤هـ (١١١٠م) اثناء حملته القوية التى قادها ضد بلاد النصارى ، وليس فى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) كما يزعم اشباخ .

يكون هذا المؤرخ قد وقع في خطأ التحريف . وقد بدأ مارتينث بعرض الخلفية السياسية لهذه الفترة الدقيقة في تاريخ الغرب الاندلسي ، فبعد مصرع الامير شانجة ابن الفونسو السادس من زايدة المسلمة ، في موقعة اقليش Uclés ، انهار والده - الفونسو السادس - الذى كان قد شاخ وهرم ، ولم يعد بقوى حتى على الخروج ، ولم يلبث ان توفى في عام ٥٠٢ (١١٠٩م) وخلفته على العرش ابنته الكبرى دونيا اراكة Urraca وكانت زوجة لريمون البورجوني لفترة زمنية محدودة ، بينما تزوجت ابنته الاخرى تيريسا Teresa من هنرى البورجوني الذى قدم مع ريمون من فرنسا (١) . كل هذا تم في نفس العام الذى جاز فيه على بن يوسف جوازه الثانى الى الاندلس برسم الجهاد ، والذى تمكن خلاله من الاستيلاء على طلبيرة ، وحصار حصون اقليم طليطلة (٢) . وكان الفونسو السادس قد سلم الاشبونة وشنترين وشنترة الى صهره ريمون البورجوني بعد ان انتزعها من عمر المتوكل ابن الافطس (٣) ، ثم آلت بعد وفاة ريمون هذا الى هنرى البورجوني الذى ما كاد يبلغه نبأ وفاة حميه الملك الفونسو السادس حتى اعتبر نفسه مستقلا بالبرتغال ، وانتهز فرصة الاضطرابات العنيفة التى وقعت في مملكة قشتالة ولدون عقب اعتلاء دونيا أراكة العرش من جهة ، واغفال المرابطين الدفاع عن المنطقة البرتغالية نتيجة تركيزهم الحربى على طليطلة ونواحيها ، وبادر بتوجيه بعض الحملات على بلاد المسلمين في الغرب ، وتمكن في تلك الحملات من الاستيلاء على يابرة وبطليوس بقوة السلاح (٤) . وعندئذ التقى سير بن

---

(١) Martinez y Martinez, Historia de Badajoz, pp. 183, 184.

(٢) Codera, Decadenica y desaparición de los Almorávides en España, p. 11 233.

(٣) Martinez y Martinez, op. cit., p. 184.

(٤) Ibid, p. 184.

ابى بكر نفسه مضطرا الى توجيه حملة مرابطية الى الغرب لوضع حد لتطلعات هنرى البورجونى واندفاعاته الخطيرة ، واقاد سير هذه الحملة بنفسه ، وتمكن فى هذه السنة من استرجاع بطليوس ويابرة والاشبونة وشنترة وشنترين ، وبهذا يكون ما ورد فى نص ابن ابى زرع صحيحا ، ويمكننا أن ننقبله بعد أن اتضح لنا أن هنرى هذا - صاحب قلمرية - استطاع فيما بين أواخر عام ٥٠٢هـ (١١٠٨م) وبداية عام ٥٠٣هـ (١١٠٩م) انتزاع بطليوس ويابرة من أيدى المرابطين .

ويرجح مارتينيث سقوط قلعتى قورية Coria البلدة Albelda فى تدبير بن أبى بكر فى حملته لاسترداد بطليوس ويابرة الوارد خبرها فى نص ابن زرع . وكانت قورية قد سقطت فى يد الفونسو السادس فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) كما سبق أن ذكرنا ، ومن الجدير بالذكر ان المدونة المسيحية التى اعتمد عليها مارتينيث فى ذلك ، وورد فيها هذا الخبر عن سقوط القلعتين المشار اليهما ، وهى مدونة الامبراطور الفونسو (Cronicon Adefonsi Imper.) لم تذكر سوى أن عددا من النصارى سلموا قورية للمسلمين وإن المرابطين استولوا على البلدة ثم شحنوا المدينتين بعسكر من الرجالة والفرسان الذين كانوا يغيرون يوميا على كل استرا مادورا حتى نهر دويره . وقد عمل مارتينيث على توضيح ما ورد فى هذه المدونة من وجهة نظره ، فذكر أن تسليم قورية للمسلمين انما تم بسبب خيانة ، ولهذا لا يمكن أن نعتبره فتحا عسكريا بمعنى الكلمة . ولهذا السبب فانه يذكر فى كتابه « أنها سلمت بفضل سفلة من القوم يسمونهم مسيحيين ولبسوا كذلك » (١) . وبطبيعة الحال فان هذا الاسلوب الذى يتحدث به مارتينيث ان دل على شىء فانما يدل على تعصب

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit., p. 184.

بعض مؤرخى الغرب الاوروبى عند تعرضهم لانتصارات المسلمين ، وهدفهم هو تجريد الاسلام من امجاده وبطولات ابنائه ٠

اتجه سير بن ابى بكر بعد ذلك الى شنترين ، وقد وصلتنا تفاصيل استيلائه على هذه المدينة فى الرسالة (١) التى كتبها له وزيره الاجل ابو محمد عبد المجيد بن عبدون — وكان يكتب للمرابطين بعد سقوط دولة بنى الافطس — الى على بن يوسف امير المرابطين ، وقد ابرز سير فى هذه الرسالة اهمية مدينة شنترين ومدى حصانة قلعتها ، وفى ذلك يقول : « وكانت قلعة شنترين — ادام الله امر امير المسلمين — من احصن المعاقل للمشركين ، واثبت المعاقل على المسلمين ، فلم نزل بسعيك الذى اقتفيناه ، وهديك الذى اكتفيناه ، نخضد شوكتها ، وننحت اثلتها ، ونتناولها عللا بعد نهل ٠٠٠ وهذه القلعة التى انتهينا الى قرارها ، واستولينا على اقطارها ، ارحب المدن امدا للعيون ، واخصبها بلدا فى السنين ، لايربمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرومها الجدب ولايتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقها تحت الثرى راسخة ٠٠٠ فامكننا الله تعالى من ذروتها ، وانزل ركابها لنا عن صهونها (٢) » ٠ ويوضح سير فى هذه الرسالة مدى اهمية شنترين من الوجهة الاقتصادية ، ويشيد بخصوبة تربتها ٠ ويبدو ان سير لم يتمكن من افتتاح مدينة قلمرية فى حملته السابقة على الغرب فى سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) بل ان الاستاذ عنان يرفض الاخذ برواية ابن ابى زرع التى تؤكد ان سير بن ابى بكر افتتح بطليوس وبرتقال (٣) ، وقد اوضحنا سبب رفضه لهذه الرواية لاسيما

---

(١) انظر نص الرسالة فى : عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ٠

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ٠

(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥ ٠

ما يتعلق بفتح بطليوس . اما برتقال ، فيستبعد قيام المرابطين بافتتاحها ويعبر عن ذلك بقوله : « وبرتقال وهى تعنى فى الجغرافية الاندلسية ثغر بورتو Porto فهى تقع فى اقصى شمال البرتغال ، وفى شمال قلمرية ، ومن ثم فان المرابطين لم يصلوا فى زحفهم اليها ولم يفتتحوها » (١) . وايا ما كان الامر فقد جاز على بن يوسف الى الاندلس للمرة الثالثة لهذا السبب فى عام ٥١١هـ (١١١٧م) وتقدم على رأس قواته بهدف فتح مدينة قلمرية قاعدة مملكة البرتغال الناشئة ، « ودوخ بلاد الشرك بجيوش لا تحصى ، وكان اثره بها عظيما » (٢) . ويورد ابن عذارى اخبار هذه الغزوة ببعض التفصيل ، فيذكر ان الامير على بن يوسف تحرك من مراكش وجاز الزقاق فى الايام الاخيرة من شهر المحرم من عام ٥١١هـ (١١١٧م) ، واتجه بقواته الى مدينة اشبيلية حيث اقام فترة وجيزة الى أن انتظمت قواته ، واستوفت ترتيب صفوفها ، « وتاهبت العساكر الاندلسية ، ولحقت من قرطبة لمة من الفقهاء والعلماء ، ولفيف من المجاهدين الزعماء ، خيلا ورجلا ، وتاهب فقهاء اشبيلية ومجاهدوها ، واستوفت مطوعة غرناطة ومرتبوها .. » (٣) ثم تحرك على بن يوسف مع كل هذه القوات من اشبيلية الى قلمرية ، واسندت قيادة جيوش المرابطين الى قائدين من اعظم قادة المرابطين واقدرهم على القتال : احدهما عبد الله ابن فاطمة ، والآخر المنصور ابن المتوكل بن الافطس الذى كان قد حظى بعفو الامير بعد رجوعه الى الحق واظهار توبته ، ودخل فى خدمة المرابطين ، فعلت مكانته ، وارتفعت منزلته الى حد أن على بن يوسف جعله احد قادته الموثوق بهم ،

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٠ .

(٢) ابن سماك ، كتاب الحلل الموشية ، ص ٨٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، (ط. احسان عباس) ص ٦٤ .

وأسند اليه قيادة فوة من جيس المرابطين الموجهه لغزو قلمرية (١) .

حاصرت قوات المرابطين مدينه قلمرية مدة عشرين يوما ، وضيقت عليها ، ولكنها لم تتمكن من فتحها ، فانصرفت بعد ذلك الى اشبيلية ، وان كان كل من ابن فاطمة وابن الافطس قد تمكنا من التوغل فى بلاد الاعداء ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ومشى عبد الله ابن فاطمة وابن الافطس فقابلا ارواما فى بلاد الروم ، ثم وردا الى اشبيلية ... » (٢) مثقلين بالغنائم العظيمة ، وعدد كبير من الاسرى . ويؤكد صاحب الحلل الموشية سقوط قلمرية فى يد على بن يوسف فى هذه الغزوة (٣) ، وكذلك يؤكده ابن ابى زرع فى روض القرطاس ، وقد اخطأ فى اسم قلمرية فجعله سنترية ، كما اخطأ فى تحديد تاريخ جواز على بن يوسف فجعله عام ٥١٣هـ (١١١٩م) بدلا من ٥١١هـ (١١١٧م) ، فيقول ابن ابى زرع : « فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمطوعة من العرب ، وزناته ، والمصامدة ، وسائر قبائل البربر .. ثم ارتحل الى مدينة سنترية فنـزل عليها حتى فتحها عنوة .. » (٤) ، ولكن برجوعنا الى نص ابن عذارى سالف الذكر والى المصادر المسيحية الاسبانية يتضح لنا ان على بن يوسف لم يتمكن من فتح قلمرية ، (٥) ومع ذلك فربما يكون قد افتتحها وفقا لرواية ابن ابى زرع وصاحب الحلل الموشية ولكنه لم يحتفظ بها لمدة طويلة أو احتفظ بها لايام قلائل ، ثم انصرف بعدها الى اشبيلية .

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٦٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٤ .
(٣) الحلل الموشية ، ص ٨٦ .
(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ .
(٥) ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٦٤ .

ويمكننا تفسير سبب اخفاقه في الاستيلاء عليها ببعد هذه عن بلاد المسلمين ووقوعها في قلب بلاد البرتغال (١) .

عاد علي بن يوسف الى مراكش بعد هذه الاحداث ، حيث اقام نحوا من اربعة اعوام ، ثم جاز الى الاندلس للمرة الرابعة في عام ٥١٥هـ (١١٢١م) بهدف النظر في الفتنة القرطبية على الحكم المرابطي . وتصمت جميع المصادر العربية عن اخبار بطليوس في هذه الفترة ، باستثناء فترة ولاية الامير تاشفين بن علي بن يوسف على الاندلس (٢) التي اصبح لبطليوس خلالها شأن كبير .

ب — نشاط تاشفين بن علي بن يوسف الحربي في احواز بطليوس والغرب:

في عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م) قام الامير تاشفين بن علي بغزو طلبطلة « فدخل حصنا من حصونها بالسيف ، وهتك احوارها وفيها ، اعني سنة عشرين المذكورة ، هزم الامير تاشفين النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلا ذريعا ، وفتح ثلاثين حصنا من حصون بلاد الغرب ، وكتب

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٨١ .

(٢) هناك اختلاف كبير في المصادر العربية حول السنة التي تولى فيها تاشفين امور الاندلس : فابن ابي زرع يذكر انه تولى الاندلس في عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م) عقب وفاة عمه ابي الطاهر تميم (روض القرطاس ، ص ١٠٦) ، اما ابن الخطيب فيذكر ان ذلك حدث في اواخر عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) واوائل عام ٥٢٣هـ (انظر الاحاطة في اخبار غرناطة ، القاهرة ١٩٧٣ جـ١ ص ٤٤٦) . اما ابن خلدون فيجعل توليه شئون الاندلس في عام ٥٢٦هـ (١١٣١م) (ابن خلدون ، كتاب العبر ، جـ٦ ، ص ١٨٦) ويؤكد ابن عذارى ان تاشفين تولى شؤون الاندلس في عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) (البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٧٩) . ونحن نميل الى الاخذ بذلك التاريخ الاخير استنادا الى خبر ساقه ابن عذارى عرضا ذكر فيه ان علي بن يوسف ولى تاشفين الاندلس في نفس عام ٥٢٢ هـ الذي عقد

بالفتح الى ابيه ... » (١) . ونستنتج من هذا النص ان غرب الاندلس كانت مجالا لغزوات الامير تاشفين منذ حلوله بالاندلس ، وفى نفس الوقت نستدل من النص على ان بطليوس التى كانت من مراكز غرب الاندلس ، قد تعرضت بالتالى للخطر القشتالى والبرتغالى او كانت مهددة بالغزو من حين لآخر ، فكانت احوازها مجالا للصراع المرابطى / القشتالى ، ولهذا نستنتج ان بطليوس فى هذه الفترة من حكم على بن يوسف لم تكن فى وضع حربى آمن ، فهى شأنها شأن بلاد غرب الاندلس ، كانت منطقة مد وجزر بحكم كونها ثغرا . ويؤكد هذا الاستنتاج الاحداث التالية التى تعرضت لها بلاد غرب الاندلس ، فى عهد على بن يوسف وابنه تاشفين ففى عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) قام القشتاليون بغزو منطقة الغرب ، ووصلوا بقواتهم حتى مدينة قلعة رباح ، فقام تاشفين بقتالهم ، فارتدوا خائبين ، الى قشتالة مرة ثانية (٢) .

=

فيه لتسير بن على بولاية العهد . (ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٨) . يضاف الى ذلك أن تاشفين كان موجودا فى الاندلس فى تلك السنة ، فقد اشتبك فيها بالقشتاليين على مقربة من قلعة رباح (انظر محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٢) وعلى اى الحالات فاننا نرى راى الاستاذ عنان الذى يذهب الى ان تاشفين عبر الى الاندلس منذ عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م) كما ذكره ابن ابى زرع فى روض القرطاس (ص ١٠٧) ، وانه غزا فى اراضى طليطلة فى هذا العام ، ثم سار الى غرب الاندلس فيما بعد ، وقاتل المسيحيين فى منطقة تعرف بفحص الضباب وانتصر عليهم ، وربما يكون فحص الضباب المذكور هو نفس فحص الزلاقة الذى ورد ذكره فى الحلل الموشية على انه كان مسرحا للقتال بين قوات تاشفين وبين قوات المسيحيين ، ولم يحدد صاحب الحلل تاريخ هذه المعركة (الحلل ، ص ١٢٢) .

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٣ .

وفى عام ٥٢٥هـ (١١٣٠م / ١١٣١م) اغار القشتاليون على حصن ارنيط ، الواقع فى الثغر الاعلى ، فتوجه اليهم المرابطون ، وتمكنوا من وضع حد لهذه الاغارات التى كانت تعيث فسادا فى اراضى المسلمين (١) ويوضح لنا هذا الغزو القشتالى لحصن ارنيط (٢) ، ان النصارى كانوا يركزون غاراتهم على المناطق الثغرية مما يؤكد لدينا ضرورة تعرض بطليوس احدى القواعد الثغرية الهامة فى غرب الاندلس للخطر المسيحى فى تلك الآونة شانها شان سائر مناطق الثغور .

وفى منتصف رجب عام ٥٢٦هـ (اول يونيو ١١٣٢م) اغارت الجيوش القشتالية بقيادة القومس رودريجو جنثالث Rodrigo González قائد جيوش طليطلة والغرب على اشبيلية منحدرين الى الشرف ، وقد قتل فى هذه الغارة عدد كبير من المسلمين (٣) ، فلما علم الامير تاشفين بهذا الخطر القشتالى الذى كان قد اقترب من اشبيلية ذاتها وتسبب فى قتل اعداد كبيرة من المسلمين ، خرج على راس قواته تجاه اشبيلية ، واشتبك مع خيل النصارى وطاردهم « ثم رجع النصارى دمرهم الله تعالى الى بلادهم بعد نهاية عظيمة فى الملثمين ... » (٤) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٨٤ .

(٢) حصن ارنيط عرفه الحميرى بقوله « مدينة بالاندلس ، اولية ، بينها وبين تطيلة ثلاثون ميلا ، وحواليها بطاح طيبة المزارع ، وهى قلعة عظيمة منيعة من اجل القلاع ، وفيها بئر عذبة ... وهذه القلعة مطلة على ارض العدو وبينها وبين تطيلة ثلاثون ميلا .. » (انظر الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٤) .

(٣) راجع التفاصيل فى
A. Huici Miranda, Contribución al estudio de la dinastia almorávide; el gobierno de Täsfin ben Ali Ben Yusuf, en el - Andalus, p. 612.

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٧ ، وانظر هامش ٤ ، ص ١٩٨ وهامش ١ .

وتشير المصادر العربية الى أن فوات النصارى هاجمت بابرة فى نفس عام ٥٢٦هـ (١١٣١ - ١١٣٢م) ، فتصدى لها تاشفين وهو بعد وال على غرناطة وخرج معه ابن فنونه والى قرطبة الى الغرب Algarve حيث التقى بالقوات القشتالية التى هاجمت يابرة وأحواز بطليوس « فالتقوا معهم ، فهزموهم النصارى ، وقتلوهم وانقذوا الغنيمة » (١) .

ويسوق صاحب الحلل رواية مختلفة عن غزوة تاشفين هذه جاء فيها ان الامير تاشفين اتصل به ان عظماء « الروم وزعمائهم تألف لهم جيش يحتوى على الاف من انجاد رجالهم ومشاهير ابطالهم ، وقصدوا ناحية بطليوس ، فجاسوا خلالها ، ودوخوا أرضها ، فرجف اليهم ، وتلاقى معهم بمقربة الزلاقة ، فلما تراءى الجمعان اضطربت المحلتان ، وتراكبت المراكب ، فاتحذت مصافها ، ولزمت الرجال مراكزهم فكان فى القلب مع الامير تاشفين المرابطون واصحاب الطاعات ، تتقدمهم البنود البيض الباسقات المكتوبة بالآيات ، وفى الجانبين كفاة الدولة وحماة الدعوة من ابطال الاندلس ، تتقدمهم حمر الرايات ، بالصور الهائلات ، وفى الجناحين اهل الثغور وذوو الجلادة والصبر ، وفى المقدمة مشاهير زناتة ، ولفيف الحشم اهل العزائم الماضية والبصائر الثابتة بالرايات المطبقة والاعلام المنيفة ، فالتقى الجمعان ، واشتد الضرب والطعان ، فولى الكفرة الادبار ، وامعنوا فى الفرار ، فتبعهم المسلمون ، يقتلون ويأسرون ، وصدر تاشفين الى قرطبة عزيزا ظافرا » (٢) .

اما ابن الخطيب فيذكر أن خبر هزيمة المسلمين فى اشبيلية واستشهاد عدد كبير منهم سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) ، بلغ الامير تاشفين « فطوى

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ .

(٢) الحلل الموشية ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

المراحل ، ودخل اشبيلية ، وقد اسرها ، واستؤصلت باديتها ، وكثر بها التأديب والتنكيل فأخذ اعقاب العدو ، وقد قصد ناحية بطليوس وباجة ويابرة في الف عديدة من امجاد الرجال ومشهور الابطال ، فراش جولا عهدا بالروع ، فطفر بما لا يحصيه أحد ولا يقع عليه عدد ، وانثنى على رسل استقل السيقة ، وافضى به الاعداد الى فلاة بقرب الزلاقة ، وهو المهيع الذى يضطر العدو اليه ، ولم يكن الا كلا ولا ، حتى اقبلت الطلائع منذرة باقبال العدو ، والغنيمة في يده قد ملأت الارض ، فلما تراءى الجمعان ، واضطربت المحلات ورتبت المراكب فأخذت مصافها ...»(١) .

ووالضح ان نص الحلل مقتبس من نص ابن الخطيب .

وبينما يجعل ابن الخطيب هذه الغزوة سنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) يحددها صاحب الحلل بسنة ٥٢٨هـ (٢) (١١٣٣م) أما ابن عذارى ، فيؤرخ لخروج تاشفين على راس قواته الي بطليوس سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) (٣) .

ويكتفى ابن القطان بذكر تلك الاحداث بين تاشفين وبين القشتاليين في أخبار ذلك العام ، وقد أخذ الاستاذ محمد عبد الله عنان بروايته هذه ، فهو يرى أن تاشفين بعد هزيمته للقشتاليين في يابرة وانقاذه الغنائم والاسرى لبث حتى عام ٥٢٨هـ (١١٣٣م) الى ان تجددت الحروب بينه وبين القشتاليين في منطقة الغرب وقد أخذ في تحديده لتاريخ المعركة برواية صاحب الحلل الموشية .

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ عنان ، جـ١ ، ص ٤٥٢ . وهذا النص ملىء بالتحريف والتشويه .

(٢) الحلل الموشية ، ص ١٢٢ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٨٨ .

واذا رجعنا الى حوليات الفونسو السابع Cronica de Alfonso VII فسنجد أن قائد الجيوش المسيحية رودريجو جونثالث كان مكلفا بقتال المسلمين فى كل منطقة عرب الاندلس Extremadura عام ٥٢٦هـ (١١٣٢م) كما أن الحوليات الطليطلية Anales Toledanas تؤكد ذلك ، وتوضح أن انتصار رودريجو فى معاركه مع والى اشبيلية عمر بن الحاج وقتله له فى معركة Azareda قد شجع باقى النصارى على الاستمرار فى مهاجمة أراضى المسلمين ، وقد شرحت حوليات الفونسو السابع ذلك ، فان مجموعة من قادة شلمنقة Salamanca بادروا بمهاجمة بطليوس عندما بلغهم انتصارات رودريجو جونثالث على قوات اشبيلية فلما علم تاشفين بن على توجه الى لقاء جند شلمنقة ، والتحم الطرفان فى معركة ضاربة تمزقت فيها القوات المسيحية ، وانتصر تاشفين ، وعاد بعد ذلك الى قرطبة مظفرا (١) .

وبينما يأخذ أستاذنا الدكتور محمود على مكى بالتاريخ الذى حدده ابن الخطيب لهذه المعركة ، فيميل الى تاريخ المعركة بسنة ٥٢٦هـ (١١٣٢م) (٢) ، نميل نحن بدورنا الى الاخذ برأى الاستاذ محمد عبد الله عنان الذى يرجح سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣ م) تاريخا للمعركة التى خاضها تاشفين .

فلم يكن انتصار تاشفين فى قتاله مع النصارى عند بطليوس انتقاما

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، حاشية ١ ، ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩
وانظر أيضا :
Huici Miranda, Gobierno de Tasfin Ben Ali en al - Andalus, P. 612, 613.

(٢) انظر تحقيق د. محمود على مكى لنظم الجمان ، حاشية رقم ٢ ، ص ١٩٨ .

لما حدث فى اشيلية واحوازها ، اذا اخذنا فى الاعتبار أن قوات الجيش المسيحى الذى تصدى له تاشفين فى بطليوس كانت تتألف من بضعة آلاف ، وهو عدد كبير لا يستقيم مع ظروف الحالة الاولى التى تفترض خروج تاشفين فى مطاردة جيوش الاعداء حتى بطليوس ، والمنطقى الا يتجاوز عددهم بضعة مئات خاصة بعد أن اشتبكت قواتهم مع قوات تاشفين ، وانهزمت فى احواز اشبيلية وباجة ، وقتل منها عدد كبير .

فمن المنطقى أن يكون غزو تاشفين للنصارى وهزيمته لهم فى بطليوس قد حدثت فى عام ٥٢٨هـ (١١٣٣م - ١١٣٤) وليس فى عـام ٥٢٦هـ (١١٣٢م) .

اما عن الاسباب التى ادت الى خروج تاشفين للغزو فى سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣م) فهى اعتداء ملك قشتالة على أراضى بطليوس فى تلك السنة ، وعبث قواته فى نواحيها ، فبادر تاشفين بالخروج عندما بلغه أن الفونسو السابع (الفونسو ريموندس) المعروف بالسليطن ، قد حشد جيشا « يحتوى على آلاف من زعمائهم ومشهورى ابطالهـم وقصـدوا ناحيـة بطليوس ، وباجـة ويابرة » (1) .

فشنوا الغـارة عـلى أجـوار بطليوس فجاسـوا خـلالهـا ودوخـوا ارضهـا (1) « واستحوذوا جميـع ما الفوا بها ، وانتهوا الى مواضـع كانت لاتروع بعدو لبعدهـا ومنعتهـا وتعذر الوصـول اليهـا ، فجاسوا

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٨٨ ، وانظر كذلك الحلل الموشية ، ص ١٢٢ .

(٢) الحلل الموشية ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

خلالها ، ودوخوا ارضها ، واخترقوا طولها وعرضها ... » (٢) .

فاجتمع لتاشفين من الحشود فى اشبيلية ضعف ما كانت عليه قوات قشتالة ، وخرج من اشبيلية متجها للقاء اعدائه ، واستعان فى سيره بجماعة من الادلاء يطلعونه على كل ذروة وثنية ، حتى يتمكن من اللحاق بهم سريعا ، وفى ذلك يقول ابن عذارى « فثنى الامير تاشفين الاعنة ، وأمر الادلة ان ينجشموا به كل ذروة وثنيه ، رجاء فى لحاقهم ، فافضى الاغذاذ به الى فدان بقرب زلاقة ، موضع المعترك الذى اوقع فيه جده بالطاغية اذ فونش بن فردلند » (٣) .

وقد وصف كل من ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية الجيش المرابطى ، ومن خلال وصفهما يتضح لنا ان الجيش الاسلامى قد نظم مثلما نظم يوم الزلاقة ، فقد كان الامير تاشفين يحتل القلب مع وجوه المرابطين ، وقد رفعوا « البنود البيض الباسقات المكتوبة بالآيات » (١) وفى الجانبين اصطفت جيوش وحماة الدعوة من ابطال الاندلس ، وعليهم الرايات الحمراء « قد رسمت عليها الصور الهائلات » ، اما اهل الثغور فقد احتلوا الجناحين ، « وذوو الجلالة والصبر وفى المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم أهل العزائم الماضية ، والبصائر الثابتة ، بالرايات الطيفة ، والاعلام المنيفة .....» (٢) .

---

(٣) ابن عذارى ، البيان ، حـ٤ ، ص ٨٨ ، وقارن ابن الخطيب ، الاحاطة ، جـ١ ، ص ٤٥٢ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ح٤ ص ٨٨ .

(١) صاحب الحلل الموشية ، ص ١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

وسرعان ما اشتعل القتال بين الطرفين ، وانهزم القشتاليون ، وولوا الادبار فتتبعتهم قوات المرابطين اثناء فرارهم ، تقتل وتأسر ، وبعد انتصار تاشفين فى هذه المعركة عاد مظفرا الى قرطبة ، ومنها قفل عائدا الى غرناطة فى جمادى الاولى من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة (٣) (سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م) .

وقد انشده الشعراء القصائد الطويلة التى تصف شجاعته وانتصاره على العدو (١) .

ولم تكن هزيمة القشتاليين على يد تاشفين فى احواز بطليوس آخر

---

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٩ ، الحلل الموشية ، ص ١٢٢ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٣٨ .

(١) تنافس الشعراء فى وصف هزيمة تاشفين للقشتاليين ، منها قصيدة طويلة اورد ابن عذارى نبذة منها :

اما وسيوف الهند عنك خصوم
فالروم تبذل ما ظباك تروم

تمضى سيوفك فى العدى ويردها
عن نفسه حث الكلام رحيم

دار جعلت بيوتها قطبا لها
ابدا على قمم الملوك تحوم

وكانما الفرسان قد عرفت بها
قطعت وغاصت ارؤس وجسوم

جاست خلال ديارهم وحماتها
فى كل واد بالفرار تهيم

هزائمهم على يديه . وانما منوا بهزيمة اخرى اشد واعظم اثرا فى جبل الفصر (٢) ، ففى سنه ٥٣٠هـ (١١٣٥م) عاد النصارى الى حشد كل قواتهم واكتسحوا تلك المنطقة من ارض الاندلس ، فلما علم تاشفين بأمر هجومهم على الفصر كان له موقف مشرف ، فقد جمع زعماء المرابطين وقال لهم « الدوله لنا ، فاما نركها او حماينها ، لا يتعذر منا احد الى لقاء عدونا ، فاذا نحن استشهدنا ، فالامر لمن شاء الله بعد ... » (٣) . ثم انه جمع عرب الاندلس ، وحثهم على القتال الى حد انهم طلبوا منه ان يلقى بهم فى ميدان القتال وحدهم ووعدوه بالنصر ، كما استدعى زناتة الذين عزموا على القتال الاكيد طالبين اما النصر واما الشهاده ، فخرج بهذه الحشود للجهاد الى جبل الفصر حيث تحصن النصارى وهناك « اتى على جلهم القتل ، وافلت النذر وامتلأت ايدى المسلمين من دوابهم واسلحتهم ، وفكت الاغلال عن الاسارى ... » (١) وعاد تاشفين بعد ذلك الى قرطبة منتصرا مظفرا .

واستمر الخطر المسيحى يهدد منطقة الغرب باكملها ، فقد خاض تاشفين موقعة اخرى فى بداية عام ٥٢٩هـ (١١٣٤م) مع جيوش قشتالة

---

(٢) انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٤ ، الحلل الموشية ، ص ١٢٣ .

(١) يقصد بها مدينة قصر ابى دانس ، وهى مدينه بالاندلس ، عرفها بقوله «بينها وبين شلب اربعة مراحل ، وهى مدينة حسنة متوسطة على ضفة نهر كبير ، وهو نهر تصعد فيه السفن السفرية ، وفيما استدار بها من ارض كلها شجر الصنوبر ، وبها الانشاء الكثير ، وهى خصيبة كثيرة الالبان ، والسمن والعسل واللحم ، وبين القصر والبحر ، عشرون ميلا» (انظر الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ص ١٦١) .

فى موضع يسمى بالبكار Albacar ويقع شمالى قرطبة ، وتفصيل ذلك ان قوة كبيرة من فرسان قشتالة ، قدمت من الغرب واكتسحت اراضى المسلمين ، فتجهز تاشفين للقتال وانضمت اليه قوات اشبيلية ، ثم خرج فى اثر القشتاليين لمقاتلتهم ،فنزل بقواته فى البكار ، ففاجأه القشتاليون بالهجوم ، ولكنه تصدى لهم فى قوة من انجاد فرسانه عدتهم الفان ، اردفوا عددهم من الرجالة ، واشتد القتال ونفرت الدواب ، وقطعت مقاودها وقيودها ، فوقعت على الاخبية ، ففر الناس ، وقصد العدو فضرب خباء تاشفين ، ولكنه ثبت فحاطه رجال من اهل الاندلس وقوة من كماة المرابطين ، حموه ودافعوا عنه ، وكادت الهزيمة تحل بالمسلمين لولا ان محاربا من المسلمين طعن قومس الجيش القشتالى برمحه فاضطربت صفوف العدو ، وبادر بالرحيل الى الغرب ، ولكن تاشفين ركب فى الصباح فى اثرهم حتى وصل الى حصن قشرش ، (او قصرش) من حصون المسلمين ، واضطر تاشفين الى القفول عائدا الى قرطبة (٢) .

ونستدل من هذه الحروب التى خاضها تاشفين على ان بطليوس كانت قاعدة عسكرية للمرابطين فى الغرب ، وانها تعرضت لغارات قشتالية متتابعة .

وينفرد ابن القطان ، بخبر أورد فيه ان الفونسو السابع ملك قشتالة المعروف بالسليطين ، خرج فى عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) لغزو اشبيلية والغرب ، واشترك معه فى هذه الغزوة سيف الدولة ابن هود ، فانبسطت خيله فى نواحى اشبيلية ، وهاجمت مدينة شريش فدخلوها ، واستباحوها

---

(٢) راجع التفاصيل فى ابن عذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ٩٠ ، ٩١ .
ابن القطان ، قطعة من كتاب نظم الجمان ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

وقتلوا عددا كبيرا من اهلها ، ثم رجعوا الى بلادهم [1] .

وكان رد فعل تاشفين على هذه الغارة الوحشية ان خرج بقواته عازيا الى الغرب فى سنة ٥٢٧هـ (١١٣٣م) ، فنزل بعسكره على حصن انطانطة Idanha - a - Vella [2] ويقع بالقرب من قنطره السيف

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٠ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٨٨ ، ومن الملاحظ ان ابن القطان هو المؤرخ الوحيد الذى ذكر اشتراك ابن هود مع القشتاليين فى تلك العزوة المسبحبة على اشبيلية وعلى شريش ، وابن هود المقصود هنا هو احمد المستنصر بن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين احمد بن المؤتمن يوسف بن المقتدر احمد بن سليمان بن أحمد بن هود ، أى انه ينتمى الى سلالة بنى هود ملوك سرقسطة فى عهد الطوائف ، وقد وضح لنا الدكتور محمود على مكى ان ابن هود كان صاحب قلعة روطة Rueda من عمل تطيلة Tudela ، ولكنه لم يتمكن من الاستقرار بها ، فسلمها للنصارى ، واشترك فى الفتن التى اثيرت على المرابطين فى الاندلس فاستولى على قرطبة اثناء ثورة ابن قسى فى الغرب ، ثم ملك جيان وقتل عام ٥٤٠هـ (١١٤٥م) (انظر ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٧٢) .

(٢) يرجح الاستاذ اوليى ميراندا فى مقاله عن (روض القرطاس والمرابطين) بمجلة Hespéris ١٩٦٠ وكذلك فى مقالة عن حكومة تاشفين بن على فى الاندلس ، المنشور فى العدد المخصص لليفى بروفنسال (ص ٦١٣) ان المقصود بهذا الموضع مدينة Idanha - a - Vella البرتغالية القريبة من الحدود الاسبانية فى منطقة Castell - Branco أى على بعد ١٥٠كم من ماردة ، وقد جعل ابن الخطيب (الاحاطة ، جـ١ ، ص ٤٥١) هذه العزوة فى عام ٥٢٨هـ (١١٣٤م) وليس عام ٥٢٧هـ (١١٣٣م) كما يذكر ابن القطان (انظر نظم الجمان ، ص ٢٠١ ، حاشية ١) ويوافقه على ذلك ابن ابى زرع فى روض القرطاس ، ص ١٠٧ (انظر التفاصيل فى ابن القطان ، ص ٢٠١ ، تعليق الدكتور مكى ، هامش ١) .

فافتتحها وهدم الحصن (١) . ويذكر ابن ابى زرع أن تاشفين قام بغزوته المذكورة سنة ٥٢٨هـ (١١٣٤م) فغزا « قنطرة محمود ودخلها بالسيف » (٢) . وهنا يظهر خلاف بين نص ابن القطان ونص ابن أبى زرع فيما يتعلق بهدف الغزوة ، فالاول يذكر المكان الذى غزاه تاشفين على انه حصن انطاطة القريبة للغاية من قنطرة السيف ، والثانى يسمى الموضع قنطرة محمود ، وكلا الموضعين يقع فى منطقة الغرب ، فقنطرة السيف حصن بينه وبين ماردة مسافة بسيطة قدرها الحميرى بيومين (٣) اما قنطرة محمود ، فقد ذكر الادريسى ان هنالك مكان يعرف بقنيطرة محمود يقع على ضفاف نهر تاجه بين القنطرة ، وشنترين (٤) . ويميل الاستاذ الدكتور محمود على مكى الى الاخذ برواية روض القرطاس ، وان كان لم يظهر هذا الميل صريحا ولكنه واضح ضمنا .

وعلى اى وجه فما يهمنا من ذلك هو استنتاج الحالة التى كان عليها الغرب الاندلسى فى تلك الفترة من الحكم المرابطى ، وبالتالى يمكننا تخيل وضع بطليوس الذى كان مضطربا بلا شك نتيجة لهذه الغزوات القشتالية التى يعقبها ردود فعل مرابطية بقيادة الامير تاشفين .

وتنتهى الغزوات المرابطية عند هذا الحد وفقا لما ورد فى الروايات المسيحية وان كان ابن ابى زرع قد ذكر فى حوادث سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) ان الامير تاشفين هزم جموع الروم بفحص عطية ، وانه اهلك منهم خلقا كثيرا (١) ، وأنه دخل فى ٥٣١هـ (١١٣٦م) مدينة كركر Albuquerque بالسيف ، ولكنه لم يجد بها سكانا .

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠١ .
(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ .
(٣) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٦٤ .
(٤) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٨٩ .
(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ .

ونود أن نوضح أن الهدف الرئيسى الذى استهدفناه من وراء تتبعنا لحملات تاشفين هو التوصل الى حقيقة الاوضاع السياسية والعسكرية لبطليوس خلال الحكم المرابطى ، حيث ان المصادر العربية لم تسعفنا بمادة كافية ، ولم تزودنا باخبار عنها الا فى مواضع قليلة ومحدودة ، وقد اتاحت دراستنا لظروف المناطق المحيطة بها والقريبة منها فرصة التوصل الى حقيقة هامة وهى ان بطليوس تعرضت لكثير من الاخطار المسيحية شان جاراتها ، وان توجيه الحملات الاسلامية الموجهة للغرب ، كان له اعظم الاثر فى تعرض سلامها للخطر ، واصاب احوالها بالاضطراب والخلل الامر الذى اشعر اهلها بعجز المرابطين عن الدفاع عنهم ، مما ترتب عليه ثورة الغرب العارمة على الحكم المرابطى .

(٢)

الثورة فى غرب الاندلس وانهيار سلطان المرابطين

١ - اسباب ثورة الغرب على المرابطين :

ظل الامير تاشفين بن على بن يوسف اميرا وقائدا اعلى للجيوش المرابطية فى الاندلس حتى عام ٥٣١هـ (١١٣٦ - ١١٣٧م) (١) او بداية عام ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦م) عندما استدعاه أبوه على بن يوسف الى المغرب فلم يتردد فى العبور الى العدوة فى هذه السنة ، يجر وراءه عددا كبيرا من اسرى غزوته الاخيرة الى اشكونية (٢) ، فاحسن والده استقباله رغم مرضه الشديد الذى كان يعانيه منذ عام ٥٣٠هـ (١١٣٥ - ١١٣٦م) « وكان على بن يوسف اعتل فى السنة الفارطة ، وارتبك فى مرضه حتى أرجف به ، فساءت الظنون وتمكن الجزع ببلاد الاندلس ... » (٣) .

وفى عام ٥٣٣هـ (١١٣٨ - ١١٣٩م) توفى الامير ابو محمد سير ابن على بن يوسف وولى عهده ، فاصدر على بن يوسف عندئذ مرسوم ولاية عهده لولده الامير تاشفين واخذ له البيعة بذلك (٤)

ويعلل الاستاذ محمد عبد الله عنان السرعة التى تم بها ، استدعاء تاشفين من الاندلس الى المغرب بما حل بالمرابطين فى المغرب من ظروف خطيرة ، فقد كان المهدى محمد بن تومرت قد ظهر فى تلك الآونة بدعوة

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٤٦ .
(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٧ ويقصد باشكونية مدينة اكشونبة احدى مدن غرب الاندلس .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ٩٦ .
(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٤ . ولاختيار تاشفين لولاية عهد على بن يوسف ، ومقتل ابنه سير قصة فصلتها المصادر العربية (انظر ابن عذارى ، البيان ، جـ ٤ ، ص ٩٧ - ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٥)

دينية جديدة أسفرت عن قيام دولة الموحدين فى تينملل وتهديدها للمرابطين فى مراكش(٩) .

---

(٤) فى بداية عام ٥١٥هـ (١١٢١ — ١١٢٢م) توجه ابن تومرت الى اغمات ، وبدأ يعلن دعوته ببطلان دعوة على بن يوسف ، وخلع طاعتـه ، ثم قصد بلاد السوس حيث جبال المصامدة ، ثم طاف بمسفيوة وهنتاتة وايكلين ، واستمر يبث هذه الدعوة بين القبائل والناس يفدون اليه سراعا ، يؤمنون به ، وبدعوته . وفى ذلك الوقت اشتعلت الفتنة فى قرطبة عام ٥١٥هـ (١١٢١م — ١١٢٢م) فأسرع على بن يوسف للنظر فى أمر البلاد ، ولكنه لم يمكث بالاندلس طويلا لوصول احبار ابن تومرت اليه ، فعاد الى المغرب وبعث الى قتاله والى السوس أبا بكر ابن محمد اللمتونى ، ولكن ما كاد اللقاء يتم بين الفريقين حتى هزم المرابطون شر هزيمة ، وطاردهم الموحدون حتى مدينة مراكش ، وبذلك سجل الموحدون اول انتصار لهم عام ٥١٦هـ (أغسطس ١١٢٣م) ، وازداد عدد الموحدين ، والتقوا بالجيش المرابطى مرة ثانية فانهزم المرابطون امام الموحدين دون قتال ، فجهز على بن يوسف جيشا ثالثا بقيادة سير بن مزدلى اللمتونى ، ولكن هذا الجيش لم يكن مصيره افضل مما سبقه ، فانهزم المرابطون أمام الموحدين للمرة الثالثة وشغل محمد بن تومرت فيما بين عامى ٥١٦هـ و ٥١٨هـ (١١٢٢م) و (١١٢٤م) فى نشر مذهبه الموحدى فى منطقة السوس كلها ، ثم غادر مقره فى جبل ايجليز الى تينملل التى كانت حينئذ محلة صغيرة تقع فوق ربوة عالية فى سفح جبل درن ، واخذ يؤسس فيها حصنا ومسجدا جامعا ، واحاطها بسور ، ثم دارت فى العامين التاليين ٥١٩هـ (١١٢٥م) و ٥٢٠هـ (١١٢٦م) عدة مواقع بين المرابطين والموحدين نكبد خلالها المرابطون العديد من الهزائم . ففى عام ٥٢٠هـ (١١٢٦م) ، التقى الفريقان على مقربة من جبل كيك ، فانهزم المرابطون هزيمة نكراء ، وطاردهم الموحدون حتى جبل وريكة الى ان وصل الموحدون الى اسوار مراكش ، وبدأ ابن تومرت بعد هذا الانتصار فى رسم خطة للاستيلاء على مراكش واسقاط الدولة المرابطية ، وانتهى الامر بأن حاصر الموحدون مراكش مدة اربعين يوما ، وتخللت فترة الحصار معارك دامية بين الطرفين ، انهزم فيها المرابطون بالقرب من باب دكالة .

وكان يقود الجيوش المرابطية الشيخ أبو محمد وأنودين بن سير ، وبدأ القتال ، وانتصر المرابطون فى هذه المعركة الهامة فى جمادى

ويمكننا ان نتصور رد فعل الصراع الموحدى - المرابطى فى المغرب على الاندلس ، فقد انتهز الاندلسيون انشغال الدولة المرابطية بالخطر الموحدى ، وفجروا ثورة اندلسية عارمة ضد المرابطين ، ولابد ان ندرك تمام الادراك ان هذه الثورة الاندلسية العارمة لم تكن رد فعل لحركة ابن تومرت فى المغرب فحسب وانما نبعت من واقع الشعور بالعصبية الاندلسية ضد البربر ، فقد كانت الفتنة البربرية التى تسببت فى سقوط الخلافة الاموية فى الاندلس ماتزال ماثلة فى اذهانهم ، وهى الفتنة المشئومة التى يسميها ابن حيان شيخ مؤرخى الاندلس « بالفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة المفرقة للجماعة ، الهادمة للملكة المؤثلة » (١) .

وكانت انتصارات المرابطين فى افليش سنة ٥٠١هـ (١١٠٧ - ١١٠٨م) ، وافراغه سنة ٥٢٨هـ (١١٣٣ - ١١٣٤م) قد انست اهل الاندلس الى حين عصبيتهم الاندلسية ، الى ان بدات غارات القشتاليين على غرب الاندلس ووسطها واستيلائهم على مواضع هامة من الغرب ، فكانت الثورة التى اندلعت فى قرطبة سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) التعبير الاول عن شعورهم بالاستياء . ونعتقد ان تعرض الغرب الاندلسى للاعتداءات المتواصلة من جانب القشتاليين والليونيين ورد المرابطين على هذه الهجمات قد سبب الكثير من الضيق لاهالى الغرب الذين افتقدوا الامن والسلام ، فحتى عام ٥٣٣هـ (١١٣٨ - ١١٣٩م) ، هاجم

= الاولى من سنة ٥٣٤هـ (١١٣٠م) ، ولم ينج من الموحدين سوى فلول بسيطة .
(انظر الحلل الموشية ، ص ١٣٠ - ١٤٢ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ - ٩٧ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١١٠ - ١٣٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٥٦ - ١٩٠) .

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الثانى ، ص ٥٧٦ .

الفشتاليون بلاد الغرب ، فقام عسكر شنترين ويابرة برد هؤلاء المعتدين « فكانت للمسلمين جولة ، ثم كر المسلمون عليهم فانهزم النصارى ، دمرهم الله تعالى ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا واسروا منهم جملة ، واحتوى المسلمون على اسلابهم وانهابهم » (١) .

ونستدل من كل ما سبق على الحالة المضطربة التى عاشها الغرب الاندلسى فى تلك الآونة ، وهذه الحالة المضطربة الى جانب بعده وتطرفه عن سلطان الحكومة المركزية ، شجعت العناصر المعارضة للمرابطين على التحفز والوثوب ، واتفق ذلك مع نفس الوقت الذى تغلب فيه الموحدون على الجيوش المرابطية بقيادة الامير تاشفين بن على الذى لقى مصرعه فى موقعة وهران فى رمضان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، فكانت ثورة الغرب العارمة .

ب ـ ثورة ابن قسى فى غرب الاندلس :

قدر ان يكون اول رؤساء الثورة فى الاندلس ، رجل من غرب الاندلس ، من شلب ، يسمى ابو القاسم احمد بن الحسين بن قسى ، من المرجح انه يرجع الى اصل مسيحى ، وقد عمل فى بدء حياته ، فى الاعمال المخزنية ، كما يذكر ابن الابار ، اى الاعمال الحكومية ، ثم آمن فجأة بالمبادىء الصوفية وتنسك ، أو تظاهر به ، فذكروا انه « باع ماله ، وتصدق بثمنه وساح فى البلاد » (٢) ، ثم بدأ يؤلف العديد من الكتب الصوفية اهمها كتاب ، « خلع النعلين » (٣) ، وانتقل الى المرية احد المراكز الهامة للتصوف فى الاندلس ، حيث التقى بابى العباس بن العريف

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٤٤ .
(٢) ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .
(٣) ابن الخطيب اعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٠٧ .

شيخ الصوفية وعميدهم فى الاندلس فى تلك الآونة (١) وأستاذ أساتذة ابن عربى ، ودرس على يديه ، ثم عاد الى شلب مرة ثانية حيث « اقبل على قراءة كتب ابى حامد الغزالى فى الظاهر ، وهو يستجلب اهل هذا الشأن ، محرضا على الفتنة وداعيا الى الثورة فى الباطن » (٢) ، هذا بخلاف ما قراه من كتب الصوفية والباطنية حتى ذاع أمره هو واتباعه الذين سموا بالمريدين فى شلب وميرتلة ولبلة (٣) وبطليوس وكل اعمال غرب الاندلس ، ولعلنا نتبين من خلال قراءتنا لنص ابن الابار ان ابن قسى كان يتخذ من التصوف ستارا لافكاره الاستقلالية واطماعه وطموحاته ، فقد ادعى الهداية وتسمى بالامام (٤) ، وبالمهدى (٥) ، بينما هو يدعو للثورة في حقيقة الامر . وبدات الوفود والجماعات تتوافد عليه وتعلن

---

(١) ابن العريف هو ابو العباس احمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله ابن العريف الصنهاجى (٤٨١ - ٥٣٦هـ) (١٠٨٨ - ١١٤١م) وسمى والده بالعريف لانه كان صاحب حرس الليل ، وعريف القوم ، القائم بأمره . ثم رحل والده الى المرية ، حيث ولد له ابنه ابو العباس احمد ، وقد اتجه ابو العباس احمد منذ نعومة اظفاره الى العلم والادب ودراسة الفقه ، ولما كانت المرية ، مركز الصوفية فى الأندلس فى ذلك الوقت فقد اقبل ابو العباس على دراسته فنبغ فيه ،واصبحت له طائفة من الاتباع والمريدين ، وسرعان ما نشب الخلاف بين الفقهاء من أتباع على بن يوسف وبينه هو واتباعه ، وكان القاضى ابن الاسود على راس من تزعم معارضة ابن العريف ، وحدث أن استدعاه على ابن يوسف مع زميليه ابو بكر محمد بن الحسين الميورقى وابو الحكم ابن براجان ، ولم يجد ابن العريف الا كل لطف من امير المسلمين ، وتوفى ابن العريف بعد تلك الحادثة بمراكش (انظر ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، حاشية ٢ ، ص ١٩٧ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ ، راجع السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٨٤) .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(٣) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ .

(٤) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(٥) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٩ .

تأييدها التام له ، ومن هؤلاء ، أبو محمد سيدراى بن وزير ، وابـن عفان فارس من يابرة ، ومحمد بن المنذر من اهل شلب ، وعبد الله بن أبى حبيب « وامثالهم من أعيان ذلك الصقع الغربى » (١) .

ولم تكن حكومة المرابطين غافلة عن هذا النشاط الخفى الذى يمارسه ابن قسى ، لذا بادرت بالقبض على بعض اصحابه ، فهرب ابن قسي الى ميرتله فى قرية تعرف بالجوزة حيث تعرف على رجل سيكون أحد اقرب أصدقائه اليه ، هو محمد بن يحيى الشلطيشى المعروف بابن القابلة الذى أطلق عليه المصطفى لاختياره له .

وبدأ ابن قسى ثورته فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، باصدار اوامره لاتباعه بالاستيلاء على قلعة ميرتله ، فجمع ابن القابلة سبعين رجلا من المريدين ، « وكان قائد حصن ميرتله قد واعد رجلا من اهلها على الاتيان اليه فى الليل برشوة على حال استتار من اهل الحصن » (٢) .

ونجح المريدون فى الاستيلاء على مبرتلة ، وتم ذلك ليلة الخميس الثانى عشر من صفر ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ثم دخلها ابن قسى فى غرة ربيع الاول وسط التهليل والتكبير « فصعد الى قصبتها واحتل بقصرها ، وشرع فى مخاطبة أعيان البلاد ... فاستجاب له كثير منهم وأولهم اهل يابرة ، ثم اهل شلب ، واتسع على المرابطين خرق لم يرقعوه ، وهجم عليهم حادث طالما توقعوه ... » (٣) .

ومن هذا النص يتضح أن كلا من يابرة وشلب قد نزعتا سلطان المرابطين أسوة بابن قسى ، وقد كانت يابرة حينئذ تحت رئاسة سيدراى ابن وزير ، أما شلب فقد كانت تحت رئاسة محمد بن عمر بن المنذر .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .
(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٠ .
(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٩٩ .

وكان ابن قسى فى تلك الاثناء يحاول الاتصال بالموحدين عقب انتصارهم فى موقعة وهران سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ولكن عبد المؤمن ابن على لم يعره اهتماما لان ابن قسى كان فى رسالته اليه قد لقب نفسه بالمهدى ، مما جعل عبد المؤمن ينفر من هذه اللهجة المتعالية التى خاطبه بها ابن قسى .

وايا ما كان الامر فان ابن قسى ولى قبل انتقاله الى ميرتله محمدا ابن عمر بن المنذر على شلب ، وكان محمد هذا قد انتزع حصن مرجيق الواقع فى شرق شلب من المرابطين مقتديا فى ذلك بما فعله ابن قسى فى ميرتلة .

اما باجة فقد كانت بعد فى حوزة المرابطين ، فلما علموا بثوة ابن المنذر بشلب طلبوا من اهل باجة الامان ، ثم رحلوا منها الى اشبيلية ، فاسرع ابن المنذر اليها مباشرة عقب خروج المرابطين ومعه مجموعة من جند يابرة بقيادة احمد بن وزير شقيق سيدراى فافتتحها ،واشترك معه فى فتحها خاله عبد الله بن الصميل . وبعد سقوط باجه فى يد ابن المنذر وابن وزير اتصلا بابن قسى ، وبايعاه بالطاعة فى ربيع الاول سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، وعندئذ منح ابن قسى باجة لابن وزير ، وشلب لابن المنذر .

اما بطليوس فقد كانت تابعة لابن قسى (١) ، شانها فى ذلك شأن ميرتله من ولايات الغرب طوال عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ولم يلبث ابو محمد سيدراى بن وزير ان انتزعها هى وميرتلة من يد ابن قسى بسبب خلاف نشب بينه وبين ابن قسى مرجعه محاولة سيدراى الاستيلاء على قرطبة لصالح ابن قسى اثناء غيبة ابن المنذر فى حروبه ، فغدر ابن قسى بسيدراى وخلعه عن باجة ويابرة وقبض عليه ، ثم عاد فاطلق سراحه ، ورده الى ولايته ، وعندئذ كره سيدراى صديق الامس وتخوف منه ،

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ ، حاشية رقم ١ .

وحاول ابن قسى ان يتفاهم معه ، ولكن دون جدوى ، فبعث ابن قسى ابن المنذر لمحاربة سيدراى ، فانهزم ابن المنذر امام سيدراى ووقع في أسره ، ثم زحف سيدراى الى شلب فاستولى عليها (١) ، وانتهى به الامر الى انتزاع ميرتلة وبطليوس من يد ابن قسى كما سبق ان ذكرنا ، واسند ولاية بطليوس وأعمالها الى خاله عبد الله بن الصميل .

اما ابن المنذر فصاحب الفضل الاعظم فى نجاح ثورة ابن قسى ، وساعده الايمن قبل ان يقع فى اسر سيدراى ، ومحمد بن عمر بن المنذر هذا ينتمى الى احدى الاسرات المولدة العريقة فى شلب،وكان نابغة «تميز بالمعارف الادبية والفقهية وولى خطة الشورىببلده ثم تزهد وانزوى» (٢) وكان قد استولى مع قواته على كل من ولبة ولبلة لصالح ابن قسى بعد ان كان ابن قسى قد جدد له عهده على ما بيده من البلاد وسماه العزيز بالله ، وبعد هذا الانتصار تملك الغرور ابن المنذر فخرج من لبلة مستهدفا الاستيلاء على اشبيلية ، ونجح فى الاستيلاء على حصن القصر Aznalcazar (٣) وطبلاطة Tablada (٤) من مشارف أشبيلية الغربية ، ولكن ابن غانية قائد المرابطين تصدى له واوقع به الهزيمة فى

---

(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥١ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣١٠ ، عبد الله علام ، الدولة الموحدية ، ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٣) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٤) حصن القصر من الحصون المشهورة باقليم الشرف باشبيلية ، واشتهر فى هذا الموضع الوادى المعروف بوادى الطلحوهو نهر فى نهاية الحسن (ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٩٦) .

(٤) طبلاطه ، محلة بينها وبين اشبيلية عشرون ميلا ، وبفحصها جرت معركتان الاولى مع النورمان فى عهد عبد الرحمن الاوسط ، والثانية مع البرتغاليين فى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) عندما فتكوا بالمسلمين ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة (راجع التفاصيل فى الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ص ١٢٨ ، ١٢٩) .

طريانة Triana (١) ، ففر الى لبلة ، ثم تركها الى شلب تاركا احد اعوانه وهو يوسف البطروجى بلبلة يدافع عنها بسبب حصار ابن غانية لها . وعندما قام ابن حمدين (٢) بثورته فى قرطبة ظن ابن قسى انه من الممكن التدخل فى شئونها اثناء الثورة ، فأمر ابن المنذر بالتوجه اليها ولكن اهل قرطبة كانوا قد طردوا ابن حمدين حليفهم وجاءوا بابن هود لبتولى زعامتهم ، فارتد ابن المنذر الى الغرب .

فى تلك الاثناء كان الخلاف قد دب بين سيدراى بن وزير وبين ابن قسى ، فدفع ابن قسى بابن المنذر فى حرب ضارية مع سيدراى اسفرت عن كارثة لكل من ابن قسى وابن المنذر وضاعت شلب ، وميرتله ، وبطليوس من املاك ابن قسى من جهة ، ووقع ابن المنذر فى قبضة سيدراى من جهة اخرى . ثم ارتأى سيدراى بن وزير أن يمعن فى معاقبة ابن المنذر ،

---

(١) طريانة ، مدينة ممتدة على ضفة الوادى الكبير فى مقابلة مدينة اشبيلية وتعتبر من أرباضها ، وكانت مسورة من جهة الصحراء ، واستوفت طريانة كل مقومات المدن من حمامات واسواق ضخمة . وكانت بيوتها المطلة على النهر تبيض بالكلس حتى لا تنبو العين عنها (ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ص ٢٩٣) .

(٢) هو الفقيه ابو جعفر حمدين بن محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين ، التغلبى القرطبى ، من اهل بيت رئاسة ، ولى قضاء الجماعة بقرطبة فى شعبان سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م) ثم صرف عنه سنة ٥٣٢هـ (١١٣٧م) وعاد الى توليته سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م) الى أن اعلن ثورته فى سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) على حكم المرابطين استجابة لثورة ابن قسى فى غرب الاندلس وتسمى بأمير المسلمين المنصور بالله، ودعى له على منبر جامع قرطبة ، ثم خلع ، ثم رد ، ثم خرج الى العدوة حيث اقام فترة من الوقت عاد بعدها فاستقر به المطاف بمالقة وظل مقيما بها الى ان توفى سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م) وقيل سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) (بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس ، مجريط ، ١٨٨٤ ، ترجمة رقم ٦٨٥ ، ص ٢٦١ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٠٤ — ٢١١ ، وارجع الى ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٧ ، هامش ٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص٢٥٢، ٢٥٣) .

فارسل سيدراى الى خاله عبد الله بن الصميل يأمره « بأن يسير الى باجة ويستخرج ابن المنذر من سجنه ويسمل عينيه ، ففعل ذلك ، واقام فى معتقله الى أن فتح الموحدون اعزهم الله باجة ، وسائر بلاد الغرب ، فانقذه الله على ايديهم وعاد الى شلب ٠٠٠ » (١) اما بالنسبة لثورة قرطبة فقد تزعمها القاضى حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، وولاه اهل قرطبة عليهم عند قيامهم بالثورة على واليهم المرابطى ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب ، « ثارت العامة بوالى البلد الرئيسى ابى عمر اللمتونى ، وخلعوا دعوة الملثمين ، واتفقوا على مبايعة القاضى ابى جعفر بن حمدين مبايعة الخاصة والعامة بالمسجد الجامع من قرطبة ، خامس رمضان من سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) المذكورة ، وسكن قصر الخلافة ٠٠» (٢)

وتسمى بأمير المسلمين ، وناصر الدين (٣) ، وتلقب بالمنصور بالله ، ولا يهمنا من أحداث ثورة قرطبة الا توضيح العلاقة التى كانت تربط بين بطليوس وقرطبة فى تلك الفترة أو بمعنى اصح توضيح الدور الذى قام به عبد الله بن الصميل والى بطلبوس لتأييد ابن حمدين زعيم الثوار بقرطبة ، فقد كان هناك من بين ثوار قرطبة من كان يتعصب ضد البربر ويأنف من التبعية لهم ، فسعوا الى استدعاء سيف الدولة المستنصر بالله ابى جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود لانه من وجهة نظرهم ، خير ممثل للزعامة الاندلسية العريقة ، على حد تعبير الاستاذ محمد عبد الله عنان (٤) ، فلما اقبل ابن هود الى قرطبة ، ادبر ابن حمدين عنها ، ولاذ بحصن فرنجولش Hornachuelos المنيع (٥) الواقع شمال غربى

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ ٠
(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٣ ٠
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٥٣ ٠
(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣١٣ ٠
(٥) فرنجولش ، مدينة تقع على مقربة من حصن المدور Almodovar من نواحى قرطبة ، اشتهرت بكثرة كرومها واشجارها ، وتوفر معدن الذهب والفضة فى موضع منها يعرف بالمرج (الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٤٣) ٠

قرطبة ، حيث اقام اياما معدودة ، ثار خلالها اهل قرطبة على سيف الدولة ابن هود ، فهاجموا قصره وقتلوا وزيره ابن الشماخ ، فهرب ابن هود ، وعاد ابن حمدين الى قرطبة ، ومارس سلطاته هناك مدة شهور دون خلالها الدواوين ، ورسم الخطط ، وجند الاجناد ، وبعث الى انصاره فى المناطق الاخرى يطلب مبايعتهم له فبايعه ابو الغمر ابن عزون صاحب شريش ، وابو جعفر بن ابى جعفر صاحب مرسية ، غير أن ولايته لم تستمر اكثر من ١١ شهرا اذ تمكن محمد بن غانية من التغلب على قواته فى موقعة دارت فى احواز بطليوس ، فر ابن حمدين على اثرها الى بطليوس ، واقام فى كنف حليفه القديم عبد الله بن الصميل . ويبدو ان الصراع الذى كان قائما بين ابن قسى من جهة وبين سيدراى والصميل من جهة اخرى لم يؤثر على حسن العلاقات بين ابن حمدين والصميل والى بطليوس ، فاجاره مدة غادر بعدها بطليوس الى حصن اندوجر Andujar الواقع شرقى قرطبة (١) .

ولا يعنينا من امر ثورة قرطبة ما طرا عليها من تطورات (٢) ، ولكن يهمنا ان نعرف ان ابن حمدين زعيم قرطبة المعزول عبر الى المغرب عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) واستحث عبد المؤمن بن على اول خلفاء الموحدين ، وهو يحاصر مراكش على التدخل فى شئون الاندلس بحجة الظروف الاليمة التى كانت تمر بها البلاد فى تلك الآونة ، وتدخل القشتاليين فى شئون قرطبة ، ولم يكن ابن حمدين اول من وفد على عبد المؤمن بن على بل سبقه ابو الغمر بن السائب بن عزون المنتزى بشريش واركش

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٣ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن باقى احداث ثورة قرطبة ، خاصة عند قدوم الفونسو السابع اليها انظر ابن غالب الاندلسى ، قطعة من فرحة الانفس ، تحقيق د. لطفى عبد البديع ، ص ١٤٨ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣١٤ ، السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

ورنده (١) ، وابن قسى بعد انقلاب سيدراى بن وزير عليه واقدامه على انتزاع شلب وميرتلة وبطليوس من مناطق نفوذه بالعرب ، كذلك وفد على عبد المؤمن وفد اشبيلى كبير ، يستنهضون عبد المؤمن لانقاذ الاندلس ويبايعونه . ولم يتردد عبد المؤمن بن على فى الاستجابة الى طلب هذه الوفود ، فارسل قوات من قبله الى الاندلس ، للنظر فى شانه .

واول البلاد التى افتتحها الموحدون هى شريش ، افتتحها الموحدون صلحا عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) فى قول (٢) وفى تاريخ لاحق فى قول آخر (٣) ، فقد خرج حاكمها ابو عمران موسى بن سعيد الذى ينتمى الى بنى غانية الى الموحدين واعلن طاعته لهم ، وفى ذلك يقول ابن ابى زرع » فكان اول بلد فتحوه من الاندلس ، مدينة شريش فتحوها صلحا ، وكان بها قائدها ابو القمر من بنى غانية فى ثلاث مائة فارس ، من المرابطين ، فخرج بمن معه فتلقى الموحدين وبايعهم لعبد المؤمن ، فدخل فى طاعته ، فكان الموحدون يسمونهم السابقين الاولين (٤) » . وتبع افتتاح شريش ، فتح طريف ، والجزيرة الخضراء .

وفى عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) قام عبد المؤمن بارسال جيش تحت قيادة براز بن محمد المسوفى لفنح شلب وانتزاعها من سيدراى بن وزير وارجاعها الى ابن قسى صاحبها الاول ، ثم بادر عبد المؤمن بامداد هذا الجيش بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ثم بجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى . وقبل ان يستولى الموحدون على شلب تمكنوا من

---

(١) Codera (Francisco), Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España, Zaragoza, 1899, P. 159.

عبد الله علام ، الدلة الموحدية ص ١٨١ ، ١٨٤ .

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٢٠٠ ، ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٣٣ .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢٢ .

الاستيلاء على ميرتلة حاضرة ابن قسى ، ومنها اتجهوا الى شلب فأسقطوها ثم الى باجه ومنها الى بطليوس ، وكانت كل من مدينتى باجة وبطليوس تحت حكم ابن وزير وان كانت بطليوس خاضعة لخاله عبد الله بن الصمبل الذى كان يحكمها من قبله ، ولم يكن امام ابن وزير سوى بذل الطاعة لجيوش الموحدين ٠ فدخلت قواتهم بطليوس واخرجوا محمد بن عمر بن المنذر من سجنه ، كما سبق أن اوضحنا ، ولم يتردد هذا فى السير الى شلب (١) ليستقر جنبا الى جنب مع حليفه السابق ابن قسى ٠

جـ - قيــام الثورات على الموحدين فى الغـرب :

وما ان تمت للموحدين السيطرة على معظـم قواعـد الغـرب حتى اتجهوا الى اشبيلية لفتحها بعد ان انضمت اليهم قوات الغرب بزعامة احمد بن قسى وسيدراى بن وزير ، ويوسف البطروجى ، كل يرأس جنده وانتهى الامر بقتل عبد الله بن العربى الثائر فى اشبيلية ولد القاضى أبى بكر بن العربى زعيم فقهاء المدينة ، وكان ذلك فى شعبان من ٥٤١هـ (يناير ١١٤٧م) ٠

ثم ولى اشبيلية كل من عبد العزيز وعيسى اخوى المهدى بن تومرت، ولكنهما ، أساءا التصرف فى اشبيلية ، فأوقعا الظلم بأهلها ونهبا الاموال مما دفع يوسف البطروجى ، صاحب لبلة على الثورة على الموحدين ، ففر من اشبيلية الى لبلة ، وجدد الثورة هناك ناقضا عهده للموحدين ، فتحالف مع من كان فى لبلة من بقايا المرابطين ، وكانت هذه الثورة مثل ثورات أخرى نشبت فى غرب الاندلس فى ذلك الوقت ، فقد ثار سكان طبلاطه ، وحصن القصر ، ثم ثار ابن قسى فى شلب وابن ميمون فى قادس وثار ابن الحجام والى بطليوس ، ويذكر ابن الخطيب فى أعمال الاعلام ان ابن الحجام الثائر هذا هو محمد بن على بن الحجام ، وليس عبد

---

(١) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٧ ٠

الله بن الصميل الذى كان حاكما لها عندما دخلها الموحدون (١) ، كما يذكره ابن خلدون (٢) باعتباره من بين الزعماء الذين خلعوا طاعة الموحدين ، ويورد ابن خلدون عنه بعض التفاصيل فيذكر انه حينما عبر يوسف بن سليمان بعساكر الموحدين لمقاتلة ثوار الغرب ، عاد ابن الحجام ، (وكان قد سماه بابن الحاج) (٣) للطاعة وارسل هدية قيمة ، الى عبد المؤمن بن على ، كان لها اكبر الاثر فى نفسه . ويعلق الاستاذ محمد عبد الله عنان على ذلك بانه لايعرف متى ولا تحت اية ظروف تمكن ابن الحجام من حكم بطليوس بدلا من ابن الصميل .

ولقد استطعنا عن طريق استقرائنا للروايات المختلفة ان نحصر المدة التى قفز فيها ابن الحجام الى حكم بطليوس وهى مدة تتراوح فيما بين سبعة شهور وعام هجرى ، فابن الصميل كان على حكم بطليوس ، حين تمكن ابن حمدين من الفرار اليه فى عام ٥٤٠هـ (١١٤٥ — ١١٤٦م) كما جاء فى رواية ابن الخطيب (٤) ، واستمر ابن الصميل يتولى بطليوس حتى تم للموحدين فتحها بعد شهر المحرم ٥٤١هـ (١١٤٦ — ١١٤٧م) لان عبور الموحدين الى الاندلس حدث فى المحرم من ذلك العام (٥) .

اما ثورة ابن الحجام فقد نشبت بعد سقوط اشبيلية فى ايدى الموحدين فى شعبان ٥٤١هـ (١١٤٧م) . ويؤكد كل من ليفى بروفنسال (٦) والاستاذ محمد عبد الله عنان ان ثورة ابن الحجام حدثت فى نفس الوقت الذى قام فيه الماسى بثورته ضد الموحدين فى المغرب اى فى عام ٥٤٢هـ

---

(١) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٤٨ .
(٢) ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .
(٣) ابن خلدون ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٣ .
(٥) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٢٧ .
(٦) Lévi - Provençal, mscriptions arabes d'Espagne, t. 1, Leyde, 1931, p. 56, 57.

(١١٤٨م) (١) ، وبهذا يقع صعود ابن الحجام الى حكم بطليوس في المدة ما بين المحرم ٥٤١هـ (١١٤٧م) وما بعد شعبان ٥٤١هـ .

وربما فكر الموحدون بعد استيلائهم على بطليوس فى اقصاء حاكمها الاول عنها ، وربما كان ابن الحجام فى هذه الآونة يشكل احد المنافسين لابن الصميل ، فبدأ يتقرب الى القادة الجدد بحيث نجح فى اقناعهم كحاكم موال لهم فى بطليوس .

ويعلق كوديرة فى معرض حديثه عن ابن الحجام ، (ويسميه ملك بطليوس) بقوله « ان وجه الغرابة فيما يذكره ابن الخطيب فى سياق حديثه عن الثوار الاندلسيين الذين شقوا عصا الطاعة على المرابطين واعلنوا استقلالهم فى مواقعهم عنهم ، أنه أورد اسم محمد بن على الحجام ، وهو شخصية لم تصلنا عنها الا اخبار قليلة ، ولم يكن ابن الحجام هذا من الشخصيات التى لمعت فى الفترات الاولى من الثورة على المرابطين ، وهذا ما يدعونا الى الاعتقاد بانه لم يظهر فجأة اذ ورد ذكر سيد آخر على بطليوس وهو سيدراى بن وزير . اما عن محمد بن على ابن الحجام كما يسميه ابن الخطيب فلم أجد عنه اى ذكر الى أن اشتعلت نار الثورة الاولى التى قام بها رؤساء الاندلس ضد الموحدين بعد أن تمكن ابن غانية من انتزاع الجزيرة من الموحدين . عندئذ انضم محمد بن الحجام كما يسميه ابن خلدون الى الحركة الثورية فى بطليوس (٢) .

كذلك يذكر كوديرة أن ابن الحجام أعتبر فى فترة ما ، ملكا مستقلا على بطليوس بدليل الدنانير التى ضربت فى بطليوس سنة ٥٤٣هـ (١١٤٨ — ١١٤٩م) وتحمل اسمه ، وقد رجع كوديرة فيما يختص بأمر هذه الدنانير الى A.Prieto y Vives ، وهذه العملات كانت تحتفظ تماما بطابع العملات المرابطية .

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٢٩ .

(٢) Codera (F), Decadencia y desaparición, Op. Cit., P. 160 - 161.

ومن الجدير بالذكر ان ليفى بروفنسال اورد فى كتابه عن النقوش الكتابية العربية فى اسبانيا نقشا محفورا على لوح من الرخام ٤٦ × ٢٨سم يشير الى ان خروج المرابطين عن بطليوس لم ينم بدون سفك دماء ، ففى شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٤م) اشتعلت الثورات كما سبق أن ذكرنا فى الاندلس كله ، ويسمى ليفي بروفنسال هذه الفترة بعصر الطوائف الثانى ، فثوار الاندلس يبررون قيامهم بالثورة على المرابطين باطلاق نفس الشعارات الدينية التى أطلقها الموحدون ، وهذا يفسر لقب الشهيد الذى سجله كاتب النقش على المتوفى ، فالمرابطون وهم مجسمون ، كان ينظر اليهم على انهم مارقون ، لذلك فان قتلهم فى نظر هؤلاء الثوار يعد جهادا والقتل على ايديهم يعتبر استشهادا (١) .

ونطالع فى النقش النص التالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا قبر الشهيد المقتول ظلما ، رحمه الله عبيد الله بن محمد بن احمد الماردى - ابن المقتول - قتلوه الملثمين يوم خروجهم وذلك يوم الاحد يوم تسعة وعشرين من رمضان المعظم عام تسعة وثلاثين وخمس مائة) (٢) .

وأيا ما كان الامر فقد قامت الثورة فى مدن الغرب على الموحدين بعد فترة قصيرة من الدعوة لهم فى هذه المدن بحيث لم يبق فى الغرب على ولائه لهم سوى ابن عزون ، صاحب شريش ، وولده ، فاغتنم ابن غانية القائد المرابطى الذى كان قد ظهر فى الاحداث السابقة تلك الفرصة وأرسل قوة مرابطية تمكنت من السيطرة على الجزيرة الخضراء ، فلما علم أهل سبتة بذلك الامر ثاروا وخلعوا والبهم يوسف بن مخلوف التينمللى وتزعمهم فى ذلك القاضى عياض السبتى .

---

(١) Lévi - Provcçal., op. cit., p. 57.

(٢) Ibid, p. 56.

وكانت أمور اشبيلية قد بلغت حدا كبيرا من السوء بحيث أن عبد المؤمن بن على حين علم باحوال الاندلس الغربى واشبيلية ، بادر بارسال جيش من الموحدين بقيادة يوسف بن سليمان الذى تمكن من اخمـاد الثورات ، فقد زحف بفواته بادىء ذى بدء الى لبلـة ، وقضـى على البطروجى ، راس الثورة هناك ، ثم توجه الى طليطلة التى اخضعها ثم اتبعها بحصن القصر ومنها الى طبيرة التى اعلن حاكمها الطاعة . وبدأ ثوار الغرب يعودون من جديد الى الطاعة ومنهم محمد بن عـلى ابن الحجام صاحب بطليوس ، وعلى بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية الغرب وقادس .

اما ابن الحجام فقد بادر بارسال مجموعة من الهدايا الفخمة الـى الخليفة عبد المؤمن بن على الذى قبلها بسرور بالغ ، وبهذه الهدايـا تكون بطليوس قد انضوت تماما فى فلك دولة الموحدين (١) .

أما ابن قسى حاكم بطليوس السابق فقد انتهى امره نهاية حزينة ، ففى ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) دعا عبد المؤمن بن على وفود الاندلس للعبور الى المغرب للقائه فى مدينة سلا ، فسار اليه كل زعماء الغرب وفى مقدمتهم سيدراى بن وزير وابن الحجام صاحب بطليوس ، جميعهم ساروا اليـه باستثناء ابن قسى صاحب ميرتلة وشلب .

وكان ابن قسى فى الواقع أول من ثار على السلطان المرابطى ، وأعلن تاييده وطاعته للموحدين ، وهو أول من اشعل الثورة ليس فى غـرب الاندلس فحسب وانما فى الاندلس كله ، الا انه لم يلبث ان نكث بعد ثورة اشبيلية ، فخرج عن طاعة الموحدين وظل متمردا عليهم ، فلما القى نفسه وحيدا بعد ان قدم جميع رؤساء الغرب فروض الطاعة للموحدين لجـأ الى ملوك أسبانيا المسيحية ، ولم يجد امامه سوى مملكة البرتغال الناشئة

---

(١) Codera, Decadencia y Desaparición, P. 162.

فى ذلك الوقت ، ولم يتردد الفونسو انريكيث او ابن الريق (١) ، صاحب قلمرية (٢) فى الترحيب به وتقديم العون له «فاظهر اجابته الى مراده ، وبعث اليه بفرس وسلاح ...» (٣) . فلما راى ، اهل شلب موقف ابن قسى هذا غضبوا ، وتزعمهم حينئذ ابن المنذر ، صديق ابن قسى السابق وحليفه القديم ، وصمموا على التخلص من ابن قسى ، فاعدوا للحسين ولد ابن قسى نزهة لابعاده عن قصر والده ، (٤) ، وتمكنوا عن طريق الحيلة من دخول قصر والده المسمى بقصر الشراجب ، (٥) « فأتى بعضهم برجل مكتوف ، كأنه قبض عليه من الدايرة والاشرار ، واستأذنوا على مقدم الحرس ، فعندما دخل الى البلد يستأذن فى أمره ، اقتحمت الطائفة الحصن ... » (٦) ، وقتلوا ابن قسى ، واحتزوا راسه ورفعوها على الرمح الذى سبق أن أهداه له الفونسو انريكيث ملك البرتغال ، وجلس ابن المنذر الاعمى مكان ابن قسى ، واعلن طاعته وولاءه للموحدين ، وكان ذلك فى جمادى الأولى من عام ٥٤٦هـ (١١٥١م) (٧) ، وبهذا تكون ثورة الغرب على المرابطين قد انتهت بسقوط دويلاتهم على ايدى الموحدين .

وهناك ملاحظة هامة للغاية ، وهى أن معظم ثوار غرب الاندلس كانوا من الشعراء والادباء الموهوبين ، فابن قسى على سبيل المثال كان عالما ، ممن تفقهوا فى علم الكلام والتصوف الى جانب قوة شعره ، وقد أورد ابن الابار ، فى الحلة السيراء نماذج عديدة من هذا الشعر (٨) .

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ .
(٢) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥١ .
(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ .
(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥١ .
(٥) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ .
(٦) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٢ .
(٧) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢٥٢ .
(٨) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

اما ابن المنذر فقد سيطر على شلب بعد مقتل ابن قسى ، ولكن الموحدين توجسوا منه وخافوا ان يعاود الثورة « فخيف منه أن يثور ثالثة ، فنقل الى اشبيلية بعد ان خلعه ابن وزير وملك شلب دونه » (١) ، وقد أورد هذا الخبر ابن صاحب الصلاة فى كتابه «ثورة المريدين» ، وهذا الكتاب لم يصل الينا وانما عرفناه من خلال رواية ابن الابار فى كتابه «الحلة السيراء» ، فقام الموحدون بنقله الى اشبيلية ليقيم بها تحت مراقبتهم ، ولكنه «أجاز البحر الى سلا فتوفى بها سنة ثمان وخمسمائة ... » (٢) .

وابن المنذر هذا كان هو الآخر من الشعراء الكبار وله عدد من القصائد التى أوردها ابن الابار كذلك فى الحلة السيراء (٣) . وقد فسر الاستاذ محمد عبد الله عنان هذه الظاهرة بقوله : ان المرابطين اثناء حكمهم للاندلس قد تمكنوا من اسقاط كافة الزعامات العسكرية والملكيات الطائفية ، اما الزعامات الفكرية ، فلم يتمكن المرابطون من التخلص منها وخاصة نفوذ الفقهاء ، فكان سلطان الادباء والشعراء والفقهاء (والقضاة فى شرق الاندلس) قويا للغاية مما منحهم الفرصة للتزعم على حساب المرابطين . هذا ، ويقول مارتينث اى مارتينث « لقد نعمت طبقة رجال الدين والفقهاء فى عهد المرابطين ، فقد كان أمراء المرابطين انذاك على درجة كبيرة من الورع ، كما كانوا لجهلهم بالعلوم يحرصون على أن يستلهموا سياستهم بمشورة الطبقة « الكهنوتية » ، ولهذا فان الشعراء والفلاسفة وسائر افراد الطبقة المستنيرة من الشعب بدأوا يضيقون لذلك ، وتاقوا الى البلاطات الصغيرة فى عهد ملوك الطوائف ..» (٤) وكلام مارتينث فى حد ذاته منطقى وقوى الا ان تعبيره عن الفقهاء المسلمين بالطبقة الكهنوتية خاطىء للغاية ، فلا توجد طبقات كهنوتية أو رجال

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٤) Martinezy Matinez, Historia de Badajoz, op. cit., p. 182.

دين فى الاسلام ، ورغم ان فقهاء الاندلس فى عصر المرابطين كانت لهم مكانتهم الدينية ، الا أنهم لم يشكلوا اى طبقة متميزة ، يضاف الى هذا ان معظم كتاب عصر الطوائف وشعرائهم عملوا لدى المرابطين ابتداء من عبد الرحمن بن اسباط الذى يرجع أصله الى مدينة المرية ، وابى بكر ابن القصيرة ، وابى بكر بن عبد العزيز بن القبطرنة ، وابن عبدون من شعراء بنى الافطس فى عصر الطوائف .

واذا كان أهل بطليوس هم الذين استدعوا المرابطين لتخليصهم من حكم بنى الافطس ، فانما حدث ذلك عندما تاكدوا فقط من خيانة المتوكل عمر بن الافطس لدينه ، فقد استعان بالفونسو السادس ضد المرابطين ، وتنازل له عن كل من اشبونة وشنترين وشنترة كما سبق ان ذكرنا .

ولم يكن هذا يعنى أن اهل الغرب وفى مقدمتهم معظم اهل بطليوس قد زهدوا فى حياة الترف والنعيم التى كانوا يحيونها زمن الطوائف ، فبعد أن سيطر المرابطون على الاندلس ، وتبين الاندلسيون تقشفهم وجفاوتهم ، وظهرت لهم بداوتهم وخشونتهم وبعدهم عن مظاهر الترف التى كانوا ينعمون بها فى ظل ملوك الطوائف ، اندى الناس يدا وارقهم مشاعر وأجزلهم عطاء ، ضاقوا ذرعا بالحكم المرابطى وافتقدوا أيام ملوكهم فى عصر الطوائف ، فاشعل الغرب ثورته التى كانت فاتحة الثورات فى الاندلس كله ، واستدعوا الموحدين ، عسى أن يخلصوهم من غلظ الملثمين وجفوتهم .

حقيقة أن اهل الاندلس بوجه عام والغرب وبطليوس بالذات على وجه الخصوص لم يعترضوا على سلوكيات المرابطين فى الفترة الاولى من حكمهم ، اذ كانوا لايزالوا فى بداية هذا العهد تحت تأثير انتصار الزلاقة ، الذى أحيا الامل فى نفوسهم واعاد لهم الاطمئنان والامن والسلام ، فلم تعد الطرق والمسالك محفوفة بالاخطار الناجمة عن قطاع الطرق (١) ، كما

---

(١) Martinczy Martinez, Historia del Reino de Badajoz, Op. Cit. p. 181.

أن المسيحيين لم يعودوا يلزمونهم بدفع الاتاوات ، وعلى هذا النحو تحسن الوضع الاقتصادى ، فالخبز كان يباع بأقل ثمن او بثمن أكثر انخفاضا مما كان عليه زمن ملوك الطوائف ٠

ولكن الامر تغير فى النصف الثانى من العهد المرابطى ، فقد افتقدت بلاد الغرب وموسطة الاندلس الامان بسبب اقدام مملكة قشتالة وليون على شن الغارات المتواصلة وكثر عيثهم فى البلاد ، الامر الذى أدى بالتالى الى خروج عسكر المرابطين لتأديبهم ، مما ترتب عليه تعرض بلاد الغرب الى الاضطراب الداخلى والخراب والتدمير ، وقد ساعد ذلك ، على زيادة سخط الاهالى على المرابطين الذين عجزوا أمام جماهير الاندلس عن مدافعة القشتاليين ، وتسببوا فيما أصاب بلادهم من أضرار ودمار ٠

ويورد الادريسى وصفا لعمران مدينة بطليوس زمن المرابطين فيقول « ومدينة بطليوس مدينة جليلة فى بسيط الأرض ، وعليها سور منيع وكان لها ربض كبير أكبر من المدينة فى سرقيها ، فخلا بالفتن ٠٠٠ » (١) ٠ ونستخلص من هذا الوصف أن ربض بطليوس الذى كان يقع فى شرق المدينة تعرض للفتن والثورات فى عهد المرابطين ، ولم يشر الادريسى الى أسباب تلك الفتن التى ادت بالربض الى الزوال ، ولم يرد فى المصادر العربية اى اشارة عن قيام ثورة او فتنة فى ذلك الربض ، ولهذا فيمكننا أن نتصور احتمالين ، الاول ، أن تكون تلك الفتن التى ذكرها الادريسى قد قامت فى أيام ابن قسى بعد أن دخلت كل من ميرتلة وبطليوس تحت نفوذه ، فيكون اهل بطليوس قد ثاروا على المرابطين ، مؤيدين لابن قسى وذلك فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) والثانى أن تكون تلك الفتن قد وقعت فى عهد ابن الحجام ضد الحكم المرابطى أيضا وفى تلك الحالة تكون الثورة البطليوسية قد قامت فى أواخر عام ٥٤١هـ (١١٤٦ — ١١٤٧م) وأوائل عام ٥٤٢هـ (١١٤٧م) ٠

---

(١) الادريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس،ص ١٨١٠

وبالرجوع الى النقش الذى اشار اليه ليفى بروفنسال ، والذى سبق ان تحدثنا عنه ، نجد ان الشهيدين ، البطليوسيين قد قتلا على ايدى المرابطين فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) كما ورد فى النقش ، ولهذا فاننا نرجح ان الفتن التى قامت فى الربض ، والتى تحدث عنها الادريسى ، قد وقعت فى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) اى اثناء ثورة ابن قسى على الحكم المرابطى ، بعد استيلائه على ميرتلة وبطليوس .

ويؤكد رأينا هذا النتائج التى توصل اليها العالم الاثرى فرناندو فالدث Fernando Valdez اخيرا من ان هذا الجزء من مدينة بطليوس ، وأعنى به الربض لم يكن جبانة كما اعتقد البعض عقب اكتشاف النقش المكتوب على شاهدى مقبرة الشهيدين البطليوسيين ، وانما كان يقوم به رباط خصصه اهله لقتال الملثمين الذين كانوا فى اعتقاد اهل الاندلس كفرة وجب قتالهم والجهاد ضدهم .

(٣)

بطليوس فى عهد عبد المؤمن بن على وابنه يوسف

ا ـ نشاط حركة الاسترداد البرتغالى فى الغرب :

اشرنا فيما سبق الى ان سقوط بطليوس فى ايدى الموحدين حدث فى حدود عام ٥٤٥هـ (١١٥٠م) ، اى فى عهد الخليفة عبد المؤمن بن على (١) ، الذى عزم على الخروج فى ١٠ ربيع الاول عام ٥٥٨هـ (١٩

---

(١) اختلفت الآراء حول خلافة عبد المؤمن بن على على الموحدين ، فمن الآراء من ينسب الى المهدى بن تومرت ترشيح عبد المؤمن بن على للخلافة الموحدية قبيل وفاة بن تومرت بقليل، مثل راى ابن القطان، ومنها ما يؤكد ان عبد المؤمن بن على بويع بخلافة الموحدين فى سنة ٥٢٤هـ ، (١١٢٩م) ، بيعة خاصة وذلك عقب وفاة المهدى مباشرة ، وان البيعة العامة له لم تتم الا فى عام ٥٢٧هـ (١١٣٢م) . على اننا نأخذ برواية البيذق التى تؤكد ان ابن تومرت توفى فى الاربعاء او الخميس الخامس والعشرين من رمضان عام ٥٢٤هـ (١١٢٩م) فبويع عبد المؤمن بن على فى « السبت الاقرب من هذا التاريخ » ، وان هذه البيعة استمرت ثلاثة ايام متوالية ، وتقترب رواية ابن ابى زرع من رواية البيذق ، فهو يذكر ان بيعة عبد المؤمن بن علـى تمت يوم الخميس الرابع عشر من رمضان عام ٥٢٤هـ (١١٢٩م) وهى البيعة الصغرى او الخاصة اما البيعة العامة فيذكر انها تمت فى عشرين ربيع الأول من سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) .

وهناك من المؤرخين من يأخذ بالراى القائل بأن ابن تومرت اوصى بخلافة عبد المؤمن بن على قبيل وفاته ، ومنهم عبد الواحد المراكشى . ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان ان عبد المؤمن قد تلقى بيعته قبيل وفاة ابن تومرت ، وانه قد كتم نبأ وفاة المهدى حتى يتخلص من خلافات القبائل وتنافسهم على الخلافة وان الموحدين حين رأوا بداية اضطرام فتنة القبائل خوفا على الخلافة وحرصا عليها بادروا بمبايعة عبد المؤمن بن على الذى كان اكثر الناس التصاقا بابن تومرت . ويرجع أصل عبد المؤمن بن على الى قبيلة كومية وهى بطن من بطون زناتة، سواء من جهة الام او الاب ، فهو بربرى أصيل، =

فبراير ١١٦٣م) بنية الجواز الى الاندلس للقيام بغزوة أندلسية كبيرة للغايـة (١) ، فنزل برباط الفتح ، ثم استدعى الحـاضرين ليستطلع آراءهم فى الخطوات التالية ، وكان من بين الحاضرين ابو محمد سيدراى بن وزير الذى كان قد أوضح للخليفة الظروف السيئـة التى تمر بهـا الاندلس ، فدولة البرتغال الناشئة فى ظل الفونسو انريكيث لاتتوقف عـن ضرب الجزء الغربى من الاندلس بلا هوادة ، لذلك فقد اقترح ابن وزير على عبد المؤمن بن على أن يوجه جيوسه وجهات أربعة « تكون جهـة ابن الرنك بقلمرية (٢) أولا ، وجهة الببوج (٣) ، بالسبطاط (٤) ثانية ،

=

ولما كان خليفة المهدى على الموحدين فلابد أن يكون له نسب عربى ، ولذلك فان المصادر العربية مثل المعجب لعبد الواحد المراكشى تذكر أنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر ، فجده من العـرب ، وقد نزل الى تلمسان ، هاربا من بعض الفتن بالاندلس فانتسب الى البربر بحكم الجوار والحلف ، هذا الى جانب ان هناك من ارجع نسبه الى آل البيت عن طريق أمه (انظـر عبـد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ ـ ص ١٩٧ ، أبو بكر على الصنهاجى المكنى بالبيذق ، اخبار المهدى بن تومرت ، تقديم وتحقيق عبـد الحميد حاجيات ، الجزائر ١٩٧٥ ، ص ٧٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٢١ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٦٨ . محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٢٢٢) .

(١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٢٢٠ ـ ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، تحقيق أويثى ميراندا ، ص ٥٥ .

(٢) يسميه عبد الواحد المراكشى ابن الريق ، وبقصد بصاحب قلمرية ملك البرتغال لان قلمرية كانت حاضرة هـذه الدولـة الناشئة (عبـد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٧) .

(٣) الببوج ، هو فرنانده ملك ليون Fernando II والببوج لقبه ، وهو لفظ محرف من الاسبانية el Baboso أى الذى يفرز كثيرا من اللعاب ، وكان يطلق على الحمقى من الناس ، وربما اطلق عليه لما عرف عنه من سرعة الغضب (راجع ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٢١٩ ، هامش ٣) .

(٤) السبطاط تعنى Ciudad أى مدينة ، ويقصد بها مدينة Ciudad Rodrigo وتقع شرقى قلمرية وغربى ابلة .

وجهة اذفونش (١) بطليطلة ثالثة وجهة برشلونة رابعة ... » (٢) .

فوافقه الحاضرون ، ومن هذا النص يتضح لنا أن عبد المؤمن بن على كان ينوى فى تلك الآونة أن يسير أولا الى مملكة البرتغال الناشئة لمقاتلة ملكها الفونسو انريكث ، ثم الى ليون لمحاربة صاحبها فرناندو الثانى المعروف بالببوج ، ابن الفونسو السابع ريموندس ، وبعد ذلك يتوجه الى قشتالة ، وكان ملكها فى ذلك الوقت الفونسو الثامن ، الذى كان طفلا تحت الوصاية ، ثم يغزو بعد ذلك مملكة ارغون وبرشلونة وملكها الفونسو الثانى (٣) ، وهذا يعنى أن مملكة البرتغال كانت أكثر هذه الممالك خطرا على الاسلام فى تلك الآونة ، فقد كان الفونسو انريكث غاية فى الذكاء ، وقمة فى حرصه على انتهاز كل الفرص ، ففى الوقت الذى كانت فيه الاندلس تضطرب وتموج بالفتن وخاصة اقليم الغرب الذى افتتح الطريق الى الثورة على الحكم المرابطى ، نجد الفونسو انريكث يتأهب لاغتنام أى فرصة تسنح له للسيطرة على الاشبونة ، وكانت أنذاك احدى القواعد الاسلامية الكبرى فى الغرب واعظم مراكز الموحدين لشن الغارات على أراضى البرتغال ، فموقعها فى قلب البرتغال ، كان يشكل خطورة على هذه المملكة الناشئة ،لذا ، فقد حاول الفونسو انريكث ، أن يقضى على تلك القاعدة الهامة ، ولما لم يكن لديه من الجيوش والقوات مايكفيه ، لاداء هذه المهمة الجبارة ، فانه استعان ، بحملة صليبية تتألف من عدد كبير من الانجليز والالمان والفلمنك ، كانت فى طريقها الى الشرق لاحكام الحصار حول مدينة الاشبونة ، وكان ذلك فى أواخر عام ٥٤١هـ (١١٤٧م) واستمر حصار الاشبونة مدة طويلة للغاية امتدت الى عدة شهور ، ولكن حصانة الاشبونة ، حال دون سقوطها سريعا فى ايدى البرتغاليين وحلفائهم

---

(١) هو الفونسو الثامن ملك قشتالة ويلقب بالملك الصغير el rey chico

(٢) عبد الملك بن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، الرباط ، ١٩٦٣ ، ص ٢٢٠ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٩٤ .

الصليبيين اذ كان يحوطها سور ، وتقوم بها قصبة منيعة ، وكان بابهـا الغربى فى غاية الاحكام ، فقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وكان لها باب غربى آخر ، يعرف بباب الخوخة ، يشرف على سرح فسيـح ، يشقه جدول ماء يصب فى البحر ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر تدخل امواج البحر فيه عنـد مده ، وترتفع فى سوره ثلاث قبم ، وباب شرقى يعرف بباب الحمة .. وباب شرقى ايضا ، يعرف بباب المقبرة . وقد دافع سكان الاشبونة عن مدينتهم خير دفاع ، ورغم شدة الحصار وامتداد امده ، ورغم وجـود الكثير من الثلمات التى أحدثها العدو فى اسوار المدينة ، واصـل أهلهـا صمودهم ، واستماتوا فى الدفاع ، ولكن دون جدوى ، فقـــد ضاعـف البرتغاليون من ضرباتهم لاسيما بعد ان اخبرهم ملكهم الفونسو انريكث بأن المدينة غنية بالاموال والحلى والكنوز ، وانتهى الامر بأن اقتحـم البرتغاليون المدينة من باب الحمة او بابها الشرقى ، واذرع النصارى فى المدينة نهبا وقتلا ، فقد كان بالمدينة من النعم والثروات ما فاق خيالهم وتصورهم ، وبطبيعة الحال فان اول خطوة بادر الملك البرتغالى فى اتخاذها تحويل المسجد الجامع بالاشبونة الى كنيسة وتنصيب اسـقف للاشبونة ، وهو الاسقف جابرتو ، وتم ذلك فى جمادى الاولى من عـام ٥٤٢هـ (٢١ أكتوبر سنة ١١٤٧م) (١) .

ولم يكتف الفونسو انريكث بهذا الفتح العظيم ، فقد تمكن مـن الاستيلاء كذلك على مدينة شنترين والمناطق المحيطة بها ، ولهذا اصبحت مملكة البرتغال ، تشكل خطرا داهما على وجود الموحدين فى الاندلس (٢)

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٢٥ .

(٢) ويذكر الفونسو العاشر فى المدونة الأولى العـامة لاسبانيا « ان هذا الملك دون الفونسو انتزع من المسلمين مدينــة شنترين وشنترة والاشبونة ، ويابرة والحنش ، ومواضع اخرى كانت قريبة من اراضى المسيحية . ولقد استولى الفونسو على كل ذلك من ايدى المسـلمين

خاصة وقد استولى الفونسو انريكث على قصر ابى دانس سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) بعد مضى شهرين فقط من محاصرته لها برا وبحرا ، ولم تات اواخر سنة ٥٥٧هـ (١١٦٢م) حتى كان نصارى شنترين قد تمكنوا من غزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، ومكثوا بها مدة اربعة اشهر ، عاثوا خلالها فسادا فى ساحتها ، وهدموا اسوارها ، ثم رحلوا عنها (١) .

كانت بطليوس اثناء هذه السنوات المنصرمة على دخول الموحدين الاندلس مدينة مهددة بغزو وشيك من قبل مملكة البرتغال التى كانت تركز ضرباتها على اقليم الغرب . وكانت بطليوس حاضرة الغرب وقاعدة الثغر الجوفى منتهى أمل ملك البرتغال ، لذلك يمكننا ان نتخيل مدى العذاب الذى كان يشعر به اهلها فى كل مرة تصلهم فيها انباء اقتحام الجيوش البرتغالية لاراضى الغرب وسقوط بعض مدنه ، خاصة اذا علمنا ان بطليوس فى تلك المرحلة بالذات كانت تعانى من اضطراب سياسى كبير عقب استشهاد صاحبها محمد بن على الحجام اثناء قتاله مع قوات الثائر ابن مردنيش وصهره ابن همشك وحليفهما مدار الاقرع ، المعروف فى المصادر العربية بالعلج الذميم (٢) . وعلى اثر ذلك تعرضت لهجوم غادر

=

بفضل جهوده ، وبفضل اسلحته ، وكانت هذه المدن قد اخليت من سكانها منذ عهود مضت فاعاد تعميرها من جديد وتحصينها باسوار منيعة ، تحميها من هجمات المسلمين .. » .

«Este rey don Alffonsso, gano de moros a sacta Aren, Sintria, Vlixbona, Euora, Alanquer, et muchos otros logares que fueron et son a por de la tierra et de Cristianismo. Et esto gano este rey don Alffonsso de moros, por su esfuerço et Fuerça de armas, et maguer que las çibdades et las publas dichas auian yazido yermas et desertidas de luengo tiempo ya, poblolas el de nueuo et affortalesiolas de muros por que se pudiesen tener bien contra moros...» (Primera Cronica General de España, P. 652).

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

(٢) هو حفيد البرهانس Alvar Fañez واسمه Alvar Rodriguez
(انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ١٩١ ، وهامش
=

شنها عليها الفونسو انريكث ملك البرتغال فى اول ربيع الثانى عام ٥٥٦هـ (٣٠ مايو ١١٦١م) ، ونستند فى هذا على نقش كتابى مسجل على شاهد قبر الفقيه ابى القاسم خلف الذى استشهد بشرقى جامع بطليوس على ايدى النصارى عندما فاجأ العدو بطليوس بهجومه الغادر . والشاهد لايعدو لوحة من الرخام (٥١ × ٣٢ سم) عثر عليها فى مدينة بطلبوس فى عام ١٨٧٧م ونطالع فيها النص التالى : (بسمله . كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، هذا قبر الشيخ الفقيه ابى القاسم خلف بن حسن بن فرجون البكرى نور الله ضريحه وقدس روحه . استشهد بشرقى جامع بطليوس حين غدر العدو لها فى صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الآخر عام ستة وخمسين وخمسمائة) (١) . ويؤكد ابن ابى زرع تلك الحقيقة عندما يذكر إن عددا من الموحدين بقيادة ابى محمد عبد الله بن ابى حفص قدموا من قرطبة وفتحوا حصن اطرنكش من أحواز بطليوس ، وقتلوا من به من النصارى . ويبدو ان هذا الحصن كان قد سقط مع بطليوس فى عام ٥٥٦هـ (١١٦٠ — ١١٦١م) عندما تعرضت للهجوم البرتغالى ، ثم تمكن الموحدون من استرداد بطليوس فى نفس السنة ، يقول ابن ابى زرع : « وفى هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، فولى عليها عبد المؤمن محمد بن على الحاج » (٢) .

ثم تجمعت قوات ابن مردنيش ومن تابش معه من حلفائه الثوار وأبرزهم صهره ابن همشك وحليفهما مدار الاقرع فى إشبيلية ، فخرج اليهم السيد ابو يعقوب يوسف فى انصاره من امراء غرب الاندلس وفيهم ابن وزير وابن الحجام ، ودار القتال عنيفاً وشديدا بين الطرفين ، وانتهى

= رقم ١) وقد سماه ابن ابى زرع فى روض القرطاس بالاقرع ، أما ابن عذارى فيكتفي بتسمية قائد الروم . (انظر البيذق ، اخبار المهدى بن تومرت ، حاشية ٣ ، ص ١٤٨) .

(١) Lévi - Provençal, Inscriptions Arabes d'Espagne, t.I, PP. 59-60

(٢) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٣١ .

بهزيمة الامير ابى يعقوب يوسف ومقتل اتباعه ، وفى ذلك يقول البيذق : « ومات فى تلك الهزيمة محمد بن عمر الصنهاجى ، ويحيى بن أبى بكر بن الجد ، وعمر بن ميمون الهرغى ، وولد وسنار ، وابن على صاحب بطليوس ، وابن الغمر ، وعين الزجاج وابن وزير » (١) ويذكر الاستاذ عنان أن البيذق وحده هو الذى انفرد بالاشارة الى هذه الوقعة ، ولكنه لم يحدد لها تاريخا ثابتا او يوما بعينه ، اما الاستاذ عبد الحميد حاجيات ، محقق كتاب البيذق ، فيحدد تاريخها بعام ٥٥٧هـ (١١٦١م) ، وذلك بعد استرجاع ابى سعيد لمدينة قرمونه ، وقبل استيلاء ابن همشك وابن مردنيش على غرناطة (٢) . غير ان كوديره يؤكد ان ابن الحجام استشهد بنظر اشبيلية فى سنة ٥٥٣هـ (١١٥٨م) (وليس فى عام ٥٥٧هـ كما يذكر د. حاجيات) فى نفس الوقت الذى استشهد فيه ابو الغمر بن عزون (٣) .

وبرجوعنا الى البيان المغرب لابن عذارى نجده يورد خبرا عن وقعة تسمى زغبولة دارت فى عام ٥٥٢هـ (١١٥٧م) وأسفرت عن استشهاد ابن الحجام ، وفيما يلى نص ابن عذارى : « وفى سنة اثنين وخمسين وخمسمائة كانت وقعة زغبولة على مقربة من اشبيلية على السيد أبى يعقوب يوسف ابن الخليفة ، وذلك ان النصارى اهلكهم الله غنموا نظر اشبيلية ، فامر السيد ابو يعقوب بوصول ميمون بن حمدون الوالى على شلب والبلاد التى كانت بيد ابن وزير ، ويستعجل بعسكر الغرب ، فوصل اليه ، فاستعجل السيد الى حربهم ومقارعتهم ، وبرز اليهم بعسكر اشبيلية ، فلقى النصارى بحصن زغبولة ، فدارت الحرب بين الكفرة والمسلمين ، فمال الناس واجفلوا من مواقفهم ، وانهزموا عن السيد بجمعهم ، واستشهد فى المعركة ابن عزون ، ومحمد بن على الحجام ،

---

(١) البيذق ، اخبار المهدى بن تومرت ، ص ١٤٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٤٨ ، حاشية ٦ .

(٣) Codera, Decadencia y desaparición, p. 162.

وبجملة من اشياخ الموحدين ... وفر ابن وزير بجواد معار من احد قراباته،» (١) .

وبمقارنة نص البيذق بنص ابن عذارى نجد ان كليهما يتفق على ان ابن الحجام لقى مصرعه فى هذه المعركة التى خاضها ضد النصرانية فى اشبيلية وان الذى كان يتولى قيادتهم فيها السيد ابو يعقوب يوسف ، اما وجه الخلاف بينهما فيتلخص فى النقاط التالية :

١ ـ لم يذكر البيذق تاريخ هذه المعركة ولم يحددها زمنيا وان كان الاستاذ حاجيات محقق النص قد حدد التاريخ بسنة ٥٥٧هـ (١١٦١ ـ ١١٦٢م) .

٢ ـ ذكر البيذق ان هذه المعركة دارت بين الموحدين وبين اعدائهم من ثوار شرق الاندلس وهم ابن مردنيش وابن همشك وانصارهما من النصارى بقيادة مدار الاقرع ، بينما يؤكد ابن عذارى ان المعركة دارت بين الموحدين وبين النصارى المهاجمين لاشبيلية .

٣ ـ ذكر البيذق ان ابن وزير لقى مصرعه مع جملة من استشهد فى هذه المعركة .

لذلك كله نميل الى الاخذ برواية ابن عذارى حيث انه اكثر ثقة كما ان روايته اكثر تمشيا مع مجرى الاحداث المقبلة . فابن وزير لم يقتل فى تلك المعركة بدليل ان اسمه سيتكرر فى السنوات المقبلة ، حيث سيكون له شان كبير فى احداث كثيرة قادمة ، وهذا يتفق مع ما ذكره ابن عذارى ، وبهذا يكون نص ابن عذارى اكثر دقة واولى بالثقة .

ومع ذلك فاننا نعتقد ان النص الوارد فى البيذق عن اشتراك ثوار

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٣٨ .

شرق الاندلس في مهاجمة الموحدين يتفق مع رواية ابن صاحب الصلاة الذى يؤرخ ذلك الحادث بسنة ٥٥٧هـ ، (١١٦١ — ١١٦٢م) ». ولكن ابن صاحب الصلاة وهو مصدر ثقة يؤكد أن المعركة دارت في الموضع المعروف بمرج الرقاد Majorrocal ويقع على بعد نحو اربعة اميال من غرناطة ، وأن قائد الجيش الموحدى الذى قتل هو التهية ابو محمد عبد الله بن أبى حفص ([1]) . وعلى هذا الاساس يصبح المقصود بابن غلى صاحب بطليوس الوارد اسمه بين القتلى عند البيذق هو محمد بن على الحاج الذى كان عبد المؤمن قد ولاه على بطليوس بعد أن استردها الموحدون . وبمقتل ابن الحجام في عام ٥٥٢هـ (١١٥٧ — ١١٥٨م) وتعرض باجة لهجوم نصارى شنترين ، وتعرض بطليوس نفسها لاحتلال البرتغاليين في سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠ — ١١٦١م) لفترة قصيرة ، ثم استشهاد واليها محمد بن على الحاج في سنة ٥٥٧هـ نكون قد أوضحنا بعض الشيء الصورة القاتمة التى كانت عليها بطليوس في تلك الآونة . فلم تكن حاضرة الغرب واهم قواعده فحسب ، وانما كانت من أهم مراكز المناطق الثغرية في الاندلس بأسره ، وأكثر مدن الغرب تعرضا للسقوط .

ولم يمهل الموت عبد المؤمن بن على لتأمين بلاد الغرب ، وتحرير شنترين ، فقد مرض مرض الموت بعد ايام قليلة من حلوله برباط الفتح ، « ولما تمادى المرض ، امر امير المؤمنين رضى الله عنه باسقاط محمد الذى كان ولى العهد من الخطبة يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة من العلم المؤرخ » ([2]) ، لانه علم بان ابنه محمدا يقبل على شرب الخمر مما يجعله يخرج مخمورا امام الناس ، فيرتكب من الاعمال ما يشينه ويشين اباه ، وفى ذلك يقول صاحب المعجب : « فأبى تمام هذا الامر لمحمد هذا ما كان عليه من امور لاتصلح معها الخلافة من ادمان شرب الخمر ، واختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس . ويقال انه

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ١٩٢ .
(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٢٢١ .

مع هذا كان به ضرب من الجذام ، فالله أعلم » (١) . وقد طلب عبد المؤمن من ولده ابى حفص ان يبذل فصارى جهده لاخذ البيعة لاخيه الاصغر ابى يعقوب ، ثم ما لبث أن تمكن المرض من عبد المؤمن بن على ، فتوفى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣م) (٢) .

وبويع للامير ابى يعقوب يوسف فى مدينة سلا ، ثم رحل الى مراكش حيث نزل بدار الخلافة ، وولى اخاه أبا حفص الشئون السلطانية والحجابة (٣) .

ب ــ الصراع بين البرتغاليين والليونيين حول بطليوس :

فى خلافة ابى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بدات مملكة البرتغال سلسلة جديدة من الغزوات المنظمة على بلاد غرب الاندلس ، وكان الملك الفونسو انريكث قد استعان بفارس مغامر شجاع لايبالى باى مبادىء او قيم فى سبيل تحقيق ماربه ، هذا الفارس هو خيرالدو سيمبا فور Geraldo Sem Pavor اى خيرالدو الشجاع ، وتطلق عليه المصادر العربية كالبيان المغرب والمن بالامامة وكتاب العبر اسم « العلج جرانده الجليقى » . وحياة خيرالدو تذكرنا الى حد كبير بحياة السيد الكنبيطور ، ذلك الفارس المرتزق المغامر الذى كان يعمل فى خدمة المسيحيين والمسلمين على السواء ، فقد كان خيرالدو على حد تعبير الاستاذ عنان (٤) ، قاطع طريق او رئيس عصابة للسلب والنهب ، وجد مجالا خصبا لنشاطه فى الظروف التى كانت سائدة انذاك فى بلاد الغرب الاندلسية » ولذلك فان البرتغاليين يطلقون عليه اسم « السيد البرتغالى »

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٣٦ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٣٩٤ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٥٩ ــ ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالامامة ، ص ٢٣٢ .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٢٦ .

لتشابه أعماله مع أعمال السيد الكنبيطور : فجرانده اكتسح أراضى الاسلام فى الغرب ، وعاث فسادا ونهبا وقتلا ، والسيد الكنبيطور اجتاح بلنسية وطغى وبغى وأحرق قاضيها ، وكلاهما كان يشجعه ملك مسيحى ، فالفونسو السادس كان وراء أعمال السيد التخريبية ، والفونسو انريكث كان وراء جرانده يساعده ويمده بالاموال والمؤن والرجال لقتال المسلمين

وفى ذلك يقول ابن عذارى : « كان هذا الكلب جرانده صاحب جراة ، فلما عاين ابن الرنك نجدته وتيقظه لغدر البلاد والحصون أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين » (١) . كذلك كان رأى ابن صاحب الصلاة فيه اذ يقول : « وكان أدفونش بن الرنك (Alfonso Enriquez) الغادر الجليقى ، صاحب قلمرية لعنه الله ، قد عاين من نجدة هذا الكلب جراندة وتيقظه لغدر البلاد والحصون ما أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين فى الثغور بأوجاله » (٢) . وقد وصف لنا كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى وابن خلدون الطريقة التى كان يستولى بها جرانده على مدن غرب الاندلس ، فكان هذا المغامر البرتغالى ينتقى أشد الايام برودة وظلاما لينفذ فيها خططه العسكرية القائمة على الغدر والتسلل فى الخفاء ، فكان قد أعد آلات من السلالم المتخذة من العيدان الطويلة لتساعده على تسلق أسوار المدن ، فاذا ما تمكن رجاله من ارتقاء السور الى ذروته ، نزلوا الى باب المدينة ، وهاجموا حاميتها ، وفتحوا الباب لعسكر البرتغاليين الذين كانوا يصيحون بلغتهم البرتغالية صيحات مخيفة قوية عند اقتحامهم المدن الاسلامية تمهيدا للاستيلاء عليها واستباحتها ، « فغدر جراندة العلج المذكور ـ لعنه الله ـ أولا من غدراته مدينة ترجالة (Trujillo) سنة ستين (٥٦٠هـ / ١١٦٤م) ثم مدينة يابرة (Evora) فى ذى القعدة من السنة ، وباعها من النصارى ، ثم غدر مدينة قاصرش (Caceres) فى صفر سنة احدى وستين ، ثم غدر حصن منتانجش (Montanchez) فى جمادى الآخرة من السنة ، ثم غدر

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٨ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

حصن جلمانية (Jurumenha) على مقربة من بطليوس ، وسكنه بجملته الذميمة يفاتن بطليوس ، ويؤذى المسلمين فيها حتى مكن سيف الخليفة منه » (١) . ونستنتج من هذا النص أن نفوذ جراندة بلغ حدا كبيرا ، فقد استولى على ترجاله ويابره فى عام ٥٦٠هـ ، الاولى فى جمادى الاولى من هذا العام ، والثانية فى ذى القعدة منه (٢) ، كما تمكن من الاستيلاء على قاصرش فى صفر سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) ، ثم استولى على حصن منتانجش فى جمادى الثانية من عام ٥٦١هـ (١١٦٦م) ، وكذلك على جلمانية وحصن شيربه Serpa الواقع جنوبى بطليوس (٣) .

وكانت كل تلك المدن والحصون فى نظر جرانده وابن الرنك (الفونسو انريكث بمثابة القنطرة التى يعبرون عليها الى بطليوس ، اهم قواعد الغرب فى الاندلس ، فكانت بطليوس الهدف الرئيسى الذى يهدفون اليه . وقد عبر ابن عذارى عن هذه الرغبة بوضوح فى نصه السابق ، كما عبر عنه ابن صاحب الصلاة بقوله : « ثم غدر حصن جلمانية على مقربة من بطليوس واسكنه بجملته الذميمة يفاتن منه بطليوس ، يؤذى المسلمين فيها ، حتى مكن الله سيف امير المؤمنين بن امير المؤمنين منه على ماأذكره بعد هذا فى موضع ذكره ، ثم غدر مدينة بطليوس » (٤) . ولهذا السبب تم ارسال حملة موحدية كبيرة قوامها خمس مائة فارس الى بطليوس فى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤ — ١١٦٥م) لحماية صيفتها ، « ويسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة كبيرة من النصارى أهل شنترين ، اعادهـا الله ، وهزموهم وغنموهم ، واستأصلوهم قتلا وسبيا ، فكان ذلك عنوان المفتح لما يذكر بعد فى هذه الغزوة ... » (٥) .

ندب أبو يعقوب يوسف فى أواخر سنة ٥٦٣هـ (١١٦٨م) أخاه

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٨ ، ٧٩
(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .
(٣) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر السابق ، ص ٣٧٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٧٤ .
(٥) نفسه ، ص ٢٧٠ .

ابا اسحاق ابراهيم ليكون واليا على قرطبة التى كانت بدون وال منـذ ان تركها واليها السابق السيد ابو سعيد عائدا الى مراكش ، وكان عبور ابى اسحاق فاتحة خير للجهاد ضد مملكة البرتغال الناشئة على حساب اراضى غرب الاندلس .

ثم وقع فى اواخر عام ٥٦٣هـ (١١٦٧م) حادث كان له بالغ الاثر - كما سيتضح فيما بعد - فى سياسة مملكة البرتغال تجاه بطليوس ، فقد وفد فرنانده (وهو فرناندو رودريجث Fernando Rodriguez صاحب ترجالة) صهر فرنانده البيبوج ملك ليون (وهو فرناندو الثانى الملقب بالسليطن) وزوج اخته بنت الفونسو السابع ريموندس ، وفد مع اخوته الى اشبيلية « راغبا ان يكون خديما لامير المؤمنين بن امير المؤمنين - ايدهم الله - منابذا لشيعته الكافرين ، فاستاذن له الموحدون الذين باشبيلية حضرة امير المؤمنين بمراكش ... (١) » . وقد احسن الخليفة ابو يعقوب استقباله بعد ان اذن له بالقدوم اليه باصحابه واخوته ، واقام فرنانده رودريجث هناك مدة خمسة شهور ، نعم خلالها بجزيل العطاء ، وبالغ الحفاوة ، مما اثر فى نفسه كل التأثير الى حد انه « كاد ان يسلم ، وعاهد الله فى نصح الامر بالخدمة المجدة واستسلم ... وضمن عن نفسه عن ثغور بلاد الموحدين ، وأن يكون ردءا لهم ، حليفا للمسلمين (٢) » ، ثم عاد « فرنانده رايس النصرانى » ، كما يسميه ابن صاحب الصلاة الى بلاده بعد أن أمر الخليفة أبو يعقوب بأن يشمله الموحدون بكل الرعاية .

وقد ترتب على هذه الزيارة التى قام بها فرنانده رايس (رودريجث) أن تم عقد هدنة بين فرنانده الثانى البيبوج ملك ليون وصهر فرنانده

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٦٩ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٧١ .

رودريجث وبين أبى يعقوب يوسف خليفة الموحدين ، وتعهد فرناندە الثانى بأن يكون مع الموحدين عونا لهم بعسكره على أعدائهم .

واذا أردنا ان نلم بكافة الخلفيات لهذا الوضع السياسى ، فيجب أن نوضح ان العلاقة التى كانت نربط بين ملك ليون فرناندە الثانى وبين ملك البرتغال الفونسو انريكث ، كانت متوترة للغاية ، رغم أواصر القرابة والمصاهرة التى كانت تربط بينهما ، ففرناندە الثانى ملك ليون كان متزوجا من أراكه Urraca بنت ملك البرتغال ، ولكن فرناندە الثانى كان دائم الطمع فى أراضى مملكة البرتغال الناشئة ، الى جانب حسده لملكها الفونسو انريكث لما احرزه من انتصارات عديدة على الموحدين فى بلاد غرب الاندلس . ثم ان فرناندە الثانى كان يدرك الاهداف البعيدة من وراء هجمات الفونسو انريكث على غرب الاندلس ، وهى الاستيلاء على مدينة بطليوس التى كان ينظر اليها ملك ليون على انها ستصبح من خاصة ممتلكاته فى حالة اذا ما استردها من أيدى المسلمين ، ولذلك فقد عمد الى تحصين مدينة السبطاط المسماة بثيوداد رودريجو (١) Ciudad Rodrigo لتكون قاعدة له يغير منها على مملكة البرتغال .

وكان أول مظاهر التحالف الذى تم بين دولة الموحدين ومملكة ليون قيام الموحدين بتزويد فرناندە الثانى بقوة كبيرة من عسكر المسلمين لقتال القمط نونة (نونيو بيريث دى لارا) حاكم طليطلة (٢) . وقد

---

(١) عرفت مدينة Ciudad Rodrigo بالقشتالية القديمة بـ Cibdad ومنها حرفت التسمية العربية السبطاط ، فقد كانت اغلب المصادر العربية تلقب ملك ليون بصاحب السبطاط ، وأحيانا بصاحب السبطاط وآبلة ولبون وسمورة .

(٢) انجب الفونسو السابع ريموندس من البنين كلا من شانجه الثالث اكبر اولاده وكان ملكا على طليطلة ، وفرناندە الثانى الذى ولى مملكة ليون وعرفته المصادر العربية بالببوج ، أما شانجة الثالث

=

اشترك مجموعة كبيرة من كبار قادة الموحدين فى القتال الى جانب ملك ليون ضد خصومه ، ومن هؤلاء القادة ابو العلاء بن عزون ، والحافظ ابو على عمر بن تمصيلت ، وقد حاربوا معه حتى فصلوا حدود اشتوريش ، ثم عادوا وقد كسبوا صداقة هذا الملك الذى تعهد بمساعدة الموحدين ضد اعدائهم ، وكان ذلك الوعد هو الذى حمى مدينة بطليوس من بطش البرتغاليين فى حملتهم سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) .

= ملك طليطلة فقد كان رشح للحكم اثناء حياته ولده الطفل الصغير ، وبدلا من ان يسند نيابة الحكم لفرناندو الثانى ملك ليون وعم الطفل ، اسندها لاحد افراد اسرة كاسترو ، مما اثار حفيظة اسرة دى لارا التى التجأت الى فرناندو الثانى ليقوم بحماية ابن اخيه (الطفل) من آل كاسترو . ولم يتردد فرناندو الثانى فى احتلال معظم قشتالة ، واعلن الوصاية على ابن اخيه فى سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) . ولكن الامور لم تستقر بينه وبين اسرة لارا ، وبعد سلسلةمن المفاوضات التى تلتها حروب ، نشبت حرب جديدة قتل فيها المانريش دى لارا سنة ٥٦٠هـ (١١٦٤م) مما دفع اخاه القمط نونة الى اعلان نفسه وصيا على عرش قشتالة ، واستولى بقواته عنوة على طليطلة الحاضرة مناديا بالملك الطفل ، فاضطر فرناندو الثانى الى الالتجاء الى الموحدين لمحاربة نونة (انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٠ ، هامش ٥ - يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٧١) . ويعبر ابن صاحب الصلاة عن ذلك بقوله : « وذكر انه كان بينه (اى بين فرناندو الثانى ملك ليون) وبين القمط نونة ظئر ابن اخيه اذفونش الصغير صاحب طليطلة - خربها الله - فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم ، واكد الرغبة مع صلحه فى عسكر من عساكر الموحدين ، اعزهم الله ، يبعث به اليه الى مدينته بالسبطاط ليقاتل بهم نونة القمط المنازع له عن ابن اخيه فى بلاده ، فامر له امير المؤمنين - رضى الله عنه - بعسكر اشبيلية ، فمشى عليه مقدما الشيخ الناصح الموحد ابو العلاء بن عزون ، والحافظ ابو على بن تمصيلت ، و الحافظ ابو عمران موسى بن حمو ، ووصلوا اليه بالعسكر المؤيد الى بلاده ، وقاتلوا اعداءه ببلاد قشتيلة ، ووصلوا الى اقصى نظره ببلده اشتريش ، وغزوا من حاربه ، وسالموا من سالمه ، واقاموا عنده فى هذه الغزوة خمسة اشهر ، ثم انصرفوا عنه سالمين مأجورين ، وقد اغتبط بنصرهم ، وارتبط للصلح الذى ربطه بأمرهم .. » (انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١) .

جـ - سقوط بطليوس في ايدى البرتغاليين سنة ٥٦٤هـ واستنقاذها على ايدى الليونيين في نفس السنة :

سبق ان ذكرنا ان الفونسو انريكث اصبح قريبا من بطليوس اذ استطاع عن طريق حليفه الفارس المغامر جرانده الجليقى (خير الدو سمبافور) ان يستولى على معظم قواعد الغرب الاسلامية المحيطة ببطليوس ، بل ان استيلاءه على حصن جلمانية اصبح يعرض بطليوس للخطر . وكان الفونسو انريكث قد وضع خطته للاستيلاء على بطليوس وقد رأيناه يحاول الاستيلاء عليها فى سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠ - ١١٦١م) ، ويشير الاستاذ عنان الى الاوضاع الداخلية فى بطليوس بانه لا يعرف الظروف التى كانت عليها بطليوس فى تلك السنة ، وانه ليس متاكدا اذا ما كان ابن الحجام مايزال يتولاها ام ان واليا آخر قد اسندت اليه ولايتها (١) .

والحقيقة ، كما سبق ان اوضحنا ، ان بطليوس كان يتولاها منذ ان استردها الموحدون وال يقال له محمد بن على الحاج ، الذى استشهد فى سنة ٥٧٧هـ (١١٦١م) وظلت بطليوس غاية الفونسو انريكث ، ومنتهى امله ، بعد ان فشل فى الاحتفاظ بها لفترة طويلة ، وآثر ان ينتظر الى فرصة مواتية تمكنه من الظفر بها .

وجاءت اللحظة التى كان ينتظرها الفونسو انريكث بعد ان نجح فى الاستيلاء على ترجاله ويابرة سنة ٥٦٠هـ ، وقاصرش فى صفر سنة ٥٦١هـ وحصن منتانجش فى جمادى الاولى سنة ٥٦١هـ ، وحصن شيربه فى نفس الشهر ، وحصن جلمانية الواقع على مقربة من بطليوس فى تاريخ لاحق ، وكان قد مضى على استيلائه على الاشبونة وشنترين نحو

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

عشرين عاما ، فبدا له ان مهمته قد اصبحت سهلة ميسورة ، وان الامور قد تهيأت تماما لتنفيذ خطته . وكان يتولى بطليوس فى تلك الاثناء واليها الجديد ابو على عمر بن تمصيلت (١) » الذى ولى امرها بعد مقتل ابن على الحاج . وما كاد ابن تمصيلت يعاين عظم جيوش جرانده الجليقى وهى مقبلة على بطليوس فى سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) بهدف الاستيلاء عليها ، حتى بادر بالامتناع بقصبتها الحصينة ، وارسل يستنجد بالموحدين ، موضحا لهم الوضع الحرج الذى تجتازه المدينة ، خاصة بعد وصول الملك الفونسو انريكث بنفسه على راس قواته ، واشتراكه مع جرانده فى التضييق على الموحدين فى القصبة ، واقتحام بعض قواته للمدينة نفسها .

وكان الخليفة الموحدى ابو يعقوب يوسف على علم كامل بخطورة الموقف فى غرب الاندلس منذ ان بلغة سقوط ترجالة وقاصرش وجلمانية فى يد الملك البرتغالى ، ولذلك فقد قرر ارسال جيوشه الى غرب الاندلس لوضع حد لهذا العيث فى تلك المنطقة الثغرية الحساسة من بلاد غرب الاندلس ، « وقصد العمل فى ذلك بنية الجهاد لله عز وجل ، واشفاقا على المسلمين ، ودفاعا عن الدين ، حين راى العدو قد فغر عليها فما ،

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ . وكان ابو على بن تمصيلت من بين الحفاظ الذين اصطحبهم ابو عبد الله بن ابى ابراهيم بن الشيخ ابى ابراهيم صاحب المهدى بن تومرت الى اشبيلية حين عين واليا عليها ، وكان يصحب ابن تمصيلت من الحفاظ : عبد الله بن يعقوب ، ويعيش الجدميوى ، وابو العيش من اهل كومية ، ومحمد بن عمران وابن تيقشليت ، وكان ابن تمصيلت هذا من كبار قادة الموحدين ، وقد ظل يتنقل بين الاندلس والحضرة العلية فى خدمة الدولة ، ثم نصب واليا على بطليوس بعد عام ٥٦١هـ (١١٦٦م) وظل واليا عليها حتى اقدم الفونسو انريكث على محاصرته ومن معه من الموحدين داخل القصبة . ثم تقلد ولاية باجة فى سنة ٥٧٠هـ بعد ان تولى الموحدون ترميمها ، وكان ابن تمصيلت احد القادة الذين شاركوا فى مقاتلة القمط نونة (دى لارا) تاييدا لفرنانده الثانى كما سبق ان اوضحنا (انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٩) .

واسال دموع اهلها دما ، فنظر عسكر ضخم ، مبارك شهم ، اختاره من الموحدين ، ووجهه صحبة الشيخ المرحوم ابى حفص عمر بن يحيى الى قرطبة تقدمة منه لما امله فى نفسه من جواز الموحدين معه ... وتيمن اهل الاندلس بوصوله وحلاله ..» (١) ، وقد كان العامل الرئيسى الذى دفع خليفة الموحدين الى الاهتمام بغرب الاندلس وصول خبر هجوم البرتغاليين على بطليوس وحصارهم لابن تمصيلت ومن معه من الموحدين فى القصبة (٢) . ويسوق ابن صاحب الصلاة رواية على لسان ابى محمد سيدراى بن وزير فى نبرير تدخل فوات الموحدين ، جاء فيها : « كان السبب فى تعجيل حركة الشيخ المرحوم ابى حفص الى الاندلس بالعسكر المبارك من حضرة مراكش وصول الخبر بغدر اللعين جرانده الجليقى بطليوس ، وتملك ابن الرنك الغادر صاحب قلمرية لها ، وحصر الموحدين الذين فيها قصبتها مع حافظهم ابى على عمر بن تمصيلت ، وذلك فى شهر رجب الفرد من عام اربعة وستين وخمس مائة المؤرخ به (ابريل ١١٦٩) وانهم فى ضيقة من الحصار ، وتحت اجل من الكفار » (٣) . ويذكر ابن عذارى ان الخليفة ابا يعقوب يوسف امر بضرب الطبول والخروج من مراكش الى الاندلس بمجرد ان علم بحصار البرتغاليين لبطليوس وواليها ورجاله من الموحدين ، ويعبر عن ذلك بقوله : « وركب من فوره ، فخرج من مراكش ونزل وادى تنسيفت عازما على الغزو الى الاندلس ، فأقام به ثلاثة ايام على هذه النية ، فاجتمع رأى الموحدين ان يتقدم ابو حفص المذكور بالعسكر » (٤) . ويستطرد ابن عذارى قائلا ان الخليفة « خاطب اهل الاندلس برسالة كريمة من انشاء ابى الحسن ابن عياش شرح فيها الاحوال المعربة عن الآمال ، فكان ابو حفص على

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٧٩ ، وقارن : ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٤ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٧٥ .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠

ما ذكرناه ، وكانت حركته فى شهر ربيع الآخر من سنة أربع وستين ،وهو تاريخ الكتب المذكور » (١) . ومن هذا النص يتضح ان ابا حفص قد عبر الى الاندلس بعد تلقيه هذه الرسالة اى فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨ - ١١٦٩م) وهذا يعنى ان هذا الجيش الموحدى قد اعد للعبور الى الاندلس ، وانه قد جاز بالفعل قبل الهجوم البرتغالى على بطليوس بنحو ثلاثة شهور . ويعلل الاستاذ محمد عبد الله عنان ذلك بقوله : « ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، ويطمئن اهل الاندلس بوصوله ، وانه فوجىء بحوادث بطليوس اثناء وجوده باشبيلية » (٢) . ويورد ابن صاحب الصلاة (٣) نص رسالة الخليفة الموحدى ، الى اهل الاندلس ، كاملة ، ويؤكد ان انصراف الجيوش الموحدين من المغرب وعبورها الى الاندلس قد تم فى شهر ربيع الآخر من عام ٥٦٤هـ (١١٦٩م) ، وبهذا يتأكد لدينا ان الموحدين قد عبروا الى الاندلس فى هذا التاريخ بناء على الامر الصادر من الخليفة يوسف الذى اراد ان يتفرغ للاهتمام بالاندلس بعد ان قضى على الفتن التى كانت تؤرقه فى المغرب ، وقد استقرت هذه القوات الموحدية بقيادة الشيخ ابى حفص فى اشبيلية ، ولم تتحرك من اشبيلية الى بطلوس الا بعد ما يقرب من ثلاثة شهور .

غير ان تسلسل الاحداث لا يستقيم بهذه الصورة ، فكيف يستولى ملك البرتغال على مدينة بطليوس ويحاصر قصبتها فى شهر رجب سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) ، ثم يبلغ الخليفة خبر غدر البرتغاليين ببطليوس فى وقت كان مشغولا فيه ببعض الفتن ، فيتباطأ فى توجيه النجدة الى ان يقضى على الفتن ثم يرسل جيشا من المصامدة يجوز الى الاندلس فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ اى قبل شهر رجب الذى حوصرت فيه قصبة بطليوس بنحو ثلاثة اشهر ؟ فكيف يصل الى علمه واقعة حدثت بعد

---

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٤ .

(٣) راجع نص الرسالة فى كتاب تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٧ .

وصول قواته الى الاندلس بثلاثة اشهر ؟ ونعتقد ان هناك ثمة خطأ فى تاريخ الحصار البرتغالى لقصبة بطليوس ، ونرجح ان يكون التاريخ الصحيح هو شهر رجب من سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧ - ١١٦٨م) بدلا من سنة ٥٦٤هـ (١١٦٩م) ، وبهذا يمكن تفسير وصول الحملة التى ارسلها خليفة الموحدين الى الاندلس متأخرة ، بسبب الفتن التى شغلته عن الجهاد فى الاندلس ، ويؤكد رأينا هذا قول ابن صاحب الصلاة : « وكان من يمن هذا العسكر المبارك (الذى ارسله الخليفة) انه لما وصل اشبيلية سالما صحبة الشيخ المرحوم ابى حفص بينما هو عازم على الحركة لغوث المسلمين ودفاع العدو الغادر ابن الرنك - لعنه الله - عن غلبته على مدينة بطليوس وحمايته للموحدين المحصورين بقصبتها ، وهو قد أعد واستعد لذلك .. » ([1]) . ونستدل من هذا النص على ان بطليوس كانت قد احتلت بالفعل وان قوات البرتغاليين كانت تحاصر بطليوس منذ فترة طويلة .

وعلى الرغم من احكام الحصار البرتغالى حول قصبة بطليوس ، فقد كان فى وسع ابن تمصليت المتنع بالقصبة الصمود أمام حصار طويل الامد ، بسبب حصانة القصبة وصعوبة اقتحامها ، وكان يحدوه الامل فى ان تصله نجدات من اشبيلية فى وقت قريب . ومن الغريب ان النجدة التى كان يترقبها ابن تمصليت وصلت بالفعل ، ولكن ليس من ابناء ملته وجنسه وانما من ملك ليون ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « اذا البشير قد وصل معلما بأن الببوج بن اذفونش المعروف بالسليطن صاحب مدينة السبطاط وآبلة ولبون وسمورة قد وصل بخيله ورجاله حاميا للمسلمين ، ودافعا لضيقة الكافرين عن مدينة بطليوس طاعة منه الى الخليفة » ([2]) .

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالإمامة ، ص ٣٨٠ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ .

وقبل ان نسترسل فى وصف بقية الاحداث ، علينا ان نفسر موقف فرنانده الثانى ملك ليون من البرتغاليين الذين كانوا يحاصرون بطليوس، ولقد سبق ان اوضحنا ان تنافسا شديدا بين الملكين فرنانده الثانى الليونى والفونسو انريكث البرتغالى كان قائما بينهما بسبب تمسك فرنانده الثانى بدعوى سيادته على المملكة البرتغالية الناشئة بحجة وراثته لها عن والده القيصر الفونسو السابع ريموندس ، وبطبيعة الحال رفض الفونسو انريكث هذه الدعوى من قبل ملك ليون ، وعزم على التصدى لاطماع فرنانده فى بلاده ، لذلك فقد بادر بالهجوم على مدينة رودريجو (السبطاط) التى كان فرنانده الثانى قد انشأها لتكون منطلقا لشن غاراته على البرتغال . ودارت بالفعل معركة عنيفة بين الجانبين ، اسفرت عن هزيمة البرتغاليين ووقوع عدد كبير منهم فى اسر الليونيين . وجاء رد الفعل البرتغالى سريعا ، فقد شن الفونسو انريكث هجوما ساحقا على اراضى مملكة ليون ، واستولى فى ٥٦٢هـ (١١٦٧م) على مدينة توى Tuy ثم على مدينتى لمبا وترونيو ، ووضع فيها حاميات برتغالية ، وبرر سلوكه ازاء مملكة لبون بأن تلك المدن التى استولى عليها كانت فيما مضى ملكا لامة الملكة تيريسا ، تلقتها عن والدها الفونسو السادس كهدية لزواجها . ولما كان شانجه الثالث ملك قشتالة وشقيق فرنانده الثانى ملك ليون قد عقد اتفاقا مع اخيه عقب وفاة والدهما الفونسو ريموندس ، يقضى بتقسيم اراضى الاندلس (اسبانيا الاسلامية) الى منطقتى نفوذ ، يختص كل منهما بمنطقة ، فكان من نصيب فرنانده الثانى ملك ليون منطقة الغرب ، وعلى وجه التحديد المنطقة الممتدة من لبلة حتى اشبونة بما فيها منتانجش وماردة وبطليوس ويابرة وشلب بحصونها وقلاعها ، وكذلك نصف مدينة اشبيلية . اما ملك قشتالة ففى حالة استرداد الاندلس من المسلمين تؤول اليه بقية اراضى المسلمين فى الاندلس . لهذا فان اعتداء الفونسو انريكث على بطليوس فى عام ٥٦٤هـ (١١٦٨ / ١١٦٩م) كان يشكل فى نظر فرنانده الثانى اعتداء على ممتلكاته الشخصية ، هذا من جهة ، وينبغى الا نغفل من جهة اخرى الاتفاقية التى عقدت بين ابى يعقوب يوسف وبين فرنانده الثانى ، وبمقتضاها اشتركت قوات الموحدين

مع القوات الليونية [1] فى محاربة القمط نونة (نونيو بيريث دى لارا) حاكم طليطلة وعدو فرنانده ، وقطع فرنانده عهدا على نفسه بعد تلك الواقعة أن يساعد الموحدين ضد اعدائهم .

ويضاف الى ما سبق ان والى بطليوس ابا على عمر بن تمصيلت كان احد قادة الموحدين الذين اشتركوا مع فرنانده الثانى فى قتال عدوه دى لارا ، ولذلك فان خروج فرنانده الثانى الى بطليوس لتخليصها من الاحتلال البرتغالى ورفع الحصار عن واليها ابن تمصيلت كان نوعا من رد الجميل له باعتبار انه كان ممن اسدوا له معونة عسكرية من قبل . وكانت عيون فرنانده تطالع تحركات قوات الفونسو انريكث عن كثب ، فما كادت قوات الاخير تقتحم مدينة بطليوس وتحكم الحصار على قصبتها حتى بادرت قوات فرنانده الثانى بالخروج الى بطليوس لاستنقاذها . بل ان فرنانده بادر بارسال أحد جواسيسه الى ابن تمصيلت فى القصبة والى سكان بطليوس يطمئنهم بأنه قادم لنجدتهم ، كما يطلب من ابن تمصيلت ان يدله على أيسر الوسائل التى تمكنه من دخول المدينة . فأرسل ابن تمصيلت مجموعة من رجاله الى موضع فى سور القصبة لم يفطن اليه البرتغاليون ، وانتظر هؤلاء الرجال هنالك الى أن تحققوا من قدوم اللبونيين ، وعندئذ « نقب الحائط بابا فى قصبة بطلبوس من جهة خفية » ، وخرجت قوة من الموحدين الى أقرب ابواب المدينة ففتحوه ، فاندفع الليونيون داخل المدينة ، ودارت فى شوارعها موقعة عنيفة اشتركت فيها قوات الموحدين . ولما بدت معالم الهزيمة على البرتغاليين آثر الفونسو انريكث ان يولى الادبار وينسحب برجاله من المدينة ، « وخرجوا بجمعهم الى باب قريب من ابواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه العسكر المذكور ، فتقاتلوا بداخل المدينة مع اصحاب ابن الرنك والموحدون المحصورون يعينون اصحاب البيبوج (فرنانده) وهم قد سووا الصفوف ، ولبسوا الدروع ، فرأى ابن الرنك من تصميم الموحدين

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص٣٧٠ .

واصحابهم فى قصبتهم والاقدام عليهم ، واصحاب البيبوج يجدون مع المسلمين على عسكر ابن الرنك حتى انهزم ،وفر مهزوما([1])» فى شعبان سنة ٥٦٤هـ . ولكن الامور لم تمر بسلام بالنسبة لالفونسو انريكث ، فقد اصيب بكارثة اثناء انسحابه ، ففى اثناء تراجعه من المدينة مذعورا « كان عمود باب المدينة ممدودا ، وقد أعده الله من جنده مغدودا ، فانضغط اللعين ابن الرنك فى الخروج ، فكسر عمود الباب فخذه اليمنى ، فسقط مغشيا عليه ([2]) » عندئذ حمله أصحابه ، وهو فاقد الوعى الى بليدة قاية Caia الواقعة شمال بطليوس ([3]) ، ولكن قوات فرناندو الثانى البيبوج لم تتركه يفر بسلام ، فقد طاردته واسرته مع عدد كبير من انصاره ، وساقوه اسيرا اليه ، مقيدا باغلال من الحديد ، ثم عامله فيما بعد بمنتهى الكرم والشهامة ، وعالج جراحه حتى برأ ، ثم اطلقه وسرحه الى بلده قلمرية مهزوما بعد ان وعده الفونسو انريكث بان يعيد اليه سائر المدن والمناطق التى كان قد انتزعها منه ([4]) . ويذكر كل من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى ان ذلك الكسر قد اثر على الفونسو انريكث ما تبقى له من عمر ، فقد شلت ساقه ، ولم يعد يستطيع بعد ذلك اليوم ان يركب الخيل . ([5]) . وبينما يؤرخ ابن صاحب الصلاة هذه الهزيمة التى تعرض لها الفونسو انريكث بسنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م)

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٠ . وقد ورد النص فى تاريخ المن بالامامة مفصلا ، فقد اشار الى اشتراك الموحدين بالقصبة فى القتال ، فقال : « وهم قد سووا صفوفهم ، ولبسوا الدروع المحكمات ، وائتلقت على رؤوسهم البيضات ، وحصنت اعضاءهم السواعد والساقات » (ابن صاحب الصلاة ، ص ٣٨١) .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٨٠ . وقاية بليدة تقع غربى بطليوس على مقربة منها .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٨ .

(٥) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٨٠ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨١ .

الا ان فلوريث Florez يحدد تاريخ الهزيمة بشهر يونيو ١١٦٩م (أى اوائل عام ٥٦٥هـ) (١) . وتسوق المدونة الاولى لتاريخ اسبانيا العام رواية شبيهة بما ورد فى المصادر العربية ، جاء فيها « مضى بعد ذلك (يقصد الفونسو انريكث ملك البرتغال) نحو بطليوس التى تدخل فى نصيب الملك دون فرنانده وذلك فى التفسيم المتفق عليه لاراضى المسلمين عند استردادها » .

«Badaioç auie caydo al rey don Fernando en partida de los terminos que eran aun de conquerir de Moros».

ثم يقول : « وبلغ خبر دخول البرتغاليين بطليوس الى فرنانده ملك ليون ، فبادر بالخروج على راس قواته ، واشتبك داخل بطليوس مع الفونسو انريكث ملك البرتغال وتغلب عليه ، فانسحبت قوات البرتغاليين بينما كانت قوات المسلمين محصورة فى برج . وعند مغادرة الفونسو انريكث باب بطليوس اصطدم بعمود حديدى كان يغلق به الباب ، فاصيب فخذه ، ولم يستطع ان يمتطى جواده ، فسقط على الارض ، ثم وقع اسيرا بعد ذلك ، ومثل بين يدى الملك دون فرنانده ، فاحسن استقباله ، وتلطف معه .

(et el rey don Fernando reçibiol bien et con piedad)

واجلسه معه فى منصته الملكية ... ومنذ ذلك الحين لم يعد الملك الفونسو ملك البرتغال قادرا على استخدام الخيل بسبب ساقه التى اصيبت عند انسحابه من بطليوس

(El dalli adelant este rey don Alffonsso de Portogal non pudo usar de fecho de caualleria por razon de la pierna quel crebara en la sallida de la puerta de Badaioç como dixiemos).

ثم خرج اليه المسلمون المحصورون فى البرج المشار اليه ، وسلموه قصرهم

---

(١) Florez, la Españez, Sagrada, t. XXII, PP. 95, 96.

وقطنبة المدينة ، وقد اكرمهم الملك واستوثق منهم ، واقام عليهم رجلا يدعى ابن هابل أو ابن حابل Abenhabel (لعله الحافظ) وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المسلمين فى المدينة » ([1]) .

اما جرانده فقد فر « الى موضعه حتى مكن الله منه سيف امير المؤمنين بن أمير المؤمنين » ([2]) ، وفى رواية اخرى انه اسر مع الفونسو انريكث ، ثم اطلق سراحه مع الفونسو انريكث ([3]) ، ونحن نميل الى الاخذ بنص ابن صاحب الصلاة . ويذكر أشباخ نقلا عن الاسقف رودريجو خيمنث دى رادا ان فرناندو الثانى اقر بعد انتصاره على البرتغاليين ابن حابل Abenhabel واليا على مدينة بطليوس ([4]) ، كما اشارت المدونة العامة لتاريخ اسبانيا الى نفس الاسم ([5]) ،ولكن هذا القول مشكوك فى صحته لسببين : الاول ان فرناندو الثانى لم تكن له اى سلطة او سيادة على بطليوس حتى يقلد عليها واليا دون آخر ، فبطليوس كان يتولاها عامل من قبل الموحدين ، ومن المنطقى الا يتدخل فرناندو فى

---

(١) Primera crónica general de España, pp. 675, 676.

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٨٢ . وقد احالتنا ابن صاحب الصلاة فى ذكر تفاصيل سقوط جرانده الجليقى فى يد الخليفة الموحدى الى سفره الثالث المفقود ، ولكننا تمكنا من الاطلاع على تفاصيل ذلك فيما كتبه البيذق وابن عذارى ، وتبين ان جرانده قدم فى سنة ٥٦٩ (١١٧٣م) الى اشبيلية مع اصحابه الادلاء ليعمل فى خدمة الموحدين ، فرحبوا بمقدمه واحسنوا اليه . ولما علم الفونسو انريكث بذلك استاء للغاية ، فراسله سرا ، وأمره بان يغدر بالموحدين فى الوقت المناسب ، فلما علم الموحدون بذلك ارسلوه مكبلا بالاغلال الى سجلماسة ، وحاول جرانده الفرار من احد المراسى ، فقتل واحتزت راسه (البيذق ، اخبار المهدى بن تومرت ، ص ١٠٦٨ ، ١٦٩ ـ ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٠٣ ، ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٨٢ هامش ١) .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٨ .

(٤) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٥) Primera Crónica General de España, p. 676.

ادارتها وولاية امرها ، لذلك نرجح أن فرنانده سلم المدينة الى واليها ابن تمصيلت ورحل (١) . والثانى ان اسم ابن حابل الذى ذكره الاسقف رودريجو أو ورد فى المدونة الاولى العامة لتاريخ اسبانيا تحريف واضح للقب واليها المسلم ابن تمصيلت ، فهناك تشابه واضح فى النطق بين حابل وحافظ وهو لقب ابن تمصيلت .

وايا ما كان الامر فقد وصلت تلك الاخبار السارة الى الشيخ أبى حفص عمر ، وكان فى تلك الاثناء فى طريقه الى بطليوس لانجادها ، فسر للغاية ، وبادر بابلاغ ذلك للخليفة ابى يعقوب يوسف ، بينما قفل فرنانده الثانى عائدا الى بلاده ظافرا .

د - محاولات جرانده الجليقى السيطرة من جديد على بطليوس :

على الرغم من تغلب الليونيين على البرتغاليين فى بطليوس سنة ٥٦٤ فان أطماع هؤلاء فى هذه المدينة لم تنته عند ذلك الحد ، وظل المغامر البرتغالى جرانده الجليقى يامل فى انتهاز اى فرصة للاغارة على بطليوس والاستيلاء عليها ، ولذلك اقام فى حصن جلمانية بالقرب من بطليوس يراقب عن كثب ، ويستطلع احوال الغرب كله . وقد أتاحت له الظروف فرصة الاغارة من جديد على بطليوس ، وذلك عندما أمر الخليفة ابو يعقوب يوسف فى نفس عام ٥٦٤هـ (١١٦٨ - ١١٦٩م) الذى وقعت فيه الغزوة البرتغالية السابقة على تلك المدينة بخلع ابن تمصيلت عن ولايتها وتولية الحافظ ابى يحيى بن الشيخ ابى حفص عليها بدلا عنه . وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة : « وفى هذه السنة، مدة اقامة الشيخ المرحوم ابى حفص بقرطبة توجه ابنه الحافظ الاسنى أبو يحيى واليا الى مدينة بطليوس عن الامر العالى ادامه الله من

---

(١) محمد عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

حافظ عالى ، ناظم لاشتات المعالى ، غيث فى الندى ، ليث على العدى ، حاتم قبيلة ، واسد الفوارس فى غيله ، مع انبساط وجه ونفس، وروضة يانعة فى المجالسة ، وانس وعفاف ووقار ، وحفظ للحديث والعقائد باستظهار ... » (١) .

ومنذ ان ولى الحافظ ابو يحيى بن ابى حفص امر بطليوس وهو يسعى الى زيادة تحصينها ، فشرع فى تحصين اسوارها الى جانب تأمين وصول مياه نهر واديانه اليها ، ولذلك فقد قام بتنفيذ اوامر الخليفة ابى يعقوب التى كانت تقضى بحفر بئر فى داخل قصبة مدينة بطليوس ليتسرب اليها ماء نهر واديانه ، ضمانا لتوفير المياه داخل القصبة فى حالة تعرضها للحصار او الهجوم . ويذكر ابن صاحب الصلاة انه « جد فى حفر البئر المذكور بالعدانين والفعلة فى ذلك وهى المعروفة عند العامة بالقوراجة ، وجلب الماء اليها ، فتحصنت القصبة ، وقويت بها النفوس الآمنة » (٢) . ومما لاشك فيه ان هذه البئر كانت من اهم العوامل التى زادت من حصانة القصبة ومناعتها . ولما كان جراندة مقيما بجلمانية التى كانت ماتزال فى قبضة البرتغاليين فقد كان محيطا

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٢ .
والقوراجة (بالاسبانية Coracha) سور فرعى قصير او ستارة تتصل بالسور الاصلى وتنتهى عادة ببرج برانى يدعم الدفاع عن المنطقة التى يقوم فيها (انظر

Elsayed Abdel Aziz Salem, obras almohades en la muralla almorávide de Sevilla, Revista del Instituto Egipcio de Madrid, vol. XX, 1979 - 1980; p. 179, Robert Ricard, «Couraça et coracha», al - Andalus 1954, pp 149 - 172.

وكان البئر يقام عادة فى تلك المنطقة التى تحميها القوراجة ، وكان سبب استيلاء البرتغاليين على شلب ، فيما بعد ، استحواذهم على القوراجة وتحكمهم فى البئر (انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٢ هامش ١) .

بكل ما يجرى فى بطليوس من تحصينات دفاعية ، ولهذا لم يتردد فى اهتبال تلك الفرصة ، وبادر بالهجوم على احواز بطليوس ، وظل يغير على تلك المناطق المحيطة بالمدينة مدة شهور متتالية ، والتزم والى المدينة اسلوب الدفاع . ويعبر ابن عذارى عن هذه الحوادث بقوله : « وفى مدة اقامته دارت بينه وبين جرانده النصرانى حروب صبر فيها ابو يحيى ، واستبد بدفاع اللعين ، ودام على جهاده شهورا (١) » . ولما لم يجد جرانده نتيجة فعالة من هذه الاغارات المتواصلة ، اعد حملة عسكرية شارك فيها كثير من اهالى شنترين ، وعمل على خداع أهل بطليوس وواليها ، فكمن لهم فى مواضع خفية عن عيونهم ، ثم أغار على احواز مدينة بطليوس فخرج اليه واليها الحافظ ابو يحيى فى قوة من الموحدين ، فتظاهر جرانده بالهزيمة ، وتراجعت قواته ، فظن الموحدون انه انهزم ، واخذ يولى الادبار ، فشجعهم ذلك على مطاردته ، فتمادى جرانده فى خداعه لهم ، فلما ابتعدوا عن المدينة خرجت كمائنه المنصوبة واطبقت عليهم (٢) ، فسحق البرتغاليون فى ذلك اليوم قوات الموحدين ، واسروا عددا كبيرا من كبار رجالهم ، افتدى اكثرهم بماله فيما بعد . وبعد أن اطمأن جرانده الى انتصاره ، انصرف عن بطليوس (٣) . وكان من بين الاسرى من الموحدين رجل يدعى على ابن صاحب الصلاة ، بلغ فداؤه ما يقرب من ثلاث مائة دينار ، (٤) ولم نتوصل الى معرفة اى تفاصيل عن هذا الشخص ، لاننا لم نقف على ترجمة له فى كتب التراجم ، ويعلق الاستاذ الدكتور عبد الهادى التازى على سيرة هذا الرجل فيذكر انه لم يكن بالتاكيد عليا بن محمد بن عبد

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٣ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٩٣ . ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٣ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٩٤ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٨٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، نفس المصدر ، ص ٣٩٣ .

الودود الذى ترجم له ابن الابار فى ترجمته ، لان على بن محمد هـذا كان صاحب الصلاة والخطبة فى مربيطر Murviedro ، وقـد توفى فى سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) أى بعد سبعين عاما مضت على هذه الواقعة . وهناك احتمال فى أن يكون اخا لعبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب كتاب تاريخ المن بالامامة (١) .

ولم تكن هزيمة الموحدين فى أحواز بطليوس آخر الهزائم التى أوقعها بهم جرانده ، فان هذا المغامر البرتغالى لم يكف عن شن غاراته وهجماته على هذه القاعدة الثغرية الهامة ، وساعده على ذلك أن مدينة بطليوس تعرضت فى أوائل عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) ، أى فى أعقـاب سقوطها فى يد الفونسو انريكث عام ٥٦٤هـ لحالة من الجدب ، فقـد ذكر ابن عذارى أن فى هذه السنة ، « فى رجب زاد ضعـف مدينـة بطليوس من القوت » (٢) . ولم يكن الجدب الذى أصـاب بطليوس قاصرا عليها وحدها ، فقد شمل بلاد الاندلس كلها نتيجة الجفاف وتوقف سقوط المطر فى هذا العام ، هذا الى جانـب الزلازل الرهيبـة التى تواصلت عند شروق الشمس وعند مغيبها طوال شهر جمادى الاولى من عام ٥٦٤هـ (١١٦٨م) الى حد أن بعض مدن الاندلس مثل اندوجر Andujar كادت تهبط فى جوف الارض ، وقد بالغ ابن صاحب الصلاة فى وصف هذه الاحوال المؤسفة التى تعرضت لها الاندلس فى ذلك العام فى قوله : « واتصل بعد ذلك بمدينة قرطبة واغرناطة واشبيلية وجميع الاندلس ، فكان الرائى بعينه ، يرى حيطان الديار تضطرب وتميـل حتى الى الارض ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعـالى ، وتهدمت من ذلك مواضع ديار كثيرة فى البلاد المذكورة ، وصوامـع مساجد » (٣) . ومما زاد من محنة بطليوس ترقب جرانده لهـا من

---

(١) نفس المصدر ، ص٣٩٣ ، حاشية ٢ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، كتاب المن بالامامة ، ص ٣٩٧ .

مقر اقامته فى جلمانية وانتهاز الفرصة للاغارة عليها كلما سنحت له ، اذ كان يغير عليها وعلى احوازها أولا بأول كلما وصلت اليها أى امدادات أو مؤن كى نضعف قوتها وتنهار عزائم اهلها ، فيتيسر عليه الاستيلاء عليها ، وظل الامر كذلك حتى ضاق أهل المدينة بهذه الحالة(١) ، وطالبوا اشياخ الموحدين باشبيلية بتزويدهم بالاقوات والميرة ، فاستجاب الموحدون لطلبهم وارسلوا من اشبيلية « ميرة موفورة من الطعام والآلات والمحلات لتحمل اليها ، فاجتمع فى ذلك نحو خمسة آلاف دابة موفورة بما ذكر ، وتقدم عليها الحافظ ابو يحيى زكريا بن على بعسكر اشبيلية ، فوصل بالميرة المذكورة والعسكر الى مقربة من بطليوس » (٢). غير أن جرانده ، وكان يترصد هذه القافلة ، لم يتركها تصل الى مقصدها ، فبادر بمهاجمتها كعادته فى كل مرة تصل فيها الامدادات الى بطليوس . ولم يكن جرانده فى هجومه يعتمد على قواته وحدها ، وانما سانده فى هذا الهجوم الغادر على قافلة الامدادات نصارى شنترين، وكانوا أكثر حلفائه نشاطا وهمة ، فاضطر الموحدون القادمون من اشبيلية وفى مقدمتهم الحافظ ابو يحيى الى القتال يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥هـ (١٠٤٠ مايو ١١٧٠م) دفاعا عن أنفسهم وعن الامدادات والمؤن التى كانت موجهة لانقاذ اهالى بطليوس ، واستمر القتال طوال ساعات النهار ، وانتهى بهزيمة المسلمين ، وقتل وأسر عدد كبير منهم ، واستشهد الحافظ زكريا ، واستولى البرتغاليون على المؤن كلها . ووصل نبأ هذه الكارثة الى الشيخ المرحوم أبى حفص بقرطبة والى الموحدين باشبيلية ، فساءهم ذلك ، وعرفوا بذلك الحضرة العلية » (٣) .

وكان الخليفة ابو يعقوب يوسف يعانى من ضعف ومرض ألم به فى

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٤ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٩٨ .

تلك الآونة ، وكانت آثاره قد بدأت في الظهور عليه منذ أوائل عام ٥٦٥هـ ، مما حال بينه وبين القيام بالغزوة التى كان قد وعد بها الموحدين فى الاندلس فى كتابه الذى أرسله اليهم عندما تعرضت بطليوس للهجوم البرتغالى الاول فى عام ٥٦٤هـ ، ولكن الخليفة أبا يعقوب يوسف رغم مرضه وضعفه لم يتردد فى استنفار الموحدين من كل مكان واستقدام العرب من افريقية وتزويدهم بالعطاء والكساء : فقد كانت الظروف السيئة التى تجتازها الاندلس تدفعه على ضرورة التحرك العسكرى فى الاندلس ومواجهة مصدر الخطورة من ناحيتين : شرق الاندلس وكان يمثل المصدر الاول اذ كان ابن مردنيش لايكف عن الاغارة على أراضى ابراهيم بن همشك منذ ان دخل الاخير فى طاعة الموحدين ، مما دعاه الى الاستنجاد بالخليفة وبالشيخ ابى حفص فى قرطبة المرة اثر المرة . اما المصدر الثانى للخطورة على الاندلس والذى كان يقض مضاجع الموحدين فهو الغرب ، وبالذات بطليوس أهم قواعد الاندلس الثغرية فى الغرب والتى تعرضت للعدوان البرتغالى مرات متعددة .

ولما رأى الخليفة ابو يعقوب يوسف أن الامر قد أصبح لايحتمل التأجيل ، قرر رغم ظروفه الصحية غير المواتية أن يبعث السيد أبا حفص بعساكر الموحدين لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى الذين كانوا معه (١) . فخرج السيد ابو حفص بالفعل من مراكش فى أول ذى القعدة من عام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) وصحبه فى هذه الغزوة أخوه أبو سعيد فى جماعة من كبار شيوخ الموحدين ، وشارك بعض كبار زعماء الاندلس فى هذه الغزوة امثال ابو محمد سيدراى بن وزير وأخوه أبو الحسن ، ثم قسم الموحدون انفسهم ، فكان من نصيب السيد أبى سعيد قيادة الحملة المتجهة الى بطليوس بهدف وضع حد لهجمات المغامر البرتغالى جرانده ، وقد اختار الشيخ ابو سعيد أن يصحبه فى هذه

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٨٤ .

المغزاة كل من أبى محمد سيدراى بن وزير وأبى العلاء بن عزون لمعرفتهما بثغر بطليوس ، بالاضافة الى ثقته الكبيرة فى رجاحة آرائهما (١) .

هـ ـ تطهير أحواز بطليوس من الاحتلال البرتغالى :

فى هذه الاثناء تعرضت بطليوس لخطر جديد اضيف الى الخطر البرتغالى ، فقد كان فرنانده الثانى الببوج ملك ليون الذى سبق ان خلص بطليوس من قبضة الفونسو انريكث قد قرر الاستيلاء على هذه المدينة الهامة خوفا عليها من اطماع ملك البرتغال ، لاسيما بعد ان عاين اصرار جراندة وسيده الفونسو انريكث على الاستيلاء عليها ، فأثار ذلك مخاوف فرانده وقلقه وخشى ان ينتهى الامر بسقوط هذا الموقع الاستراتيجى الخطير فى أيدى البرتغاليين ، وهو الذى كان يمنى نفسه بضمه مستقبلا الى ممتلكاته وذلك عندما يتم استرداد النصارى لهذه المدينة . ولما كان فرنانده حريصا على ضمها الى ملكه فقد أسر فى نفسه انه « اولى بها دفاعا لعدوه » (٢) . ثم انه خرج فى اول سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) على مقدمة قواته قاصدا بطليوس لينتزعها من ايدى المسلمين ، فوصل بعسكره وآلات سكناها بالفحص المعروف بالزلاقة فى نفس الوقت الذى كانت تقترب فيه جيوش الموحدين من المدينة ، فلما علم السيد ابو سعيد بتحركات الببوج المريبة حاول ان يضع حدا لذلك الخطر الليونى بطريقة سلمية ، فبادر بارسال كل من ابى محمد سيدراى بن وزير وابى العلاء ابن عزون فى وفد من اشياخ الموحدين الى معسكر الببوج للكشف عن حقيقة نواياه ومعرفة ما اذا كان مايزال باقيا على الصلح المعقود بين دولتيهما أم انه نكث باتفاقه مع الموحدين ، فلما دخلوا عليه « رحب بهم وتكلموا معه فيما وفدوا فيه ، فقال : انما خرجت لحمايتها وامساكها

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٠٠ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٠١ .

لامير المؤمنين بن امير المؤمنين أيدهم الله ، فشكروه ، وعرضوا عليه الاجتماع مع السيد الاسنى (ابى سعيد) وتجديد الصلح بينهما ، فأجاب الى ذلك (١) » • فلما عاين منه ابو محمد سيدراى بن وزير وابن عزون حسن نواياه عرضا الامر على السيد ابى سعيد ابن الخليفة ابى يعقوب والقائد الاعلى للجيش ، فأجاب الى ذلك ، فتقدم فرنانده الببوج الى بطليوس فى طائفة من اقماطه ورجال دولته حتى أصبح على مقربة منها ، والتقى بالسيد ابى سعيد « هذا راكب على فرسه ، وهذا راكب على فرسه ، وتكلم ابن وزير وابن عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما ، حتى كمل الغرض المراد ، واتصل العهد والسداد ، وانصرف فرنانده الببوج بعسكره الى بلاده » (٢) •

اما السيد ابو سعيد ، فقد انتهز هذه الفرصة ، فخرج على رأس جيشه الى حصن جلمانية ، مقر قيادة جرانده الجليقى ، وقاعدة غاراته على بلاد الغرب وعلى بطليوس ، وقد عزم على الاستيلاء عليه وهدمه • فافتتحه عنوة ، وانتسفه ، وكان ذلك فى شهر ربيع الاول من عام ٥٦٦هـ (نوفمبر ١١٧٠م) ثم عاد بعد ذلك الى اشبيلية (٣) « وقد احيا بطليوس ، واجلى عنها كل بأس » (٤) •

وفى عام ٥٦٧هـ (١١٧٢م) خرج الخليفة ابو يعقوب يوسف من اشبيلية الى غرب الاندلس ليثبت نفوذ الموحدين فى هذه المنطقة ويمكنه ، ومر فى طريقه اليها بشنترين فحاصرها فترة من الوقت ، وأرهب اهلها ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠١ ، ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٦ •

(٢) نفسه ، ص ٤٠١ •

(٣) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ٨٦ •

(٤) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٠٢ •

ثم تابع سيره فى هذه الغزوة حتى مدينة السبطاط Ciudad Rodrigo ثم عاد الى اشبيلية وقد جر وراءه عددا كبيرا من الاسرى البرتغاليين (١) ثم عقد العزم فى نفس هذه السنة على تامين الاقوات والميرة والعدد لبطليوس ، فأرسل « ميرة كبيرة الى بطليوس من القمح والشعير والآلات المعينات والاقوات المقتوتات على اربعة آلاف بغل اليها فى صحبة عسكر مبارك من الموحدين ، انجدهم الله ، والعرب يسيرون بالميرة والمرافق والمصالح الى بطليوس المذكورة ، حماها الله ، فحضر العسكر المبارك عند الامر العزيز إليهم ، وجازوا على القنطرة الموضوعة على الوادى إلى اطريانة ، وذلك فى اليوم الثالث من اكمال عملها ، الثامن من صفر سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة ، وهذا العسكر اول عسكر جاز عليها ، فاوصل الميرة اليها على أوفى الامن ، واحياها ، وخصها بالنظر المتدارك عن الامر العزيز وحياها ، وانصرف بعد توصيل الميرة سالما وغانما ظافرا » (٢) .

ولما تهيأ للموحدين تعزيز الدفاع عن بطليوس وتزويدها بما يلزمها من عدد وآلات ، ومؤن وأقوات ، استجابوا لمشورة ابى العلاء بن عزون بتطهير النواحى المحيطة ببطلبوس من الاحتلال البرتغالى ، لاسيما حصن لبيون Lobon الواقع على مقربة منها الى الشرق ، وكان مايزال يحتله « جملة من اصحاب حراندة ، فنازلوا الحصن ، واستولوا عليه فى الحين ، وتغلبوا على من كان قد بقى فيه من البرتغاليين » (٣) .

و - استيلاء البرتغاليين على باجة ونتائجه :

عندما تبين لالفونسو انريكث فشل جرانده فى الاستيلاء على

---

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٤٦٢ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤٦٣ .

بطليوس ، والاحتفاظ بقاعدتيه جلمانية ولبيون ، حول انظاره الى مدينة باجة المتصلة بأعمال ماردة . ولعل اهتمامنا بذكر بعض تفاصيل هذه الغزوة البرتغالية لباجة مرجعه رغبتنا في توضيح حالة الغرب في تلك الفترة الحرجة من الحكم الموحدى ، وبالتالى لمعرفة الآثار المترتبة عليه بالنسبة لبطليوس . فمدينة بطليوس بلا شك كانت تتأثر حتما بالظروف المحيطة بها فى بلاد الاندلس بوجه عام ، فما بالنا بالظروف المحيطة ببلاد الغرب الذى تمثل هى ذاتها قاعدته ، فغزوة مثل تلك الغزوة البرتغالية على باجة على سبيل المثال كانت - بدون ادنى شك - عاملا من العوامل التى اخلت بالاوضاع السياسية والعسكرية ناهيك عن الاقتصادية والاجتماعية فى الغرب الاندلسى كله ، وتسببت فى اضطراب احوال مدنه ، وبطبيعة الحال فان خروج سكان هذه المدينة منها بعد سقوطها فى ايدى البرتغاليين كان له اعمق الاثر على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية لسائر مدن غرب الاندلس ، فبعد استيلاء البرتغاليين على باجة ، وتخريبهم لعمرانها ، كما سنوضح فى الصفحات التالية ، اضطر العدد الاعظم من سكانها الى تركها والهجرة الى المدن المجاورة . ومن المنطقى ان تكون بطليوس - اهم قواعد الغرب - على رأس تلك المدن التى استقبلت تلك المجموعة المهاجرة من بطش البرتغاليين ، ولعل مثل هذا الوضع كان كفيلا بان يهز اقتصاديات بطليوس ، خاصة وانها لم تكن قد افاقت بعد من الضربات المتواصلة التى كانت تتلقاها من قوات جرانده ، واعتراضه طريق المؤن والامدادات الواصلة اليها . وقد اشرنا فيما سبق الى تعرضها لازمة اقتصادية طاحنه بسبب انحباس مياه الامطار ، بالاضافة الى الزلازل المدمرة ، وان كان ضعفها قد فاق اكثر مدن الاندلس بسبب ابتلائها بهجمات ذلك المغامر البرتغالى المرتزق جرانده . هذا الى جانب افتقادها لصمام الامان والاستقرار ، واحساسها الدائم بانها معرضة للغارات البرتغالية المتواصلة .

لقد كان عمر بن تمصيلت - والى بطليوس السابق - قد تولى حكم مدينة باجة لفترة قصيرة عقب عزله عن ولاية بطليوس ، ولكنه

لم يفلح فى ادارة هذه المدينة التى كانت تحتدم بنار الفتن والاضطرابات منذ أن اقصى عن ولايتها سيدراى بن وزير . ولذلك لم تطل ولاية ابن تيمصيلت ، فوليها بعده طالب بربرى سخيف العقل يدعى عمر بن سحنون ، وكان رجلا فظا سيئا طائشا ، استعان بوزير بدوى من سفلة القوم بمدينة باجة طغى وبغى ، وأساء السيرة فى الناس ، واصطنع العنف فى الاستيلاء على اموال الناس بغير حق والاعتداء عليهم ، وقد اعانه فى ارتكابه لهذه المظالم عمر بن زرقاج قاضى المدينة ، مما دعا اهل باجة يضجون من عسفه ، ويضيقون ببغيه وظلمه ، فاشتدت الفتنة لذلك ، وساءت احوال باجة (١) فى اواخر عام ٥٦٧هـ (١١٧٢م) فى الوقت الذى شغل فيه الخليفة ابو يعقوب يوسف بغزوة وبذة . ولما كان البرتغاليون على علم تام بما يجرى فى بلاد الغرب بحكم مجاورتهم للمسلمين فى هذا الصقع من بلاد الاندلس وسيطرتهم على شنترين ويابرة وقصر ابى دانس ، فقد ادركوا ان فرصتهم للسيطرة على باجة قد تهيأت تماما . وكان الدفاع عن باجة قاصرا ، فابن سحنون واليها كان يحرم الحراس والجند من رواتبهم واعطياتهم مما دفعهم الى اغفال الحراسة والتقصير فى المراقبة والسهر على الاسوار والابراج . واتفق أن أحد ابراج قصبة المدينة ، وهو برج الحمام كان خاليا من الحراسة اثناء الليل ، « وكان البرج المذكور فيه سامر يأخذ فى الليلة على سميره قيراطا من قطع ، فأخذه له ، وترك البرج مضاعا دون سامر ، فوصل النصارى الى السور فى ليلة مظلمة ، وهم يتسللون على أيديهم وأرجلهم .... » (٢) ، وهى الليلة التى قرر فيها جرانده مهاجمة المدينة (ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨هـ / ٢٣ اغسطس ١١٧٢م) ، والمعروف أن جرانده كان يؤثر التحرك فى الليالى المظلمة حتى لا يفطن الى تحركاته احد من الحاميات الاسلامية . فما كادت قواته تصل الى

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٢

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

السور حتى بادروا بوضع السلالم لصق برج الحمام خفية دون ان يشعر به أحد من حراس المسلمين بالقصبة ، ثم صاحوا بلغاتهم صيحات عالية ايقظت واليها ابن سحنون من نومه ، فبادر بالتوجه الى باب القصبة ، فوجد البرتغاليين ونصارى شنترين قد استولوا على البرج وفتحوا بابه واندفعوا داخل القصبة واحتلوها على الفور ، فترامى ابن سحنون من اعلى البرج ونزل بداخل المدينة ، ثم تدلى من سور المدينة الى فحص باجه ، وفر بنفسه على قدميه الى مدينة مرتلة دون ان يعبأ بمصير باجة واهلها . ويصف ابن عذارى موقف البرتغاليين من سكان المدينة وقصبتها بقوله : « واتصل الصياح وضجيج الروم بالقصبة والمدينة ، ففر الناس على وجوههم من ابوابها ، فقتلوا فى الابواب ، واسروا فى كل جناب » (١) ، ووقع فى اسرهم أبناء ابن سحنون وبناته واهله ، واستولوا على امواله ، وكذلك اسروا ابناء القاضى ابن زرقاج ، وسبوا كثيرا من نساء باجة الا من وفق فى الخروج منها ، واستشهد على باب برج الحمام ابو جعفر بن اسماعيل بن صاحب الصلاة وغيره من سكان المدينة . ولم يمكث النصارى طويلا بالمدينة ، فقد رأى الفونسو انريكث انه لن يستطيع الدفاع عنها لضخامتها واتساع عمرانها ، واكتفى بهدم أسوارها واحراق مزارعها ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ولما اخذ ابن الرنك اللعين باجة ودخلها ، عاين كبرها ، وانها لايمكن امتناعها لاتساعها ، فاخلاها ، وحرقها ، وهدم سورها ، واسر اهلها الى ان انقذها الله من الاسر بالفداء ، ومشى كثير منهم الى مراكش وغيرها يطلبون من الناس ، فوجدوا عندهم الحنان بالعطاء والايناس » (٢) .

ومن العجيب أن يسكت الموحدون على هذا الاعتداء البرتغالى الغاشم على باجة ، وربما يرجع السبب فى سكوتهم الى اشتغال الخليفة

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٢

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

منذ وصوله الى اشبيلية ببناء المسجد الجامع بقصبتها ، وتخطيط قصور البحيرة وبساتينها ، هذا بالاضافة الى انشغال الموحدين فى عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) بمواجهة القشتاليين والاشتباك معهم فى معارك طاحنة ، وكان يقود جيوش قشتالة فى تلك المعارك القومس المعروف بالاحدب (١) ، وقد انتهت هذه المعارك بانتصار قوات الموحدين على قوات القومس الاحدب ، واستيلائهم على خيولهم وكراعهم ، بل ان الموحدين تمكنوا من استنقاذ أسرى المسلمين ، وقتلوا الاحدب واحتزوا راسه من جسده وهو على سريره فى خبائه . وكان لهذا الانتصار الذى احرزه الموحدون اكبر الاثر فى رفع الروح المعنوية عند المسلمين ، فبادر الموحدون بتجهيز حملة قوامها اربعة آلاف فارس الى بطليوس لتحمل المؤن والميرة والعتاد ، تولى قيادتها ابو يعقوب يوسف بن ابى عبد الله تيجيت ، وكذلك عبد الله بن اسحق بن جامع ، « تحركا من اشبيلية فى أربعة آلاف فارس من الموحدين - اعزهم الله - ومن الاجناد الاندلسيين ومن العرب ، ومعهم الميرة المذكورة على ثلاثة آلاف دابة من القمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق واستعداد الارزاق لاهلها رفقا لهم فى المضايق (٢) » . وعندما وصلت هذه المؤن الى بطليوس ، تم تسليمها الى واليها انذاك ابى غالب بن ابى الحسين بن الموصلى ، وينتسب

---

(١) هو القومس خيمينو وكان واليا على مدينة آبلة ، وعرف فى البيان المغرب بالقومس المسن الضال المعروف بالاحدب ، بينما يسميه ابن صاحب الصلاة « القومس المسن الضال شان منوس عظيم النصارى بآبلة (ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٨) كذلك اطلق عليه ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٨) اسم « ابو بردع » (انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٥٢١) لانه كان يفضل ركوب جواده فوق بردعة حريرية وثيرة مرصعة بمختلف انواع الجواهر الثمينة . وكان القومس الاحدب قبل هذه الغزوة التى انتهت بمصرعه وهزيمة قواته امام الموحدين قد قام بغارات كثيرة مخربة على طريف والجزيرة الخضراء (انظر ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥١٨) .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥٢٦ .

الى اسرة الموصلى وكانت من بين الاسرات البارزة فى بطليوس لصدارتهم فيها وزعامتهم • ويرجع بنو الموصلى فى الاصل الى قرية موصل باشبونه، ومنهم عبيد الله بن خليفة الذى كان قد تولى قضاء اشبيلية فى عهد المرابطين ، ومنهم ايضا شيخ « من اهل بطليوس راسه كالنعامة بياضا كان قد وقع فى اسر البرتغاليين عند دخولهم بطليوس فىسنة ٥٦٤هـ »(١) •

وعلى اثر تلك الموجة العاتية من غزوات الموحدين اخذ ملوك المسيحية فى اسبانيا يسعون الى مهادنة الموحدين وموادعتهم ، واول من بادر بطلب الصلح منهم « القومس نونة صاحب طليطلة ظئر اذفونش الصغير (وهو نفس الفونسو الثامن) لعنه الله ، ثم تابعه اذفونش بن الرنك صاحب قلمرية » (٢) • وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد سبق الفونسو انريكث فى طلب الصلح (٣) ، ولم يستجب ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن لعقده بسهولة ، فقد استمرت المفاوضات ما يقرب من شهرين وانتهى الامر باكتمال السلم والتوصل الى المهادنة مع هذين الملكين المذكورين ، وتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ (يوليو ١١٧٣م) • وكان هدف ابى يعقوب من قبول عقده رغبته الصادقة فى التفرغ لتحصين مدن الغرب المتضررة ، واعادة بنيان باجة •

ثم كان وصول جرانده الجليقى ، كما سبق أن أشرنا اليه ، الى اشبيلية فى بداية عام ٥٧٩هـ ، طالبا من الخليفة ابى يعقوب يوسف الصفح والعفو ، وان يقبله عبدا خديما لديه ، ليعيش سامعا طائعا له (٤) • ولعل ذكاء جرانده هو الذى هداه الى التماس العفو من الخليفة بهدف كسب ثقته فيه ، فهو مغامر مرتزق غادر ، شانه فى ذلك

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٤٥١ •

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٢٦ •

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٩٠

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٣ •

شان السيد الكنبيطور (١) ، يجتذبه المال والذهب . فقد ادرك بذكائه الحاد انه بعقد الصلح بين الفونسو انريكث ملك البرتغال وبين ابى يعقوب يوسف خليفة الموحدين سيفقد فرصه السابقة التى كان يثبت من خلالها وجوده العسكرى ، لذلك فقد آثر الالتحاق بخدمة المسلمين عسى ان يجد فى صفوفهم مكانا يستعيد به نفوذه ومكانته الحربية ، فقد توجه الى اشبيلية لعرض خدماته على الخليفة الموحدى فى قوة من ثلثمائة وخمسين فارسا من اتباعه ، وصح ما توقعه ، اذ لم يجد من الخليفة الموحدى الا كل تقدير واكرام « فقبل منه القول ، وانزله ، وامر له بالاحسان والكرامات » (٢) . ولكن الفونسو انريكث كاد ان يفقد صوابه لاستغناء جرانده عن خدمته ، فبدا يراسله سرا ، ويغريه على العودة الى خدمته ، الى ان وقعت بعض هذه المراسلات فى ايدى الموحدين ، وانكشف امر جرانده ، وخشى الخليفة من وجود مؤامرة تحاك فى الخفاء طرفاها الفونسو انريكث وحليفه السابق ، ولذلك اصدر امره بالقبض على جرانده وعلى اصحابه ، « وبعثوا بجملتهم الى سجلماسة ، فاقاموا بها تحت سجن وترقيب ونكال .. ثم همت نفسه فيها بالفرار ليحوز من احد المراسى ، فظهر منه ذلك ، فقتل ، وحز راسه ، وانكفا عن الاسلام باسه » (٣) .

هذه قصة جرانده الجليقى ، كما رواها ابن عذارى ، اما البيذق فقد ذكر ان جراندة استمر فى خدمة الخليفة ابى يعقوب يوسف الى ان رحل الخليفة الى المغرب فى شعبان ٥٧١هـ (١١٧٦م) فسار معه فى ركابه الى ان عينه الخليفة الموحدى فى السوس ، وعندئذ بدا جرانده

---

(١) راجع فى ذلك :

David Lopes, O Cid portugués : Geraldo Sempavor, Revista do Historia, Coimbra, 1940, pp. 92, 93.

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

بخيانة الخليفة ، فقد اتصل سرا بالفونسو انريكث « فأرسل الكتب ، وقال له : لعلك تعمر القطائع لتاخذنى واجد معكم » ([١]) . فلما وقعت بعض هذه الرسائل فى ايدى الموحدين ، وعلموا بعرض جرانده الذى تقدم به الى ملكه وسيده السابق الفونسو انريكث بأن يجهز له اسطولا يفتح به تلك البلاد من المغرب لكى تصبح للبرتغال مراكز عسكرية فى السواحل المغربية ، أمر الخليفة بالقبض عليه هو وأصحابه سرا ، ثم أمر بقتل جرانده وتوزيع أتباعه على القبائل ، فسيق جرانده الى درعة حيث تم تنفيذ حكم الخليفة فيه ([٣]) . وفى سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) شرع الخليفة ابو يعقوب يوسف فى اعادة تعمير باجة ليعود اليها من هجرها من اهلها وولى عليها ابا بكر بن وزير ، وقدم اليها ابن تمصيلت والى شلب انذاك ، ووالى بطليوس فيما سبق ، فى نحو خمسمائة من الفعلة والعمال لمساعدة سكانها العائدين اليها فى تعمير مدينتهم من جديد . وبلغ عدد من عاد الى باجة من اهلها مائتى شخص بذلوا قصارى جهدهم فى اعادة تعمير مدينتهم ، ولكن ابن وزير استبد بهم واساء اليهم ، فأمر الخليفة بعزله ، واقام مكانه ابن تمصيلت ، وكان واليا رفيقا باهلها ، رحيما فى معاملته لهم ، فشجع الناس على انتجاعها ، واقر الامور فيها ، وعن هذه الاحداث يقول ابن عذارى : « ثم حدثت بين اهل باجة وبين ابى بكر بن وزير مطالبات وشهوات ، فعقد عقودا على اعيانها بشهادة اهل الزور والاراذل واهل الفجور ، فرمى بها القاضى فى وجوههم ... ثم ان اعيان باجة رفعوا الى حضرة أمير المؤمنين بأحوالهم وما هم عليه مع ابن وزير من سوء السياسة والتدبير ، فأمر بعزله عنهم ، وولى عليهم أبا على عمر بن تيمصليت ، فاتصلت الغبطة بباجة ، وتمكن الناس بقصبتها ، وفى ديارهم الحديثة

---

(١) البيذق ، اخبار المهدى بن تومرت ، ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٦٨ .

البنيان » (١) .

ز ـ عودة البرتغاليين الى العيث فى الغرب ومصرع الخليفة ابى يعقوب يوسف :

ما كاد الخليفة أبو يعقوب يوسف يغادر الاندلس الى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١هـ (١١٧٥م) حتى عاد النصارى الى سابق عهدهم من التعدى على أراضى المسلمين ، فنقضوا عهودهم وخرقوا الهدنة : ففى العام التالى لعبور الخليفة الموحدى الى المغرب انتهز الفونسو الثامن ملك قشتالة فرصة انشغال الخليفة ابى يعقوب يوسف بالوباء الذى اجتاح مراكش ، وخرج بقواته لغزو الاندلس ، واتجه بها الى مدينة قونكة (٢) فى عام ٥٧٢هـ (١١٧٦م) (٣) . ولم يكن الخطر المسيحى يهدد المدن الواقعة الى الشمال الشرقى من الاندلس فحسب بل أن غرب الاندلس ايضا تعرض فى تلك الآونة لخطر اقوى واشد ، فقد غدر الفونسو انريكث هو الآخر بالموحدين ، وشن هجوما عاتيا على باجة للمرة الثانية فى سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) بعد أن كانت قد استعادت ازدهارها ، واكتملت الفجيعة بمصرع ابن تمصيلت فى احدى المعارك التى خاضها مع نصارى شنترين (٤) ، ولم يقتصر الهجوم البرتغالى على البر وانما حدثت اشتباكات بحرية (٥) بين الموحدين والبرتغاليين انتهت باستيلاء البرتغاليين على جزيرة شلطيش Saltés واتجهت الوحدات البحرية البرتغالية من هناك الى سبتة ، القاعدة

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٠٧ .

(٢) راجع وصف قونكة وقصبتها الشاهقة المنيعة المرتفعة فى الجو وقد أحاط بها وادى شوقر من الغرب بأجرافه الصعبة فى كتاب تاريخ المن بالامامة ، ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

(٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٤) سنعود الى ذكر تفاصيل هذه الاحداث فيما بعد فى الصفحات التالية

(٥) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١١٣ .

البحرية للموحدين ، بهدف تدمير البحرية الاسلامية ، كما هاجم البرتغاليون مع حلفائهم نصارى شنترين فحص الشرف Aljarafe من احواز اشبيلية ، واتخذت غاراتهم شكل موجات متتابعة استمرت خمس سنوات فى الفترة من سنة ٥٧٣هـ وحتى ٥٧٨هـ . وامام هذه الاعتداءات البرتغالية المتكررة على الغرب كان لزاما على ابى يعقوب يوسف ان يتحرك بقواته الى الاندلس لوضع حد لهذا العيث ، وان يعد نفسه للجهاد بعد أن تجاوز العدو البرتغالى حدوده . فاستنفر القبائل ، وحشد الحشود ، وتأهب للجواز الى الاندلس فى أوائل شهر جمادى الآخرة ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ابتدأ بتمييز القبائل والاجناد فى الخامس من شهر جمادى الآخرة كما ذكرته ، فميزهم قبيلا بعد قبيل ، وامر بعمل عشرة مجانيق فصنعت ، ورمى الرجال بالحجارة قدامه ... دام هذا الحال شهر جمادى كله ، وفى شهر رجب ارتحل الخليفة عن البحيرة المذكورة الى قصره بمراكش » (١) ثم اصدر الخليفة يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ٥٧٩هـ (آخر ١١٨٣م) مرسوما بتولية اربعة من ابنائه قواعد الاندلس الرئيسية ، فاقر ولده ابا اسحق على اشبيلية ، وولى ابا يحيى على قرطبة ، وابا زيد على غرناطة ، وابا عبد الله على مرسية . وتم توزيع العدد والاسلحة والخيل على عساكر الموحدين فى منتصف شهر رمضان ، ثم صدرت الاوامر بالحركة فى الخامس والعشرين من شوال سنة ٥٧٩هـ (فبراير سنة ١١٨٤م) . ولم تشرع قوات الموحدين وقبائلهم فى الجواز الى الاندلس الا فى آخر سنة ٥٧٩هـ ، بينما تحرك الخليفة الى قصر المجاز فى بداية عام ٥٨٠هـ فجاز الى جبل الفتح ، ثم انتقل الى الجزيرة الخضراء ومنها الى اشبيلية ، حيث استقبله اهلها استقبالا حافلا .

اقام ابو يعقوب يوسف باشبيلية نحو اسبوعين رتب خلالهما قواته ، وحدد وجهته ، واستعد للقتال ، واختار مدينة شنترين لتكون هدفه

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

نظرا للخطورة الجسيمة التى اصبحت تمثلها على غـرب الاندلس ، فمعظم هجمات المرتزق البرتغالى جرانده كانت تصدر من هذه المدينة ، ومنها كان يغير على ترجالة وقاصرش ومنتانجش وشيربة وجلمانيـة ، كما هاجم بطليوس منها كذلك • وقد سبق أن ذكرنا انه تمكن فى احدى غاراته من الاستيلاء عليها ، ولولا مساعدة ملك ليون لواليها ابن تمصيلت لظلت بطليوس فى قبضة البرتغاليين • وكان نصارى شنترين قد ساعدوا جرانده فى الاستيلاء على بطليوس ، كما كانت بلدهم شنترين المركـز الذى اغار منه البرتغاليون على أحواز اشبيلية بحيث وصلوا فى احدى غاراتهم الى طريانة Triana الربض القبلى لاشبيلية ، ومرة اخـرى الى شلوقة واقليم الشرف ، لذلك راى ابو يعقوب أن استيلاءه عـلى شنترين وعزوه لها بمثل ضربة قاصمة لمملكة البرتغال من جهة ، وانقاذا لبطليوس حاضرة المغرب والمناطق المحيطة بها من جهة ثانية •

تحرك ابو يعقوب يوسف من اشبيلية فى اتجاه شنترين فى السادس والعشرين من صفر عام ٥٨٠هـ (٧ يونيو ١١٨٤م) ، فمر على حصن العرجة (وهو نفس حصن الحنش Alanje) يوم الرابع من ربيـع الاول ، وهناك تجمعت حشود الموحدين من الآفاق ، ومنها اتجهت الى بطليوس وعسكرت فى ظاهرها لتمييز الجند ، وامرهم ابو يعقوب بأن يتزودوا بالسلاح ، واخذ يستكمل ما كان ينقص الجيش من زاد وميرة ، وبعد أن اطمان على سير الامور ، رحل من بطليوس يـوم الخميس العاشر من ربيع الاول فى طريقه الى شنترين حتى وصلوا الـى وادى تاجه ، وهناك أمر الخليفة قواته بالتوقف على أبواب شنترين (١) وفى تلك الاثناء كان فرنانده ملك ليون يحاصر قاصرش ، فلما بلغـه وصول جيوش الموحدين الى بطليوس فى طريقها الى شنترين ، رفـع حصاره عن قاصرش ، وقفل عائدا الى حاضرته مدينة السبطاط

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٣٣ •

(Ciudad Rodrigo) ليتابع منها تطورات الموقف .

وعلى الرغم من ضخامة اعداد جيش الموحدين وقد بلغت عدته اربعين الفا ، « من انجاد العرب الفرسان ، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الاندلس ، واجتازها ما ينيف على مائة الف فارس ... » (١) الا ان هذه الحملة انتهت بكارثة كبيرة للموحدين بسبب استشهاد الخليفة الموحدى ابى يعقوب يوسف نفسه ، ويرى الاستاذ محمد عبد الله عنان ان الهدف الرئيسى من حملة ابى يعقوب هذه على شنترين رغبته فى الاستيلاء على ثغر الاشبونة ، وان اتجاهه الى شنترين قبل الاشبونة كان أمرا طبيعيا للغاية ، فاشبونة هى حصن شنترين الشمالى ، وباستيلائه على شنترين قبل الاشبونة يؤمن مؤخرة جيشه ضد اى هجوم يمكن أن يقوم به نصارى شنترين (٢) . ولعل رغبة الخليفة ابى يعقوب فى الاستيلاء على الاشبونة هو الذى ادى الى الكارثة التى حلت به ، فقد امر الخليفة ولده السيد ابا اسحق والى اشبيلية ذات ليلة بان يرحل الى غزو مدينة الاشبونة ، فأساء ابو اسحاق فهمه ، وظن أن اباه يامره بالرحيل الى اشبيلية ، فرحل فى الفجر فجاة ، مما سبب ذعرا وخوفا بين الجند ، فرحل الجميع منسحبين تاركين الخليفة وحده (٣) . وصحب انسحاب معظم الجيش خلل واضح فى صفوف المقاتلة ، ولم يتبق مع الخليفة الا بعض الساقة الى جانب ولده ابى يوسف يعقوب ، الذى ظل مرافقا لابيه الخليفة ، على اتم استعداد لحمايته ، ودرء اى خطر عنه . ويصف ابن ابى زرع هذا الموقف باسهاب فيقول : « فلما جن الليل وصلى العشاء الاخيرة بعث الى ولده السيد ابى اسحاق والى اشبيلية فأمره بالرحيل من تلك الليلة

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١١٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ١٢٠ .

(٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٥٩ .

الى غزو مدينة اشبونة وشن الغارات على انحائها ، وان يسير اليها بجيوش الاندلس خاصة ، وان يكون رحيله نهارا ، فاساء الفهم ، وظن انه امره بالرحيل فى جوف الليل الى اشبيلية ، وصرخ الشيطان فى محلة المسلمين ان امير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفى هذه الليلة تحدث الناس لذلك ، وناهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قريب الفجر ، اقلع السيد ابو اسحاق ، واقلع من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وامير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك ، فلما اصبح وصلى الصبح ، واضاء النهار ، لم يجد حوله احدا من المحلات الا اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله وقواد الاندلس ، لانهم هم الذين كانوا يمشون امام ساقته ، وخلف محلته من اجل من يتخلف منها من الضعفاء » [1] .

وكان نصارى شنترين قد علموا عن طريق عيونهم بما جرى فى معسكر الموحدين ، فشنوا هجوما خاطفا على القوات المنسحبة ، وعلى ساقة الخليفة ، بل ان هؤلاء النصارى قد تمكنوا من الوصول الى خيمة الخليفة نفسه ، وتمكن بعضهم من اصابته بجراح خطيرة الزمته فراشه ، وقبل ان يامر الخليفة من تبقى من جنده بالرحيل رقد على محفة ، وحوله جنده واطباؤه ، ورحل الجميع . ولم يكد الركب يعبر وادى تاجه ويسير عدة اميال حتى أسلم الخليفة الروح فى الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ (٢٩ يوليو ١١٨٤م) . وهكذا ضحى الخليفة بحياته فى تلك الغزوة التى استهدف منها الاستيلاء على شنترين وتخليص بطليوس من الخطر المتواصل الذى كانت تمثله .

وينفرد الحميرى برواية ذكر فيها أن ابا يعقوب يوسف اعتل علته التى توفى بها « فاقام الرجل به على مطية مضطجعا على فراشه ،

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

وضعفه يتزايد الى ان ان تفقد فى بغض اميال فوجد ميتا » (١) .

وبقى ان نشير الى ان ابا يعقوب يوسف الشهيد لم يتوان قط عن توفير الاستقرار لبطليوس ، فقد حصنها وتهمم بقصبتها ، « وهو الذى حمى بطليوس من الكفر ، وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة ، وسرب الماء اليها من الوادى ، فقطع العدو امله عنها بما اشحنها من الآلات والعدد من الاسلحة والرجال المنتخبة » (٢)

---

(١) الحميرى ، ص ١١٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٢٣٦ .

(٤)

بطليوس فى عهد الخليفة ابى يوسف يعقوب المنصور

١ - تحركات مملكتى ليون والبرتغال فى الغرب وسقوط شلب :

حين توفى الخليفة ابو يعقوب يوسف امر ولده يعقوب بكتمان خبر وفاة والده الى حين الوصول الى مرحلة معينة من الطريق ، ولذلك فقد ظل الخليفة الشهيد محمولا على محفته ، يحدق بها خدمه وفتيانه على عادتهم ، الى ان وصل الجميع الى حصن طرش ، فضربت اخبية الخليفة ، وقام السيد ابو زيد ابن الخليفه ابى يعقوب يوسف بابلاغ اشياخ الموحدين بنبا وفاة الخليفة ، وطلب منهم الاسراع بمبايعة ولده الامير يعقوب (١) . وتمت البيعة الخاصة يوم الاحد التاسع عشر من ربيع الاخر عام ٥٨٠هـ (٢) (١١٨٤م» ، اما البيعة العامة فقد عقدت يوم السبت الثانى من جمادى الاولى من نفس العام (٣) . وهكذا جرت بيعة يعقوب المنصور فى هدوء تام ودون اية معارضة نظرا لانه « بويع له فى حياة ابيه بامره بذلك » (٤) . وعلى الرغم من أن المصادر العربية بخلاف عبد الواحد المراكشى لم تذكر ذلك ، الا ان الظروف التى اجريت فيها بيعة المنصور تدل على قناعة تامة من جميع الاطراف بخلافته ، لاسيما وانه كان اكبر ابناء الخليفة المتوفى ابى يعقوب يوسف (٥) .

واذا أردنا ان نقوم عصر المنصور الموحدى ، فاننا سنجد انه كان عصر جهاد ومثاغرة ، فقد استبسل فى الجهاد والذب عن الاسلام ضد

---

(١) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٤١

(٢) ابن ابى زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٦١ .

(٥) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ١٥٧ .

اعدائه فى الاندلس ، « وكان المنصور رحمه الله اجل ملوك الموحدين ، واكثرهم صيتا ، واحسنهم فى الاحوال كلها ، ولى الملوك واشن ، والمال قد توفر ، وكانت له الهمة العالية ، والعزائم الملوكية ، والدين المتين ، والسير الحسنة فى المسلمين » (١) . ويصفه ابن عذارى بانه كان « شجاعا مقداما ، عظيم الصريمة على اعدائه ، لا تضيع عنده فضيلة احد من رجاله ، ولا يغيب عنه شىء من احوال رعيته ... » (٢) . ومما عرف عنه انه اهتم اهتماما خاصا بالجيش ، فحرص على تنظيمه واعداده للجهاد فى المغرب والاندلس فى الوقت المناسب . ولم يكف المنصور منذ توليه خلافة الموحدين عن النظر فى شئون الثغور لاسيما القسم الغربى من الاندلس فى وقت اشتدت فيه حركة الاسترداد . وكانت حادثة استشهاد ابيه فى شنترين ماتزال ماثلة فى ذاكرته ، وكان لذلك اعظم الاثر فى نفسه . اما بالنسبة للبرتغاليين ، فقد كان لهزيمة الموحدين فى شنترين اكبر الاثر فى دفع حركة الاسترداد والتوسع البرتغالى فى اراضى الغرب الاندلسى ، فقد ازدادت الآمال عند الفونسو انريكث فى السيطرة الكاملة على بلاد الغرب ولكن الاجل لم يمتد به ليحقق هذه الآمال ، اذ توفى فى سنة ٥٨١هـ (ديسمبر ١١٨٥م) بعد وفاة الخليفة ابى يعقوب يوسف بنحو عام ونصف العام ، وخلفه على عرش مملكة البرتغال ابنه سانشو الاول الذى اراد ان يستغل الحركة الصليبية التى بلغت أوجها فى ذلك الحين لصالح اطماعه الشخصية فى الجزء الغربى من الاندلس (٣) . وساعدت الظروف السيئة التى كانت تجتازها دولة الموحدين فى تلك الآونة على مهاجمة اراضى الغرب : فبنو غانية فى المغرب ، كانوا يناوئون الخلافة الموحدية ، وزاد خطرهم عندما تحالفوا مع العرب الهلالية ومع الغز المماليك ، وادت الحروب التى خاضها المنصور معهم الى استنفاذ جزء كبير من طاقته . وقد احسن سانشو

---

(١) ابن ابى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٢) ابن عذارى ، القسم الثالث من البيان ، ص ١٤١ .

(٣) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٢٩ .

الاول ملك البرتغال استغلال هذه الظروف القاسية التى كانت تجتازها دولة الموحدين فى المغرب كما احسن استغلال الظروف الدولية انذاك ، اذ كانت الحركة الصليبية فى الشرق الاسلامى فى عنفوانها ، لاسيما بعد ان استرد صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من الصليبيين فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ، واستثار بذلك المشاعر المناهضة للمسلمين فى الغرب الاوروبى . وكان قد وصل الى مياه البرتغال اسطول صليبى ضخم يتألف من خمسين سفينة وقيل ستين تحمل قوات قوامها عشرة آلاف مقاتل ، تجمعوا من ولايات الراين واللورين وفريزلاند (١) .

وقد توقفت سفن الصليبيين عند ساحل جليقية ، ونزل عسكر الافرنج برا للتبرك عند مزار شنت ياقب Santiaga de Compostela ولكن أهل المدينة تشككوا فى نوايا هؤلاء الافرنج ، وخشوا على مزارهم المقدس ، فدفعوهم بعيدا عنهم ، فعادوا الى سفنهم وهو ينوون الانضمام الى الاسطول الصليبى الانجليزى الراسى فى مياة اشبونة. ولم يجد سانشو الاول ملك البرتغال فرصة افضل من هذه لتنفيذ اطماعهم فرحب بالصليبيين واحتفل بهم احتفالا عظيما ، ثم طلب منهم ان يعبنوه على فتح المزيد من بلاد الاسلام ، وصور لهم انهم يخدمون بذلك الحركة الصليبية . وركز هدفه على مدينة شلب (٢) .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٢٩ - محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، القسم الثانى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) شلب Silves مدينة من مدن غرب الاندلس تقع فى اقصى الطرف الجنوبى الغربى من شبه جزيرة الاندلس ، على مقربة من البحر المحيط ، وفرضتها مدينة بورتماو ، وتبعد عنها بنحو ثلاثة اميال ، وذكر الجغرافى مجهول الاسم صاحب كتاب « ذكر بلاد الاندلس» (انها مدينة قديمة ازلية واسعة الشوارع حسنة البناء حصينة ، واسواقها وطرقها وشوارعها كل ذلك مفروش بالرخام ، وهى مبنية على ضفة نهر آنه) (لوحة ٤٤) ، كذلك يصفها الادريسى قبل هذه الاحداث بنحو خمسين عاما ، وقد اهتم فى وصفه لها بابراز اهمية موقعها فى بسبط من الارض وسورها الحصين ، كما ذكر المزايا الاقتصادية العديدة التى كانت تنعم بها ، فهى من حيث

وقد وفق سانشو فى اقناع الصليبين بنصرته ، فابدوا استعدادهم الكامل لمساعدته لمجرد ان ذلك يدخل فى نطاق اهدافهم . وانتهت خيوط هذه المؤامرة البرتغالية الصليبية بحصار شلب برا وبحرا ، فطوقت المدينة من كل الجهات ، وبالغ البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون فى احكام الحصار عليها الى ان استولوا عليها بعد ثلاثة شهور من بدء الحصار ، واخرجوا اهلها عنها ، فخرجوا عنها . وفى سقوطها يقول ابن عذارى : « وسلموا فى انفسهم ، وخرجوا مسلوبين ، واستأصل العدو حصنا من نظره يعرف بالبور ، وأتى القتل على كل من كان فيه صغير أو كبير واناث وذكور » (١) . وورد فى المدونة الاولى العامة لاسبانيا ان هذا الملك (سانشو الاول) « ذهب لحصار شلب ، وكانت فى ذلك الحين مدينة جليلة الشأن فى الغرب الواقع غربى اسبانيا واقبل عليه هنالك من بلاد افرنجة بحرا عدد كبير من المحاربين ومقاتلون اشداء ، وفى نهاية الامر استولى على المدينة ، واتخذها اسقفية » (٢) .

ولم يكن سقوط شلب نتيجة تهاون فى الدفاع او ضعف فى المقاومة او تراخ فى الصمود ، او بسبب خيانة بعضهم للموحدين ، ولكن سقوطها نتج عن عوامل اخرى : فرغم قلة خبرة والى شلب الحافظ عيسى بن ابى حفص بن على فى مجال القتال ، الا انه تحصن داخل المدينة ، وتصدى بشجاعة للحصار البرتغالى الصليبى ، كما ان اهالى شلب

= الزراعة كانت تنتج كثيرا من الغلات وكانت تزخر بالجنات والبساتين التى يرويها واديها الذى يجرى جنوبيها (نهر دراو) وكانت فرضتها ومرساها على ثلاثة اميال منها ، وفيه تصنع السفن اذ تتوفر بجبالها الاشجار التى تصنع منها السفن (انظر الادريسى ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٥ .

(٣) Primera Cronica General de España, ed. Merendez - Pidal, p. 652.

فوتوا ، بفضل بسالتهم فى القتال واستماتتهم فى الذب عن بلدهم ، على العدو كل ما سخره من قوة للاستيلاء عليها ، فعندما حاول عسكر الصليبيين حفر سراديب تحت الاسوار لاقتحام المدينة من داخل السور ، وفتح ثلمات بالسور ينفذون منها الى الداخل ، خاب سعيهم ، وفشلت محاولاتهم امام يقظة الاهالى . ولم يتم سقوط المدينة الا بتأثير الجوع والعطش ، فقد « بالغوا فى حصارها الى ان تملكوها ، واخرجوا اهلها عن ... بعد اشرافهم على الهلاك من الظما والجوع ، وعدم الهجوم ، وكان حافظها حينئذ عيسى بن ابى حفص بن على ، لم تحنكه التجارب ، ولا ابتلى بسد الثغور ، فاستولى عليه الجزع ولفه الهلع » (١)

والحقيقة ان السبب الرئيسى فى تسليم الاهالى مدينتهم ، ان الصليبيين قطعوا المياه عن اهلها ، وكانت تصلهم عن طريق بئر اقاموه بالقرب من السور يعرف بالقوراجة (بالاسبانية Coracha) فلما انقطعت المياه عنهم ، وبلغ بهم الظما مداه ، ارغموا على التسليم .

ويؤكد ابن عذارى ان الفونسو الثامن ملك قشتالة هاجم بلدة ام غزالة Magazela واستولى عليها فى جمادى الاولى من سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) ، وهى من احواز بطليوس ، ويضيف قائلا : « وفى جمادى الاولى من السنة خرج اذفونش ملك قشتالة الى أم غزالة فنازلها ، وخلت قبيل وصوله اليها ، وفى أوائل جمادى الآخرة اقلع عنها » (٢) . ويتحدث ابن أبى زرع عن سقوط شلب فيقول : « وفى سنة ستة وثمانين دخل النصارى مدينة شلب ومدينة باجة ويابرة من بلاد غرب الاندلس وذلك لما علموا ان المنصور قد بعد عنهم واشتغل بافريقية ، فاغتنموا

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

الفرصة ، فاتصل الخبر بالمنصور فاستعظم ذلك » (١) .

واذا امعنا النظر فى نص ابن ابى زرع نجد ان ذلك الخبر مختلق من اساسه ويفتقد الصدق ، فمدينة باجة كان قد استولى عليها البرتغاليون للمرة الثانية فى عام ٥٧٥هـ (١١٧٩م) كما سبق ان اوضحنا ، ولهذا فان استيلاءهم عليها فى عام ٥٨٥هـ (١١٩٠م) مع شلب يعتبر مستحيلا مادامت قد اصبحت منذ عشر سنوات فى حوزة البرتغاليين . اما يابرة فكانت هى الاخرى فى ايدى البرتغاليين ، بل ان سيطرة البرتغاليين عليها وعلى قصر ابى دانس كان له اكبر الاثر فى تمكنهم من باجة واستيلائهم عليها ، لان باجة كانت تقع على مقربة من هاتين المدينتين ، بحيث كان يسهل على البرتغاليين المقيمين فى احداهما الاطلاع على اخبار باجة وعلى خبايا امورها السياسية والاقتصادية (٢) . وبهذا يكون الخبر الذى اورده ابن ابى زرع لايخلو من التشويش والاضطراب ، باستثناء التاريخ الذى حدده لاستيلاء البرتغاليين على شلب ، واعنى به سنة ٥٨٦هـ بدلا من سنة ٥٨٥ التى ذكرها ابن عذارى . لان خروج المنصور الموحدى الى مراكش برسم الجهاد ومواجهة اعتداءات النصارى وعيثهم فى اراضى الاندلس حدث فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٨٥هـ اى فى نهاية هذه السنة ، وبالتالى يكون سقوط شلب فى ايدى البرتغاليين قد تم فى اوائل عام ٥٨٦هـ وليس فى سنة ٥٨٥ على حد قول ابن عذارى (٣) .

وما ان علم الخليفة ابو يعقوب بتلك الانباء المقلقة حتى عزم على وضع حد لهذه الغارات المخربة ، وخرج على راس قواته الى مراكش فى

---

(١) ابن ابى زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٤٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٨٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٤ .

١٤ ذى الحجة سنة ٥٨٥هـ (٢٣ يناير ١١٩٠م) ، ثم وجه فرقة موحدية من جيشه الى الاندلس ، حيث أقامت فى اشبيلية ، اما هو فقد خرج الى رباط الفتح حيث اقام نحوا من اربعين يوما الى ان لحقت به بقية قواته من قبائل الموحدين . وفى تلك الاثناء وحتى جواز الخليفة الى طريف فى ٢٣ ربيع الاول سنة ٥٨٦هـ كانت سفن الاسطول الموحدى قد وصلت الى مياه البرتغال بنية احكام الحصار البحرى حول شلب ، وكان من الواضح ان الموحدين يستهدفون استرداد شلب ، وبالفعل بادر الموحدون بمحاصرة تلك المدينة ، ونصبوا المجانيق وآلات القتال حول اسوارها ، وبذلك شارك الاسطول القوات البرية فى استرداد شلب . ويذكر ابن عذارى ان السيد يعقوب ابن العم الاكبر ابى حفص امر « بالحركة من اشبيلية بعساكره من اجنادها واعرابها وما انضوى من اهل البوادى من غرناطة والحشود المطوعة الى آخرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة من كل الجهات والمجاهدين من سائر الاشتات ، فتحرك هذا السيد وجمبع من ذكر من هذه العساكر بعد انتظام السابق منهم بالآخر غرة جمادى الاولى ، وتمادى مشيهم حتى نزلوا بظاهر شلب . وفى آخر الشهر المذكور وصلت الاساطيل اليهم ، فالتام غزاة الرجالة البرية والبحرية ، ونصبت المجانيق والآلات الحربية .. (١) ».
اما المنصور ، فعندما جاز الى الاندلس ، واصل سيره الى قرطبة فنزل بها حيث استقبل رسل مملكة قشتالة ، وكانوا قد قدموا لعقد الصلح ، وطلب الهدنة ، فوافق المنصور على طلبهم ، كما وافق على عقد الهدنة مع ملك لبون . ثم خرج من قرطبة الى وادى تاجه ، وكان هدفه ارغام سانشو الاول ملك البرتغال على احتجاز قسم من عسكره وعسكر حلفائه الصليبيين شمالا بعيدا عن شلب ، لبضعف من الدفاع البرتغالى عنها فتسهل على الموحدين مهمة استردادها . وتنفيذا لهذا المخطط العسكرى

---

(١) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

البارع سار المنصور الى السهل الممتد شمالى شنترين ، وبدأ يحرب هذه المناطق ليشغل البرتغاليين عن شلب (١) ثم هاجم المنصور قلعة طرش (٢) ، واخرج من بها من النصارى ، ثم هدمها وسواها بالارض (٣) وتحرك بعد ذلك الى طمان (٤) Tomar الواقعة شمالى طرش ، وكانت طمان قاعدة لفرسان الداوية ، وحصنا منيعا لابرام ، فحاصرها المنصور ، ولكنها استعصت عليه ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ورحل المنصور بعد فتح هذا الحصن (حصن طرش) الى حصن طمان ، فسلك فيه ذلك المسلك من الحصار ، واخذته الجيوش بالتضييق عليه من كل النواحى والاقطار ، ووافت رسل ابن الرنك راغبا فى السلم وعقده ، ومتلطفا فيما تعجله من ربطه وشده ... » (٥)

وهكذا اضطر ابو يوسف يعقوب الى الرحيل بعد ان عقد الصلح مع سانشو الاول الذى كان مقيما فى شنترين انذاك ، وبالتالى فان غزوته هذه لم تسفر عن اية نتائج ، بل ان بعض المؤرخين يعتبرونها غزوة فاشلة (٦) ، اذ لم يسترجع شلب ولم يستول على حصن طمان .

ب — استرداد الموحدين لقصر ابى دانس وشلب :

كان الخليفة المنصور يسعى الى تامين غرب الاندلس وبالذات الثغر الجوفى الممثل فى بطليوس ونواحيها عن طريق استرجاع الحصون

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ١٧٧ .

(٢) هى قرية برتغالية تعرف اليوم باسم Torres Novas

(٣) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٩ — عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٨٠ .

(٤) يسميها ابن عذارى حصن طمان .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، القسم الثالث ، ص ١٨٠ .

(٦) اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٢٩ — محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ١٧٨ .

والمدن التى كان البرتغاليون قد انتزعوها من ايدى المسلمين ، فهو كرجل سياسى بعيد النظر كان يدرك تمام الادراك ان الخطوة التالية فى مخطط التوسع البرتغالى السيطرة على بطليوس واحوازها ، وفى الوقت نفسه وضع فى الاعتبار الاطماع القشتالية والليونية فى تلك المنطقة الثغرية الهامة ، لاسيما بعد أن اقدم الفونسو الثامن ملك قشتالة ، على الاغارة على أم غزالة فى عام ٥٨٥هـ والاستيلاء عليها ، وكذلك كان يدرك ان فردلند (فرناندو الثانى) ملك ليون يعتبر بطليوس وماردة جزءا من ممتلكاته فيما بعد الاسترداد . وعلى هذا النحو كان ابو يوسف يعقوب واثقا فى ان اى ضعف او اضطراب فى الدفاع عن هذه المنطقة كفيل باسالة لعاب هذه الممالك الاسبانية المسيحية المتحفزة والتى لن تتردد عن اغتنام الفرصة للاستيلاء على بطليوس وماردة ، وكلتاها يمهد الطريق للسيطرة على اشبيلية وولبة ولبلة ، الامر الذى يؤدى حتما الى ضياع كل الغرب الاندلسى من أيدى المسلمين . ولذلك راينا الخليفة ابا يوسف يعقوب ، بعد انسحابه من حصار مدن الغرب فى المرة السابقة ، قد استقر فى اشبيلية طوال ما تبقى من عام ٥٨٦هـ ، واشتغل بالنظر فى أمور البلاد ونشر العدل بين الناس ، واعداد نفسه لغزوة جديدة هدفها استرجاع شلب . والظاهر ان ذلك الهدف الاخير كان شغله الشاغل ، بدليل أنه مضى يجهز آلات الحرب وعدد القتال ، ويضبط نظام جيشه ، ويرتب أموره . وشرع على حد قول ابن عذارى « فى التاهب للحركات ، والنظر فى الآلات ، وانضمت ما تحتاج اليه منازلة البلاد ، من العدد الحربية والاستعداد ، ولما استوفى بالعمل تكملة الآلات وانضمت الحشود من كل الجهات ، تحرك من اشبيلية غرة ربيع الآخر » (١) (من سنة ٥٨٧هـ — ١١٩١م) .

وكانت وجهة المنصور الموحدى فى هذه الغزوة مدينة قصر ابى دانس التى وصفها الادريسى بقوله : « والقصر مدينة حسنة متوسطة

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٤ .

على ضفة النهر المسمى شطوبر ، وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية كثيرا ، وفيما استدار بها من الارض كلها اشجار الصنوبر ، وبها الانشاء الكثير ، وهى فى ذاتها رطبة العيش ، خصبة كثيرة الالبان والسمن والعسل واللحوم ، وبينها وبين البحر عشرون ميلا »(١) .

وعندما وصلت جيوش الموحدين الى قصر ابى دانس ، قسمها الخليفة وفق نظام خاص ، وقام أهل الخدمة من العبيد بردم خندق المدينة من مختلف جهاته الاربعة ، وعندئذ زحفت حشود الموحدين الى سور المدينة ، إما لارتقائه عن طريق السلالم الخشبية واقتحام المدينة من إعلى سورها أو عن طريق فتح ثغرات فى السور تسهل عليهم مهمة النفاذ منها ، ولكن الحامية البرتغالية امطرت المهاجمين المسلمين وإبلا من النبال والحجارة (٢) ، وتسببت فى هلاك عدد كبير منهم ، الامر الذى دعا الخليفة الى اصدار امره بوقف القتال لمدة ثلاثة ايام لاعادة تنظيم صفوف المسلمين وتعديل خططه الهجومية . وفى اثناء ذلك «وصلت الاجفان البحرية بالعدد الحربية ، وقد تسابقت لدخول الوادى بتيسير يعجز العقول عن تكييفه ، ويشكر القدير سبحانه على احكامه وتصريفه ، فبهت الذى كفر ... فنصبت فى يوم وليلة اربعة عشر منجنيقا ، اذ كانت معدة بعد الفراغ من عملها ، فأحدق منها بالبلد منايا زاحفة ، وصواعق قاصفة ... »(٣) . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الاولى ، امر الخليفة جيشه بالهجوم من جديد على المدينة بكل عنف وضراوة ، وأخذ الموحدون يمطرون المدينة ورجال الحامية باعلى الاسوار بقذائف المناجيق ، فاسرع سكان المدينة بطلب الامان ، ونزلوا لمواجهة الموحدين صاغرين مستسلمين ، فدخلها عسكر الموحدين ،

---

(١) الادريسى ، صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ١٨١
(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٤ .
(٣) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

واستولوا عليها ، وأسر المسلمون من سكانها عددا رمزيا نقلوه بالمراكب الى اشبيلية اعلاما بانتصارهم العظيم على البرتغاليين . ثم شرع الخليفة فى النظر فى امر المدينة والحصن ، فولى عليه أبا بكر محمد بن أبى محمد سيدراى بن وزير . وما ان تم له ضبط المدينة وتنظيم احوالها حتى تركها الى حصن قلمالة (١) الذى وصفه ابن عذارى بأنه « من القلاع السامية الارتفاع ،الغريبة الارتفاق والانتفاع ، لايتمكن من منازلته جيش ، ولا يحسن بغيره بمجاورته عيش ، وقد ملأه الكافر ابن الرنك بانجاد رجاله ، وكماة ابطاله ... » (٢) ورغم ذلك فقد رأى المدافعون البرتغاليون استحالة التصدى لجحافل الموحدين ، فسلموا حصنهم فى الحال ، فى مقابل جلائهم عنه ، فوافق المنصور ، وانتهب عسكره كل ما كان فى الحصن من اثاث واقوات وسلاح وعدة وآلات ، ثم امر المنصور بهدمه ، فهدم وسوى بالارض ، ثم انتقل الموحدون الى حصن المعدن Almada (٣) فافتتحه وهدمه هو الآخر . وبادر سكان الحصون المجاورة باخلائها بعد ما عاينوه من قوة جيش الموحدين وصلابتهم فى الهجوم على قصر ابى دانس .

اما شلب فقد نهض اليها الموحدون بعد افتتاحهم لحصن المعدن ، فوصلوا اليها فى اليوم الثانى من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ ، فنصبوا المجانيق حول أسوارها ، وطوقوها تطويق السوار بالمعصم ، وسووا خنادقها بالردم،ثم أمطروا اسوارها بالرجوم«والبلاء يطرقهم (أى سكانها)

---

(١) وردت قلماله فى (ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٥) وصحتها بلمالة Palmala كما ذكرها الحميرى فى صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٥

(٣) يقع حصن المعدن جنوبى نهر تاجة قرب مصبه قبالة مدينة لشبونة، وسمى بذلك لانه عند هياج البحر كان يقذف بالذهب والتبر ، الذى يستخرجه الاهالى من الساحل فى فصل الشتاء . (انظر الادريسى ، ص ١٨٤) .

بالصواعق سحابه ، ويراوحهم ويغاديهم بضروب المنايا عذابه » (١) . وذكر الحميرى ان جيوش الموحدين « احدقت بها واخذت بمخنقها .. وجدوا فى قتالها ، وبالغوا فى نكاية اهلها » (٢) . وفى الخامس عشر من جمادى الآخرة ، استغل الموحدون غفلة الحامية عن الحراسة ، ظنا منهم ان المسلمين لا يقاتلون فى الصباح الباكر ، فأحس احد ادلاء المسلمين بغفلتهم عن الحراسة ، فتسلل وارتقى السور من ثلمة فيه ، وشد أزره جماعة من رفاقه ، فرفعوا به الرايات ، وقرعوا الطبول ، واخذوا يصيحون بالتكبير ، فلم يفق الحراس من نومهم الا وهم بين مطعون ومضروب ، فطلبوا الامان فى انفسهم على ان يسلموا المدينة ويخرجوا الى بلادهم ، فاجيبوا الى طلبهم ، فجلوا عن قصبة شلب فى ٢٥ من جمادى الآخرة (٣) .

واقام المنصور فى شلب ثلاثة أيام اخرى ثم تركها بعد ان قلد على ولايتها ابن وزير (٤) الى اشبيلية . وهكذا كان للنشاط المتزايد الذى سجله الخليفة الموحدى المنصور فى المجال العسكرى ضد البرتغاليين على وجه الخصوص ، وما احرزه عليهم من انتصارات ، وايثاره للجهاد فى سبيل الاسلام ، أعظم الاثر فى حماية ولاية الغرب من غزو وشيك ، والحفاظ على قاعدتيها الرئيسيتين : بطليوس وماردة ، فى ايدى الموحدين ، واسترجاع قصر ابى دانس وشلب من البرتغاليين . ثم كان انتصار الموحدين بقيادة الخليفة العظيم المنصور فى واقعة الارك سنة ٥٩١هـ (١١٩٤م) تتويجا لهذا النشاط الكبير ، ومقدمة لمزيد من الغزوات

---

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٨٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٨٦ . ومن الجدير بالذكر ان النص الوارد فى الروض المعطار للحميرى مبتور ولا يؤدى نفس المعنى فى النص الوارد فى البيان .

(٤) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج٦ ص ٢٤٥ .

والانتصارات ، الى ان بدا التصدع والانهيار بهزيمة العقاب فى سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) التى فتت فى عضد المسلمين ، وكان ذلك ايذانا بالنهاية المحتومة .

جـ ـ متابعة الجهاد فى بلاد الجـوف :

قضى المنصور فصل الشتـاء الذى تلى وقعـة الارك فى مدينـة اشبيلية (١) ، فلما انقضى فصل الشتاء واقبل الربيـع ، استنفر الخليفـة جميع القبائل من منازلها تاهبا لتمييزها ، وامر باعداد العدة لاستئناف الجهاد من جديد على نحو اشد حماسة ، واكثر شراسة عن ذى قبل (٢) . وقبل ان يقرر وجهته ويعلن عن هدفه استطلع المنصور آراء اعوانه من القادة واشياخ قبائل الموحدين حول الغزوة المقبلة ، فاشاروا عليـه بضرورة تامين بلاد الجوف نظرا لاهمية هذه المنطقة ، وتعرضها الدائم لاعتداءات البرتغاليين : فبطليوس تعرضت فى السنوات السابقة ، وخاصة فى عهد ابيه الشهيد ابى يعقوب يوسف ، كما سبق ان اوضحنا ، لغارات ملك ليون وملك البرتغال ، بل ان ملك قشتالة لم يتردد فى مهاجمة احوازها هو الآخر فى عـام ٥٨٥هـ ، ولذلك اخـذ الخليفة المنصـور بمشورتهم ، وعزم على الخروج فى هذه المرة تجاه الغرب او ما يسـمى

---

(١) اقام الخليفة يعقـوب المنصور فى حصن الفـرج Aznalfarache الواقع الى الجنوب الغربى من مدينة اشبيلية على الضفة اليسرى من نهر الوادى الكبير ، اذ كان يؤثر هذا الحصن على اى موضـع آخر فى نواحى اشبيلية (ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٩٨) . وعن حصن الفرج راجع :

L. Torres Bálbas, Aznalfarache, en al - Andalus, Vol. XXV, p. 223 - J. Guerrero Lovillo, al - Qasr al - Mubarak, en Boletin de Bellas Artes, Sevilla, 1974, p. 94.

وانظر : السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، جـ٢ ص ٨١٢ ، تحقيق أسماء قصور بنى عباد باشبيليـة الواردة فى شعر ابـن زيدون ، مجلة أوراق ، العدد الثانى ، ١٩٧٩ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٩٨ .

ايضا ببلاد الجوف ، وشرع في السير في جيوشه الموحدية في منتصف رجب سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥م) متجها من اشبيلية الى حصن منتانجش Montanchez ، وكان « من المعاقل الشاهقة الارتفاع ، المشهورة بالتوعر والامتناع » (١) باعتباره اهم حصون بطليوس ، واكثرها منعة ، وان الاستيلاء عليه يؤمن سلامة بطليوس ، ويضاعف من حمايتها . وبدات قوات الاندلس في محاصرته ، وفي اليوم التالي وصلت جيوش الموحدين وشددت الخناق عليه ، فلما ايقن حماته البرتغاليون بعبث المقاومة ، التمسوا الامان لانفسهم ، واستسلموا للموحدين ، فاحترم الموحدون عهودهم لهم واستامنوهم على ارواحهم ، الا ان جماعة من « اوباش العرب » هاجمتهم في الطريق ، وابادتهم عن آخرهم ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : « القوا بيد الاستسلام ، واعتقلوا بحبل الامام ، فاسعفوا فيما سالوه من الامان ، وامرا القائد ابا عبد الله بن صناديد بتوصيلهم الى حيث يامنون من انحائهم ، وعندما سار بهم مسافة فرسخ من المحلة غشيهم اوباش من العرب فوضعوا فيهم السيوف واستاصلوهم قتلا عن آخرهم ، وسبوا ما كان معهم من النساء والذرية » (٢) .

اثارت هذه الجريمة البشعة غضب المنصور ، فامر بسجن كل من عثر عليه من هؤلاء العرب الآثمين ، ورد النساء والاطفال الى اهليهم من جديد . ومما لاشك فيه ان هذه الحادثة اثارت الرعب في سائر بلاد الجوف ، بدليل ان اهالي هذه البلاد اخذوا يخلون بلادهم ويرحلون منها ، فسكان ترجالة (٣) Trujillo مثلا وهي من اقرب مدن الغرب الى بطليوس بادروا بالرحيل عنها ، كذلك اخذ سكان القرى المجاورة الى مغادرتها عندما بلغتهم اخبار حملة المنصور الموحدي على بلاد الجوف .

---

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٩ .
(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥١ .

وهكذا بذل يعقوب المنصور قصارى جهده لتامين بطليوس بعد ان كانت على حافة الوقوع فى ايدى البرتغاليين الذين كانوا قد جردوها من حصونها وما كان يحيط بها من مدن ، مثل منتانجش وترجالة والمعدن وقصر ابى دانس وطرش وشلب وباجة ويابرة ٠ ولكن المنصور تمكن من استرجاع معظم هذه الحصون والمدن ، وحقق للثغر البطليوسى الامن ولو الى حين ٠

وفى غرة جمادى الثانية من سنة ٥٩٤هـ (١١٩٧م) رحل المنصور الى بلاد المغرب بعد غزاته الثالثة فى الاندلس ، وكان ملوك اسبانيا المسيحية قد التمسوا مصالحته وموادعته ، وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ولما رات ملوك الروم ان بلادهم ورجالهم قد اتى عليها الاستيصال والاصطلام ، وان لا نجاة لها الا الرغبة فى الاستسلام ، وجهوا ارسالهم فى طلب الصلح على ما عهد من شروط الاحكام ، فاسعفوا فيه على حكم شريعة الاسلام » (١) ٠ وقبل سفره الى المغرب عمد الى تثقيف البلاد وضبطها بثقاب ولاته وعماله ، فولى على اشبيلية السيد ابا زيد ابن الخليفة ، وعلى بطليوس وجهاتها السيد ابا الربيع بن ابى حفص بن عبد المؤمن ٠ ولم يكتف الخليفة المنصور بتولية عماله على تلك المنطقة الهامة من الاندلس فحسب ، وانما اراد ان يطمئن ، كعادته دائما ، الى تطبيق العدالة وعدم اخذ الاهالى بالعسف ، ولهذا السبب امر جباة الضرائب بالتزام العدل فى جباية الاموال من الرعية (٢) ٠

وتوفى الخليفة العظيم ابو يوسف يعقوب المنصور ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الاول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير ١١٩٩م) ، وبويع ولده ابو عبد الله محمد الناصر خليفة من بعده للموحدين بيعة خاصة

---

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ٠

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٠٤ ٠

فى صباح اليوم التالى لوفاته (١) ، اما البيعة العامة فقد تمت بعد اسبوع ، وكان محمد الناصر قد بويع بولاية العهد فى حياة ابيه سنة ٥٨٦هـ ، اذ اختاره دون أولاده الآخرين (٢) .

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٥٣ - ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢١١ .

(٥)

بطليوس فى عهد خلفـــاء المنصـور

١ ـ ضعف دولة الموحدين فى عهد محمد الناصر ويوسف المستنصر :

بادر الخليفة محمد الناصر فى عام ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) بتفقـد انحاء دولته ، والاطمئنان على احوالها الدفاعيه ، فاصدر « أوامـره السلطانية الى سائر الاقطار الاندلسية بالحفز الاكيد على عمالها بالنظر فى الآلات الحربية » (١) . ومن الطبيعى أن نتصور ان بطليوس كانـت من أهم الاقطار الاندلسية التى أمر الخليفة بامدادها بالميرة والسلاح ، اذ كانت الخط الدفاعى الرئيسى عن وسط الاندلس ، وقاعدة الثغـر الجوفى ، فكان تحصينها والاهتمام بتامينها عسكريا ضرورة استراتيجية ملحة فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الاسلام فى الاندلس .

وفى شهر ربيع الاول من نفس عام ٦٠٠هـ اصدر محمد الناصر أمره بابدال ولاة بعض مدن الاندلس بآخرين ، فقد ولى ابا يحيى بن ابـى سنان على بطليوس وجهاتهـا وامره بالجـد والحماس فى تحصـين بطليوس . ثم ولى ابا محمد عبد الواحد بن يعقوب على مدينة شلب وبلاد غرب الاندلس (٢) .

وشهد محمد الناصر هزيمة المسلمين الشنعاء فى العقاب فى سـنة ٦٠٩هـ ، وكان حادثة مفجعة فى تاريخ الاندلس ترتبت عليها نتائج خطيرة اذ لم تقم للمسلمين فى الاندلس بعدها قائمة تحمد ، وادت الى انهيار حكم الموحدين فى الاندلس . وعرفت هذه الواقعة ايضـا فى المصادر المسيحية باسـم لاس نافاس دى تولوسـا Las Navas de Tolosa

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢١٨ .

(٢) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ص ٢١٨ .

كما عرفت ايضا بموقعة أبدة Ubeda لوقوعها على مقربة من هــذه المدينة . وكانت خسائر الموحدين فى تلك الموقعة فادحة للغاية . ويرجع بعض المؤرخين هزيمة العقاب الى اسباب مادية ومعنوية الى جانب اسباب تقليدية معروفة تعتبر عادة السبب المباشر فى هزيمة اى جيش ، فانقسام الجيش الموحدى على نفسه ، وعدم التجانس بين العناصر المكونة له ، وافتقاده لقادة تتوفر لديهم البراعة والحنكة العسكرية من اهــم الاسباب التقليدية لهزيمة العقاب . ومن الاسباب المعنوية والنفسية سخط الجند على كبار قادتهم وامرائهم بسبب تاخر تسلمهم لاعطياتهم الامــر الذى ادى الى خروج الجند للقتال وهم كارهون له ، يضاف الى ذلك ان الخليفة محمد الناصر لم يكن يهتم بمشاعر العناصر الاندلسية فى جيشه ، فقد امر بقتل ابى الحجاج يوسف بن قادس قائد قوات الاندلس بسبب تسليمه قلعة رباح للنصارى دون أن يستمع الى مبرراته فى ذلك كما هدد سائر اجناد الاندلس باخراجهم من الجيش مما اثار فيهم مشاعر السخط ، ونمى فيهم روح الهزيمة ([1]) ، وكانوا من اهم عناصر الجيش الموحدى لمعرفتهم باساليب النصارى فى القتال . وكان زهو محمد الناصر بضخامة جيوشه ، واغتراره بعظم قواته ، واغفاله للحذر والاحتراز من الاسباب التى ساعدت على انهزام المسلمين فى العقاب .

ثم توفى محمد الناصر فى العاشر من شعبان عام ٦١٠هـ بعد ان ترك دولة الموحدين على حافة الهاوية ، فلم تلبث ان طحنتها الفتن والنوائب ، وشملها الضعف والاضطراب فى المغرب والاندلس الامر الذى ساعد الممالك المسيحية على انتزاع اهم قواعد الاندلس شرقا وغربا ، وانتهى الامــر بالاستيلاء النصارى على معظم قواعد الاندلس .

وقد عجلت حالة التفكك والتطاحن والانقسام بين افراد بيت عبد المؤمن بن على بالانهيار السياسى الذى اصاب دولة الموحدين فى المغــرب

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٢٠ .

والاندلس عقب هزيمة العقاب ، وبدات الخلافات بين افراد اسرة عبد المؤمن طمعا في الخلافة تتحول الى حرب اهلية طاحنة مما كان له اعظ الاثر في التعجيل بنهايتها المحتومة • فقد خلف محمد الناصر على الخلا الموحدية ولده يوسف المستنصر في اليوم التالى لوفاته (١) • واختلف المصادر العربية في تقدير سنه يوم بيعته عقب وفاة ابيه ، فبعضهم يذ انه كان في العاشرة من عمره ، ومنهم من يجعله في السادسة عشرة وايا ما كان الامر فلم يكن المستنصر عند توليه الخلافة سوى غلاما حد مجردا من المؤهلات الاساسية التى تضمن لصاحبها ان يسوس امبراطور الموحدين في المغرب والاندلس • وقد وصفت المصادر العربية هذا الخلي بانه كان شابا لاهيا عابثا ، يميل الى حياة الدعة والترف (٢) •

ويسجل عهده بداية ظهور دولة بنى مرين في المغرب ، وبداية الصراع بينهم وبين الموحدين ، ومن اهم المواقع التى خاضها الموحد معهم موقعة المشعلة التى انتهت بهزيمة الموحدين امام بنى مرين احواز فاس في عام ٦١٣هـ(١٢١٦م) ،وكان ابراهيم بن الفخار الاسلامى (وزير ملك قشتالة قد وصل قبل هذه الهزيمة بنحو عام ، رسولا م قبل ذلك الملك بشأن عقد السلم ، « فانعم المستنصر بالله بذلك ، وو كتابين اثنين ، احدهما الى السيد ابى الربيع صاحب جيان ، والث للشيخ ابى العباس بن ابى حفص والى قرطبة ، ومقتضاه عقد السلم والموادعة مع ملك قشتالة اخزاه الله على جميع بلاد الموحـ

---

(١) في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر ١٢١٣م (ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج٦ص ٢٥٠) •

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٣٢٥ •

(٣) هكذا وردت في البيان المغرب (القسم الثالث ص ٢٤٤) وصحة اليهودى بدلا من الاسلامى ، وقد سبق ان ارسل ملك قشتالة ا يوسف بن الفخار اليهودى الى يعقوب المنصور لتجديد الص مع الموحدين في سنة ٥٨٧ •

بالاندلس على الشروط التى عدوها ، والعهود التى عقدوها ، فالتزم اليهودى لعنه الله ما لزم ، وانعم بما عقد من الامر وابرم ، فصلحت البلاد الاندلسية فى هذه السنة من جهة المهادنة ، ووليها كبراء السادة واشياخ الموحدين » (١) .

ويرجع السبب فى حرص مملكة قشتالة على طلب هذا الصلح ، رغم انتصارها الساحق على المسلمين فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ ، أن احوالها الداخلية فى تلك السنوات الاخيرة كانت قد تدهورت للغاية ، فقد تفشى فى مملكة قشتالة وباء خطير اهلك كثيرا من سكانها (٢) ، كما شملتها موجة عنيفة من المحل والقحط (٣) ، وحدث أن توفى الفونسو الثامن ملك قشتالة فى عام ٦١١هـ (١٢١٤م) اثناء ذهابه للقاء ملك البرتغال فى بلدة بلازنثيا الواقعة على حدود مملكته ، وكان هذا الاجتماع يستهدف توثيق أواصر الصداقة بين الممالك المسيحية المختلفة ، ولكن القدر لم يمهل الفونسو الثامن ، فقد توفى فى طريقه اليها ، ودفن فى دير لاس ويلجاس أو الدير الملكى ببرغش Burgos . ولما كان الفونسو الثامن قد انجب اربعة ابناء لم ينبق منهم على قيد الحياة سوى هنرى الاول أصغرهم الذى كان وقت وفاة ابيه فى العاشرة من عمره ، فقد تولت امه الملكة اليئورا الوصاية عليه (٤) لفترة قصيرة للغاية ، اذ مالبثت أن توفيت عقب وفاة زوجها الملك الفونسو الثامن بأيام قلائل (٥) ، وعندئذ تولت الوصاية على الملك الطفل « هنرى الاول »

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٤

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٣٤

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٤ – يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٨٦ .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٣٣ – يوسف اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

(٥) اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

اخته الكبرى برنجويلة ، وكانت مطلقة الفونسو التاسع ملك ليون ، واثارت وصايتها على هنرى الاول مشاكل عديدة فى مملكة قشتالة كادت ان تزج بها فى حرب اهلية . ثم حسم الامر وفاة هنرى الاول وهو فى الرابعة عشرة من عمره فى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) (١) ، وعندئذ اعلنت برنجويله نفسها ملكة على قشتالة ، وفى عهدها « تجددت المهادنة والمصالحة بين ولاة الاندلس من السادة الموحدين بامر المستنصر بالله وبين النصارى — دمرهم الله — وكتب الوزير ابو يحيى زكريا بن ابى زكريا لملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة كتابا من انشاء ابن عياش يخبرها بالسلم الذى انعقد بينه وبين رسولهم » واورد ابن عذارى نسخة منه (٢) .

ثم استقدمت برنجويله ولدها فردلند من زوجها السابق الفونسو التاسع ملك ليون ، وتنازلت له عن الملك ، فاصبح ولدها فردلند ملكا على قشتالة تحت اسم فرنانده الثالث (٣) . وبسبب كل هذه الاحداث السابقة كان على مملكة قشتالة ان تعمل على تحييد المسلمين بطلب الصلح والمهادنة لتتفرغ لتنظيم احوالها الداخلية .

ب — سقوط قصر ابى دانس فى ايدى البرتغاليين :

انتهزت مملكة البرتغال فرصة الضعف الذى حل بدولة الموحدين عقب هزيمتهم الشنعاء فى العقاب وظهور دولة بنى مرين فى المغرب ومناوءتها للدولة الموحدية ، وبدات فى تنفيذ اطماعها التقليدية فى الاستيلاء على ولاية الغرب وضمها الى املاكها ، بما فى ذلك بطليوس

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٨ — ٣٩١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٦ .

(٣) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ص ٣٩١ — محمد عبد الله عنان عصر الموحدين ، ص ٣٣٤ .

حاضرة الغرب ، فقد ذكر ابن أبى زرع أنه فى سنة ٦١٤هـ انهزم المسلمون فى قصر ابى دانس على أيدى البرتغاليين هزيمة سنعاء نقارب هزيمتهم فى العقاب لان العدو كان قد نزل على هذه المدينة وحاصرها ، فخرج جيش اشبيلية وجيش قرطبة وحشود بلاد عرب الاندلس بأمر يوسف المستنصر لاعادته واستنقاذه (١) ، فكانت الكارثة . ونستدل مما ذكره ابن أبى زرع على أن تهديد البرتغاليين لقصر أبى دانس ، واستيلاءهم عليه كان يشكل بالنسبة للموحدين كارثة لاتقل فى حجمها عن كارثة العقاب سنه ٦٠٩هـ . فباستيلاء البرتغاليين على هذا الثغر أصبح الطريق امامهم مفتوحا للسيطرة على سائر حواضر الغرب الاخرى مثل بطليوس وماردة وقاصرش .. الخ . ومن هذا المنطلق حشد الموحدون جيوشهم باشبيلية وجيان وقرطبة وبلاد غرب الاندلس للتصدى لهذا الهجوم الغادر واستنقاذ قصر ابى دانس . ولكن هذه الجهود التى بذلها الموحدون للحفاظ على قصر ابى دانس ضاعت عبثا ، فبمجرد ان عاين عسكر الموحدين حشود اعدائهم حتى دب الرعب فى أوصالهم وتذكروا هزيمة العقاب ، فالتمسوا النجاة بأنفسهم وبادروا بالفرار ، وولوا الادبار ، وقوات البرتغاليين من ورائهم تحصد فلولهم ، وتمزق جموعهم ، وتفتك بهم حتى ابادتهم عن آخرهم . ولكن عبد الله بن أبى بكر بن وزير والى قصر ابى دانس أظهر شجاعة فائقة واستمات فى الدفاع عن مدينته ، فقد اعتمد على مناعة تحصيناتها فى التصدى للعدو البرتغالى . وعندما تبين له ان الحصار الذى فرض على قصر ابى دانس قد تحول من مجرد حصار وضعه البرتغاليون بقصد الاستيلاء عليها الى حصار صليبى (٢) شامل لهذه المدينة يستهدف القضاء على قوى المسلمين تمهيدا للسيطرة

---

(١) ابن أبى زرع ، الانيس المطرب بروض القرطاس ، ص ١٦١ .

(٢) استعان البرتغاليون باسطول صليبى يحمل حشدا من الالمان كانوا فى طريقهم الى الاراضى المقدسة لمقاتلة المسلمين بحكم أنهم (أى البرتغاليين) كانوا يمارسون حربا صليبية ضد الاسلام فى الاندلس.

على الغرب كله ، اخذ يستصرخ الموحدين باشبيلية ملتمسا النجدة ، فبادر الخليفة الموحدى المستنصر بتوجيه الجيوش التى اسرنا اليها ، ولكن قوات الموحدين لم تستطع ان تواجه جحافل البرتغاليين والصليبيين مجتمعة والتى كانت تشكل كثرة عددية فاقت قوات المسلمين عددا ، فانهزم المسلمون بقصر ابى دانس ، « واستشهد فى هذه الكارثة من المسلمين مايزيد على ستة عشر الفا » (١) . وعلى الرغم من عظم الخسائر التى تعرض لها المسلمون فى الارواح والسلاح فان البرتغاليين لم يتمكنوا من اقتحام المدينة ، وظلت صامدة تقاوم بشراسة وعنف ، فى حين اخفق العدو فى مجرد فتح ثلمة فى سورها ، فاضطر المهاجمون الى صنع ابراج عالية تفوق فى ارتفاعها ارتفاع اسوار المدينة ، تم شحنوها بالفرسان والرماة ، واخذوا يقذفون المدينة بالرماح والنبال ، وفى ذات الوقت تعرضت أسوار المدينة لقذائف مجانيقهم ، وعندئذ فقط ادرك اهالى قصر ابى دانس أن نهايتهم أصبحت وشيكة ، فطلبوا الامان لانفسهم فى مقابل التسليم على أن يسمح لهم النصارى بمغادرة البلاد حاملين معهم امتعتهم وأموالهم ، فاستجاب النصارى لرجائهم ،ومنحوهم امانا على انفسهم على أن يخرجوا من بلدهم آمنين بدون أمتعة أو ثياب أو أموال ، وتم ذلك فى رجب سنة ٦١٤هـ (١٨ أكتوبر ١٢١٧م).
ويسوق الحميرى رواية موجزة توضح كيف سقطت قصر ابى دانس . فيقول : « قصر ابى دانس ، فيه كانت الوقيعة على المسلمين للروم فى سنة ٦١٤هـ ، واعانهم أهل الاشبونة وغيرها من مملكة ابن الرنق ، فاخذوا فى نقب الارض تحت الحصن الى ان قنطوا ، وافضى الناس الى الهلكة ، وبلغ الامر الى الولاة الذين فى غرب الاندلس واشبيلية وقرطبة وجيان ، فتجهزوا لدفاع العدو ، وجاء منهم جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا منهزمين ، ووقع القتل والاسر ، ولم يحرز للمسلمين من الروم الا نحو سبعين فارسا ،

---

(١) ابن أبى زرع ، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، الرباط، ١٩٧٢ ، ص ٥٠ .

ورای اهل الحصن ذلك ، فايقنوا بالتغلب عليهم » (١) . اما عبد الله بن وزير والى المدينة فقد استسلم للبرتغاليين ، وزعم انه تنصر حتى يستميل النصارى الى أن يتمكن من النجاة ، وبالفعل لم تمض ايام قليلة حتى فر من معسكرهم الى دار الاسلام (٢) . اما صاحب روض القرطاس فيسوق روايتين ، جاء فى الاولى ما يلى : « وفى سنة خمس عشر وستمائة دخل الفنش ملك قشتيلة قصر ابى دانس بالسيف » (٣) . وأما الثانية فقد جاء فيها : « ورجع الفنش الى قصر ابى دانس ، فحاصره حتى دخله بالسيف ، وقتل كل من به من المسلمين » (٤) .

ومن هذين النصين اللذين اوردهما ابن ابى زرع يتبين لنا ان كليهما غير صحيح ، ففى سنة ٦١٥هـ الموافقة لعام ١٢١٨م ، لم يكن ملك قشتالة هو الفنش ، والمقصود به هنا الفونسو الثامن النبيل كما ورد فى النصين اللذين اوردهما ابن أبى زرع ، لان الفونسو المذكور كان قد توفى فى سنة ٦١١هـ (اكتوبر ١٢١٤م) وخلفه على ولاية العهد كما سبق ان ذكرنا ولده هنرى الاول الذى كان طفلا ، ثم توفى هنرى الاول فى عام ١٢١٧م ليخلفه على عرش قشتالة فرناندو الثالث ولد الملكة برنجويله Berenguela التى تنازلت له عن العرش (٥) .

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٤٠ . وقد علق ابن الابار فى ترجمته لعبد الله بن ابى بكر بن وزير أن أمره قد انتهى باشبيلية حين قبض عليه بأمر محمد بن يوسف بن هود المتوكل ، وعلى اهل بيته ، وقد قتل هو وأخوه ابو عمرو عبد الرحمن اثر منصرفه من الوقيعة العظمى عليه بماردة من الثغر الجوفى فى سنة سبع وعشرين وستمائة (انظر ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ص ٢٩٦) .

(٣) ابن ابى زرع ، الذخيرة السنية ، ص ٥١ .

(٤) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٦١ .

(٥) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٩٢ .

كذلك لم يكن المقصود بالفنش فى نص ابن ابى زرع الملك الفونسو التاسع ملك ليون الذى لم يكن يتطلع سوى الى السيطرة على بطليوس وماردة من بلاد الغرب ، اما قصر ابى دانس فكانت هـدف ملك البرتغال . ونميل الى الاعتقاد بان المقصود بالفنش الوارد ذكره فى نص ابن ابى زرع الملك الفونسو الثانى بن سانسو الاول ، وكان قد خلف اباه على عرش البرتغال فى سنة ١٢١١م (١) ، ودام حكمه حتى سنة ١٢٢٣ . وكان الفونسو الثانى ملك البرتغال قد شارك ملوك اسبانيا المسيحية والفرنجة فى وقعة العقاب (٢) . ويؤكد لويس شوارث انه هو الذى استغل مرور احدى الحملات البحرية للصليبيين على سواحل بلاده وطلب منهم الاشتراك مع قواته فى فتح قصر ابى دانس ، فحاصرتهم قواته البرتغالية وقوات حلفائه الصليبيين فى ٣ اغسطس ١٢١٧ ، واستمر الحصار شهرا ونصف الشهر وانتهى بموقعة عنيفة اسفرت عن هزيمة المسلمين واستسلام اهلها فى ١٨ اكتوبر سنة ١٢١٧ ، وتبع سقوطها فى ايدى البرتغاليين سقوط عدد من المراكز الامامية ومن بينها مدينة شربة Serpa ومورة Moura (٣) .

جـ — محاولات الليونيين افتتاح قاصرش :

كان الفونسو التاسع ملك ليون قد خرج فى سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) اى بعد الانتصار الساحق الذى احرزته قوى المسيحية فى اسبانيا على قوى الموحدين فى موقعة العقاب ، لمساعدة الفونسو الثامن بطل تلك الموقعة ، فى فتح قرطبة واشبيلية ، ولكن الفونسو التاسع لم يكن مخلصا للفونسو الثامن ، ولذلك فانه اتجه الى بلاد الغرب من جهة قورية ، وتمكن من التغلب على قنطرة السيف ، ثم تابع سيره جنوبا ، وفى نيته غزو

---

(١) Crónica General de España, p. 653.

(٢) Aguado Bleye, Manual de la historia de España, t. I, p. 659.

(٣) Luis Suárez, Historia de España, edad Media, p. 277.

قاصرش ، ولكنه تركها ، وتابع زحفه الى ماردة ، واضطر الى القفول عائدا الى بلاده بعد أن القى نفسه قد توغل فى بلاد المسلمين ، وخشى أن يتعرض لانخذال لم يحسب لها حسابا (١) .

ورأى الفونسو التاسع ملك ليون أن يصفى حساباته أولا مع ملك قشتالة قبل أن يقدم على مثل تلك المغامرة ، وبالفعل تمكن فى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) من عقد هدنة لمدة عامين مع فرناندو الثالث القديس ملك قشتالة وهو فى نفس الوقت ابنه من دينا برنجويلة ، وبذلك انهى خلافاته معه ، وعقد فى أغسطس سنة ١٢١٨م (٦١٥هـ) معاهدة سلام دائم بين قشتالة وليون (٢) . وعندئذ تفرغ لتحقيق هدفه بعيد المدى وهو السيطرة على قاصرش ومدن الغرب المجاورة . وترجع اهمية قاصرش بالنسبة لمملكة ليون الى انها تحمى حصن القنطرة الذى كان فى ذلك الوقت مركزا لجماعة فرسان القنطرة (٣) ، ولهذا السبب بدأ حصاره لقاصرش فى منتصف نوفمبر ١٢١٨م (٦١٥هـ) ، ولكن المدينة الاسلامية قاومته ببسالة مما اضطره الى رفع الحصار عنها فى ديسمبر من نفس السنة . ثم عاود الفونسو التاسع حصاره لقاصرش فى سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٢م) بمساعدة فرسان سانتياجو ، ولكن الفونسو التاسع عاد من جديد الى رفع الحصار عنها للمرة الثانية لما أبدته المدينة وأهلها من بسالة فى الدفاع والمقاومة . وواصل الفونسو التاسع تطلعه الى تحقيق هدفه فى الاعوام التالية : ١٢٢٣م (٦٢٢هـ) ، ١٢٢٥م (٦٢٣هـ) ، ١٢٢٦م (٦٢٤هـ) وانتهى الامر بسقوط قاصرش فى أيدى الليونيين بمساعدة بعض القشتاليين فى عام ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) (٤) . وبسقوطها انفتح الطريق أمامه للاستيلاء على أهم معاقل الغرب : منتانجش وماردة والبش وبطليوس .

---

(١) Aguado Bleye, Manual de la historia de España, P 656.

(٢) Ibid. p. 657.

(٣) وانظر إيضا محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٣٤٠ .

(٤) Aguado Bleye, op cit p. 627
Aguado Bleye, Manual de la historia de España, p. 627

(٦)

سقوط بطليوس فى ايدى الليونيين سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م)

أ - انهيار سلطان الخلافة الموحدية فى الاندلس :

توفى يوسف المستنصر بمراكش فى ١٢ ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ [١] . (١٢٢٣م) ، وكان سابا لاهيا يميل الى الاستمتاع بملذات الحياة ، كما فوض امور دولته لسفلة القوم وسفهائهم ، فضعفت دولة الموحدين فى عهده واضمحلت ، وبدات تفقد املاكها فى الاندلس ، لاسيما وانه لم يخرج قط من حاضرته مراكش الا الى تينملل للتبرك بالمهدى [٢] . وبوفاته اضطربت احوال دولة الموحدين ، ودب الخلاف بين افراد الاسرة ، واشتد تنافسهم للظفر بعرش الخلافة مما اتاح المجال لقيام الثورات فى الاندلس ، وعرض مدنها للوقوع لقمة سائغة فى براثن ممالك اسبانيا المسيحية . فعبد الله بن يعقوب المنصور الملقب بالعادل نازع ابا محمد عبد الواحد الذى خلف المستنصر على خلافة الموحدين ، ولم يلبث عبد الواحد ان خلع فى ٢٠ شعبان من سنة ٦٢١هـ ثم قتل خنقا بعد خلعه بثلاثة ايام [٣] . اما العادل فلم ينعم طويلا بالخلافة ، اذ ثار عليه اخوه عبد الله البياسى الذى استعان بمملكة قشتالة لمحاربة اخيه ، فاضطر العادل الى مغادرة الاندلس الى المغرب بعد ان فوض لاخيه ابى العلاء ادريس مهمة النظر فى شؤونها .

وكانت ظروف الاندلس قد ساءت الى درجة كبيرة لاسيما بعد غارات الليونيين على اشبيلية والشرف Aljarafe وطلياطة [٤] Tablada

---

(١) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٦١
(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٤٧ .
ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٤٧ .
(٤) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) ، واخذت الاندلس تموج بالفوضى والاضطراب، لاسيما بعد ان ثار ابو العلاء ادريس هو الآخر على اخيه العادل ، وخلع طاعته ، واعلن الدعوة لنفسه فى شوال سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧) . أما العادل فقد كان مصيره سيئا ، اذ قتل على ايدى أشياخ الموحدين (١). ثم بايع الموحدون فى المغرب للمأمون اخى العادل ، ولكنهم نكثوا بيعتهم له خشية ان يطالبهم بثأر من قتلوه من قرابته ، وآثروا مبايعة يحيى ابن اخيه لصغر سنه . وقامت الحرب بين المأمون وابن اخيه ، ثم توفى المأمون ، وخلفه ولده الرشيد .

مهدت هذه الحوادث المؤسفة لانهيار دولة الموحدين فى الاندلس ، وتمزق وحدتها ، وقيام الثورات على الموحدين . وشهد اهل الاندلس تلك الصورة المحزنة أمامهم : فمن صراعات شخصية على الخلافة الى فتن وثورات ترتبت على هذه الصراعات وتسببت فى نسيان الموحدين لواجبهم الدينى وهو الجهاد . وعندئذ ظهر من بين أهل الاندلس زعيمان كان لهذا الفضل فى محاولة جمع صفوف المسلمين فى الاندلس ، ولم شعثهم هما : محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، ومحمد بن يوسف بن نصر . وكل ما يهمنا فى تلك الاحداث ان بطليوس خلعت طاعة الموحدين فى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) وانضمت الى دعوة ابن هود ، وحذت ماردة حذوها (٢) . وكانت بطليوس قد عانت كثيرا فى الفترة الاخيرة من حكم الموحدين ، واذا كانت قد تعرضت باستمرار لاعتداءات البرتغاليين فى عصر خلفاء الموحدين العظام ، فانها مرت بفترات مظلمة فى عصر اضمحلال دولة الموحدين .

---

(١) ابن ابى زرع ، ص ١٦٥ وما يليها ـ ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(٢) محمد احمد عبده أبو الفضل ، شرق الاندلس فى عصر دولة الموحدين رسالة دكتوراه) ص ١٧١ .

ب ـ سقوط بطليوس فى أيدى الليونيين :

عرضنا فيما سبق لاحداث بطليوس والغرب من وجهة النظر الاسلامية ولكن علينا كذلك ان ننظر الى هذه الاحداث من خلال منظار المصادر المسيحية لنستطيع ان نلم بكل زوايا الحقيقة التاريخية الكاملة .

فعندما تمكن البرتغاليون من ايقاع الهزيمة الشنعاء بمسلمى قصر ابى دانس فى عام ٦١٤هـ طلب أسقف طليطلة المؤرخ رودريجو خيمنث دى رادا من البابا هونوريوس الثالث فى سنة ١٢١٧م (٦١٤هـ) أن يمنحه الحق فى انشاء عدد من الكنائس التى تقرر تاسيسها فى مدن تلك المنطقة ، ومن بينها شيون Chillon (١) و (المعدن) ، ومكناسة Migneza (٢) وأم غزالة Magazela (٣) ، ومدلين Medellin ، وترجلة Trujillo وزفرة Zafarez (٤) . وفى عام ١٢١٧م (٦١٤هـ) نفسها منح الفونسو

---

(١) تقع شيون بالقرب من مدينة المعدن ، وكانت زمن المسلمين غنية للغاية بمعادنها ، لاسيما معدن الزئبق ، ولاتزال حتى اليوم تحمل اسمها الفينيقى القديم Sisapo الذى يعنى المعدن ، ومنها كان يمر الطريق من ماردة الى طليطلة ، والملاحظ أن اسمها العربى «المعدن» يحمل نفس المعنى الذى تحمله أسماؤها الاخرى (انظر :
(Martinez y Martinez, historia, p. 27).

(٢) تقع Migneza فى نفس الموضع الذى يسميه الادريسى «مكناسة» ، ويرى مارتينث اى مارتينث أن موضع مكناسة يعرف باسم مرتفع مكناسة Cerro de Migneza وهو نفس الراى الذى يميل سافدرا الى الاخذ به ، ويقع مرتفع مكناسة المذكور على الضفة اليمنى من وادى تاجة فى ملتقى الطرق من ترجلة وسمورة وطلبيرة .

(٣) أم غزالة Magazela كانت تسمى قديما Contosolia ، وتقع على الطريق الرومانى من ماردة الى قرطبة ، وبها حصن قديم كانت له أهمية استراتيجية عظمى فى هذه المنطقة الثغرية التى طالما غزاها الفونسو الثامن ، خاصة عند احتلاله لترجلة ومدلين (انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ١٧٦ ـ
(Martinez y Martinez, op. cit p. 272).

(٤) زفرة Zafarez تقع على نهر تيتر Teitar ، وربما كانت هى نفس مدينة Jaracs الحالية ، أما نهر تيتر فهو النهر الذى ورد ذكره فى أخبار مجموعة (ص ٣٠) بمناسبة التقاء طارق بن زياد بموسى بن نصير بالقرب من طلبيرة .

التاسع ملك ليون امتيازا لمرنين فرناندث رئيس جماعة فرسان قلعة رباح حصن القنطرة بكل نواحيه المتاخمة للبرتغال ، وقورية وجالستيو والقنيطرة ، وكان الهدف من هذا الامتياز اجتذاب نظام فرسان قلعة رباح الى مملكة ليون من جهة ، وتدعيم الدفاع عن مدينة القنطرة من جهة أخرى ، ولهذا فقد هاجم الفونسو التاسع مدينة قاصرش فى عام ٦١٥هـ وكانت لاتزال فى أيدى الموحدين •

وفى هذه المنطقة الواقعة بين القنطرة وبطليوس ، تقع مدينة كركر Albuquerque التى كان نظام فرسان سانتيا جو قد ضمها اليه فى سنة ١١٧١م (٥٦٦هـ) ، ثم استردها المسلمون فى حملة سنة ٥٧٩هـ (١١٨٤م) • وكانت كركر آنذاك مهجورة لان قربها من القنطرة صعب مهمة الدفاع الاسلامى عنها ، وفى أواخر عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) تمكن الفارس البرتغالى Alfonso Teliez de Menses وكان متزوجا من الابنة غير الشرعية للملك سانشو الاول ملك البرتغال ، من الاستيلاء على حصن كركر ، واسكن فيه مواليه واتباعه ، بالاضافة الى بعض البرتغاليين ، وقام بترميم الاسوار والتحصينات بقدر أمكانه حتى يمكنه ان يتصدى للغارات التى كان يشنها المسلمون من بطليوس • ويؤكد مارتينث اى مارتينث ، استنادا الى ما أورده لابولا ، أن بطليوس منذ عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) كانت تشكل خطرا جسيما على الفونسو تييث Alfonso Tellez الذى تولى حكم كركر لمدة سبع سنوات ، لاسيما وانه لم يتلق أى معونة من القنطرة ولا من البرتغال •

ومما لاشك فيه أن استيلاء نظام جماعة فرسان قلعة رباح على القنطرة كان يشكل صعوبات جمة لمملكة ليون ، ذلك أن هذا النظام كان يتلقى أجوره من قشتالة ، وفى هذه الحالة لم يكن فرنانده الثالث ملك قشتالة ليرضى أن يستخدم النظام المذكور هذه الاموال فى الدفاع عن القنطرة وكان من المفروض أن تستغل هذه الاموال فى تحصين المواقع التى كان يحتلها فرسان هذه الجماعة داخل نطاق مملكته ، وعندئذ وازن الفونسو

التاسع الفائدة والخسارة فى هذا الموضوع ، فلكى يستطيع فرسان قلعة رباح الدفاع عن الحدود الليونية ضد المسلمين ، وتكريس جهودهم على وجه الخصوص للتمسك بالقنطرة والدفاع عنها ، قدم لهم هبة فى ٦١٥هـ (يناير ١٢١٨م) قوامها قطاع فى مدينة البه دى توربس Alba de Torbes وبعض اقطاعات أخرى كان يمتلكها الملك فى جاما ، ويبدو أن فرسان قلعة رباح لم يتمكنوا من ارضاء أى من الملكين ، ولهذا فقد اندمجوا فى نظام سان خوليان دل بيريرو بعد أن تنازلوا له عن الموقع (أى عن مدينة القنطرة) وعن كل أملاكهم وامتيازاتهم فى مملكة ليون .

وعندئذ رأى الملك الليونى الفونسو التاسع ، أنه أصبح من الضرورى التوسع فى نظام فرسان سان خوليان الذى سمى منذ ذلك الحين بنظام فرسان القنطرة . وتحقيقا لهذا الهدف غمر الفونسو التاسع نظام فرسان القنطرة بالهبات التى شجعتهم على تعمير المناطق الثغرية التابعة لها ، كذلك قام الملك الليونى بانتزاع بعض الاقطاعات من جماعة فرسان المعبد فى عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م) ليمنحها لنظام فرسان القنطرة . وتجنبا لما يمكن أن ينشب من نزاع بين النظامين ، منح الملك لفرسان المعبد (الداوية) مدينة البه دى اوستى Alba de Auste ، كما منح فى ١٢ اكتوبر من السنة نفسها لنظام فرسان القنطرة الحق فى تلقى رسم عبور بعض مواضع من جليقية حتى يتيح لهم العائد الانفاق على الترميمات الهامة فى حصن القنطرة . وفى نفس الوقت منح نفس النظام حصن ميلانا Milana وخول له امتيازا يقضى بمنحه حق بيع الحصون والمواضع التى يغنمونها مستقبلا من المسلمين فى الثغر الجوفى (استراما دورة ـ ايون) .

وهكذا ازدهر نظام جماعة فرسان القنطرة ، واصبح فى ظروف افضل للهجوم على المسلمين المرابطين على الحدود . وفى ربيع تلك السنة (٦١٧هـ) استولى جماعة فرسان القنطرة على بلدة بلنسية القنطرة ، وعلى الرغم من أن الاخبارى توريس يشير الى أن نظام القنطرة دخلها عنوة الا أن الارجح أنها كانت مهجورة أو على الاقل كانت خالية من

السكان كالشان فى بلدة كركر التى عمرهـا الفونسو تيبث Alfonso Tellez وكما كان الحال فى عدد من المواضع الصغيرة الواقعة فى المناطق الامامية من الحدود . ويسوق مارتينث اى مارتينيث رواية نقلها عن حوليات طليطلة هى مثل صارخ لفئة من المغامرين المسيحيين كانوا يخرجون فى قوة من اصحابهم لاحتلال بعض هذه الحصون المهجورة من اصحابها ، فيحصنونها ويتخذونها قواعد عسكرية امامية لهم ، وجاء فى الحوليات المذكورة فى سياق حادثة وقعت فى شهر اغسطس من نفس السنة نصها : « وجاء سانشو فراندث Sancho Ferrandez ابن الملك فرنانده الثانى ملك ليون ابن الامبراطور الى طليطلة ، وقال انه سيمضى الى ملك مراكش وسيسبب له خسائر كثيرة ، فصدقه عدد كبير من المسيحيين واليهود ، فطلب منهم ان يصحبوه الى اشبيلية ، ووعدهم بأن يدفع لهم هناك ، فاستجابوا له ظنا منهم انه سيمضى بهم الى اشبيلية ، ولكنه ضل السبيل ، ووصل الى كانيا ميرو ، وهو حصن عظيم ، وسكنه هو وأصحابه ، وتسبب فى الحاق كثير من الاضرار بالمسلمين . وفى يوم الثلاثاء وبينما كان سانشو فراندث بأعلى جبل هاجمه دب وقتله ، وفى اليوم الثالث (الخميس) جاء ملك بطليوس Badalloz فى قوة كبيرة من المسلمين واستولى على كانيا ميرو وذبحهم جميعا وكان ذلك فى يوم ٢٥ اغسطس ».

وواضح من النص السابق أن سانشو فراندث الذى كان مكروها من اخيه ملك ليون رحل الى طليطلة للبحث عن رجال يشاركونه المغامرة على غرار المغامر الفونسو تيبث فى كركر ، وبعد أن خدع الكثيرين ووعدهم بالسير الى اشبيلية حيث يتلقون من أميرها الموحدى مرتبات ضخمة ذهب معهم لتعمير موضع من استرامادوره يقع على الحدود المهجورة التى لايقدم على الاقامة فيها ونزولها أحد سواء من المسلمين أو من المسيحيين ، وكان الموضع الذى نزله سانشو من العزلة بحيث كانت تأوى اليه الوحوش ، ولا شك ان الجبل الذى هاجمه فيه الدب هو جبل وادى لب Guadalupe وكانت تكسوه غابة تسكنها الوحوش ، وفى سنة ٦١٩هـ (١٢٢٢م) قرر الفونسو التاسع ، وكان قد تصالح مع ملك البرتغال ،

توجيه حملة على الثغر الادنى ومحاصرة قاصرش كما اشرنا من قبل ، وشرع فى ذلك فى اواخر يوليو ، وهناك تجمع لديه كبير من فرسان الجماعات الدينية العسكرية وحشد كبير من المقاتلة ، وشرع الملك فى نصب المجانيق لتخريب الاسوار ، ونجح رجاله فى فتح ثغرة كافية لاقتحام المدينة ، ولكن الفونسو تلقى فى تلك اللحظة رسولا من قبل خليفة الموحدين يعرض عليه مبلغا كبيرا من المال مقابل أن يرفع الحصار عن قاصرش ، فلم يتردد الملك الليونى فى قبوله ، وقفل عائدا الى مملكته . وهكذا انسحب ملك ليون بعد ان قبل العرض السخى مع عدد من الاسرى المسلمين بالاضافة الى ما حمله معه من الغنائم ، ونبين فيما بعد ان خليفة الموحدين سخر منه ، ولم يدفع له المال الذى كان قد وعده به . وترتب على هذه الخدعة ان حصن المسلمون قاصرش ، واصبح الاستيلاء عليها بعد ذلك امرا عسيرا (١) .

وكان سانشو الثانى قد خلف اباه الفونسو الثانى على عرش البرتغال منذ سنة ١٢٢٣م ، وكانت احوال دولة الموحدين انذاك فى غاية السوء ، لاسيما بعد وفاة المستنصر الموحدى واحتدام الخلافات بين ابناء اسرة عبد المؤمن . وفى اثناء ذلك انصرف الفونسو التاسع الى الاشتغال بمشاكل مملكته . وفى سنة ١٢٢٥م استصرخه الفونسو تيبيث صاحب حصن كركر والذى ظل خلال سبع سنوات يحارب المسلمين من حصنه ، وتعرض مرات عديدة للهلاك عندما كان المسلمون يحاصرون حصنه ، ويرغمونه على التحصن بداخله والدفاع من وراء اسواره ، وقد لجأ الفونسو تيبيث الى البابا كى يتوسط له عند فرسان سانتياجو الذين كان يستصرخهم ليساعدوه فى كل مرة يهاجم فيها المسلمون حصنه . ولم يتردد ملك ليون هذه المرة فى القيام بحملته الى قاصرش التى اشرنا اليها وعاد منها بغنيمة كبيرة . وفى العام التالى (ربيع سنة ١٢٢٦م) قام بحملة أخرى الى منطقة بطليوس فى الوقت الذى كان ملك البرتغال يتوجه فيه نحو البش Elvas

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit., p 278

وربما لم تكن هاتان الحملتان الموجهتان من الملكين المسيحيين قد أعدتا عرضا أو انهما خرجتا بمحض الصدفة ، ومن المرجح انهما تما نتيجة اعداد واتفاق مسبق بين الملكين . وعلى أى حال فقد اجتاز الفونسو التاسع وادى تاجة عن طريق القنطرة ، وتوغل فى منطقة بطليوس ، وعاثت قواته فى احوازها عيثا شديدا ، واضرم النيران فى كل ما قابله من عمران ، وانتسف المزارع ، اما سانشو الثانى فلم يكتف بمجرد شن الغارات على مزارع البش ، وانما عزم على الاستيلاء عليها ، فضيق عليها الحصار ، وتمكن من الوصول عند أسوارها ، وكاد أن يهلك لولا ان انقذه الفونسو مندث ساراثينس Alfonso Mendez Sarracines فاخفاه فى غار ليحميه من المسلمين ، ولما عاد الفونسو التاسع ملك ليون من حملته ووصل الى مدينة السبطاط Ciudad Rodrigo منح رئيس جماعة فرسان القنطرة امتيازات جديدة ، وعندما وصل الى قورية فى نوفمبر سنة ١٢٢٧م منح جماعة فرسان القنطرة مدينة سلباليون المجاورة لبلدة ساجوبال Sagubal . ومن المعتقد انه استغل وجوده فى قورية فى هذا الشهر ليقوم باحدى غزواته التقليدية على الثغر ، ولعله اشتبك انذاك مع المسلمين فى معركة دارت بالقرب من نهر بويركو Puerco ثم خرج مع الملك فى حملته التالية سنة ١٢٢٧م عدد كبير من فرسان القنطرة ، وشارك معهم غرسيه سانشث رئيس هذه الجماعة ، كما شارك معهم ايضا رئيس جماعة فرسان سانتياجو ويدعى بدرو جنثالث منجو ، واستبان دى بلمونتى رئيس جماعة فرسان المعبد وغيرهم (١) . وفى هذه الاثناء اشتد النزاع فى صفوف المسلمين خاصة بعد ظهور ابن هود الذى انضمت اليه معظم قواعد الاندلس ، وعزم الفونسو التاسع ، وكان قد شاخ وهرم ، على اصلاح اخطائه القديمة ، فصمم على افتتاح كل اقليم استرامادوره الممتد جنوبى واديانه ، وكان فى امكانه ان يحقق ذلك لولا ان عاجله الموت وهو على وشك اتمامه . وكان فى بلاطه فارسان برتغاليان

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit. pp 280 - 283.

يتسمان بالشجاعة والاقدام كانا لايقنعان الا بالغزو العسكرى الشامل همـا الامير بدروسانشث ابن ملك البرتغال سانشو الاول وكان يقوم بدور رئيس ديوان ملك ليون ، والثانى مارتين مانشث ، وهو اعظم فرسان جيش مملكة ليون فى جليقية . وكان هذان الفارسان يتمتعان بمكانة عسكرية فى مملكة ليون ، وقد صرفا كل جهودهما فى تعبئة قوات ليون على الحدود الاسلامية تأهبا لاغتنام فرصة تحرك قوات البرتغال وقشتالة فى نفس الوقت . وهكذا كان سانشو الثانى متاهبا لحصار البش Elvas ، بينما اجتاز فرناندو الثالث سهول الاندلس ، وارسل الى ابيه الفونسو التاسـع بعض قواته امدادا له . وفى ربيع سنة ١٢٢٩م تجمع الجيش امام اسوار قاصرش التى رغم حصانتها على حد قول لوكاس دى توى Lucas de Tuy الا أن حاميتها لم تكن كافية لكى تصمد لفترة طويلة ، وقد سهل ذلك سقوطها فى أيدى الليونيين فى ٢٣ ابريل من نفس سنة ١٢٢٩ (٦٢٦هـ) . وقد ترتب على سقوط قاصرش احتجاج جماعة فرسان سانتياجو الذيـن كانوا يؤمنون بأحقيتهم فى امتلاك قاصرش عـلى أساس ان الملك فرناندو الثانى كان قدوعدهم بمنحها لهم . ولكن لما كان الفونسو التاسع راغبـا فى ضم هذه المدينة لمملكة ليون ، فقد اعتبرها حدا ، ومنحها امتيازا للتعمير ، ولكى يرضى جماعة فرسان سانتياجو ، منحهم حـق امتـلاك مدينتى كاستروتوراف Castrotoraf وفيافا فيله Villafa fila ، كما قدم لهم بالاضافة الى ذلك مبلغا من المال يقدر بالفى مرابطى من الذهب ، هذا بالاضافة الى أنه وعد هذه الجماعة بأنه اذا قدر له يوما ما افتتـاح ترجلة وشنت اقروج ومنتانجش وبدلين فانه سيهب بعضها الى الجمـاعة المذكورة (١) .

وبينما كان الملك مشغولا اثناء مقامه بقورية بحل مشاكل الامتيازات الممنوحة لفرسان سانتياجو كان الجيش قد زحف بقيادة بدروسانشث من

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit., pp. 284 - 282.

قاصرش الى ماردة ، واحتل الطريق المؤدية الى منتانجش بدون مقاومة ، كما احتل جميع المواقع المجاورة وهى المرهارين Almoharin ، والكويسكار Alcuescar ، وقرمونيتا Carmonita والحصين Aljucén (١) .
وكان حماس الليونيين وفرحتهم بالاستيلاء على قاصرش ومنتانجس وماردة فى شهر واحد قد جعل احد المؤرخين يشيع ظهور القديس سانتياجو بومبرى مع جمهرة من العسكر البيض وهم يدرعون بسيوفهم فى المسلمين ، وهذا الزعم يعبر عن روح الحماس التى كان فرسان سانتياجو يقاتلون بها المسلمين (٢) .

وتم سقوط ماردة فى شهر مايو ، ونستدل من السرعة الفائقة التى تمت بها هذه الفتوحات على ان الدفاع الموحدى عن هذه المناطق كان هزيلا ، وقد كان ذلك الضعف فى المقاومة امرا طبيعيا ، خاصة اذا ما اخذنا فى الاعتبار الظروف السيئة التى كانت تمر بها دولة الموحدين فى تلك الاونة ، من خلافات وخلافات ومنافسات شديدة بين افراد الاسرة الحاكمة ، وثورات داخلية جامحة ، وقد ادى ذلك كله الى انصرافهم عن تنظيم خطط الدفاع عن مدن الاندلس المهددة فى ذلك الحين بالغزو المسيحى ، ولذلك كان مؤرخا مثل مارتينث اى مارتينث يرى ان الحاميات الاسلامية كانت تستسلم بمجرد تلقيها انذار المسيحيين ، ايمانا منها بعجزها عن

---

(١) فى اثناء زيارتى لبطليوس وما حولها من قرى ومدن استرعى نظرى عدد من الحصون المحاذية للمدينة ومن بينها قرية الحصين Aljucén ووا ضح من اسمها الاسبانى انه محرف من لفظة عربية اما ان تكون من « الحسين » وهو اسم علم لعله اسم قائد او حاكم لهذه المدينة او انها محرفة من « الحصين » وهو تصغير حصن ، نسبة الى حصن اختصت به هذه القرية مازال اثاره ترتفع فى شموخ على تلة مرتفعة .
(٢) هو دون لوكاس دى توى ، وقد اورد مارتينث اى مارتينث مقتطفات طويلة منها (انظر Martinez y Martinez, op. cit., p. 230.

التصدى لجيوشهم لاسيما وان الجيوش الليونية كانت كثيفة العدو الامر الذى دفع الحاميات الاسلامية الى المبادرة بالتسليم (١) .

وهذا الراى الذى ساقه مارتينث قد يكون على جانب من الصواب فيما يتعلق بكثافة جيوش الليونيين ، ولكن مارتينث جانب الصواب فى قوله ان المدن الاسلامية كانت تستسلم بمجرد تلقيها أول تهديد مسيحى لحامياتها . وهذا القول مجاف للحقيقة ومخالف للواقع التاريخى ، فكل المدن الاسلامية التى سقطت فى أيدى الجيوش المسيحية كانت قد ابــدت من ضروب المقاومة والبسالة والبطولة صورا مشرفـة ، فحصن القصر (قصر ابى دانس) لم يستسلم بمجرد رؤية حاميته لحشود العدو ، بل انه قاوم وناضل حتى ان العدو البرتغالى اضطر الى صنع ابراج عاليـة تمكنه من فتح ثغرات فى اسوار المدينة . وهناك مثل آخر اكثر تعبيرا وهو مدينة قاصرش التى حاصرهـا الملك الليونى اكثر من مـرة طبقا للروايتين المسيحية والاسلامية ، وفى كل مرة كان الملك يضطر الى رفـع الحصار ، ليعود بعد فترة الى محاصرتها ، وفى اعتقادنا انه لولا الصراع الداخلى الذى فكك اوصال الدولة الموحدية لكانت هذه المدن قد صمدت بقوة أمام هذه الحملات .

وفى ٣٠ مايو من سنة ١٢٢٩م وصل الملك الليونى الفونسو التاسـع الى حصن الطليعة ، وهناك اصدر قرارا منح فيه ماردة لصالح كنيسة شنت ياقب الرئيسية Santiago ، وفى ذلك لم يتجاوز التقاليد المتبعة والتى كان يعمل بها شيوخه الذين كانوا يعتبرون ماردة حقا لاسقفيـة شنت ياقب وذلك منذ سنة ١١٢٢م التى صدر فيهـا القـرار الذى يبيح لقرشنت ياقب حرية التصرف فى اختصاص ماردة ، وعلى هذا الاساس فقد قرر الفونسو التاسع ان يتنازل عن ملكيته لماردة عقب سقوطها فى أيدى قواته . وقدر لنظام جماعة فرسان سانتياجو ان يظفر بعد ذلك

---

(١) Martinez y Martinez, op cit. p. 285.

بنصف ماردة بحكم تبعيته لاسقفية شنت ياقب ، ولكن ذلك لم يحدث الا بعد الاحداث التالية (١) .

وفى نفس الوقت الذى كانت قوات مملكة ليون تستولى فيه على ماردة ، كان البرتغاليون بدورهم يسيطرون على البشر Elvas ، وجلمانية Jurumenha وشيربه Serpa ، وهى مدن كان الموحدون قد استردوها من جرانده الجليقى (٢) . وبعد سقوط ماردة ، تابع ملك ليون فتوحاته ، ولكن بلغه ان ابن هود قد اقبل على رأس جيوشه بعد ان علم المصير الذى آلت اليه ماردة ، لكى يفوت على الجيش الليونى فرصة الاستيلاء عليها ، وهنا نقع فى حيرة امام الاختلاف بين المصادر العربية والمصادر المسيحية ، فبينما يذكر كل من ابـن زرع فى روض القرطاس (٣) والمقرى (٤) فى نفح الطيب ان ابن هود اشتبك مع قوات الفونسو التاسع قبل سقوط ماردة ، تشير المصادر المسيحية المعاصرة امثال لوكاس دى توى ، ان المعركة بين ابن هود وقوات ليون حدثت بعد سقوط ماردة بالفعل ، وقد اكد هذه الحقيقة مارتينث اى مارتينث فى كتابه عندما اورد وثيقة هامة للغاية معاصرة لهذه الفترة ، ووضعها تحت عنوان ملحق رقم ٢٥ ذيل بها كتابه ، ونلاحظ انه فى هذا الملحق اشارة الى انه فى ٣٠ مارس سنة ١٢٣٠م (٦٢٧هـ) دارت المعركة وان الملك كان موجودا انذاك فى ثارثا Zarza على مقربة من ماردة (٥) . وبالرجوع الى ابن عذارى فى البيان نطالع النص التالى : « وفى سنة سبع وعشرين وستمائة

(١) Martinez y Martinez, op. cit. p. 287.

(٢) راجع مدونتي قلمرية ورودريجو الطليطلى الواردتين فى كتاب Historia de Badajoz للمؤرخ الاسبانى البطليوسى مارتينث اى مارتينث ، ص ٢٨٧ وكذلك : Primera Cronica general de España, p. 653.

(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٨٢ .

(٤) المقرى ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٨٢ .

(٥) انظر ملحق رقم ٢٥ فى : Martinez y Martinez, op. cit., p. 287.

تحرك المتوكل على الله بن هود بجيوش عظيمة من المسلمين الى غزو اعداء الله الكافرين ، فالتقى مع عساكر الروم على ماردة ، فدفع فيهم بنفسه بنجدته وعزمه،ثم انهزم الى ساقته ، فوجد الناس قد ولوا منهزمين هنالك من اجل ذلك، وكان من طبعه ملولا عجولا ، وكانت هذه الغزوة اول غزواته واضخمها ، فلم ينصر فيها (١) » . وفى هذا النص مايشير الى ان معركة ابن هود مع الليونيين حدثت عقب سقوط ماردة وليس قبلها ، فابن عذارى يقول ان ابن هود تقدم الى « غزو الكافرين على ماردة » ، فكلمة غزو تؤكد أن الليونيين كانوا قد استولوا على ماردة ، وان ابن هود يسعى الى غزوها ، والا لكان قد استخدم تعبيرا آخر وهو « للقاء العدو » مثلا او « لمحاربة العدو » ، ولذلك فنحن نميل الى الاخذ بالراى القائل ان لقاء ابن هود بالليونيين تم بعد استيلاء العدو على ماردة . ومن الجدير بالذكر ان بعض الباحثين الاسبان المحدثين ، يؤكدون ان المعركة المذكورة حدثت قبل سقوط ماردة (٢) .

ومن المرجح أن يكون ابن هود قد اقبل الى ماردة عن طريق الجادة الممتدة من قرطبة وتمر بنبع اوبيخونا Fuente obejuna وثلمية Zalamea ، ونزل بالموضع المسمى هورنا تشوس **Hornachos** ويقع على مقربة من ثلمية ، بدليل أن هذا الموضع ورد ذكره فى احدى الهبات الممنوحة على أنه « منازل ابن هود » **Posadas de Abenfud** وهو اسم يشير

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، القسم الثالث ، ص ٢٧٠ .

(٢) يذكر Aguado Bleye

Aguado Bleye, Manual de la historia de España, p. 657

ويؤيده لويس شوارث (Luis Suárez, op. cit. p. 283) ان الفونسو التاسع تغلب على منتانجش ، ثم حاصر ماردة ، ولم يلبث ان رفع الحصار عنها لمحاربة ابن هود الذى سارع لنجدة اهل ماردة ، فهزمه الفونسو التاسع عند حصن الحنش ، واستولى بعد ذلك على ماردة ثم على بطليوس والبش وعلى حصون اخرى مجاورة لبطليوس كانت خالية . ويضيف لويس شوارث أن الفونسو التاسع قدم البش هدية الى سانشو الثانى ملك البرتغال بمناسبة المصالحة التى تمت بين الملكين . وقد سبق أن ذكرنا أن البش سقطت فى ايدى البرتغاليين

الى معسكر ابن هود (١) . وتذكر المصادر المسيحية المعاصرة انه نشبت بين الفريقين معركة حامية عند حصن الحنش Alanje ، انهزم فيهـا ابن هود هزيمة ساحقة (٢) ، وتقهقر الى جنوبى الاندلس بعد ان فقد معظم جيشه . ولم يحاول ابن هود بعد تراجعه ان يعيد الكرة على العدو ، ليس لخوفه من الدخول فى معركة جديدة مع جيوش ليون ، وانما لان بلنسية فى ذلك الوقت كانت موضع منافسة بين بعض الثوار ، بالاضافة الى تلقيه استغاثة من قرطبة بتقدم قوات قشتالة نحوها (٣) .

وفى يوم ٣٠ مارس ١٢٣٠م (٦٢٧هـ) اصدر الفونسو التاسع اثنـاء وجوده فى ثارثا Zarza عدة هبات ، من بينها بيوت بماردة كانت ملكا لرجل مسلم يدعى عبد العليم بن طبريطـة Abentobrita ، وبعض سواقى قريبة من الجسر وباب المدينة ، وكانت ملكا لبزان البطليوسى Padazani ، وحقل كان ملكا لعلى الاعرج ، وقد قدم الفونسو هـذه الهبات الى نظام جماعة فرسان القنطرة مكافأة منه على الخدمات الجليلة التى قدموها فى مناسبات عديدة لاسيما اثناء استرداده لماردة وفى المعركة التى دارت مع ابن هود فيما وراء واديانه على مقربة من هذه المدينـة عند حصن الحنش .

وكانت بطليوس قد اصبحت فى وضع سيىء للغاية ، فاذا كان سقوط ماردة وقاصرش قد ضيق عليها الخناق من جهـة المشرق ، فقد ازداد التضييق عليها اكثر عندما تمكن البرتغاليون من الاستيـلاء على البش وجلمانية من الغرب ، وبدأ جماعة فرسان المعبد على الفور ، سواء مـن مملكة ليون أو من البرتغال ، يجتاحون سهول شريشه Jerez de los Caballeros

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit, p. 288.

(٢) محمد احمد ابو الفضل ، رسالة الدكتوراه التى تقدم بها الى جامعة الاسكندرية عن شرق الاندلس فى ظل دولة الموحدين ، ص ١٧٦ .

(٣) Gaspar Remiro, Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905, P. 277.

من الجنوب ، وعدمت بطليوس كل وسيلة لاقامة خطوط دفاعية امامية • ومن المؤكد ان سكان القرى الصغيرة المتناثرة حول بطليوس امثال الزلاقة Sagrajas ، وبوتوا Botoa ، ومنتمبور Montemayor ، وتلينه Talena ، وبرثيال Berceal ، وغيرها كانوا قد تحصنوا داخل مدينة بطليوس ، لعدم شعورهم بالامن خارجها ، وكان كل ما يأملون فيه ان يتلقوا مددا او نجدة من الممكن أن تصل اليهم من جنوبى الاندلس ، ولكن تلاشى املهم الاخير فى هذه النجدة بعد ان تعرض ابن هود لهزيمته الشنعاء عند حصن الحنش ، واقبال جحافل الليونيين الى ضواحى المدينة • ومن المرجح أن بطليوس استسلمت منذ الاشتباكات الاولى ، ونستند فى ذلك الى مرور الاخباريين المسلمين على هذه الحادثة مرا سريعا ، فبينما يذكر المقرى (١) ان بطليوس استسلمت بعد ان فقدت كل امل فى وصول امدادات ، تذكر مدونة قلمرية انها استسلمت فقط دون اضافة اية تفصيلات (٢) ، وتنهج الحوليات الطليطلية نفس النهج ، اما لوكاس دى توى فقد التزم الصمت حيال هذه الحادثة ، ولم يزودنا بأى تفاصيل عنها ، الامر الذى يحمل على الظن بأن فتحها جاء يسيرا • وذكرت مدونة قلمرية ان سقوط بطليوس تم فى عيد الروح القدس الموافق ٣ يونيو •

وبعد ان سقطت بطليوس فى ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) منح الفونسو التاسع فرسان القنطرة بلدة شريشة وفريشنال وبرغش والكونشيل على اثر استيلائه عليها • ولاندرى فى اى تاريخ تلقى جماعة فرسان القنطرة كنيسة بطليوس وممتلكات اخرى بها ، ومما لا شك فيه أن الفونسو التاسع سار الى ليون فى شهر يوليو بدليل انه كان موجودا فى سمورة فى شهر اغسطس •

ومن واقع الوثائق عرفنا أن الفونسو التاسع عمر بطليوس بسكان

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٥٨٢

(٢) Martinez y Martinez, op. cit. . Apendice 28, 290.

جدد من النصارى ، وان كان بعض سكانها من المسلمين ظلوا يقيمون فيها وعندما كان الفونسو التاسع فى سمورة منح جماعة سانتياجو امتياز مدينة منتانجش وحصنها ، وقد ورد ذكره على انه ملك ليون وجليقية وبطليوس فى تلك الوثيقة (١) . وتوفى الفونسو التاسع فى ٢١ سبتمبر ١٢٣٠م بعد ان حقق أعز أمانيه .

وفى النهاية ، وبعد ان تم سقوط بطليوس ، يجب أن نذكر حقيقة تاريخية هامة ، وهى أن هذه المدينة لم تسقط فى ايدى الليونيين الا بعد ان انهارت دولة الموحدين تماما ، وافتقدت المدينة المدافعين عنها والحامين لذمارها ، واصبحت تعتمد فى تقرير مصيرها على مقوماتها الذاتية وحدها ، وينبغى أن نقر بان الموحدين كانوا فى فترة قوتهم يهتمون بأمر هذه المدينة العريقة التى كانت قاعدة الثغر الجوفى . وعلى الرغم من أن بطليوس فقدت تفوقها الثقافى والعلمى والاقتصادى الذى شهدته زمن ملوك الطوائف ، وحلت محلها اشبيلية ، حاضرة الموحدين فى الاندلس ، الا انها أصبحت موضع اهتمامهم العسكرى ، فيكفى انهم اهتموا بتدعيم قصبتها المشهورة لتكون خطا دفاعيا امام دولة البرتغال ، تحمى الحاضرة اشبيلية (٢) .

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit. Apendice No. 28.

(٢) عبد الله علام ، الدولة الموحدية بالمغرب ، ص ٢٨٣ .

الخاتمـــــة

من خلال دراستنا الطويلة للتاريخ السياسى لبطليوس فى العصر الاسلامى ، على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون ونصف القرن (من سنة ٢٦١هـ حتى سنة ٦٢٧هـ) وعرضنا فيه الى الحوادث التى تعرضت لها المدينة منذ تاسيسها فى زمن الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط حتى سقوطها فى أيدى الليونيين ، استطعنا أن نتوصل الى نتائج جديدة قد تكون لها قيمتها بالنسبة للدراسات التاريخية الاندلسية ، استندنا فى بعضها على الحقائق الاثرية كنقوش العملات التى تم العثور عليها فى أرض بطليوس ، أو النقوش الكتابية لبعض شواهد القبور من عصر دويلات الطوائف ونهاية عصر دولة المرابطين فى الاندلس ، بالاضافة الى ما اسفرت عنه الحفائر الاثرية التى اجريت منذ سنوات خمسة مضت فى موقع بطليوس ، وفى البعض الآخر على المصادر العربية بالدرجة الاولى ، وعدد من المصادر والمدونات الاسبانية المسيحية التى امكننا الرجوع اليها للاسترشاد بما ورد فيها من نصوص تتعلق بطبيعة العلاقات السياسية التى كانت قائمة بين ممالك اسبانيا المسيحية وبين بطليوس المدينة والامارة . وفيما يلى عرض لبعض هذه النتائج :

١ — اثبتنا ان بطليوس مدينة قديمة للغاية ، فقد أسفرت الحفائر الاثرية التى اجراها عالم الآثار الاسبانى فرنشكو بالدس فرناندث Francisco Valdés Fernández فى موقع قصبة مدينة بطليوس فى الموسم الاثرى الاول (يوليو ١٩٧٧) عن كشف آثار ترجع الى العصر البرنزى ([1]) ، يضاف اليها ما تم كشفه فى مواضع مختلفة من مدينة بطليوس من آثارمن العصر الحجرى ، يحتفظ بها متحف الآثار المحلى ببطليوس .

٢ — ناقشنا النظريات المختلفة المتعلقة بأصل تسمية بطليوس ،

---

(١) Abdel Aziz Salem, Noticias, en la Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos de Madrid, 1976 - 1978, pp. 131, 132.

وفندنا الرای القائل بأن اسم بطليوس تحريف من Pax Augustus او Pax Julius ، اذ أن هذين الاسمين اكثر ارتباطا باسم مدينة باجة، وعرضنا اسماء مواضع فى شبه جزيرة ايبيريا تحمل المقطع الاخير لبطليوس، ورجحنا ان يكون لاسم بطليوس علاقه باسم وادى اللوز او بلد اللوز او بلدة اللوز ، على اساس أن الاسم جاء بهذه الصورة فى المدونة الاولى لتاريخ اسبانيا العام Badaioz ، كما ورد فى رسالة موجهة من فرناندو ملك البرتغال فى سنة ١٤١٧م باسم بادالوس Badalouce على أنه بطليوس ، وهو اسم قريب النطق من بطليوس . ومن الغريب ان احد ابواب مدينة قرطبة بسورها الغربى ، وهو باب بطليوس ، يحمل اسما آخر هو باب الجوز ، كما أن الفحص الممتد شرقى بطليوس تكسوه أشجار البلوط والجلوز ، ونعتقد أن الاسم العربى « بطليوس » جاء محرفا من اسم وادى اللوز ، ربما لان التسمية كانت صادرة من جماعات المولدين والمستعربين الذين استقروا فيها منذ ان مصرها عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وتجمع هذه التسمية بين الصوت العربى لوادى اللوز ونطقه بالاسبانية ، فكلمة وادى اذا تحولت الى الاسبانية تنطق « وادا » Guada كالحال فى الوادى الكبير Guadalquivir ووادى الحجارة Guadalajara كما أن كلمة بلد تتحول فى النطق الاسبانى الى « بيا » (Valla) كالشأن فى بلدة Valladolid أى بلد الوليد . اما « بلدة اللوز » فنطقها بالاسبانية يصبح قريبا من بطلوس أو بطليوس كالشأن فى حصن اللوز Iznalloz

٣ - اثبتنا ان غرب الاندلس كان منزلا لعنصرين رئيسيين من سكان الاندلس : البربر والمولدون فمن قبائل البربر التى نزلت بالغرب مصمودة وزناتة ومكناسة ونفزة وزواغة ، وقد تركت هذه العناصر البربرية بصماتها واضحة على العمران الاسبانى والبرتغالى ، وفى الطبوغرافية المدنية بالغرب ، مثل ذلك أن أسماء المواضع التالية تحمل اسماء قبائل نزلتها : مكناسة (Mequinesa) ، ومغيلة (Maguilla) ونفزة (Nepza) ، وحصن زواغة (Azuaga) ، وزناته (Gineta) ومحمود وهو اسم موضع بالبرتغال

ما يزال يسمى Mafimude نسبة الى محمود بن عبد الجبار المصمودى الثائر على الحكومة المركزية بقرطبة . كذلك كانت بطليوس ونواحيها موطنا لجماعات المولدين وطائفة من المستعربين ، ومنهم ابن الجليقى ، وسعدون السرنباقى ،ومكحول ، وابن مرتين ، ممن ناهضوا الحكم الاموى .

٤ - اوضحنا فى دراستنا اهمية الموقع الذى تشغله بطليوس على وادیانه ، وهو موقع استراتيجى هام للغاية ، فوادیانة يعتبر خندقا طبيعيا لها من جهة الجنوب والجنوب الغربى ، ونهر ريفياس ونهر جيريرو يحميانها من الشمال والشمال الشرقى ، والقصبة المرتفعة تشرف عليها بابراجها وحزامها البرانى وتدعم دفاعها ، والقورجات تقطع على ى عدو الطريق لحصار القصبة من جهة وادیانه ، وفى الشمال يمتد فحص الزلاقة الفسيح الذى شهد معارك طاحنة فى فترات مختلفة من التاريخ الاسلامى ، فى نهاية عصر الطوائف ، عندما عبرت جيوش المرابطين الزقاق ، واشتبكت مع جيوش المسيحية مجتمعة فى هذا الفحص سنة ٤٧٨هـ ، كما كان الفحص نفسه مسرحا للقتال فى ولاية تاشفين بن على ، عندما اشتبك مع قوات رودريجو جنثالث فى سنة ٥٢٨هـ ، كما كاد يصبح مسرحا للقتال من جديد فى سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) عندما قدمت قوات فرناندە الثانى الببوج ونزلت بهذا الفحص تمهيدا لاقتحام المدينة ، ولكن فرنانده لم يلبث أن عدل عن القتال بعد ان تباين له ضخامة حشود الموحدين ، وآثر ان يعقد الصلح مع اشياخ الموحدين .

هذا الموقع الاستراتيجى الرائع الذى نعمت به بطليوس يعبر عن اختيار ذكى للمدينة المستحدثة بحيث اصبحت بحكم حصانة الموقع وما يحيط به من حصون متناثرة فى أحواز المدينة ذات منعة وحصانة ، واصبحت ثغرا من ثغور الاسلام فى الاندلس ، ودارا للرباط فى غرب الاندلس ، وهذا يفسر الاعتداءات المتواصلة التى تعرضت لها بطليوس على ايدى البرتغاليين والليونيين والقشتاليين فى العهود الاسلامية المختلفة ،

وقدر لعدد من علماء بطليوس النزوح عنها بحثا عن مناطق اكثر استقرارا كالشأن مع الاديب ابن السيد البطليوسى مثلا أو الطبيب يحيى بن اسحاق، كما اجتذبت اليها بدورها من نذر نفسه للجهاد وابتغى الاستشهاد ، ومنهم ابن الابار نفسه الذى زارها مثاغرا .

فطن ابن مروان الجليقى منذ البداية الى أهمية الموقع ، فاسترعى اهتمامه واختاره موضعا لبطليوس التى اتخذها مقرا لامارته المستقلة بدلا من البشرنل ، وهى الربوة المقابلة لهـا على الضفة اليسرى مـن واديانه ، وقد استغل ابن مروان الجليقى المرتفع المجاور لبطليوس لانشاء القصبة الملحقة بالمدينة فى نفس الموقع الذى تقوم عليه آثار القصبة الموحدية . وكان هذا المرتفـع مـن الحصانة بحيث سمى بالضرس La Muela . وقد زود ابن الجليقى قصبة بطليوس بمسجد جامـع بناه باللبن والطابية ، وبنى صومعة بالحجر . ثم تجدد بنيان القصبـة فى عهد حفيده عبد الله بن الجليقى ، عقب الغارة المدمرة التى شنهـا اردون الثانى على يابرة فى سنة ٣٠١هـ (٩١٣م) ، ثم تجدد بنيانها مرة أخرى فى عصر بنى الافطس . وهكذا اثبتنا أن قصبة بطليوس لم تكن أساسا من بناء الموحدين ، وانما يعود تاريخ بنائها فى الاصل الى عهد عبد الرحمن بن الجليقى ومازال قطاع صغير من سور القصبة القديمـة واضح المعالم ، ودور الموحدين فى بناء القصبة أنهم جددوا بنيانها على أساس أسوار القصبة القديمة التى كانت قد تخربت عقب استيـلاء عبد الرحمن الناصر على بطليوس فى سنة ٣١٨هـ (٩٣٠م) ، ثم تخربت من جديد فى عصر بنى الافطس ، وتعرضت بعض اجزائها للتخريب عندما اجتاحتها قوات البرتغاليين سنة ٥٦٤هـ .

٥ - أبرزنا فى دراستنا لبطليوس فى عصر بنى مروان الجليقى فى الباب الاول من الكتاب الجهود التى بذلها عبد الرحمن بن مروان الجليقى لتحويل بطليوس من مجرد قرية لاقيمة لها الى مركز عمرانى هام ، ومركز حضارى متألق فى غرب الاندلس ، وقد اتخذها مركزا اسقفيا بديلا

عن اسقفية ماردة بعد وفاة آريولفو اسقف ماردة فى ٣٤٨هـ (٨٦٢ م) بحيث ورثت بطليوس الكرسى الاسقفى الذى كانت تشغله ماردة .

٦ — اثبتنا ان سابور الغامرى ، اول من استقل ببطليوس فى أعقاب الفتنة ، لم يكن فارسى الاصل ، فلم نعثر فى المصادر العربية على أى نص يؤكد هذه النسبة ، وواضح ان السبب فيما أشيع عن اصله الفارسى ، كما جاء فى عدد كبير من المراجع الحديثة يرجع الى ان اسم سابور يرتبط باسم سابور ذى الاكتاف كسرى فارس ، وقد استبعدنا تماما الاصل الفارسى لسابور اذ ان حمل الاسم وان كان فارسيا لاينهض دليلا على أن صاحبه فارسى الاصل لاسيما اذا اخذنا فى الاعتبار أن الرقيق الفارسى انقطع منذ عهد الفتوحات ، وانه لم يعد هناك عبيد من الفرس فى هذا القرن الخامس للهجرة . وقد اوضحنا فى دراستنا انه كان فتى من فتيان القصر زمن الحكم المستنصر ، وكان من بين الفتيان الصقالبة المخلصين لفائق الفتى كبير صقالبة القصر ، بحكم انه كان أحد صبيانه ، فلما آلت الحجابة الى المنصور محمد بن أبى عامر استمال عددا من الفتيان الحكمية اليه ، ومنهم سابور الذى عرف منذ ذلك التاريخ بسابور العامرى ، وقد اثبتنا أن سابور حظى بثقة المنصور ، فأسند اليه ولاية الغرب الى أن استقل به فى بداية عصر الفتنة ، وقد اوضحنا فى دراستنا انه كان الفتى العامرى الوحيد الذى استقل باحدى دويلات الطوائف فى الغرب ، فى حين استقل سائر الفتيان العامرية بشرق الاندلس .

٧ — فى دراستنا لشخصية المظفر بن الافطس اثبتنا انه بخلاف ما صورته المصادر العربية لم يكن ضعيف الرأى ولا عاجزا عن ضعف فى قتاله مع المعتضد بن عباد ، وانما كان فارسا مقداما ، ومقاتلا شجاعا ، كما كان سمحا كريم النفس بعيدا عن صفات الخسة والغدر التى اتصف بها المعتضد ، ولا السفه والجهالة التى عرف بها المأمون بن ذى النون . كما اثبتنا انه كان سياسيا قديرا ، استطاع أن يواجه المعتضد بن عباد ويقارعه سنين طويلة كما تصدى بشجاعة لاطماع المامون بن ذى النون فى اراضيه ،

وانه كان أبى النفس ، فعندما عزم ابن عبد الله البرزالى على اطلاق سراحه من معتقله فى قرمونة سنة ٤٢٠هـ ، وكان بعد مايزال اميرا يقود جيش ابيه المنصور ، اشترط عليه أن يجتاز على القاضى ابن عباد ليشكره على اطلاقه لسراحه ، فانف المظفر بكل اباء أن يمر على ابن عباد ليقدم لهواجبات الشكر وآثر ان يبقى معتقلا على أن ينزل من قدر نفسه امام خصم ابيه . ورغم ما عرف عن المظفر من مجافاته للهو والمجون ، ومن سلوكه الجدى كما يصوره ابن حيان ، الا انه حاول أن يبعد الشماتة عن نفسه بعد هزيمته امام المعتضد بالله بن عباد فى يابره ، فارسل الى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات .

٨ - رجحنا ان المظفر بن الافطس اعتزل الحياة السياسية فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٢م) فى اعقاب سقوط شلمرية فى يد فرذلند الاول ملك قشتالة وليون ، وانه ترك حكم مملكة بطليوس الى ابنه يحيى الذى تلقب بالمنصور بينما ترك ولاية يابره لولده عمر الذى تلقب فيما بعد بالمتوكل على الله ، واثبتنا ان المظفر توفى سنة ٤٦٠هـ مخالفين فى ذلك راى بريتواى فيفس Prieto y vives الذى يجعل وفاته فى سنة ٤٥٦هـ استنادا الى درهم يحمل اسم يحيى ضرب فى هذا التاريخ . وقد ايده فى ذلك الاستاذ حسين مؤنس رغم ان ابن الابار يؤكد انه توفى فى سنة ٤٦٠هـ . وقد اثبتنا ان وجود اسم يحيى على درهم ضرب فى عام ٤٥٦هـ لا ينهض دليلا على وفاة المظفر فى تلك السنة . كذلك رجحنا ان النزاع الذى احتدم بين الاخوين يحيى وعمر بدا بعد وفاة والدهما فى سنة ٤٦٠هـ ، ثم اشتد وبلغ ذروته فى العام التالى بسبب انفراد يحيى بعد وفاة ابيه بالملك دون اخيه ، وقد ادى هذا النزاع الى اقدام عمر المتوكل على سك عملات باسمه عثر على بعضها وعليها نقوش تحمل تاريخ سنة ٤٦٠هـ .

٩ - اوضحنا ان المتوكل بن الافطس كان له من الابناء الذين كان لهم دور فى التاريخ اربعة : منهم اثنان فضل والعباس لقيا مصرعهما مع ابيهما على ايدى المرابطين فى سنة ٤٨٨هـ ، والثالث هو المنصور ، وكان

وكان موصوفا بالذكاء الخارق والدهاء،وطالما حذر اباه من الوثوق في ابن الاحسن الذى نصبه المرابطون شريكا له فى حكم بطليوس ورقيبا عليه يتلقف له الاخطاء ، ولكن المتوكل لم يكترث لتحذيرات ولده المنصور . وقد بادر المنصور بالفرار من بطليوس قبل ان تدخلها قوات المرابطين ، ولجأ الى الفونسو السادس ملك قشتالة ، ودخل فى طاعته ، بعد أن ارتد عن دينه . وبينا استنادا الى خبر موجز انفرد به ابن عذارى ، انه ثاب الى رشده بعد بضع سنوات ، وانه عاد الى دار الاسلام ، ودخل فى خدمة على بن يوسف بن تاشفين ، وحارب فى صفوف المرابطين . اما الابن الرابع فقد ورد ذكره عرضا فى الحلة السيراء لابن الابار واسمه نجم الدولة سعد ، كان سجينا فى احد سجون المرابطين .

١٤ - دافعنا عن المتوكل بن الافطس ، واخرجناه بريئا من صفات الخيانة التى وصمه بها بعض المؤرخين المحدثين ، واثبتنا انه لم يكن بالحاكم الخائن لقضية الاسلام فى الاندلس ، فقد كان أول من اتصل من ملوك الطوائف فى الاندلس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٧٤هـ اى قبل سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس بما يقرب من اربع سنوات ، وهو الذى استجاب لدعوة أهل طليطلة ليتولى امورهم فى اعقاب الثورة التى احتدمت فى المدينة ضد اميرهم القادر بالله ، ربما سعيا لصرف انظار القشتاليين عن مملكة طليطلة . وعندما استولى الفونسو السادس على قورية من املاك المتوكل فى الغرب لم يتردد ابن الافطس فى الاستنصار بيوسف بن تاشفين ، وكتب له الوزير الكاتب ابن ايمن رسالة على لسانه الى يوسف بن تاشفين يعرض له فيها ما أصاب الاسلام فى الاندلس من رزء بسقوط قورية . وعندما كتب اليه الفونسو السادس يتهدده ويطالبه بالجزية وبذل الطاعة ، رفض المتوكل بكل انفة المسلم هذا التهديد ، ورد على الملك القشتالى ردا عنيفا شديد اللهجة ، اوردنا نصه فى الملحق الثالث من الرسالة . ولم يكتف المتوكل عمر بذلك بل تصدر حملة اعلامية ونفسية بعيدة المدى لدعوة مسلمى الاندلس الى التضامن وتوحيد الصف الاسلامى ضد العدو المشترك الذى يتربص بملوك الطوائف كل على حدة ،

وعهد بهذه المهمة الى وزيره القاضى ابى الوليد الباجى . وكان المتوكل الوحيد من بين ملوك الطوائف الذى تعاون مع المرابطين عقب دخولهم الاندلس واستيلائهم على غرناطة ومالقة والمرية واشبيلية مدة اربع سنوات، وحارب معهم خلالها العدو المسيحى ، وقبل مشاركة الفقيه السجلماسى ابن الاحسن فى حكمه لبطليوس رغم تحذيرات ولده المنصور منه ، ولكن المتوكل ظل يهادن ابن الاحسن ، ورفض فكرة اللجوء الى ملك قشتالة . فلما تبين للمتوكل نوايا المرابطين العدوانية تجاهه ، عمد الى الاتصال سرا بالفونسو السادس ليخلصه من خطر المرابطين على بلده . ومع ذلك فلم يكن ابن الافطس الوحيد من بين ملوك الطوائف الذى اتصل بالفونسو السادس ، فقد سبقه الى ذلك الامير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ، والمقتدر بالله بن هود صاحب سرقسطة ، والمامون بالله بن ذى النون صاحب طليطلة ، ثم ان الاتصال بملوك المسيحية للاستظهار بهم على المسلمين كان من طبيعة ذلك العصر، واستمر ظاهرة شائعة حتى نهاية دولة الاسلام فى الاندلس . ومن هذا المنطلق لايمكن اعتبار المتوكل بالملك الذى خان أهل دينه وبلده كما يزعم بعض الباحثين المحدثين .

١١ — استطعنا أن نحدد الموضع الذى دارت فيه وقعة الزلاقة بين الاندلسيين وحلفائهم المرابطين وبين قوات اسبانيا المسيحية فى السهل الممتد شمالى بطليوس ويبعد عنها بنحو ثمان كيلو مترات ، وقد مكنتنى الظروف من زيارة موقع المعركة منذ أكثر من عام ودراسة طبوغرافيته على الطبيعة ، واستبعدنا ان يكون الموقع المسمى اليوم بالزجالة أرض المعركة لبعده كثيرا عن مدينة بطليوس وبعد الاسم عن اسم الزلاقة الذى عرفت به الموقعة فى المصادر العربية ، وتوصلنا الى رسم خريطة لارض المعركة أوضحنا فيها رأى كل من أسين بلاثيوس والبران .

١٢ — ناقشنا الروايات المختلفة الواردة فى المصادر العربية حول استشهاد ابن الحجام ، ورجحنا بعد تلك المناقشة رواية ابن عذارى التى

اكدت انه استشهد فى سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) ، واستبعدنا رأى كل من الاستاذين عبد الحميد حاجيات محقق كتاب البيذق ، ومحمد عبد الله عنان اللذين يجعلان تاريخ استشهاده فى سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) ٠

١٣ – اثبتنا ان الموحدين ، رغم انشغالهم فى بدء قيام دولتهم بمحاربة العرب الهلالية فى افريقية وحلفائهم من الغز المماليك ومن بنى غانية الميورقيين ، ورغم انصرافهم قرب نهاية دولتهم الى الخلافات والمنازعات الداخلية ، والتطاحن فيما بينهم من اجل الظفر بالخلافة ، رغم كل ذلك لم يغفلوا قط الدفاع عن بطليوس ثغر المسلمين فى غرب الاندلس ، وخط الدفاع الامامى لموسطة الاندلس ، فكانوا لاينقطعون عن انقاذها كلما تعرضت لغزو خارجى وتزويدها بالاقوات والمؤن والآلات ، حتى جاء اليوم الذى افتقدت فيه بطليوس الرئيس والزعيم الذى يتولى الدفاع عنها ، فاعتمدت على مقوماتها الذاتية واضطرت الى التسليم ٠

١٤ – فى دراستنا النقدية للمصادر اهتممنا فى كثير من الاحيان ، لاسيما بالنسبة للمراجع الاسبانية الحديثة ، بابراز مواضع القوة والضعف فى الدراسة ،كما اهتممنا فى المصادر بالتركيز على مدى اهمية المادة الواردة فيها بالنسبة لموضوع الدراسة ٠ كما حرصنا على وضع ملحق تفصيلى عن تاريخ الممالك المسيحية فى اسبانيا التى كانت لها علاقات مباشرة مع امارة بطليوس سواء فى عهد بنى الجليقى او فى عصر بنى الافطس او حتى فى عصر الموحدين ، وابرزها مملكة اشتوريش ، ومملكة ليون ، ومملكة قشتالة ، ومملكة البرتغال ٠

ملاحـــق الكتـــــاب

١ ـ عرض تاريخى موجز للممالك المسيحية فى شبه جزيرة ايبيريا التى لها اتصال مباشر بغرب الاندلس .

٢ ـ نص رسالة المتوكل على الله ابن الافطس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

٣ ـ نص رسالة المتوكل على الله ابن الافطس الى الفونسو السادس ملك قشتالة .

٤ ـ بعض الاعلام الجغرافيـة الواردة فى الرسالـة باللغتـين العربيـة والاسبانية .

ملحق رقم ١

عرض تاريخى موجز للممالك المسيحية فى شبه جزيرة ايبيريا التى لها اتصال مباشر بغرب الاندلس

(١) نشاة المملكة الاشتور-ليونية :

فتح انتصار المسلمين الحاسم فى موقعة وادى لكة فى رمضان سنة ٩٢هـ (١) (يوليو ٧١٠م) الطريق امام المسلمين للانسياح فى شمال شبه جزيرة ابارية والسيطرة التدريجية على معظم انحائها باستثناء منطقة جبلية تقع فى اقصى الشمال الغربى من قنطابرية وتطل على خليج بسكاية ، عرفت عند العرب باسم صخرة بلاى (٢) ، لجات اليها شراذم محدودة العدد من فلول القوط وامتنعت فى مفاوز جبالها ، وقدر لهذه المنطقة ان تكون مركزا لامارتين مسيحيتين ، قنطابرية ، وجليقية .

اما قنطابريه فقد اسسها الدوق بطره سليل ريكايدو فى الطرف الغربى من جبال البرانس فى سهول نبرة وغسقونية ، وكثيرا ما وطئتها اقدام الفاتحين المسلمين لها عند اقتحامهم لدوقية اقطانية او ولاية سبتمانية واثناء عودتهم من غزواتهم . واما الثانية وهى جليقية (Galicia) فكانت تقع فى عمق جبال اشتوريس الوعرة بعيدا عن احتكاك الفاتحين وفى هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع بلاى وصحبه ولجأوا الى مغارة عظيمة فى قمم كوفا دونجا تحيط بها اجراف سحيقة ، وعرف الموقع فى المصادر العربية بالصخرة (٣) . وكانت هذه التجمعات فيما يبدو تقوم اساسا على

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جا ، ص ٩ .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ٢٨ - المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢٥٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٦٨ ، عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٢٦٨ .

(٣) José Luis Mattin, Carmen codoñer Manuel sanchcz, Historia de España, t. III : la Alta edad Media, Madrid, 1980, p. 69 -

=

بقايا الجيش القوطى بالاضافة الى ما كانت تتلقاه من امدادات من المناطق الواقعة فيما وراء البرتات . ويرى الدكتور عبد الرحمن الحجى ان استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد الى دمشق من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك كان له اكبر الاثر فى نمو هذه التجمعات القوطية (١) . ويرجع بعض المؤرخين بداية حركة الاسترداد الاسبانى الى الفترة التى لجات فيها فلول الجيوش القوطية المنهزمة الى تلك المناطق النائية عن دار الاسلام للاحتماء فى ذراها من خطر الغزوات الاسلامية ، وللتكاثر العددى فى ظل حياة آمنة استعدادا لمنازلة الفاتحين (٢) .

وقد اهمل المسلمون امر هؤلاء الفارين ، فلم يحفلوا بامرهم وتركوهم وشانهم وانصرفوا الى خلافاتهم الداخلية ، وكان اغفال امر هذه الفلول الباقية من اشد الاخطاء التى وقع فيها الفاتحون اذ ان هؤلاء الفارين اصبحوا نواة المملكة المسيحية الاولى فى اسبانيا ، التى تفرع منها كل سلالة ملوك ليون وقشتالة الذين تمكنوا فى النهاية من القضاء على دولة الاسلام فى الاندلس وطرد آخر سلاطين بنى الاحمر اصحاب غرناطة

وقد كان الدوق بطره Pedro يرجع الى اصول ملكية ،فقد كان من قادة الجيش القوطى فى عهد غيطشة ملك القوط ، ثم فى عهد لذريق خليفته الذى اغتصب منه العرش ، اما بلاى Pelayo مؤسس امارة جليقية فيحيط بعض الغموض باصله وان كان معظم المؤرخين يرجعون اصله الى

Lnis suarez, Historia de España : Edad media, p. 15 - Aguado Bleye, Manual de la historia de España, t. I, p. 476.

محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الاندلس ، ج١ ، ص ٢٠٩

(١) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٢٧٠ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٦٨ ، عبد الرحمن الحجى ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٦٩ .

اصول عريقة ، فهو ابن فافيلا (فافلة) (١) دوق قنطابرية وكان الساعد الايمن للملك لذريق واحد كبار رجال حاشيته (٢) . فلما دخل المسلمون الاندلس ، اخذوه من اهل اشتريس من جليقية رهينة عن طاعة اهل بلده فاقام بقرطبة فترة ثم هرب منها فى عام ٩٨هـ (٧١٦ - ٧١٧هـ) أيام الحربن عبد الرحمن الثقفى (٣) وعندئذ بدأ فى تنفيذ مخططه الذى كان يقضى بجمع فلول القوط لتكوين دولة ينازع بها دولة الاسلام فى الاندلس ، بحيث ينتهى الامر باسترداد ابارية (٤) ، وكما سبق ان ذكرنا فان امارة قنطابرية التى اسسها بطرة كانت تتعرض دائما لاقتحام المسلمين لها عند غزوهم لبلاد غالة . اما امارة جليقية فقد كانت فى مأمن مـن غارات المسلمين وقد سميت باسم جليقية لانها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الاسم (٥). وحين تكررت ثورات النصارى فى الشمال خاصة فى منطقة غسقونية (أو بلاد البشكنس) سير الحربن عبد الرحمن الثقفى فى عام ٩٨هـ جيشا لاخضاعهم فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب اشتوريس (٦) ، واوفد حليفهم الاسقف ابة «اوباس» شقيق الملك غيطشة الى بلاى فى محاولة منه لاقناعه بالتسليم ولكنه اخفق فى اقناعه (٧) ، ولجأ بلاى الى « الصخرة » المعروفة بمغارة اونجا (٨) (Cava donga) . وقـد حـاول المسـلمون بقيـادة

---

(١) ابن خلدون ، جـ٤ ، ص ١٧٩ ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ص ٢٠٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ١٦٨ .

(٢) Claudio Sanchez Albornoz, los reinos cristianos Españoles, p. 14

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، جـ٦ ، ص ٨٢ .

(٤) دارت مناقشات طويلة حول اصل بلاى ومن بين تلك الاراء انه ابن اخى لذريق او انه حفيده الذى قاتل الى جانبه (انظر F.J. Simonet, historia de los Mozarábes de España, p 148, محمد عبد الله عنان دولة الاسلام فى الاندلس ، ص ٢٠٩)

(٥) المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٦) Sanchez Albornoz, los reinos cristianos, p 15

(٧) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢٢ .

(٨) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الاندلسى ، ص ٢٦٩ .

علقمة (١) النفاذ اليهم والاستيلاء على مراكز العدو ، ولكن الوديان السحيقة والاطراف الممتدة لمسافات بعيدة ، حالت بينهم . وبين بلاى، ثم هاجم المسلمون الجبل والمغارة ولكنهم اخفقوا فى التغلب على بلاى، بل ارتدت الهزيمة اليهم فى كوفادونجا التى تعتبر فاتحة حركة الاسترداد وفيها قتل من المسلمين اعداد هائلة . ويعتبر بلاى لذلك واضع اساس الدول المسيحية الشمالية الغربية التى استحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية ، وابو بنى اذفنش على حد قول مؤرخى الاندلس (٢) . ثم ترك المسلمون هذه الهضاب ، فبدا النصارى يتوافدون على قنطابرية وسهول جليقية منضمين الى بلاى ونصبوه ملكا عليهم ، واخذوا يغيرون على بلاد المسلمين .

وقد حاول الهيثم بن عبيد الكلبى عام ١١٢هـ (٧٣٠م) ارسال مونوسة البربرى لغزو جليقية (٣) وسحق اميرهـا ، ولكن بـلاى صمد للمسلمين وتمكن من ايقاع الهزيمة بهم ، ولما رأى بلاى منعة معقله وقوة عصبته اخترق بلاد البشكنس ، وهاجم قوات المسلمين ومزق وحداتهـا ثم ارتد الى هضابه وتحصن فيها ، ثم حدثت هزيمة بلاط الشهداء عـام ١١٤هـ (٧٣٢م) وشغل الولاة برد جيوش الفرنج عن اراضى سبتمانية نكثرت عندئذ غارات الجلالقة على الاراضى الاسلامية الواقعة شمالى نهر دويرة واسترقة، وعانى المسلمون كثيرا فى تلك النواحى من عيث النصارى ثم قام عقبة بن الحجاج السلولى ، وغزا هذه العصابات الجليقية عـام ١١٦هـ ، (٧٣٤م) ثم عاد يغزوها مرة ثانية فى عام ١١٨هـ (٧٣٦م) واستولى على بعض مواقعها ، فلما اشتدت الفتن والحروب الاهلية بين المسلمين فى الاندلس فى اعقاب ثورة البربر على العرب ، ازداد النصارى جراة على المسلمين وعاثوا فى اراضيهم ، وعجزت حكومة قرطبة عن وضع

---

(١) Antonio Ramos Oliveira, la edad media, p. 32.

(٢) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٤٠ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ١ ، ص ٢٨ .

حد لذلك بسبب اشتغالها بهذه الحرب ، وبسبب ضعف الوجود الاسلامى فى شمال الجزيرة فى هذه المرحلة (١) . وقد كان كفاح بلاى يرجع الى رغبته العارمة فى استرداد جزء من الاراضى المفقودة ، ولكن هذا الكفاح لم يتخذ شكلا دينيا او عنصريا حتى ذلك الوقت حيث أن معاملة المسلمين لاهل الذمة كانت عادلة ومتسامحة (٢) . وتشير بعض المصادر العربية (اخبار مجموعة) الى أن بلاى أوقع بالمسلمين هزيمة نكراء فى سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) بسبب فتنة أبى الخطار وثوابة ، وتمكن بلاى من اخراج العرب من جليقية كلها وتنصر من تنصر ، وكاد يتغلب على المسلمين (٣) وواضح من نص صاحب الاخبار المجموعة ان هناك خلطا وقع بين اعمال بلاى واعمال الفونسو الاول ، فقد توفى بلاى (٤) عام ١١٩هـ (٧٣٧م) ، وان كانت بعض الروايات النصرانية تؤكد انه عاش حتى عام (١٢٧هـ - ٧٤٥م) فى حين يجعل الفونسو العاشر وفاته ١٢١هـ (٧٣٩م) تم خلفه ابنه فافلة ولكنه توفى بدوره بعد عامين اى عام ١٢٣هـ (٧٤٠م) وفى نفس الوقت توفى الدوق بطره دوق قنطابرية وخلفه ولده الفونسو الملقب بالاول ثم نمت هذه الامارة واشتد ساعدها وازداد التحالف بينها وبين جليقية بزواج الفونسو ابن الدوق بطره من أرمنسندة Ermensinda ابنة بلاى (٥) فلما توفى فافلة بن بلاى اتحدت الامارتان تحت تاج الفونسو الاول دوق قنطابرية ، وتكونت منهما مملكة ليون المعروفة عند المسلمين بجليقية أو مملكة اشتورياس وكانت تمتد من بلاد البشكنس شرقا الى ساحل المحيط غربا ومن خليج غسقونية شمالا حتى نهر دويرة جنوبا (٦) . ويعتبر الفونسو الاول ابن بطره هذا أول ملوك مملكة ليون ، ومؤسس

---

(١) Sanchez Albornoz, los reinos cristianos, p. 15.

(٢) R. Altamira, historia de España, vol I, P. 224.

(٣) اخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

(٤) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

(٥) Aguado Bleye, op. cit., p. 478.

(٦) Dozy, histoire, v, II. p 130.

المملكة النصرانية الشمالية ويذكر المؤرخ الاسبانى الكبير دون رامون مننديث بيدال ان ملوك ابيط بعد أن دعموا مملكة اشتوريس الصغيرة فى أعقاب سقوط مملكة القوط الغربيين كانوا يحسون بأنهم خلفاء القوط فى طليطلة وانهم استمرار للملكية الاسبانية كلها ، التى تحررت جزئيا وماتزال محتلة فى معظمها ، فكانوا يقتصرون على التلقب بمجرد لقب امراء او ملوك ، الى ان تبدل الحال فى عهد الفونسو الثالث العظيم (٢٥٢هـ – ٢٩٨هـ) (٨٦٦ – ٩١٠م) اذ سماه ابناؤه أو رعيته بالامبراطور العظيم Magnus imperator أو امبراطورنا imperator nostro ، كما لقب أردون الثانى ٣٠٢ – ٣١١هـ (٩١٤ – ٩٢٣م) بعد أن استقر بلاطه فى ليون ، وكذلك ردميره الثانى (٣١٨ – ٣٣٩هـ) (٩٣٠ – ٩٥٠م) وكذلك ردميره الثالث (٣٥٥ – ٣٧٤هـ) (٩٦٥ – ٩٨٤م) بالامبراطور . كما استخدم آخر هؤلاء الملوك لقب بازيليوس الاعظم Magnus basillus ولاشك أن هذا التلقب انما تم بتأثير من الامبراطورية الكارولنجية ، فشارلمان بالاضافة الى لقبه الامبراطورى تلقب أيضا ببازيليوس وهو لقب انكرته بيزنطة على اباطرة الغرب ، ولكن تلقب بـه القيصر سيميون بلغاريا (١) وواضح ان تلقب ملوك ليون بهذه الالقاب الفخرية انما استهدفوا به التفوق على غيرهم من ملوك حركة الاسترداد . وقد لقب الفونسو الاول بالكاثوليكى .

حكم الكاثوليكى فى ظروف مواتية (١٢٢ – ١٤٠هـ) (٧٣٩ – ٧٥٧م) اذ كانت الحروب الاهلية والثورات تجتاح الاندلس وتمزقها مما اتاح لهذا الزعيم المسيحى تأمين بـلاده وتأسيس ملك قوى يناوىء المسلمين (٢) .وكان الضعف يسود بلاد الاسلام ، ولهذا فقد اجتاح الفونسو الاراضى المجاورة لحدوده وقتل من بها من المسلمين ، وقد كانت هـذه

---

(١) R. Menendez - Pidal, la España del Cid, vol, I, Madrid, 1947, p. 67.

(٢) Sanchez Albornoz, los reinos, p. 15 - 16.

المنطقة التى اغار عليها بمثابة الحد الفاصل بين الاراضى الاسلامية والاراضى المسيحية التابعة لمملكة جليقية ، وكان بها قليل من السكان المسلمين . وعندما ضربت المجاعة بجرانها فى عام ١٣٣هـ (٧٥٠م) رحل الكثير من المسلمين عن تلك المناطق فزاد ذلك من قوة المملكة الجديدة ، فقد تم تنصيب الفونسو الاول ملكا على اشتوريس فى ذلك العام ، ثم انتهز الفونسو الاول فرصة نزوح العرب والبربر من المداين التى خلف الدروب الى طنجة واصيلا فغزا استرقة واستولى عليها وعلى كثير من الاراضى الاسلامية عام ١٣٦هـ (٧٥٣م) وفى ذلك يقول صاحب اخبار مجموعة « وكانت قبل سنة احدى وثلاثين ومائة . قال : فاعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الاندلس ، سنة سنتين ثم ... سنة تلت عام سعيد فثار اهل جليقية على المسلمين ، وغلظ امر علج يقال له بلاى ، فقدذكرناه فى اول كتابنا فخرج من الصخرة وغلب على كورة اشتوريس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه اهل استورقة زمانا طويلا حتى كانت فتنة ابى الخطار وثوابه » (١) .

ويذكر مانويل توروس البران Albarran ان الفونسو الاول «تولى زمام المبادرة المسيحية ، ولم يتردد فى سنة ٧٥٠م فى استغلال موجة المحل والجوع التى اجتاحت الاندلس واثرت فيها بعمق بالاضافة الى الصراعات الداخلية الضارية التى انتقلت من المغرب الى الاندلس ، وبهجمة قوية قامت بها القوى الاشتورية فى العمق وصلت حتى قورية ووادى آنة عن طريق ماردة وهى مواضع اعتبرها المؤرخون ثغرية او ذات صفات ثغرية وسقطت فى يده مدن هامة ستصبح بعضها فى العصور التالية شاهدا حيا على النزاع الاسبانى الهائل وهى بورتو وابيخا Abeja وبراجا Braga وبيزو Viseo وكاربوناريا Carbonaria والينساكو Alensaco وكانت

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ٦١ — ٦٢ ، وعن اخبار القحط والمحل انظر ابن عذارى ، البيان جـ٢ ، ص ٣٨ .

هذه المدن واقعة فى المناطق الزراعية باسترامادورة أو على مقربة منها ولكن النقص فى الرجال والمادة كان السبب فى منع الفونسو من الاحتفاظ بالاراضى التى ضمها اليه لذا فقد لجأ الى خطة عرفت فى لغة الحروب بخطة الاراضى المحرقة (١) بمعنى أنه عمد الى حرق الاشجار وانتساف المزارع فى كل ما يقابله بحيث ترك بين المسلمين والمسيحيين حاجزا طبيعيا اشبه بالصحراء بين الطرفين .

ثم منح الفونسو اخاه فرويلة الجزء الشرقى من تلك المملكة الجديدة واعنى بها امارة قنطابرية ، وكان المسلمون فى تلك الآونة فى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب ، فقد كانت الحروب والثورات والفتن تنتشر فى جميع انحاء البلاد ، وبينما كان يوسف الفهرى غازيا بجليقية (٢) تقدم الفونسو الاول مستغلا هذه الاحداث وغزا مدينة لك ونجح فى افتتاحها فى عام ١٣٧هـ (٧٥٤م) فى حين اخفق يوسف الفهرى فى الدفاع عنها وتركها لمصيرها التعس ، عندما بلغه دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ، وقبل رحيله الى الجنوب لمواجهة عبد الرحمن سير قوة بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لانقاذ مدينة أربونة من حصار الفرنج الذين مزقوا جيش المسلمين وقتلوا قائدهم سليمان وتقهقر الباقون وفى مقدمتهم الحصين الى الجنوب فى عام ١٣٩هـ (٧٥٦م) (٣) أى فى نفس العام الذى توفى فيه الفونسو الكاثوليكى فتولى فرويلة ابنه وخليفته (١٤٠هـ — ١٥١هـ) (٧٥٧م — ٧٦٨م) محاربة المسلمين واحرز عدة انتصارات عليهم (٤) . فلما توفى فرويلة فى سنة ١٥١هـ (٧٦٨م) ،

---

(١) España Sagrada, chronicon albeldense, t. XIII, 1816 p. 458, Cronica de Alfonso III, ed. Zacarias Garcia Villada, Madrid 1918, P. 116, Apud. Albarran, el solar de los Aftasies, p. 94.

(٢) ابن خلدون ، العبر ، المجلد الرابع ، ص ٢٦٣ .

(٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٣٥٤ .

(٤) Lévi - Provençal, histoire, t I, p. 115.

وأهم هذه الانتصارات حدثت فى بونتوفيوم بجليقية ، وذكر ليفى =

توفى اخوه فى العام التالى وخلفه اوريليو (١٥١ - ١٥٨هـ) (٧٦٨ - ٧٧٤م) وكان فرويلة قد انتهز فرصة اشتغال عبد الرحمن الداخل بتنظيم امور دولته واخماد الثورات الداخلية وعبر نهر دويره ، وتمكن من ضم لك وبرتقال وشلمنقة وشقوبية وآبلة وسمورة وقشتالة الى مملكة جليقية الى ان استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان على يد الحاجب المنصور ابن ابى عامر (١) . وعلى الرغم من الاعتداءات المسيحية على اراضى الاسلام فقد كان عبد الرحمن لمشاغله العديدة فى الداخل يغمض عينيه ولا يقدم على تأديب جيرانه المسيحيين الذين بالغوا فى اغارتهم على بلاده بسبب عجزه . ومع ذلك فقد اضطر للتحرك ، ففى سنة ١٤٩هـ (٧٦٦م) سير عبد الرحمن الداخل بعض قواده الى الشمال على رأس قوة كبيرة وصلت الى حدود جليقية ، واشتبكت مع الجلالقة فى عدة مواقع ، وفى عام ١٥٠هـ (٧٦٧م) بعث عبد الرحمن مولاه بدرا (٢) الى البه Alava والقلاع (٣) Castilla وهى المنطقة الواقعة بين بلاد

= بروفنسال نقلا عن سافدرا ان عددا كبيرا من المسلمين لقوا مصرعهم على ايدى الاشتوريين فى هذه الموقعة التى يصمت عن ذكرها المؤرخون المسلمون . وذكروا أن الامير عبر بن عبد الرحمن الداخل اسر فى هذا الاشتباك ثم ذبح بأمر الملك الاشتورى .

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٣٨٧ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٥٤ .

(٣) البة والقلاع : تطلق الروايات الاسلامية اسم البة والقلاع على ولايتى قشتالة القديمة Castilla والبة Alava وهى المعربة عن اللاتينية القديمة (Alava el Gastella Vetula) والبة فى الواقع هى احدى ولايات بلاد البشكنس وتمتد غربا حتى برغش وشمالا حتى خليج بسكونية وجنوبا حتى نهر ابره ، واما القلاع او قشتالة Castile, Castella فقد كانت تضم ما تبقى من المنطقة من برغش شمالا الى ما بعد نهر دويره وجبال وادى الرملة Guadarrama وحتى موقع مدينة مدريد الحالية (انظر محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٢١٦) ، اما اشتوريش فهى الاسم العربى لولاية اشتورياس Asturias وبسكونية فهى الاسم العربى لولاية بسكاية Vizcaya اما ولاية نافارة Navarra فقد اطلق عليها العرب اسم بلاد البشكنس Bascons او بلاد نبرة ، اما قشتالة فقد اطلق عليها ابن عذارى اسم قشتيلة وهى اقرب لاصلها الافرنجى Castilela اما اراجون Aragon =

البشكنس وجبال قنطابرية على ضفاف نهر ابره فى الطرف الشرقى من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها . وقامت فى عهد فرويلة ثورات عنيفة فى نبرة فى الشرق وفى جليقية كذلك ، وكان فرويلة قد انشا مدينة ابيط Oviedo التى اصبحت عاصمة جليقية (١) . ومن الجدير بالذكر ان شارلمان قام خلال هذه الفترة بغزو كارولنجى تجاوز به جنوبى البرانس، ولكن شارلمان فشل فى هذه الغزوة فقد هزم فى رنشفاله وهاجمه البشكنس عام ١٦١هـ (٧٧٧م) ولهذا فقد تحول شارلمان الى الممرات الشرقية من جبال البرانس حيث توغلت قواته فى مناطق طركونة Tarragona القديمة وتمكنت من السيطرة على المواقع الشمالية التى عرفت فيما بعد باسم قطلونية . ولم يلبث ان ارتبط عدد من الكونتيات البرانسية بامبراطورية شارلمان بعد ان استولى على برشلونة فى عام ١٨٥هـ (٨٠١م). وفى نهاية القرن الثامن ، خرجت بنبلونة من حكم المسلمين وقامت مراكز مقاومة مسيحية فى الوديان الوسطى من جبال البرانس وساعدت على ثورات البشكنس ضد امراء قرطبة . وقد عاصرت مرحلة الغارات الكبرى لالفونسو الاول وفرويلة الاول ، الازمة السياسية الاسلامية فى الاندلس ، الامر الذى ادى الى اقرار نوع من الهدنة بين الجانبين الاسلامى والمسيحى، فلما استقرت دولة عبد الرحمن الداخل بدأ يتخذ بادرة الهجوم على ابيط (Oviedo) وتوغل المسلمون فى هجومهم فى قلب مملكة اشتورياس وكان ذلك فى عهد ملكها الشاب الفونسو الثانى العفيف (٢) ، الذى ارتقى العرش بعد ان انقسمت مملكة جليقية اثر وفاة فرويلة الى قسمين قسم تولاه اورليو Aurelio او اوروالى (٣) ابن فرويلة شقيق الملك الفونسو

=

فقد عرفت عند العرب ببلاد ارغون او ارغن او ارغونة او الثغر الاعلى (ارجع الى يوسف اشباخ تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ٨ — ٩ ، حاشية ١ ، ٢) .

(١) Antonio Ballesteros Beretta, Sintesis de historia de España, Barcelona, 1936, p. 61.

(٢) Sanchez - Albornoz, los reinos, p. 17.

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٣٥ ، يقول « وفيها مات اورالى ملك جليقية وملك بعده شيالون » .

الاول (١٥١ - ١٥٨هـ) (٧٦٨ - ٧٧٤م) ويشتمل على نبرة وبلاد البشكنس ، اما بقية جليقية فقد تولاها سيلو Silo أو شيالون (١) زوج ابنة الفونسو الاول (١٥٨ - ١٦٧هـ) (٧٧٤ - ٧٨٣م) فلما توفى اورالى عام (١٦٤هـ) ٧٧٤م اتحدت المملكة من جديد تحت تاج شيلون الذى توفى عام (١٥٨هـ) (٢) ٧٨٣م دون ان يعقب وكان قد اوصى بالعرش لالفونسو ابن فرويلة ، وكان طفلا ، على ان تتولى الوصاية عليه زوجته ادوسندا Adosinda وعندئذ علت اصوات المعارضة يقودها بعض ابناء الشعب مع الاشراف ، كما اعترض احد الاشراف وهو مروقاط (مرجات) Mauregato (١٦٧هـ - ١٧٣هـ) (٧٨٣م - ٧٨٩م) وكان ابنا لالفونسو الاول من زوجة عربية (٣) غير شرعية كانت جارية لديه وانتهى الامر بأن وصل مورقاط الى كرسى العرش فى جليقية الغربية بمساعدة المسلمين (٤) وفى عهود هؤلاء الملوك الثلاثة اورليو وسيلو ومورقاط لم يتبادل المسلمون والمسيحيون اى غارة خلال ٢١ سنة (٥) .

وكان مورقاط يميل بطبيعته الى المسلمين بحكم أن امه كانت مسلمة

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٣٨٧ وذكر لويس شوارس أن أم سيلو كانت فيما يبدو مسلمة
Luis Suarez, Historia de España, Madrid, 1977.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٦ ، ص ٣٥ ، وانظر الروايات النصرانية ، فى محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٢١٨ .

(٣) Luis Suarez, Op. Cit., p. 25.

(٤) Aguado Bleye, Historia, t. I, p. 479.
ويذكر اجوادو بليى أن هذه المساعدة التى قدمها له المسلمون للظفر بالعرش تمت بمقابل اتاوة سنوية يدفعها الى الامير رمزا لتبعيته لهم وقيل أن هذه الاتاوة وفقا لتقليد كان متبعا منذ القدم كانت تتمثل فى مائة فتاة Cien doncellas
(Lévi - Provençal, op. cit., p. 117, Luis Suarez. op. Cien doncellas cit., p. 25)

(٥) وذكر ابن خلدون أن مورقاط Lévi - provençal, Histoire, t. I, p. 117. وثب على الفونش فقتله (ابن خلدون العبر ، جـ٤ ، ص ٣٨٧) .

لذلك لم يتردد فى التحالف مع المسلمين ، وقد ترتب على ذلك ظهور حركة تذمر شديدة من كافة الاوساط المسيحية فى مملكته لاسيما من رجال الدين ومع ذلك فقد استمر مورقاط يحكم مملكته حتى وفاته فى عام ١٧٣هـ (٧٨٩م) (١) . وكان من الطبيعى ان يؤول العرش الى صاحبه الاول الفونسو ابن فرويلة الا إن الشعب والاشراف تجنبا من التعرض لنقمة الفونسو آثروا اختيار برمند الاول الانجيلى Vermudo وشقيق أورالى ملكا على اشتوريس وكان قد وهب نفسه وحياته للدير فتولى الحكم على كره منه ، وكان نفوذه يشمل غربى جليقية فقط اى انه حكم المنطقة التى سبق لمورقاط ان حكمها ، اما الفونسو الثانى فكان حاكما على القسم الشرقى من المملكة ، وبعد ثلاث سنوات ضاق ، برمند ذرعا بحياة الملك (٢) ، فتنازل بارادته عن العرش لالفونسو الذى تولى المملكة كلها فى عام ١٧٥هـ (أواخر ٧٩١م) باسم الفونسو الثانى الذى لقب فى أواخر عهده بالعفيف El casto (١٧٥ — ٢٢٨هـ) (٧٩١ — ٨٤٢م) وبذلك عادت مملكة اشتوريش الى سابق وحدتها . وفى عهد الفونسو الثانى اشيع اكتشاف ضريح القديس يعقوب (شنت ياقب) ١٩٨هـ (٨١٣م) على جبل بمنطقة امانة وأمر الفونسو باقامة كنيسة (٣) فوق الضريح واصبحت مدينة Santiago de Compostela مزارا لجميع النصارى فى جميع انحاء العالم ، وقد كان لهذا الاكتشاف اكبر الاثر فى غلبة الشعور

---

(١) انظر التفاصيل فى محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ، ص ٢١٩ .

(٢) وكان الامير هشام قد سير لمحاربته قائده ابا عثمان عبيد الله بن عثمان فى سنة ١٧٥هـ (٧٩١م) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٩٥ ، كما اغزى يوسف بن بخت الى جليقية واشتوريش فى نفس العام فأوقع الهزيمة بجيش الملك برمند الاول وكانت هذه الكارثة سببا فى تنازل الملك برمند عن الحكم
Aguado Bleye, op. cit., p. 479.
وانظر ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين — ص ٢١٦ .
Luis Suarez, op. cit., p. 25.

(٣) Aguado Bleye, op. cit., 480.

الدينى ضد المسلمين (١) وسيصبح الخطر المسيحى منذ ذلك الحين شديد الوطأة ، على المسلمين فى الاندلس (٢) رغم هجمات المسلمين المتواصلة على مملكة اشتورياس (٣) التى عرفت ايضا بمملكة ليون ، منذ عهد الملك الفونسو الثانى العفيف (١٧٥هـ - ٧٩١م) .

وكان الفونسو الثانى ملكا حازما مقداما ، ضبط امور مملكته ونهض بها وعمل على تحسين شئونها ، وجعل عاصمتها ابيط ، وكانت جليقية ، تمتد من بلاد البشكنس شرقا الى المحيط الاطلسى غربا ، ومن خليج بسكايا شمالا الى نهر دويره جنوبا . وقد طال حكم الفونسو نصف قرن ، عاصر فيه هشام الاول والحكم الربضى ، وعبد الرحمن الاوسط ، وكانت اهم الاحداث التي جرت فى عصره ، هزيمته على ايدى المسلمين فى موقعة الصخرة باقصى جليقية عام (١٧٩هـ) (٧٩٥م) (٤) . وفى عام ١٩٣هـ

---

(١) Sanchez - Albornoz, los reinos, p. 19, Altamira, hist. de España Vol, I, p. 239.

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٩٦ .

(٣) Sanchez — Albornoz, los reinos, p. 17.

(٤) جاءت هزيمة الفونسو الثانى رد فعل لانتصاره على قوات عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فى موقعة لوتس Lutos أو لودوس Lodos التى دارت على مقربة من ابيط ويعرف الاسم حاليا بلهيب العربى Llamas de moro حيث سمى السهل الذى دارت فيه المعركة ببلاط المذبحة El campo de la Matanza وفيها نال نصارى اشتوريس من جيش عبد الملك وكبدته خسائر كبيرة (راجع Lévi - Provençal, histoire, b. I, p. 143. وانظر تفاصيل الموقعة فى المقرى نفح الطيب ، ج١ ، ص ٣١٧) ، فقد خرج عبد الكريم بن عبد الواحد بصائفة سنة ١٧٩هـ (٧٩٥م) الى استرقة واستولى عليها فتراجع الفونسو الثانى الى الشمال واستمد العون من البشكنس وغيرهم من سكان النواحى وبلغ عبد الكريم انه حشد عسكرا كثيفا « مابين حيز جليقية والصخرة » (ابن عذارى البيان ، ج٢ ، ص ٩٦) فاستعان عبد الكريم بالقائد فرج بن كنانة وقدمه على قوة من اربعة آلاف من الخيالة لمطاردة ملك اشتوريس ، ووفق فرج فى ايقاع الهزيمة بفرقة مسيحية بقيادة غد شاره فى واد يقال له وادى كريشه فوقع غد شاره هذا اسيرا فى ايدى المسلمين وقتل من قواته عدد كبير ، ثم زحف القائد فرج لملاقاة الفونسو ، فتحصن هذا

=

(٨١٠م) عبر الفونسو الثانى بقواتـه نهـر دويره ، وتوغـل حتى اشبونة (١) وعاث فى هذه البلاد ايما عيث ، وكان قد استعان فى هذه الغزوات بشارلمان الذى امده بالمساعدات خاصة بعد هزيمته السابقة امام المسلمين (٢) . وقد رد الحكم على ذلك بنفسه ، فى صيف العام التالى غازيا الى جليقية (٣) ، وفى عهد الحكم توالت الحملات الاسلامية على اشتوريس ، ففى عام ١٩٢هـ (٨٠٨م) عاد هشام ابن الامير الحكم الربضى من حملته الى جليقية مظفرا ، وفى صيف ٢٠٠هـ (٨١٦م) اعزى الحكم وزيره عبد الكريم الى اشتوريس واصطدمت قواته مع قوات الفونسـو الثانى على نهر ارون Oron وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وقتل عدد كبير من قادة الفونسو من بينهم غرسية بن لب Garcia lope خال الفونسو وشانجة Sancho احد زعماء البشكنس (٤) .

وفى عهد عبد الرحمن الاوسط غزا عبد الكريم بن عبد الواحد عـام ٢٠٨هـ (٨٢٣م) الى البة والقلاع ، وعاث المسلمون فى اراضى جليقيـة وخربوا مدينة ليون ، وفى سنة ٢٠٨هـ ، كانت الصائفة المعروفة بغزاة البة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ، اقتحم فيها المسلمون مملكة ليون من فج يقال له جرنيق (٥) ، وكان ينتهى ببسيط للعدو جمع

فى حصن يقع على وادى نلون Nalon ، وبدأ فرج يحاصره ، ففر الفونسو من الحصن وامتنع بحصن آخر ، وتمكن فرج من الاستيلاء على حصن وادى نلون (السيد عبد العزيز سـالم ، تاريخ المسلمـين وآثارهم فى الاندلس ، ص ٢١٨) .

(١) Albarran, El solar, op. cit, p. 95 - Luis Suarez, op. cit, p. 31,
Aguado Bleye, Manual de la historia de España, t. I, p. 480.

(٢) Sanchez - Albornoz, los reinos, p. 17 - 18.

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٤) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ١١٢ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣١٩ ،
Lévi - Provençal, op. cit, p. 176.

(٥) يقابل هذا الفج ما يعرف حاليا باسم Puerto de Herenchugerenu ويقع بين جبال سيرا دى انثيا Encia وسلسلة جبال ايتوريتـا

=

فيه خزائنه وذخائره ، فحط عسكر قرطبة على تلك البسائط فاستصفوها وعلى ذخائر تلك الخزائن فانتهبوها ، ثم قفل المسلمون الى قرطبة ظافرين (١) .

وتوفى الفونسو الثانى عام ٢٢٧هـ (٨٤٢م) وخلفه ابنه ردميره الاول (١) Ramiro I (٢٢٨هـ – ٢٣٦هـ) (٨٤٢ – ٨٥٠م) وكان ردميره او رذمير كما تسميه الروايات الاسلامية آنذاك فى بردوليا الشرقية المعروفة بالقلاع او قشتالة Castilla ، نظرا لتعدد قلاعها ،وفى عهده تغلب على قوات المسلمين ٢٣٠هـ (٨٤٤م) فى بسائط البلدة (موقعة كلافيخو) (٣) واستولى على مدينة قلهرة Calahorra ، ويزعمون انه انتصر على المسلمين بفضل صيحة سانتياجو ، وعلى اثر هذا الانتصار وضع حدا للاتاوة المهينة التى كانوا يقدمونها الى المسلمين منذ عهد مورقاط (٤) .

وفى سنة ٢٣١هـ (٨٤٧م) غزا محمد ابن الامير عبد الرحمن بالصائفة بلاد جليقية وحاصر مدينة ليون ، ورماها بالمجانيق ، فلما ايقنوا بالهلاك لاذوا ليلا بالجبال والغياض فاحرق محمد بن عبد الرحمن

= Iturrieta وهو ممر يقع بين منطقة استلا وفيتوريا
Lévi - Provençal, op. cit, p. 203.

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٨٢ .

(٢) Aguado Bleye, Manual de la historia, p 481. ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٥٥ .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه الموقعة راجع
José Luis Martin, la alta edad Media, p 91 - Aguado Bleye, Manual de historia de España, E.I, t.I, P. 481.

(٤) Aguado Bleye, op. cit, p. 481 - Antonio Ballesteros Beretta op. cit, P. 62.
Carl Grimbero, Historia Universal, Daimon : , t.4, La edad Media, Madrid, 1973, p. 260,
José Luis Maritn, la alta edad media, p 91 - 93.

ما فيها وأراد هدم سورها فوجد سعته ثمان عشرة ذراعا ، فتركه واتخذ غاليا مملكة ليون (١) . وتوفى ردميره فى عام ٢٣٤هـ (٨٥٠م) تاركا عرش اشتورياس وقشتالة لولده اردون الذى تلقب باردون الاول (٢٣٦هـ ٢٥٢هـ) (٨٥٠ — ٨٦٦م) ، وقد قام اردون الاول بتحصين مدن ليون واسترقة أمام المسلمين كما أصلح باقى القلاع والحصون وحاول مساعدة الثوار المولدين بطليطلة على الأمير محمد ، فتغلب عليه الامير محمد فى موقعة وادى سليط فى المحرم ٢٤٠هـ (يونيو عام ٨٥٤م) وانهزم قائده غاتون Gaton (٢) وقتل عدد كبير من قواته (٣) .

وفى عهد الامير محمد تمكن موسى بن موسى بن قسى والى الثغر الاعلى من تكوين امارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية امير نبرة (٤) بابنة موسى وتحالف معه ليستعين به على مقاومة المسلمين ومقاومة جيرانه النصارى فى الغرب ويقصد بهم اردون ملك ليون . وفى أوائل عهد الامير محمد غزا موسى جنوبى فرنسا ، مما يدل على انه اصبح يشكل قوة كبيرة وبالتالى خطرا شديدا على الملك أردون ، وقد عرف بانه الملك الثالث فى أسبانيا (٥) . ومن دلائل خطره وقوته ان ملك فرنسا فى ذلك الوقت شارل الاصلع اجبر على مهادنته ، وقد حاول أردون محالفة موسى ولكنه فشل فى ذلك لتحريض غرسية أمير نبرة عليه ، فتجدد العداء ، وقام

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٨٨ .

(٢) هو غاثون قومس بيرزو Bierzo وصاحب الفضل فى اعادة تعمير استرقة .
Luis Suarez, op. cit., p. 45.

(٣) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٩٥ ، وانظر
Luis Suarez, op. cit., p. 45.

(٤) فى خلال النصف الاول من القرن التاسع عاشت الكونتيات الفرنجية على الحدود الاسبانية داخل فلك الامبراطورية الكارولنجية فى الوقت الذى قطعت المراكز المسيحية فى البرانس صلاتها بها ، وكانت مملكة نبرة أهمها جميعا ، وظهرت فيها أسرة بشكنسية لها صلة مصاهرة وقرابة مع أسرة من مسالة وادى ابرة من اصول قوطية ساندتها ، هى اسرة بنى قسى الذين أسسوا مع نبرة مركزين سياسيين أحدهما مسيحى والآخر اسلامى ، ظلا مستقلين حتى بداية القرن التالى (انظر
= Sanchez - Albornoz, los reinos cristianos, p. 19.

اردون بمهاجمة بعض الحصون الغربية التى كانت فى حوزة موسى ، فسار موسى لقتاله ٢٤٦هـ (٨٦٠م) يعاونه فى ذلك صهره غرسية ملك نبرة فانهزم موسى شر هزيمة ، وقتل غرسية فى موقعة البلدة . وفى ٢٤٨هـ (٨٦٢م) قتل موسى بن موسى واضطر لب بن موسى عقب مقتل ابيه وامام قوة اردون وخطورته عليه الى مصالحته والاتفاق معه على ضرورة قتال المسلمين وردهم عن الولايات الشمالية . وكان اردون قد وصل فى ٢٤٢هـ (٨٥٦م) الى قورية التى تشغل موقعا حصينا واستراتيجيا هاما لعب دورا حاسما فى عملية التراجع الثغرى المتأخرة ، ثم اصبح النشاط الذى تلا هذه الحملة على جانب كبير من الاهمية ، وذلك عندما عمرت المناطق المهجورة فى تلك السنة (١) ، واثر تواجد العامل البشرى فى استمرار النزاع على هذه الاراضى .

وقد انتهز اردون فرصة اشتغال حكومة قرطبة بالقضاء على الثورات التى اشتعلت فى الداخل فعبر نهر دويره بقواته وهاجم مدينة قورية ، واسر واليها ، فقام الامير محمد بارسال عدة حملات الى الثبة والقلاع (٢) ، ثم توفى اردون فى عام ٢٥٢هـ (٨٦٦م) وخلفه ابنه الفونسو الثالث العظيم وكان عمره اربعة عشر عاما حين تولى الحكم ، وقد واجه الفونسو الثالث فى بداية عهده ثورة قام بها الكونت فرويلة Froila Bermudez حاكم ولاية جليقية ، وساعدته الظروف بمصرع فرويلة فى قصره بمدينة ابيط (٣) . وعقب ذلك توج ملكا على ليون ، ثم توالت عليه

José luis Martin, la Alta edad media, p. 94 - Luis Suarez, historia de España, edad media, p. 45.

(١) فى سنة ٢٤٢هـ (٨٥٦م) قام اردون الاول باعادة تعمير مدينة ليون، وفى سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م) عمر مدينة توى Tuy واماية Amaya واسترقة Astorga (راجع Aguado Bleye, op. cit., p 481, Jose luis Martin, la alta edad media, p 49.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit., p. 482.

المؤامرات،فقد دبر له أخواته مؤامرة استهدفت عزله ،ولكن الفونسو قبض عليهم جميعا وعاقبهم بأن سمل اعينهم ، وقد حكم الفونسو مدة اربعة واربعين عاما ، بلغت فيها دولته مبلغا كبيرا من القوة والازدهار ، وقد وصل بغزواته حتى ضفاف نهر تاجة وغزا عدة مدن اهمها مدينة ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة . وفى عام ٢٦٨هـ (٨٨١م) غزا أراضى المسلمين خاصة مناطق الانهار مثل دويرة وتاجة وواديانة ، ويذكر المستشرق الاسبانى شانشيب البرنس Sanchez - Albarnoz عن هذه الفترة التى حكم فيها الفونسو الثالث انه عند منتصف القرن التاسع بدا يحكم فى ابيط فرع محاذى للاسرة السابقة ، وان الملوك الجدد اقدموا على النزول من الجبال الى السهول وحصنوا مجموعة من المدن المهجورة لدعم تقدمهم البطىء وحماية طرق الغزو الواقعة فيما وراء الجبال ، وهى التى كان يسلكها أسلافهم،وكان عليهم التصدى لردالفعل القرطبى ،ولكنهم صمدوا وغامروا بمساعدة أهل طليطلة الثوار ضد الامراء ، اما الفونسو الثالث العظيم ثالث ملوك ابيط الجدد ، فقد استغل الاضطرابات القائمة فى الاندلس بسبب ثورات المولدين احسن استغلال ، واتاحت له هذه الثورات مد حدود مملكة أبيط حتى نهر منديق Mendigo فى البرتغال ونهر دويره فى ليون ونهرى بيسورجة Pisuerga وارلانثا Arlanza بقشتالة ، وهذا التقدم جاء نتيجة لفشل الحملات القرطبية العديدة وانتصاراته فى موقعة بولفوراريا Polvoraria Valdemora (بلفوراريا بلد يمورة) عام ٢٦٥هـ (٨٧٨م) ومنذ ذلك الحين لم يبق امامه من الاعداء سوى البقية الباقية من بنى قسى فى وادى ابره ، حتى يتمكن من وضع حدود ثانية للمنطقة القشتالية (١) .

وقد قام الفونسو الثالث فى ذلك الوقت بمساعدة قمط برشلونة لاقامة اسرة فى بنبلونة عام ٢٩٣هـ (٩٠٥م) معادية للامويين . ومن الجدير

---

(١) Sanchez - Albornoz, los reinos Cristianos p. 19 - 20 - Luis Suarez, op. cit., p. 50.

بالذكر ان حكم الفونسو الثالث الذى استمر اربعة واربعين عاما قد امتلأ بالحروب ضد المسلمين ، ففى عام ٢٦٥هـ (٨٧٨م) على سبيل المثال حاول المسلمون غزو ليون واسترقة ولكنهم انهزموا امام الفونسو الثالث بالقرب من سمورة ، كما تشير الروايات النصرانية انه اثناء مد الفونسو الثالث لحدوده حتى احواز ماردة ووادیانه فى اراضى المسلمين كما سبق ان ذكرنا اشتبك مع المسلمين عند سفح جبل اريفر من جبال سيرا مورينا وانه انتصر على المسلمين واستشهد منهم الوف عديدة فى هذه الموقعة وهذا مالم تشر اليه الروايات الاسلامية (١) . وحين تمكن المسلمون من انتزاع سرقسطة مقر حكومة ابن لب زعيم الثوار فى الثغر الاعلى اضطر الفونسو الثالث الى مهادنة المسلمين لان بنى قسى هم الذين كانوا يحمونه من هجمات المسلمين ، وقد انهمك عقب تلك المهادنة الى تحسين اوضاعه وسياسته الداخلية بسبب قيام الثورات ضده لكثرة الضرائب التى كان يفرضها على الاهالى . وتوفى الفونسو الثالث العظيم بعد حياة حافلة فى عام (٢٩٨هـ) ٩١٠م وكان قد قسم مملكته بين ابنائه فتنازل عن مملكته لابنه الاكبر غرسية ، وعين اردون حاكما لجليقية ، وفرويلة على اشتوريس ، ومنذ وفاته اطلق على مملكته اشتوريس جليقية ، اسم مملكة ليون (٢) .

٢ ـ نشأة مملكة نبرة Navarra

والى جانب ملكة ليون قامت مملكة اخرى فى بلاد البشكنس الجبلية (٣) غربى جبال البرانس كانت تخضع فى بدايتها اى منذ اواخر القرن الثامن الميلادى لبعض السادة الاقطاعيين الذين كانوا يتبعون مملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات قنطابرية او امراء اشتوريس وكانت قاعدتهم

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٥٩ .
(٢) عن دور الفونسو الثالث فى تاريخ اسبانيا راجع Luis Suarez, op. cit, p. 50. 67, Aguado Bleye, op. cit., p. 482 - 485.
(٣) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٦١ .

بنبلونة ، وكانت بلاد البشكنس كما سبق ان راينا هدفا للغزوات الاسلامية من جهة والفرنجية من جهة اخرى ، فقد حاول ملوك جليقية او ليون غزوها اكثر من مرة ولكن البشكنس كانوا يتفانون فى الدفاع عن بلادهم بهدف الانفصال عن التبعية للجلالقة . وفى عام ١٨٣هـ (٧٩٩م) ظهر زعيم نبرى يدعى ازوار تمكن من الاستقلال ببلاده وتوفى عام ٢٢٢هـ (٨٣٦م) فخلفه اخوه شانجة ، ولكن الامور لم تستقر له ، فسرعان ماظهر امير آخر من البشكنس هو غرسية انييجيث ابن انيجو اريستا ، Garcia Iñiguez hijo de Iñigo Arista الذى تغلب على شانجه ، ويعرف هذا الزعيم الجديد فى المصادر العربية باسم ونقة بن شانجة ملك البشاكسة (١) ومنذ ان توج غرسية ملكا على هذه المملكة المستقلة ومركزها بنبلونة ، تحالف ملوكها فيما بعد مع بنى قسى وارتبطوا معهم برباط قوى من المصاهرة فقد تزوج انيجوارستا من ارملة موسى بن فرتون بن قسى ، وبالمثل تزوج موسى بن موسى من ابنة غرسية ، كما تزوج اخوه غرسية من بنت لب بن موسى بن فرتون .

وفى عام ٢٤٨هـ (٨٦٢م) قتل غرسية انيجيث وهو يحارب اردون الاول ملك ليون (٢) فى موقعة البلدة ،وكان صهره موسى بن موسى يقاتل الى جانبه وخلفه ولده فرتون Fortun Garces I الذى وقع اسيرا فى ايدى المسلمين (٣) عام ٢٤٦هـ (٨٦٠م) واستمر اسيرا فى قرطبة اكثر من عشرين عاما ، وتم عزل فرتون عام ٢٩٣هـ (٩٠٥م) على يد سانشو غرسية. Sancho Garces ٢٩٣ - ٣١٣هـ (٩٠٥ - ٩٢٥م) وهو من فرع اميرى آخر تمكن من الاستيلاء على العرش بطريقة ما (٤) .

---

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ .

(٢) ذكر انطونيو راموث ان غرسية انيجث Garcia Iniguez قتل فى سنة ٢٦٩هـ (٨٨٢م) على ايدى المسلمين .

Lévi - Provençal, op. cit., p. 392.

(٣) هو الجد الاول لام عبد الرحمن الناصر

(٤) Lévi - Provençal, op. cit., p. 392 - Aguado bleye, op. cit, p. 500.

اما فرتون فقد اعتزل فى احد الاديرة البقية الباقية من عمره . وكان سانشو هذا اول من تلقب بالقاب الملك من حكام نبرة ، واستقر على عرش نبرة حتى سنة ٣١٤هـ (٩٢٦م) حارب خلالها بنى قسى ، وهاجم لب بن محمد بن لب زعيم بنى قسى نبرة فى عهده عدة مرات وانتهى الامر بهزيمة لب ومقتله فى عام ٢٩٤هـ (٩٠٧م) ، فخلفه اخوه عبد الله فى تطيلة الذى واصل حروبه ضد نبره وهزم شانجة هزيمة نكراء فى عام ٢٩٨هـ (٩١١م) (١) ولكن شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة غزا تطيلة فى سنة ٣٠٣هـ (٩١٥م) حسبما اورده ابن حيان الذى قال « وفى سنة ثلاث وثلاث مائة كانت للعدو فى بنى قسى ، ملوك الثغر الاعلى جولات اسر فيها عبد الله بن محمد بن لب بن قسى ، امير تطيلة ، وصار مكانه اخوه مطرف بن محمد وكانا معا من الابطال ذوى بأس وشجاعة ونكاية شديدة للعدو ومات عبد الله بن محمد بن لب ، فوثب ابنه محمد بن عبد الله بن محمد على عمه مطرف بن محمد فقتله ، ووقعت باسباب ذلك بين بنى لب فتن وحروب واختلاف ضعضع عزهم، فاضطرب الثغر بافتتانهم» (٢) .وعلى الرغم من هزائم شانجة غرسية الاول ، فقد كان فى نظر المؤرخين الاسبان واحدا من اعظم ملوك الاسترداد الاسبانى (٣) .

٣ ـ احداث كل من مملكتى ليون ونبرة فى عهد عبد الرحمن الناصر :

تم فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قيام حلف يضم مملكتى ليون ونبرة فى مواجهة دولة الاسلام فى الاندلس ، وكان عهد الفونسو الثالث ملك ليون كما اشرنا حافلا بغزواته المتكررة على اراضى المسلمين ، وكانت القواعد الاسلامية المتاخمة لمملكة ليون مثل استرقة وسمورة وشلمنقة

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ص ٣٦٣
Levi - Provençal, op. cit, p. 392.

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، ج٥ ، تحقيق شالميتا ، ص ١٢٥

(٣) Aguado Bleye, op. cit, p. 501.

وشقوبية وميراندة ، قد بدأت تخلو من سكانها المسلمين الذين فروا امـام الهجمات الليونية المتتالية ، وفى عهد عبد الرحمن الناصر لم يعد الخطر المسيحى قاصرا على مملكة ليون وحدها بل ظهر خطر جديد هو خطر مملكة نبرة ، وكان قد خلف الفونسو الثالث على عرش ليون ابنه الاكبر غرسية Carcar (٢٩٨ — ٣٠٢هـ) (٩١٠ — ٩١٤م) الذى سار عـلى نفس سياسة ابيه فيما يختص بعلاقاته بجيرانه المسلمين (١) . وقد علل الاستاذ محمد عبد الله عنان سر بداية الهجوم المسيحى الليونى الشديد على اراضى المسلمين فى تلك الفترة المبكرة بأسباب اقتصادية بحتة (٢) .

وما كاد عبد الرحمن بن محمد الناصر يرتقى دست الامارة بقرطبة حتى شن اردون الثانى ملك ليون ٣٠٢ — ٣١٢هـ (٩١٤ — ٩٢٤م) الذى خلف غرسية على عرش البلاد (٣) ، هجوما واسع النطاق عـلى اراضى المسلمين فى الغرب سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) كما سبق ان ذكرنا فى الباب الاول ، وركز هجومه على كورة ماردة واستولى على حصن الحنش وذبح جميع حاميته (٤) وقد سبق هذا الهجوم فى بداية العام الثانى من امارة عبد الرحمن الناصر غزو لبلدة يابرة وفيها استشهد معظم سكان يابرة ومن بينهم واليها مروان بن عبد الملك بن احمد (٥) .

وكان الغرب فى تلك الفترة من حكم عبد الرحمن الناصر لايزال يعج بالثوار امثال عبد الله بن الجليقى فى بطليوس وحليفـه مسعود بن

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٩١ .
Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 36.

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٣٩٢ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الخامس ، ص ٩٨ ، وكان ذلك فى اوائل عام ٣٠١هـ (٩١٣م) .

(٤) ابن حيان ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ وما يليها وراجع ايضا
Aguado Bleye, op. cit., p. 487.

(٥) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٩٨ ، وانظر مدونة عبد الرحمن الناصر ص ٤٤ ، وراجع
Lévi - Provençal op. cit., t. III, p. 36.

سعدون السرنباقى فى يابرة ، ومحمد بن تاجيت فى ماردة ، وسعيد بن مالك فى باجة ، ويحيى بن بكر فى اكشونبة . فاراد عبد الرحمن الناصر ان يضع حدا لهذه الدويلات المستقلة فى الغرب وعلى الاخص دويلة ابن الجليقى رئيس دعوة المولدين فى الغرب . وفى نفس الوقت كان يسعى الى تاديب الليونيين على مااقترفوه فى يابرة وقلعة الحنش . ففى أوائل عام ٣٠٤هـ، اغزى الناصر لدين الله القائد احمد بن محمد بن أبى عبده الى مملكة ليون فخرجت قواته فى ١٦ من المحرم سنة ٣٠٤هـ (١٨ يوليو ٩١٦م) ، واجتاحت اراضى مملكة ليون ، فغنم وسبى وقفل عائدا بقواته الى قرطبة (١) .

وكان رد فعل ملك ليون ان اغار فى عام ٣٠٥هـ (٩١٧م) على منطقة يابرة مما جعل عبد الرحمن الناصر يبعث قائده ابن ابى عبده من جديد لقتالهم ، ولكن سوء الحظ حالف المسلمين فى هذه المرة ، فقد تلقى ابن ابى عبده هزيمة مروعة على أيدى قوات من ليون فى موقعة قشتره مورش المعروفة بشنت اشتبن ولقى القائد ابن ابى عبده مصرعه فى هذه الموقعة (٢) . حدث اللقاء فى ١٤ ربيع الاول سنة ٣٠٥هـ (٤ سبتمبر ٩١٧م) وقد انهزم المسلمون فى هذه الموقعة هزيمة شنعاء وأذرع الليونيون فيهم بسيوفهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة بالغت مدونة سيلوس فى تصويرها، فذكرت إن المرتفعات والغابات والسهول ابتداء من وادى دويره حتى بلدة اتينثا Atienza وبارإكويوس Paraçuellos كانت مغطاة بجثث عساكر المسلمين . وعاد أردون الثانى عقب انتصاره على المسلمين الى ليون بعد أن نصب رأس الشهيد المسلم احمد بن أبى عبدة على سور شنت اشتبن San Esteban بجوار رأس خنزير (٣) .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ١٦٩ .
Lévi - Provençal, op. cit., t. II, P. 37.

(٢) Lévi - Provençal op. cit. t. II, p. 37.

(٣) Ibid. p. 38.

وفى هذه الوقعة يقول ابن عذارى « وجد المسلمون فى محاربة المشركين حتى كانوا قد اشرفوا على الظفر بمن كان فى الحصن فانحشدت النصرانية من جميع جهاتها ممدين لكفرتهم ومجلبين على المسلمين بخيلهم ورجلهم . . . وثبت القائد احمد بن محمد بنفسه وأظهر الصبر ودافع مدافعه الموطن وقيل انه كان قد اعتقد مذهبا فى طلب الشهادة . . . » (١) . ومن عوامل هزيمة المسلمين فى هذه الموقعة ان الجيش الاسلامى كان يتكون معظمه من البربر المرتزقة الذين اهتموا بغنائمهم ، ولما رأوا هجوم النصارى الساحق تسلل معظمهم وفروا بأنفسهم من ساحة المعرفة هاربين من ميدان القتال . ولم يكتف اردون الثانى بهذا بل عقد حلفا مع سانشو غرسية ملك نبرة لغزو اراضى المسلمين ، وتم ذلك فى اواخر عام ٣٠٥هـ (٩١٨م) . ففى عام ٣٠٥هـ « حشد الطاغية أردون بن اذفونش ملك جليقية وشانجة ابن غرسية البشكنسى ، قومس بنبلونة ، حشد النصرانية بجليقية ، وبنبلونة فخرجا معا فى احتفال من جموعهم واستيعاب من كفرتهم الى مدينة ناجرة Najera بالثغر الاقصى ، فنزلا عليها فى عقب ذى الحجة منها واقاما عليها ثلاثة ايام منازلين لاهلها ، وعاثت خيولهم فى ذلك الثغر كيف شاءت فأفسدت الزرع وانتسفت المعايش ، ثم انتقلت الى مدينة تطيلة Tudela قاصية الثغر فانتهت سراياهم الى نهر كلتس وحوائز مشقيرة ووادى طرسونة ، وعبر شانجة لعنة الله نهر ابره ، فقاتل حصن بلتيرة (Valtierra) وقهر اهل ربضه واحرق المسجد الجامع فيه ، وانقلب الكفرة لعنهم الله الى بلادهم أعزة . . . » (٢) .

وكان رد الفعل الاسلامى خروج حملة اسلامية فى المحرم سنة ٣٠٦هـ (منتصف اغسطس ٩١٨م) بقيادة الحاجب بدر بن احمد لقتال العدو وهى غزوة مطونية Mitonia (Mudonia) على مقربة من قلعة رباح وفيها اقتحم الحاجب بدر بحشوده أراضى مملكة ليون « ووطىء حريمهم وآداخ

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ١٧١ .
(٢) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٤٣ .

بلدهم ، منتسفا لغلاتهم ، هادما لمصانعهم ، حاطما لمعايشهم ، ولقيهم اعداء الله ، مستطليين عليهم لحين اقتراب فرحتهم بظفرهم ، واستغلاظ من شوكتهم ، فحاربهم المسلمون حربا شديدة ، حمى لها جميعهم ، فأمدهم الله تعالى بالنصر ... » (١) . ولم يكتف عبد الرحمن الناصر بما احرزته قواته من انتصارات وانما اراد ان ينتقم لمصرع قائده احمد بن أبى عبده ، ومن اهم غزواته التى حدثت الغزوة المعروفة باسم غزوة مويش (٢) Muez ، اهم غزوات المسلمين على الاطلاق حدثت فى صيف عام ٣٠٨هـ (٩٢٠م) وقادها عبد الرحمن الناصر بنفسه ، فخرج فى ١٣ المحرم (٥ يونيو) فى اتجاه طليطلة ، ثم عبر واديانه فى طريق البة والقلاع (قشتالة) ، ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة وخشمة Osma واحرقها وهدمها (٣) ، ثم اتجه الى حصن شنت اشتبن الذى سبق للمسلمين ان انهزموا عنده وقتل امامه القائد ابن أبى عبدة فخرب ما فى المنطقة من كنائس واديرة « فهدم منها حصن وخشمة وحصن قاشتره موريش وما والاهما من المعاقل والابراج وكثيرا من الديارات والبيع (٤) » . ويضيف ابن عذارى « ثم رحل عنها فى اليوم الثانى الى حصن قاشتر مورش ، وهى شنت اشتيبن ، بيضة الكفرة ، وقاعدتهم والموضع الذى كانوا تعودوا فيه الاستطالة على من وردهم ، فلما رأوا ان انصار دين الله قد اظلوهم واولياءه قد صمدوا نحوهم اخلوا الحصن ، وخرجوا هاربين عنه فدخله المسلمون وغنموا جميع ما فيه ... » (٥)

ثم سار الناصر الى منطقة قلونية Clunia وكان اهلها قد اخلوها

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٤٥ ، ابن عذارى ، البيان ، حـ٢ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن حيان المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٥٩ ، ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٦٠ ، وابن عذارى ، البيان ، ج٧ ، ص ١٧٧ ، وراجع التفاصيل فى
Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 40.

(٤) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٦٠ .

(٥) ابن عذارى ، البيان ، حـ٢ ، ص ١٧٧ .

وتعرضت للخراب والدمار ، وكان كل من اردون الثانى ملك ليون وشانجة غرسية ملك نبرة قد حشد حشوده يترقبان وصول الناصر الى الشمال ، وكان الناصر قد وجه بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى الى قلعة قلقرة (Carcar) لاحتلالها ثم استولى الناصر على حصن قلهرة Calahorra وهنا حاول النصارى استدراج المسلمين عند عبورهم وادى خنقيرة Junquera ، وانتظر عبد الرحمن وصول الليونيين والنبريين ، وعندئذ صدمتهم صدمة عنيفة وهزمهم هزيمة نكراء لم تشهد اسبانيا المسيحية نظيرا لها من قبل ، وسقط كثير من قوات ليون ونبرة قتلى ، من بينهم اسقفان هما دولثديو Dulcidio اسقف شلمنقة ، وارمخيو (Ermogio) اسقف توى Tuy وحدثت هذه الموقعة العظيمة التى انتصر فيها المسلمون بقيادة الخليفة عبد الرحمن الناصر على الحلف الثنائى الليونى النبرى فى اليوم السادس من شهر ربيع الاول سنة ٣٠٨هـ (٢٦ يوليو ٩٢٠م) (١) وقد تمكن الناصر عقب هذه الغزوة من الاستيلاء على حصن بقيرة Viguera الذى كان حصنا على حدود نبرة ، فرممه وزوده بما يحتاجه المسلمون من أسلحة ومؤن . ولكن هذه الهزيمة المروعة لم تكن كافية لردع النصارى المتطلعين الى الاستيلاء على اراضى المسلمين فقد ظلوا يواصلون سياسة الاعتداء على اراضى الاسلام ، فلم يكد يمضى عامان عليها حتى اغار أردون الثانى على ناجرة واستولى عليها فى حين اغار حليفه ملك نبرة على بقيرة وتمكن من الظفر بجميع زعمائها اسرى ثم قتلهم بما فيهم زعيمهم محمد بن عبد الله بن لب القسوى مما اثار اهالى الاندلس وارتفعت اصوات احتجاجاتهم على الناصر لقصوره فى الدفاع عن تلك المدن (٢) ، فبادر الناصر عام ٣١١هـ (٩٢٣م) بارسال مولاه

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، حـ٢ ، ص ١٧٨ ،
Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 42.
محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، القسم الاول ، العصر الثانى ، ص ٣٩٧ .

(٢) ابن حيان ، المقتبس ، (تحقيق شالميتا) ، ص ١٨٦ .

عبد الحميد بن بسيل « الى الثغر الاقصى فى جيش كثيف عدته ، اغاث به اهله على شغله بما بين يديه من حرب اهل الخلاف بالموسطة ، فجرد عبد الحميد الى ذلك الفرج ، وقوى عدته واستقوى عدته ، واستقوى على الجيش الذى ضمه اليه ، وشرفه بتقديمه الى خطة الوزارة ... فمضى لوجهه ذلك ، متصلنا حتى دخل الثغر الاعلى ، واجتمع اليه خلق من اهل الثغر وغيرهم ودخل مدينة تطيله قاصية ، واهلها بعد ممرضون فى الطاعة ، فملكها للناصر لدين الله ، وكان ذلك اول ملكها (١) ... ».

وتبعت حملة عبد الحميد بن بسيل على الثغر الاعلى وتطيله ، وجوازه الى مملكة نبرة وتدميره لبعض انحائها حملة اخرى وجهها الناصر فى العام التالى فى ١٦ من المحرم عام ٣١٢هـ (٢٧ ابريل سنة ٩٢٤م) الى قلب مملكة نبرة ، ففى ٤ ربيع الاخر (١٠ يوليو) عبر نهر ابره واخترق عمق نبرة وعاثت قواته فى اراضى مملكة نبرة تحرق وتدمر ما يقابلها من حصون تتحكم فى الطريق الى بنبلونة ، مما ترتب عليه جلاء حاميات نبرة من القلاع خوفا من جيوش الخليفة الناصر ، وبذلك تمكن الناصر من الاستيلاء على العديد من الحصون والقلاع منها حصن قلهرة وقلقرة carcar وبيطرالته (بيرالته) Peralta وهو قنطرة البة كما ورد فى المقتبس (٢) او بيطرة التا كما ورد فى البيان المغرب . وفى هذه الغزوة يقول ابن عذارى « فحل من اول بلادهم حصن قلهرة ، وكان العلج شانجة قد اخلاه فامر بهدمه واحراق جميع ما فيه وحوله ، ثم تنقل عنه الى موضع يعرف ببيطرةالته وكانت حوله حصون مانعة فاخلاها الكفرة ... (٣) » . كما استولى على حصن بالجش Falces واحرقه وحصن قرقشتال Carcastillo فى وادى ارجون الواقع شرقى بيرالته (٤)

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ١٨٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٩١ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ص ١٨٦
(٤) Lévi - Provençal, op. cit, II. p. 46.
وانظر : محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الاندلس ، ص ٣٩٩

وشمال شرقى تطيله . ولم يكتف عبد الرحمن الناصر بهذا ، فبهذه الفتوح انفتح الطريق امامه الى قلب نبرة حيث زحف على عاصمتها بنبلونة ودخلها رغم محاولات الملك النبرى سانشو غرسية ان يحول بينه وبين ذلك ، الا ان سكان بنبلونة مالبثوا ان جلوا عنها هاربين خوفا ورعبا من قوات المسلمين . وطلب ملك نبرة العون من قشتالة وحاول لقاء المسلمين واستدراجهم فى مفاوز نبرة الوعرة ، ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم وتمزيق قواتهم (١) . وحاول عبد الرحمن الناصر التعمق شمالا مستهدفا تدمير القلعة الاسلامية القديمة المسماه صخرة قيس Huarte - Aroquil ، ولما تحقق له ذلك قفل عائدا الى قلهرة تطيله . وبهذا الدرس القاسى الذى لقنه الناصر لسانشو غرسية الاول فى تلك السنة تنتهى الحلقة الاولى من الغزو الاسلامى ، وكان اردون الثانى قد توفى فى سنة ٣١١هـ (٩٢٤م) وخلفه اخوه فلويره الثانى بن اذفونش Fruela قبل ان يقوم الناصر بحملته على بنبلونة ، ولكن فلويرة الثانى لم يحكم سوى عاما واحدا وتوفى ٣١٢هـ (٩٢٥م) تاركا وراءه صراعا ضاريا بين شانجة Sancho Ordonez والفونسو الرابع ولدى اردون الثانى ولم تلبث الحرب الاهلية ان نشبت فى مملكة ليون وانتهت بوفاة شانجة عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) Sancho Ordoñez الذى كان قد ظفر بعرش مملكة ليون ثم تجددت بين الفونسو الرابع (٣١٣ – ٣١٩هـ / ٩٢٥م – ٩٣١م) واخيه ردميره Ramiro II وانتهى الامر بفوز ردميره الذى ارتقى الى عرش ليون فى عام ٣١٩هـ (٩٣١م) (٢) بعد ان تنازل له اخوه الفونسو الرابع عن العرش واقام فى دير ساهاجون ، وقد اشتهر راميرو أوردميره (٣١٩ – ٣٤٠هـ / ٩٣١ – ٩٥١م) الذى تلقب بالثانى بشجاعته وقوته وشدة بأسه ، فقد تابع سياسة من سبقه فى الصراع ضد المسلمين ، فانتهز فرصة احتدام نار الثورة فى طليطلة ، فتوجه بقواته

---

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع الى ابن حيان ، المقتبس ، شالميتا ، ص ١٨٩ – ١٩٥ ، وابن عذارى البيان ، ج٢ ، ص ١٨٦ – ١٨٩ .

(٢) Aguado Bleye, op. cit, p. 488.

لمساعدة الثوار ، ولكنه فوجىء بزحف اخيه الفونسو الرابع الراهب الى مدينة ليون واستيلائه عليها ، فعاد راميرو مسرعا وحاصر اخاه فى ليون واستردها عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ثم سمل عينى اخيه وابناء عمومته الثلاثة الذين اشتركوا فى الثورة ضده وسجنهم (١) . وكان الناصر قد عزم على وضع حد لثورات مدينة طليطلة ، ولذلك فقد تقدم اليها فى ربيع الثانى من عام ٣١٨هـ (٩٣٠م) ثم حاصرها ، ولكنه غادرها بعد اسابيع وعاد الى حصارها مرة ثانية بعد عامين وكله عزم وحماس على اخضاع هذه المدينة العاصية ، وقد حاول رذمير انقاذ هذه المدينة التى طالما شجع ثوارها ، وبالفعل فقد تقدم اليها مارا بحصن مجريط (مدريد) ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ، ثم انهزم على أيدى المسلمين فى اوسمة ٣٢١هـ (٩٣٣م) وعجز عن منعهم من تدمير اراضى قشتالة ومدينة برغش (٢) . وفى ذلك يقول ابن عذارى « وكان اهل طليطلة لما اخذهم الحصار واشتد عليهم التضييق ولازمهم القواد ، قد استجاشوا بالمشركين ، واستنجدوهم ورجوا نصرهم لهم ، فلم يغنوا عنهم فتيلا ، ولاكشفوا عنهم عذابا ولاجلبوا اليهم الا خزيا وهوانا ، وخرج القواد المحاصرون لهم الى الكفرة فهزموهم وفرقوا جموعهم ، وانصرفوا مولين على اعقابهم ، خاذلين لمن انتصر بهم .. فلما يئس اهل طليطلة ان ينصرهم احد من باس الله الذى عاجلهم وانتقامه الذى طاولهم ، عاذوا بصفح امير المؤمنين ، وسألوه تامينهم .. » (٣) وقد ساعد على رحيل رذمير وعدم انجاده لطليطلة اضطراب ظروف بلاده الداخلية وثورة اخيه السابق ذكره عليه .

وفى عام ٣٢٢هـ (٩٣٤م) اعد الخليفة الناصر نفسه للجهاد ،

---

(١) وابناء اخيه هم ادفنش وردميره واردون ، وكانوا قد ساعدوا الفونسو الرابع

Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 51.

(٢) Lévi - Provençal, Ibid, t, II, p. 53.

(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج٢ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

وقرر غزو مملكة نبرة ، وكان ملكها سانشو غرسية قد توفى فى سنة ٣١٤هـ (٩٢٦م) تاركا زوجته تيودا (طوطة) Toda Aznarez وصية على ولدها غرسية Garcia Sanchez I (٣١٤ – ٣٦٠هـ / ٩٢٦ – ٩٧٠م). فلما علمت بقدوم الناصر « وردت عليه رسل الماكرة طوطة ابنة اشيذر تلوذ بطاعته وتمت بسبب اسلافها بالخلفاء سلفه ، وتسأله عقد سلمهـا وصرفه اوجه الخيل عنها ... فسارعت الخروج نحوه بنفسها فى وجوه رجالها وقواميسها واساقفتها ، ووافت اليه مسرعة لمعسكره فى محلة قلهزة ومعها هدية حسنة ، وقد امر الناصر لدين الله بتعبئة الجيوش لدخولها ... وخضعت له فى سؤالها ومقالها ، فأحسن الناصر لدين الله قبولها ، وكرم منزلتها ، وعقد عليها وعلى قوامها عقدا ، أعز الله الاسلام به » تضمن تصحيح الطاعة والتبرؤ من سائر ملوك النصرانية (١) ... وبهذا يتبين لنا ان الناصر قد عقد صلحا مع طوطة فى مقابل وعدها له بالا تهدد اى رقعة من بلاد الاسلام والا تقدم اى عون لاى مملكة نصرانية ضد المسلمين. ومضت سنوات عدة دارت خلالها العديد من الحروب بين الناصر وبين النصارى ، فقد كان كثيرا ما يتجه بكل قواته الى البة والقلاع مجتاحا بقواته العديد من الحصون المسيحية مثل حصن غرماج Gormaz الواقع بالقرب من ليون ، هذا وقد زحف الناصر على مدينة برغش عاصمة قشتالة فى عام (٣٢٣هـ) ٩٣٤م وخربها ، وبعدها هاجم أوسمة والقصر وحصن انه والدير المنسوب اليه من بلاد البة والقلاع ، وحصن بسيطة ، واشكفيرش ولزمه (٢) . ولم تقتصر الحروب بين الناصر واعدائه النصارى على المواقع البرية ، بل ان هناك من المواقع البحرية ما دار بين الطرفين ، فقد ذكر ابن حيان ، خبر هذه الغزوة البحرية التى كان يقودها عبد الملك ابن سعيد بن ابى حمامة (٣) ضد الفرنج ، وقد انهزم الفرنج فيها ، وانتهت

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٣٣٦ .
(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٤٠٤ .
(٣) ابن حيان ، المقتبس ، ص ٣٦٦ .

هذه الحرب بعقد الصلح بين الناصر وردميرة الثانى ملك ليون عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م. ثم تتابعت الغزوات فيما بعد، فقد سار الناصر عام ٣٢٢هـ (٩٣٣م) لمحاربة النصارى، وفى عام ٣٢٤هـ (٩٣٥م) حاول ملك ليون أن يستولى على قلعة مجريط ولكن حامية الحصن تمكنت من صده وانقاذ القلعة (١). ثم واجه الناصر حلفا ثلاثيا يتكون من التجيبيين فى سرقسطة وملك نبرة وملك ليون، وعزم على التحرك السريع، ففى عام ٣٢٥/٣٢٦هـ تمكن الناصر من الاستيلاء على قلعة أيوب Calatayud بعد أن كبد حاميتها خسائر كبيرة فى الانفس ثم على سرقسطة رغم المساعدات العديدة الضخمة التى قدمها ردمير ملك ليون لصاحبها (٢)، وبهذا يكون الناصر قد قضى على ثورة التجيبيين فى الشمال والثغر الاعلى وهم الذين طالما كانوا يستعينون بليون ضد الناصر فيكون الناصر بهذا قد قضى على عدوين فى آن واحد .

وفى صيف ٣٢٧هـ (٩٣٩م) (٣) سار الناصر الى ليون، وكان يقود جيشا ضخما للغاية، عبر نهر التاجة من جهة طليطلة، ثم عبر نهر الدويره، متجها نحو شنت مانكش Simancas ، وكان ردميره الثانى يرابط على مقربة منها فى حشود عظيمة متأهبا للقتال، وزوده حليفه الخائن امية بن اسحاق، بنصائح ومعلومات قيمة، وانضمت اليه طوطة ملكة نبرة ضاربة بعهودها عرض الحائط ، وبذلك اتحدت قوى اسبانيا المسيحية ضد

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٤٠ — ٣٤١ ، ابن حيان ، المقتبس ص ٣٧٩ .

(٢) Lévi - Provençal, op. cit, t, II, p. 55.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن حملات الناصر انظر محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٤٠٢ — ٤٠٧ ، وكان الناصر قد عقد صلحا مع راميرو ملك ليون عام ٣٢٣هـ (٩٣٥م) (انظر ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٣٦٥) .

المسلمين . وتتفق المصادر العربية والاسلامية على أن الموقعة عرفت بالخندق ، وكان من ابرز الذين خلنوا عبد الرحمن الناصر من اتباعه الخائن ابن فرتون بن محمد الطويل ، فقبض عليه الناصر وصلبه في قرطبة ، وكانت لهذه الهزيمة ، اثرها الكبير فى اوربا والعالم الاسلامى ([1]) وانتهى الامر بأن عقد ردميره الصلح مع الناصر .

وعلى الرغم من السلم المنعقد بين الناصر ورذمير الثانى ملك ليون الا أن هذا الاخير لم يحترم عهوده معه ، فقد تجددت المعارك بينه وبين الناصر الى ان توفى ردميره الثانى فى ٣٣٩هـ (٩٥١م) ، فاشتعلت الحرب الاهلية بين ولديه اردون الثالث Ordoño III (٩٥١ - ٩٥٦م) وشانجة ([2]) Sancho I حفيد طوطة الوصية على عرش مملكة نبرة وانتهز المسلمون هذه الفرصة فاغاروا على مملكة ليون الى ان تولى اردون الثالث عرش ليون ، وعندئذ ارسل الى الخليفة الناصر يطلب موادعته ومسالمته ، فاجابه الناصر وعقد معه معاهدة صلح على الرغم من ان شانجة اخاه عارضها وحال دون تنفيذها لفترة محددة . وكان اردون الثالث ابنا لردميره الثانى من زوجته الاولى تيريسا Teresa ، اما سانشو فكان ابنه من زوجته الثانية اراكه Urraca ، وكما سبق ان ذكرنا فان الصراع لم يلبث ان دب بين الاخوين ، فقد ادعى اردون انه احق بالعرش باعتباره اكبر الاخوين ، ولكن شانجة اخاه وقف امامه يؤيده فى ذلك اشراف نبرة وامراؤها الذين كانوا اخواله لامه وجدته طوطة الوصية على مملكة نبرة

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن وقعة الخندق ، راجع ، ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٣٤٢ - ٣٤٧ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٣٧ ، المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٣٤١ ،
Lévi - Provençal, op. cit, p. 51 - 65, Aguado Bleye, op. cit, p. 487 - 488.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٢١٧ .

الى جانب اهل قشتالة ،وتوفى أردون الثالث بسمورة في ٣٤٥هـ(٩٥٦م) بعد فترة قصيرة من حكمه للبلاد فخلفه اخوه شانجة الاول المعروف بالسمين Sancho el grueso (٣٤٥ – ٣٥٦هـ / ٩٥٦ – ٩٦٦ م) الـذى رفض تنفيذ اتفاقية السلام مع الخليفة الناصر (١) ، مما دفع الناصر الى محاربته ، فسير لهذا الغرض قائده احمد بن يعلى في ٣٤٦هـ (٩٥٧م) الذى كان واليا على طليطلة الى ليون ، ،وتمكن القائد ابن يعلى من ايقاع الهزيمة بشانجة وارغمه في النهاية على قبول الصلح .

ثم ثار الاشراف على شانجة السمين بحجة هزيمته امام المسلمين في كثير من المعارك وبحجة أن بدانته المفرطة تحول بينه وبين ركـوب الخيل ،فلاذ شانجة ببنبلونه عاصمة نبرة واقام في كنف جدته طوطة ملكة نبرة (٢) .وفي ذلك الوقت قام الليونيون باختيار اردون الرابع السيء بن الفونسو الرابع الراهب عم الملك شانجة وصهر الكونت فردلند جنثالث Fernán González ، وذلك في عام ٣٤٧هـ (٩٥٨م) ، وقد كان أردون الرابع سيىء الخلق كريها ، قبيح الشكل مما جعله يتلقب بالسيىء El Malo فلما وجد شانجة السمين ان الامور قد ساءت ضده لجا الى الناصر يطلب معونته ، فقام الناصر بمعالجته من بدانته وامداده بالاموال والرجال مما سهل لشانجة استرجاع عرش مملكة ليون مرة ثانية .

وفي مقابل هذه المساعدات التى قدمها الناصر لشانجة كان عليه ان يتنازل بعد استرجاع للعرش عن بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وساعد اشراف نبرة شانجة على استعادة العرش ، وكانت الملكة طوطة قد وفدت الى قرطبة عام ٣٤٧هـ (٩٥٨م) ومعها ولدها غرسية الذى كانـت

---

(١) Aguado Bleye, op. cit. p. 488 - Lévi - Provençal, op. cit., t. II, p. 70

(٢) Aguado Bleye, op. cit, P. 488 - Lévi - Provençal, Ibid, p. 70 - 71.

وهبية عليه وحفيدها شانجة ملك ليون الذى خلعه اشرافها ، فاستقبلهم الناصر بحفاوة بالغة ، ووعدهم ببذل المساعدة ،فلما تم لشانجة ما أراد فى ٣٤٩هـ (٩٦٠م) ، وفر اردون الرابع الى برغش ، نكث شانجة بكل وعوده للمسلمين وتوفى الناصر بعد ذلك بفترة قصيرة فى رمضان ٣٥٠هـ (اكتوبر ٩٦١م) (١) . وفى ذلك الوقت اعلن فردلند (فرنان جنثالث) نفسه اميرا مستقلا على قشتالة وهو الذى كان قد تدخل فى الاحداث الاخيرة لليون تارة مع شانجة السمين ، وتارة ضده .

فلما علم اردون الرابع بنكث شانجة السمين لعهوده مع المسلمين سعى الى الحكم المستنصر بالله مبديا رغبته فى الصلح معه على أن يساعده فى استرجاع ملكه ، فوعده الحكم باعادته ، ولكن شانجة بادر هو الآخر باستمالة الحكم واعلان الطاعة له ، وما لبث ان نكث من جديد عندما علم بوفاة اردون ، فقام الحكم بمحاربة شانجة ملك ليون ، وهزم فرنان جنثالث امير قشتالة فى موقعة شنت اشتيبن وارغمهما على طلب الصلح . وقد واجه شانجة مشاكل عديدة منها قيام Conzalo Sanchez (غند شلب) حاكم جليقية بالاستقلال بعد ان كان قد استولى على لميق وبازو وقلمرية مما دفع شانجة الى محاربته ، ولكن غند شلب دس له السم فمات فى عام ٣٥٦هـ (٩٦٦م) وخلفه ابنه ردميرة الثالث (٣٥٦ - ٣٧٢هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢م) وكان طفلا فى الخامسة من عمره ، لذلك فقد تولت الوصاية عليه عمته الراهبة البيرة Elvira. ، ولم تستتب الامور فى ليون منذ مصرع شانجة السمين مما جعلها تبدأ عصرا جديدا من الفوضى والاضطرابات ، فالقوامسة لم يعترفوا بالملك الصغير ، والفتن انتشرت فى كل انحاء البلاد ، والنورمان اخذوا يهددون ساحل جليقية (٢) .

---

(١) Sanchez - Albornoz, los reinos cristionos, op. cit, p. 22.

(٢) Aguado Bleye, op. cit, p. 488.

٤ ـ مملكة ليون بعد وفاة شانجة السمين :

قامت الثورات فى مملكة ليون وخاصة فى ولاية جليقية فىأعقاب وفاة شانجة وحاول كثير منالزعماء الاستقلال عنمملكة ليون،واخذوا يتوجهون الى قرطبة للتفاوض مع خليفة المسلمين (١)٠وكان من ابرز هؤلاء الزعماء فرنان جنثالث (٢) الذى استقل بقشتالة ، كما ظل غند شلب Sanchez Gonzalo الذى اقدم على الفتك بشانجة مستقلا فى منطقة لميق وبازو وقلمرية ، ثم توفى فرنان جنثالث عام ٣٦٠هـ (٩٧٠) وخلفه فى الامارة ابنه غرسية فرناندث Garcia Fernandez كما توفى غند شلب ملك نبرة فى نفس السنة وخلفه ولده سانشو غرسية الثانى Sancho Garcés II Abarca (٣) ، الذى زوج ابنته من المنصور فاسلمت وتسمت عبدة،وقد تنافس هؤلاء الامراء فى اعلان طاعتهم للحكم المستنصر والوفود الى قرطبة ومنهم القمط بوريل الثانى من برشلونة ، الذى كان يمارس الحكم وحده بعد وفاة اخيه وشريكه فى الحكم ميرو عام ٣٥٦هـ (٩٦٦م) ومنهم الملك شانجة غرسية Sancho Garcés II ملك نبرة ، ومعه السيدة البيرة الوصية على الملك الشاب ، ومنهم فرنان لاينث Fernan lainez قومس شلمنقة ، وغرسية فرناندث Garcia Fernández امير قشتالة وفرناندو انسورث Fernándo Ansurez امير قشتالة قومس مونثون Monzon (منتشون) وغند شلب ، قومس جليقية ، ورودريجو بلاسكث Rodrigo Velázquez امير جليقية ،وبنى غومث Gómez قمامسة قريون Carrion (٣) .

وفى عهد هشام المؤيد وحجابة المنصور بن ابى عامر ابلغ المنصور بقيام حلف مضاد للاسلام فى الاندلس يجمع بين ردميرة الثالث وغرسية فرناندث Garcia Fernandez وشانجة ابركة Sancho Abarca ملك بنبلونة ٠ فبادر المنصور بالخروج الى طليطلة ، ثم تقدم الى وادى

(١) Lévi - Provençal, op. cit. p. 180.
(٢) Sanchez - Albornoz, los reinos cristianos, p. 22
(٣) Lévi - Provençal, op. cit, t, II, p. 181.

دويره حيث بلغته الاخبار باحتشاد قوات الحلفاء فى هذه المنطقة ، وتم الاشتباك فى روطة Rueda فى (٣٧١هـ) اغسطس ٩٨١م على مقربة من شنت مانكش ، وأسفر الاشتباك عن كارثة بالنسبة للمتحالفين الثلاثة ، وانتهز المنصور الفرصة ودخل حصن شنت مانكش ودمره، وتمكن من اسر اعداد كبيرة (١) .

وامام هذه الهزائم المتتالية ، اقدم أشراف ليون فى ذلك الوقت على التخلص من ردميرة ، فخلعوه واقاموا مكانه ابن عمه برمودة Vermudo II بن ردميرة الثالث ، وتم ذلك فى عام ٩٧٢م، ولكن ردميرة الثالث لم يسكت على هذا الوضع الجديد فسرعان ما جمع قواته وانصاره ، واشعل نيران الحرب الاهلية من جديد ، بيدانه تلقى فى النهاية هزيمة نكراء من خصومه فر على اثرها الى استرقة محاولا اللجوء الى المنصور ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب وفاته المبكرة فى ٢٦ يونيو ، وبهذا يكون برمودة قد تخلص من منافسه الوحيد ،وعندئذ بادر هو الاخر الى طلب المساعدة من المنصور الذى امده بقوة كبيرة لمساعدته على التخلص من الاشراف ، ولكن برمودة، لم يلبث ان بدل فجاة سياسته مع المنصور ،فطرد الحامية الاسلامية واسترد نفوذه على ليون (٢) ، ولم يتردد المنصور فى محاربته ومهاجمة قلمرية وتخريبها تماما بحيث ظلت خربة لمدة سبع سنوات،كما جرد حملة وجهها الى مدينة ليون اشترك فيها بعض النبلاء والقوامسة ، فتعرضت للدمار وفر منها الملك الى سمورة التى تعرضت هى الاخرى للدمار (٣) مما

---

(١) Sanchez - Albornoz, los reinos cristianos españoles hasta el descubrimiento de América Buenos Aires, 1979, p. 22 - Lévi Provençal, op. cit, p. 235.

وراجع الرواية العربية فى ابن عذارى ، البيان ، جـ٢ ، ص ٢٥٦ - ٢٨٠ .

(٢) Luis de Valde Avellano, op. cit, p. 229 - Lévi - Provençal, op. cit, p. 242.

(٣) Luis de Valde Avellano. op. cit, p. 250.

دفع برمودة الى طلب الصلح عام (٣٨٥هـ) ٩٩٥م ، ثم توفى برمودة عام ٣٩٠هـ (٩٩٠م) وخلفه ابنه الفونسو الخامس النبيل EL NOBLE (٣٩٠هـ – ٤١٨هـ / ٩٩٩ – ١٠٢٧م) ، وكان قاصرا ، فتولت الوصاية عليه امه الملكة البيرة والقومس (١) منندو غنثالث (مندس ابن غنشلب) .

٥ – نشأة مملكة قشتالة :

كانت تقع فى اقصى الطرف الشرقى الذى يكاد يكون مهجورا من مملكة ليون ، وتمتد شرقا حتى هضاب نبرة ، ومن ولاية ريوخا Rioja جنوبا حتى الاراضى التى عرفت فيما بعد بارغون (٢) ، وكانت تسمى بردوليا Bardulia (٣) ثم سميت فيما بعد بقشتالة Castilla (القلاع عند العرب) لتعدد القلاع بها ، ويمتاز موقعها بانه استراتيجى للغاية ، فهى على وجه التحديد تقع فى جنوب سلاسل جبال قنطابرية وفيه وادى ابره الاعلى وفى منطقة التماس مع جبال قنطابرية الموحشة وسكانها البشكنس الشرسين الذين لم يقهرهم القوط الغربيون قط (٤).

وكانت حاضرة قشتالة مدينة أماية Amaya الواقعة على نشز حصين للغاية على ضفة وادى بيسويرجه Pisuerga ، وقد تعرضت هذه المنطقة لحملات المسلمين العنيفة طوال قرن كامل سواء من جانب القوات القرطبية او من جماعات المسالمة فى وادى ابره الاوسط الذين كانوا يغزونها بدون انقطاع . وكان سكانها الاصليون من البشكنس واهل البة (٥). وكان

---

(١) Aguado Bleye, op. cit, p. 489.

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٥٩٠ .

(٣) Antonio Ramos Oliveira, Historia crítica de España, la edad media, p. 67.

(٤) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٦٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٣٣٢ .

(٥) Aguado Bleye, op. cit. p. 492. ، محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٥٩٠ .

لاختلافها فى الارض والجنس والتاريخ عن سائر مملكة ليون اكبر الاثر فى ايجاد نوع من الشعور بالعصبية والروح الانفصالية التى انتهت فيما بعد بانفصال شعبى لغويا وتشريعيا وادبيا (١) . وقد ثار اهل قشتالة فى اوائل القرن العاشر ضد ملوك ليون فحاربهم اردون واخضعهم (٢).كما سعى فرويلة والفونسو الثالث على اجتذابهم اليها بتزويجهم من سيدات قشتالة (٣) او اعادة تعمير المدن والحصون فى قشتالة بعناصر بشكنسية كما حدث فى برغش وكاردينا وقلونية وشنت اشتبين (٤) وقد تمكنت قشتالة من تحقيق شخصيتها التاريخية فى منتصف القرن العاشر الميلادى حين وجدت فى القومس القشتالى Fernán González فرنان غنثالث (٥) الرجل الذى سيضع اساس استقلال الكونتية والذى عرف كيف يستغل

---

(١) Sanchez - Albornoz, p. 22.

(٢) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ؛ ص ٥٩١ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit, p. 492.

(٤) Aguado Bleye, Ibid, p. 492 - José luis Martin, op. cit, p. 108.

(٥) هو فردلند فى المصادر العربية ابن جنثالو فرناندث Gonzálo Fernández قومس برغش منذ عام ٢٨٦هـ (٨٩٩م) والذى ورث كونتية قشتالة فيما يقرب من عام ٢٩٨هـ (٩١٠م) من قومس قشتالة السابق نونيو نونيث Nuño Nuñez (٢٨٦ – ٢٩٧هـ) (٨٩٩ – ٩٠٩م)، عن طريق زواجه من مونيا بنت نونيو Muña . وقد قام جنثالو فرناندث منذ أن تولى كونتية قشتالة بترميم القلاع ، واعادة تعمير البلاد ومن بينها مدينة لارة Lara . ولقد ورث فرنان جنثالث من أبيه بادىء ذى بدء ملكية مدينة لارة واصبح قومسا لها ، وفى بداية عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) وضع يده على كونتية قشتالة فى حياة أبيه ، ولم يلبث أن الغى لقب قومس من اصحاب الكونتيات القشتالية وقصره على نفسه ، ومنذ سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) اصبح يضم الى لقبه لقب قومس البة عن طريق زواجه من سانشا ارملة هراميث Herramelliz قومس البة (المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣١م) وقد طال عهد فرنان جنثالث حتى سنة ٣٦٠هـ (٩٧٠م) وعاصر خمسا من ملوك ليون هم ردميرة الثانى (٣١٨ – ٣٣٩هـ) (٩٣٠ – ٩٥٠م) واردون الثالث (٣٣٩هـ – ٣٤٤هـ) (٩٥٠ – ٩٥٥م) وشانجة الاول (٣٤٤ – ٣٥٦هـ) (٩٥٥ – ٩٦٦م) واردون الرابع ٣٤٧هـ (٩٥٨م) وردميرة الثالث (٣٥٦ – ٣٧٢هـ) (٩٦٦ – ٩٨٢م) وتسجل الاربعون

حيويته فى ظروف سياسية مواتية ، وهو الذى حشد قواته وانصاره معلنا الحرب على ردميرة الثانى ملك ليون وولده أردون الثالث من بعده ، وكان ردميرة الثانى قد بلغ أوج قوته عقب انتصاره الباهر على المسلمين فى وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ (٩٣٨هـ) ، لذا فقد امكنه الانتصار على فرنان غنثالث بسهولة وتمكن من اسره الى ليون حيث اقام سجينا نحو عشرة اشهر ، واقام على حكم قشتالة اسور فرناندث كونت مونثون Asur Fernandez conde de Monzon ، ثم اسند هذه الكونتية الى ولده سانشو فى سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤م) مع الابقاء على اسور (١) وامره بأن يحسن معاملة القشتاليين ،ولكن القشتاليين لم يرضوا عن اميرهم فرنان غنثالث بديلا ،فواصلوا ثورتهم التى تحولت الى بركان من الغضب جعل جموعهم الغاضبة تخرج فى حشود مرعدة الى ليون ، وعندئذ اطلق ردميرة فى ذلك الوقت سراح فردلند (فرنان جنثالث) على أن يقسم يمين الولاء والطاعة لملك ليون وان يتنازل عن كل املاكه وان يتزوج ابنه اردون (أى ابن ردميرة) اراكه Urraca بنت غنثالث ،فقبل فرنان غنثالث شروطه مرغما ، وعلى اثر ذلك عاد فرنان جنثالث الى كونتية قشتالة (٢).وعقب وفاة ردميرة الثانى سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م) تغيرت امور قشتالة ، فقد تيسر لفرنان غنثالث ضم كونتيات قشتالة كلها تحت جناحه استعدادا لجعلها امارة مستقلة نحو منتصف القرن العاشر،وانتهز فرنان جنثالث فرصة نشوب الحرب الاهلية بين شانجة السمين واردون الرابع ولدى ردميره الثانى واستقل ببلده ، ونصب نفسه اميرا مستقلا على قشتالة ،واخذ يوسع املاكه

=

عاما من حكمه احداثا خطيرة من صراعات ومنازعات واضطرابات (راجع
Antonio Ramos Oliveira, historia de España, la edad media, p. 66 72).

(١) Antonio Ramos Oliverira, op. cit, p. 86.

(٢) Ibid, p. 86.

على حساب المسلمين (١) وفى هذه الاثناء كان شانجة السمين قد استنصر عقب جلوسه على عرش ليون بعبد الرحمن الناصر ليدعم نفوذه ، وتولت عمته الراهبة دونيا البيرة الوصاية على ابنه ردميرة الثالث الملك الطفل وانتهى هذا الملك الصغير هو الاخر باستنصاره بعبد الرحمن الناصر (٢)، وعندما تتابعت اعتداءات فردلند (فرنان جنثالث) على اراضى المسلمين لم يتردد الحكم المستنصر فى ارسال قواته لوضع حد لهذه الاعتداءات واوقعت بقواته هزيمة نكراء فى موقعة شنت اشتيبن ٣٥٢هـ (٩٦٢م) واضطر الى طلب الصلح ، ثم توالت غزوات المسلمين على اراضى قشتالة فيما بين عامى ٣٥٢ - ٣٥٧هـ (٩٦٣ - ٩٦٧م) وسيطر المسلمون على ضفاف دويرة ، وما ان تولى المنصور ابن ابى عامر منصب الحجابة فى دولة هشام المؤيد حتى ظهرت مواهبه العسكرية وتمكن بفضل انتصاراته الحربية من الظفر بلقب المنصور ، ولم ينقطع عن توجيه ضرباته ضد المسيحية فى اسبانيا خلال عقدين من الزمان فقدت الممالك المسيحية اثناءها خط دويره ، وفقدت شنت مانكش وسمورة ، وانقذ حلول الشتاء ليون من السقوط فى ايدى المسلمين (٣) ، وسقطت عواصم ثلاثة دول مسيحية هامة فى يده هى ليون وبنبلونة وبرشلونة سواها بالارض ودمر منشآتها واسوارها ، ولقيت الكنائس الكبرى فى الممالك الثلاث ، بما فى ذلك شانت ياقب نفس المصير التعس ، اذ دمرت قواته ضريحها سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) ، وتوفى قومس قشتالة فردلند فى يناير عام ٣٦٠هـ (٩٧٠م) ، وخلفه ابنه غرسية Garcia Fernández (٣٦٠هـ - ٣٨٥هـ / ٩٧٠ - ٩٩٥ م) الذى لم يتردد فى محاربة المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على ديشا Deza

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام ، ص ٥٩٤ ،
Antonio Ramos Oliveira, op. cit, p. 85 - 87,
Sanchez Albornoz, op. cit, p. 24,
(٢) Jose Luis Martin, op. cit, p. 110.
(٣) Antonio Ramos, op. cit, p. 97 - Lévi - Provençal, op. cit, II p.235.
والسيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، ص ٣٣٢ .

كما انتصر عليهم فى البريقه (١) Alborcca

وفى سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) اشتبكت قوات المنصور مع قوات غرسية قومس قشتالة فى موقعة دارت فى السهل الواقع بين لنجة Langa والقصار Alcozer ، وانتهت بانتصار سريع لقوات المسلمين ، واصيب غرسية بجرح بالغ ، ووقع اسيرا فى يد المنصور ، فحمل الى مدينة سالم Medinacelli ومنها الى قرطبة حيث توفى فى ٢٩ يوليو من نفس السنة (٢) وخلفه على قشتالة ابنه شانجة غرسية Sancho Garcia حليف المنصور ٠ ثم توفى المنصور فى ٣٩٣هـ (١٠ اغسطس ١٠٠٢م) فخلصت وفاته نصارى اسبانيا من اعتى اعدائهم فى جزيرة الاندلس ، ولكن ابنه عبد الملك لم يتركهم ينعمون بالراحة ، فقد واصل سياسة ابيه تجاه ممالك اسبانيا المسيحية ، فظل يقاتلهم ويبث الرعب والهلع فى قلوبهم بغزواته المتلاحقة ، ولكن مواهبه العسكرية ، كانت اقل من مواهب ابيه ، ولم يفق النصارى من الكابوس الجاثم عليهم الا بقيام اهل قرطبة بالثورة على شنجول فى عام (٤٠٠هـ ١٠٠٩م) ، ولم تستطع مملكتا ليون ونبرة الافادة من المسار الجديد الذى اتخذه التاريخ الاسبانى اذ كانا قد عانيا بما فيه الكفاية ، فمملكة ليون كان يحكمها ملك صغير هو الفونسو الخامس كما سبق ان ذكرنا فى حين كان يحكم نبرة شانجة الثالث الذى لم يكن يحس بأى حافز لمحاربة المسلمين فى الوقت الذى استعانت فيه الطائفتان المتصارعتان فى قرطبة على السلطان وهما طائفة البربر وطائفة الصقالبة بزعيمى قوتين يمكن اعتبارهما من حيث المرتبة السياسية اقل شأنا ، ولكن تتوفر لديهما الجراة واعنى بهما قشتالة وبرشلونة ، فقشتالة منذ ان انفصلت عن مملكة ليون تمكنت من تدعيم قوتها واعدت نفسها لحياة استقلالية جديدة فى ظل حاكم قدير يتمتع بمواهب سياسية وعسكرية واعنى به شانجة بن غرسية Sancho Garcia ٣٨٥ ـ ٤٠٨هـ (٩٩٥ ـ ١٠١٧م) ٠ اما ادواق الثغر الاسبانى

---

(١) Antonio Ramos Oliveira, op. cit, p. 95.
(٢) Ibid, p. 99.

الذين عاشوا احرارا فى جنوب البرانس خلال الازمة الكارولنجية ، فقد اخذوا يستشعرون يوما بعد يوم باهتمام خاص نحو مشاكل شبه الجزيرة ، كما بداوا يتضامنون تدريجيا مع قوى المسيحية فى اسبانيا . فكان اقواهم جميعا دوق برشلونة الذى كان يحكم اقوى مدن المنطقة التى ورثت مكانة طركونة المخربة منذ القرن الرابع ، وامكن لادواقها ضم دوقيات اخرى فى المنطقة ، ولم يكن هؤلاء الادواق قد اتموا وحدة بلادهم بعد ، كما انهم لم يكونوا فى قوة القشاليين ، ومع ذلك فقد كانوا يستشعرون بالقوة ويتطلعون الى محاربة المسلمين . ودخل شانجة بن غرسية فى سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٨م) ورامون بوريل (٣٨٢ – ٤٠٩هـ) (٩٩٢ – ١٠١٨م) Ramón Borrell قرطبة فى سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩ م) لمساعدة البربر والصقالبة (١) . واراد سليمان المستعين بالله ان يدخل قرطبة مع اصحابه البربر لاسقاط المهدى محمد بن هشام ، وتحقيقا لذلك استعان بشانجة بن غرسية بن فردلند قومس قشتالة ، ويعرف فى المصادر العربية بابن مامة دونة (٢) . ولم يتردد قومس قشتالة فى اغتنام هذه الفرصة لتدمير المسلمين والانتقام ممن سبق أن اصلوا بلاده نارا حامية ، وتم الاشتباك بين الخصمين المروانيين فى ١٣ ربيع أول ٤٠٠هـ (٥ نوفمبر ١٠١٠م) عند قنتيش (٣) .

ووجدت قوات القشتاليين وهم نحو ٦٠٠ فارس نفسها داخل المدينة التى طالما تلقوا منها الضربات العنيفة ، وتحقق لقشتالة عودة حدود اراضيها عند نهر دويرة كنتيجة طبيعية لمساعداتها لسليمان (٤) ، بل

---

(١) Sanchez - Albornoz, op. cit, p. 26.

(٢) هو تحريف من موما دومنا Mumma Domna وهو اسم جدة شانجة وأم فردلند غند شلب Fernán Gonzalez

Lévi - Provençal, Histoire t, II. p. 308, note 1.

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص ٤٣ .

(٤) استرد قومس قشتالة اكثر من مائتى موضع وقلعة وفقا لاتفاقية عقدها مع سليمان المستعين منها قلونية وأوسمة وغرماج وشنت اشتيبن وشقوبية .

تجاوزت قشتالة هذا الحد واتخذت مواقع جديدة جنوبى هذا النهر تتمثل فى سوبولفيدا Sepulveda وآبلة Avila ، واتيح لقومس قشتالة اقامة المؤسسات الشعبية فى البلاد ، وشرع فى نهج سياسة قيادية وذلك بتزويج بناته من ملوك اسبانيا المسيحية من برشلونة حتى ليون ، وصعدت قشتالة بذلك على مسرح التاريخ .

وكان واضح الفتى قد خرج بعد فراره من قرطبة الى مدينة سالم ثم الى طرطوشة Tortosa واتفق مع قومس برشلونة ريموند بوريل الثالث واخيه ارمنجول Armengol de Urgel ويسميه العرب أرمقند على ان يساعداه عسكريا نظير تخليه لهم عن مدينة سالم قاعدة الثغر الاوسط ، فدخلها القطلان وحولوا جامعها الى كنيسة ، ثم زحف بقوة منهم عددهم تسعة آلاف (١) ، بالاضافة الى ثلاثين الفا من اتباعه ، واشتبكت قواته عند عقبة البقر (٢) وهو موضع يقع على بعد ٢٠ك٠م شمال قرطبة فى ٤٠١هـ (يونيو ١٠١٠م) ، فانهزم سليمان المستعين وجيشه ، ولكن القطلان دفعوا ثمن اشتراكهم فى هذه الغزوة ، فقتل منهم عدد كبير فى مقدمتهم ارمقند نفسه (٣) ثم توفى شانجة قومس قشتالة فى ٤٠٨هـ (٥ فبراير ١٠١٧م) تاركا رعيته فى حالة سيئة من الاضطراب والارتباك وخلفه ولده غرسية وكان صبيا فى الخامسة من عمره .

٦ - اسبانيا فى عهد شانجة الكبير وابنه فردلند الاول :

من خلال عرضنا السابق لاحوال الممالك المسيحية يتضح انه فى أواخر القرن العاشر الميلادى كانت هناك ثلاثة ممالك مسيحية

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ، ص ٩٦ .
Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t, II, p 297 - Lévi - Provençal, histoire de l'Espagne, op. cit, t, II, p. 313.
وانظر سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٣٥٣
(٢) Antonio Ramos Oliveira, op. cit, p. 102.
(٣) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ، ص ٣٥٣ .

الاولى : نافار (نبرة) اكثر تلك الممالك الثلاث اتساعا لاشتمالها على ولايات قنطابرية وسوبر اربى Sobrarbe ، وريبا جورثه ، Ribagorza وقد حكم نبرة الملك شانجة الثالث الكبير Sancho Garcés el Mayor عقب وفاة حاكمها غرسية سانشيث عام ٣٩١هـ (١٠٠٠م) .

والثانية : ليون التى توفى ملكها برمودة الثانى Vermudo II فى ٣٩٠هـ (٩٩٩م) تاركا حكم بلاده الى ولده الطفل الفونسو الخامس الذى كان يتولى الوصاية عليه مندمن غند شلب Menendo González قومس جليقية واحد اكابر المملكة .

والثالثة : مملكة قشتالة التى كان يحكمها منذ عام ٣٨٥هـ (٩٩٥م) شانجة بن غرسية بن فردلند ، وقد حكم شانجة حتى عام ٤٠٨هـ (١٠١٧م) ثم خلفه ولده غرسية ، الذى سقط صريعا فى ٤٢٠هـ (١٣ مايو ١٠٢٩م) امام رواق كنيسة سان خوان بليون اثناء زواجه من اخت ملكها برمودة الثالث Vermudo III بن الفونسو الخامس ، وقتله ابناء Vela احد الكونتات ، الذين كانوا يسعون الى الانتقام من غرسية لاغتصابه املاكهم ، ومات غرسية دون أن يعقب مما ترتب عليه نتائج خطيرة فى مستقبل الممالك المسيحية باسبانيا ، فقد أسرع شانجة الكبير ملك نبرة بضم قشتالة الى مملكته ، ونصب عليها ولده فردلند Fernando ملكا ، فاصبح فرناندو بذلك أول ملوك قشتالة ، وكانت حجة شانجة الكبير فى هذا أن زوجته أم فردلند هى البيرة اخت غرسية من ابيه شانجة غرسية ، ولهذا كان يحق لها وراثة العرش فى قشتالة مما مكن زوجها شانجة الكبير من تنصيب ابنه ملكا على هذه المملكة وراثة عن أمه وبالتالى عن جده فى حين تلقب شانجة الكبير بملك اسبانيا (١) .

---

(١) Julio Valdeon, Aproximación historica a Castilla y Leon, P. 44.
Antonio Ramos Oliveira, op. cit, p. 107, y 59.

هذا عن اخبار نبرة وقشتالة، أما عن مملكة ليون فقد حكمها الفونسو الخامس حتى وفاته في ٤ يوليو ١٠٢٨م [1] (٤١٩هـ) ، اثنـاء حصاره لمدينة بيزيو Viseo حين فاجاه احد المسلمين بسهم مسموم ادى الى وفاته ، وخلفه على عرش ليون ابنه برموده الثالث ، الذى كان قد صاهر فردلند بن شانجة ملك قشتالة بزواجه من أخته تيريسا مما زاد من اطماع فردلند ملك قشتالة ، وشانجة الثالث والده في مملكة ليون ، لاسيما وان برمودة الثالث كان لايتجاوز الحادية عشرة سنة من عمره ، وبالفعل بادر شانجة بالزحف بقواته الى ليون في صحبة غرسية قومس قشتالة الشاب الذى لقى حتفه مسموما ،وفتحها في ٤٢٠هـ (مايو ١٠٢٩م) واعلن نفسه ملكا عليها ، في الوقت الذى اضطر فيه برمودة الى الفرار ، ولم يلبث شانجة ان قرر محاربة برمودة ،وقامت الحرب بينهما في ٤٢٥هـ (١٠٣٣م) ثم واصل فردلند بن شانجة الحرب التى بدأها ابوه فاشتبك مع برمودة في سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) في موقعة تامارون (بعد وفـاة شانجة الكبير بعامين) وفى هذه الموقعة الحاسمة سقط برمودة صريعا [2] ومات دون ان يعقب ، وبذلك استكمل فردلند الاول استيلاءه على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة [3] ، وتلقب بالامبراطور سنة ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) Rex Imperator ، وتلقبت زوجته سانشا بالملكة الامبراطورة Regina Imperatrice [4] .

كان شانجة الكبير ملك نبرة قد قسم مملكته قبل وفاته سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٥م) بين ابنائه الاربعة ،فكانت نبرة من نصيب ابنه الاكبر غرسية،

---

(١) يخطىء الاستاذ محمد عبد الله عنان في تحديد سنة وفاته فيجعلها في سنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م) في حين تجمع المصادر المسيحية على التاريخ المثبت بالمتن .

(٢) Antonio Ballesteros Beretta, op. cit, p 64.

(٣) Antonio Ballesteros, sintesis de historia de España, p 65 - Antonio Ramos olíveira, op. cit, p. 109.

محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٨

(٤) Aguado Bleye, op. cit, p. 594.

اما فردلند الاول فقد حظى بمملكة قشتالة (١) وقسم من مملكة ليون (٤٢٧ – ٤٥٨هـ / ١٠٣٥ – ١٠٦٥م) ، وابنه الثالث غنـد شلب Gonzalo فقد آلت اليه ولايتى Sobrarbe سوبراربى ، وريباجورتا Ribagorza فى منطقة البرانس الوسطى ، واخيرا منح ردميره ابنه غير الشرعى رقعة ضئيلة تمتد بحذاء نبرة تسمى مملكة ارغون (٢) (٤٢٧ – ٤٥٥هـ / ١٠٣٥ – ١٠٦٣م) وسجل ذلك مولد مملكتين هما قشتالة فى الغرب وارغون فى الشرق (٣) .

ومن الجدير بالذكر ان مملكة قشتالة كانت بالنسبة لشانجة الاكبر المنطلق الحى والرئيسى للاسترداد المسيحى ولقيام اسبانيا الكبرى وهو فكر ينعارض مع ايدلوجية ملوك اشتوريس وليون الذين ارادوا الاستئثار وحدهم باسترداد اسبانيا واحياء مملكة القوط البائدة كلها ، ولهذا تلقب ملوكها بلقب الامبراطور ، وقد ظهر قوامسة قشتالة بالنسبة لهم كعصاة مارقين ،ولكن عصيان فرنان جونثالث كان ضرورة حتمها العصر والوضع المناسب الذى فرضته الظروف فى الغرب الاوروبى كله ، ومن الادلة التى تثبت ان اتجاه قومس قشتالة نحو الاستقلال لم يكن تحركه الانانية او الشعور بالقومية الاقليمية ان قشتالة تحملت على عاتقها مسؤوليات الحرب ضد اهل الاندلس،وانها بذلت كل طاقاتها لدعم هذه الفكرة ،وعندما ورث شانجة الاكبر كونتية قشتالة تلقب باللقب الامبراطورى امام امبراطـور ليون ، وعندما وزع فردلند الاول مملكته الواسعة فى سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٥م) على بنيه خص ابنه الاكبر بقشتالة كرمز للزعامة على اخوته الآخرين،وقد

---

(١) Julio Valdcon, Aproximación histórica a Castilla y Léon p. 44.
ويذكر بعض المؤرخين الاسبان المحدثين ان فردلند لم يكن ليصبح ملكا لو انه لم يدخل مدينة ليون بالاضافة الى زواجه من اخت برمودة الثالث الذى قتل فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) فى سهول تامارزون (Ibid, p. 54)

(٢) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ٩ – ١٠ .

(٣) Aguado Bleye, op. oit, p. 593.

فعل الفونسو السابع فى ٥٤١هـ (١١٤٦م) نفس الشيء عندما ترك قشتالة لشانجة الثالث وهو ابنه الاكبر بينما ترك لفرناندو الثانى مملكة ليـون الهرمة . وسيتبلور تفوق قشتالة للابد فى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠م) عندما اتحدت مع ليون التى ما لبثت أن تقشتلت بعمق ،واصبحت قشتالة ترمز لاسبانيا كلها ،وهناك مثل صارخ يعبر عن ذلك ، فعندما خرج خايمى الاول ملك ارغون لمساعدة الفونسو العاشر فى اخماد ثورة المسلمين فى مرسية ، لم يجد خايمى لاقناع بارونات بالموافقة على تلك المساعدة بعد ان أعرضوا عن تقديمها سوى ان يقول لهم كما نطالع فى مدونته : لابد من تقديم العون لانقاذ اسبانيا Per salvar Espanya الممثلة فى مملكة قشتالة التى انقذت الجميع من المرابطين والتى دفعت الجميع لمواجهة الموحدين (١).

وحدث ان قتل غند شلب ملك سوبراربى وريباجورثا اثناء عودته من رحلة صيد فى عام ٤٣٠هـ (١٠٣٨م) فنصب شعب هذه المملكة اخاه ردميرة امير ارغون حاكما عليهم (٢) فى الوقت الذى انصرف فيه أبناء شانجة الكبير الآخرين فى أمور أخرى غير سوبراربى وريباجورثا . ولم يلبث ان تلقب ردميره بلقب الامبراطور ردميره الاول .

ولكن ردميره لم يقنع بحكم ارغون وسوبراربى معا ، بل زاده ذلك طمعا فى مزيد من التوسع ، فتطلع الى حكم نبرة نفسها وتحالف مـع المستعين بالله سليمان بن هود صاحـب سرقسطة (٤٣١ - ٤٣٨هـ) (١٠٣٩ - ١٠٤٦م) ، واتجه على رأس قواته يساعده فى ذلك ابن هود الى نبرة ، ولكنه تلقى هزيمة حاسمة قتل فيها معظم جيشه ومعظـم حلفائه من المسلمين ، وكان ذلك فى عام ٤٣٤هـ (١٠٤٢م)، وهرب ردميره الى جبال سوبراربى حيث أمضى عدة سنوات ، يعد فيها عدته ويعيد تنظيم صفوفه لاسترجاع املاكه من جديد .

---

(١) Aguade Bleye, op. cit, p. 593 - 594.
Luis Valdevellano, historia de España, t II, p. 273.

(٢) Aguado Bleye, op. cit, p. 503.

وفى ذلك الحين كان الصراع بين نبرة وقشتالة قد بلغ اوجه ، فقد كان غرسية ملك نبرة وهو الاخ الاكبر يشعر بالحقد والغيرة من اخيه فردلند الاول الذى اصبح اول ملك على قشتالة وليون ، ودفع الحسد غرسية الى تدبير مؤامرة لقتل فردلند ، فقد ارسل يطلب الاجتماع به بحجة مرضه الشديد واشرافه على الموت ، ولكن خبر هذه المؤامرة بلغ فردلند قبل رحيله لزيارة اخيه ، فبادر بالعودة على عجلة الى برغش ، الا ان فردلند رد على هذه المؤامرة بأخرى بعد مرور عدة سنوات على مؤامرة اخيه غرسية ، فقد دعاه لزيارته بقشتالة ، وحين اصبح غرسية داخل قشتالة امر فردلند بالقبض عليه وزج به فى احدى القلاع حيث ظل معتقلا الى ان تمكن من الفرار الى نبرة ، ومع ذلك كله فقد تميز فردلند بكرم خلقه وطيب عنصره ، وكان افضل من اخيه غرسية ، وليس ادل على ذلك من انه لما احتدمت الحرب بينهما وانضم الى غرسية اخوه ردميره ملك نبرة بعد ان انهى خلافاته معه كما انضم اليهما ايضا ابن هود حاول فردلند اكثر من مرة ان يتجنب الحرب بينه وبين اخيه ، فقد ارسل اليه رسلا من قبله ومنهم راهب سيلوس El abad de Silos وسانتو دومنجو Santo Domingo ، يدعونه الى الصلح ، ولكن هذه الوساطات لم تؤد الى نتيجة ، وانتهت الحرب التى نشبت بين فردلند ملك ليون وقشتالة من جهة وبين اخويه غرسية وردميره مع حليفهما المسلم احمد بن سليمان بن هود من جهة اخرى بهزيمة غرسية ومقتله فى موقعة اتابوركا Atapuerca التى تبعد نحو ١٨ك م شرقى برغش (١) فى اول سبتمبر ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) ورغم ذلك فان فرناندو امر بان يكرم جثمان اخيه وان يدفن فى كنيسة ناجرة ، كما انه لم يستول على مملكة نبرة رغم انتصاره على اخيه غرسية ملكها السابق ، وانما وافق على تنصيب شانجة ابن اخيه القتيل غرسية على عرش نبرة ليحافظ على ملك ابيه

---

(١) Menendez - Pidal, España del Cid, t, I, p. 122 - Aguado Bleye, p. 594.

السابق (١) .

ثم تطورت الامور فى شبه الجزيرة تطورا حاسما فى هذه الفترة، فقد كان المسلمون فى الاندلس فى حالة يرثى لها من التفكك والتدهور وعدم الاستقرار السياسى ، فقد انهارت الخلافة الاموية فى قرطبة، وتمزقت وحدة الاندلس الى دويلات صغيرة مستقلة عرفت بدويلات الطوائف (٢) ، واخذت هذه الدويلات تتطاحن فيما بينها وتستعين احداها على الاخرى بالقوى المسيحية التى اصبحت تمثل مراكز القوة فى البلاد ، وبعد ان كان الاسبان يحتكمون الى خليفة قرطبة فيما شجر بينهم من خلافات ، انقلب الوضع ، واصبح المسلمون يستعينون بالقوى المسيحية لتحقيق مآربهم . ولم يكن تدخل اسبانيا المسيحية فى خلافات المسلمين يتم بلا مقابل فقد اشترطوا نظير تقديم خدماتهم بأن يتنازل لهم المسلمون عن اراض وحصون وان يدفعوا لهم جزيات واتاوات سنوية (٣)، وكانت هذه التنازلات من جانب المسلمين عاملا فى انحسار السيطرة الاسلامية فى الاندلس الى الجنوب وتنشيط حركة الاسترداد الاسبانى .

ويعتبر فرناندو الاول ملك قشتالة وليون ، رائد هذه الحركة منذ ان تفرغ لهذا الهدف بعد ان صفى الصراع الداخلى بينه وبين اخوته ، ومن المعروف انه بدأ حملاته ضد المسلمين فى ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ، فقد تمكن من الاستيلاء على بيزيو Viseo ولميق Lamego الواقعتين على وادى دويره، فى سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٧م) وكانتا تتبعان مملكة المظفر بن الافطس صاحب بطليوس ، كما انتزع من المقتدر بالله بن هود صاحب سرقسطة شنت اشتبن وحصونا اخرى ، وعندما اغار على ضفاف وادى تاجة شمالى مملكة بنى

---

(١) Menendez - Pidal, España del Cid, op. cit, p. 122 - 123.

(٢) Lévi - Provençal, l'Espagne musulmane au xe siècle, p. 19 - 20.
Isidro de las Cagigas, Andalucia musulmana, Madrid, 1950, p. 34.

(٣) عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، جـ١ ، ص ١٢٨ .

ذى النون بطليطلة خرج اليه صاحبها ، وقدم له جملة من الهدايا النفيسة ، واعلن تبعيته له ، وتعهد بدفع اتاوة سنوية . وكذلك فعل المعتضد بالله صاحب اشبيلية فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) . وفى العام التالى حاصر فردلند الاول مدينة قلمرية واستولى عليها (١) بعد مضى ٦ اشهر من الحصار ، وفرض الملك القشتالى على اهلها اخلاء الاراضى الواقعة ما بين وادى دويرة ووادى منديق (٢) وعلى اثر ذلك حول فردلند اسلحته نحو مملكة بلنسية (٣) .

وعند وفاته قسم فرذلند الاول مملكته العريضة بين ابنائه ، فظفر اكبرهم شانجة الثالث بمملكة قشتالة واتاوة سرقسطة ، أما الفونسو السادس الاثير لديه فقد ورث مملكة ليون واتاوة طليطلة ، فى حين خص الابن الثالث غرسية بجليقية وماتكون من بلاد البرتقال بالاضافة الى اتاوات اشبيلية وبطليوس(٤) .ومن الغريب الا يرضى شانجة ولا الفونسو السادس بهذا التقسيم . فقد دخل الفونسو السادس فى حرب مع اخيه شانجة الثانى كما خالف الفونسو قرار توزيع التركة الذى وضعه ابوه واغار فى

---

(١) كلف الاستيلاء على قلمرية فى ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) فردلند الاول ثمنا باهظا للغاية ، وكان الفونسو الثالث قد حققه قبل ذلك بقرنين ٢٦٥هـ (٨٧٨م) ولكن خبرة فردلند السياسية ، حركته للشروع فى سياسة مختلفة مع ملوك الطوائف ، فكان فى امكان قوات ليون وقشتالة اجتياح الاراضى الاسلامية وتمزيقها ، ومهاجمة القرى والضياع ونهبها ولكن دون السيطرة على المدن الكبرى ،وكان ملوك الطوائف يرون مزارعهم تنتسف ومواشيهم تنهب ،وكانوا يرهبون دائما هجمات فردلند فى العمق ، وللتخلص من هذه الهجمات كانوا يلوذون بالجزيات او الاتاوات يدفعونها الى هذا الملك المسيحى يشترون بها سلامهم ، فكان فرناندو الاول يتسلمها من بطليوس وطليطلة واشبيلية وسرقطسطة ،هذه الاتاوات كان لها اعظم الاثر فى تهدئة حركة الاسترداد والتاثير على التحرك السياسى الداخلى للمملكة .

(٢) Menendez Pidal, op. cit, t. I, p. 145 - 146 Aguado Bleye, op. cit, p. 599.

(٣) Aguado Bleye, Ibid, p. 595.

(٤) اشباخ ، تاريخ الاندلس (ترجمة محمد عبد الله عنان ، ص ٢٠)

٤٦١هـ (١٠٦٨م) على املاك اخيه غرسية صاحب جليقية ، وكان أضعف ابناء فردلند الاول . فغزا بلاد بنى الافطس فى بطليوس . ولم يلبث شانجة والفونسو ان اتفقا على تقسيم مملكة اخيهما غرسية بينما نفيا غرسية الى اشبيلية .ولكن الاخوين شانجة والفونسو سرعان ما اختلفا من جديد واشتبكا فى معركة ضارية فى يناير ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) على مقربة من سهول القريون Carrion وانتهت بهزيمة الفونسو السادس الذى وقع فى اسر اخيه ولم يلبث شانجة ان توج ملكا فى نفس السنة على ليون . ثم توسطت اخته الاميرة أراكه للافراج عن الفونسو ونفيه الى طليطلة حيث أستقبله المامون بن ذى النون استقبالا حافلا (١) . وحدث اثناء حصار شانجة الثانى لسمورة التى كانت تابعة لالفونسو السادس أن خرج اليه فارس من فرسان ليون وقتله ، فى ٧ أكتوبر ٤٦٥هـ (١٠٧٢م) ، وعلى اثر ذلك استقدم الفونسو السادس من طليطلة الى ليون حيث اعترفوا به ملكا على قشتالة بالاضافة الى مملكة ليون وجليقية .

وفى سنة ٤٦٩هـ (٤ يونيو ١٠٧٦م) اغتيل شانجة الرابع ملك نبرة غدرا بايعاز من اخيه الاصغر ، وعلى اثر ذلك طالب سكان ريوخا بالتبعية لالفونسو السادس ، واستقدموا الملك القشتالى لمبايعته،وتم ذلك فى نفس العام . وفى بداية ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) تلقب الفونسو السادس بامبراطور اسبانيا كلها (٢) . وكان استيلاء الفونسو على طليطلة سنة ٤٧٨هـ فى (٢٥ مايو ١٠٨٥م) نذيرا خطيرا للملوك الطوائف فى الاندلس الذين استنصروا بيوسف بن تاشفين امير المرابطين فى المغرب ، ولم يتردد ابن تاشفين فى نصرة الاسلام فى الاندلس ، فعبر البحر وانضمت قوات الاندلس الى قوات المغرب وتقدمت جميعا الى بطليوس حيث دارت فى

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٩٠
Aguado Bleye, p. 599.
(٢) عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٨٤.

سهلها المعروف بالزلاقة معركة فاصلة فى رجب ٤٧٩هـ (اكتوبر ١٠٨٦م) دارت فيها الدائرة على الفونسو السادس وحلفائه من ملوك ونبلاء اسبانيا المسيحية (١) . وفى الاعوام التالية ثبت المرابطون اقدامهم فى سائر اسبانيا الاسلامية ، كما احرزوا عدة انتصارات على القشتاليين فى قنشوجرة فى ٤٩١هـ (١٥ اغسطس ١٠٩٧م) وفى اقليش ٥٠٢هـ (١١٠٨م) (٢) ، ومع ذلك فقد امكن لالفونسو السادس ان يحرز بعض الامتيازات فى اراضى الاندلس وذلك عندما بدأ ملوك الطوائف يعملون معه ضد بقاء قوات المرابطين فى الاندلس لاسيما بعد ان بدأ هؤلاء يخططون لخلع ملوك الطوائف عن عروشهم ، فآلت الى الفونسو عدة مدن من غرب الاندلس منها شنترين ولشبونة وشنترة فى ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) (٣) .

٥ ـ قيام مملكة ارغون :

بعد مصرع ردمير الأول ملك ارغون فى معركة جراوس Graus فى سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) انتقلت مملكة ارغون الى ولده شانجة ردميره Sancho Ramirez (٤٥٥ ـ ٤٨٧هـ / ١٠٦٣ ـ ١٠٩٤م) الذى اصبح ملكا على نبرة ايضا منذ سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) على اثر مصرع الملك شانجة الرابع فى كمين اعدته اخته ارموزندة مع اخيه ريمند .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه المعركة راجع مؤرخ مجهول ، الحلل الموشية ، تحقيق سهيل زكار وزمامة ، ص ٦٠ ـ ٦٦ ، ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ٢٤٢ ،
Menendez Pidal, la España del Cid, t, I, P 328 341, Ambrosio, Huici Miranda, la invasión de los Almoravides, y la batalla de Zallaca, Hesperis, t, xl, 1953, p. 40.
حسن محمود ، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٨٨ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثانى ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٧٢٠ الى ٧٢٧ .

(٢) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٥١ ـ ١٦٤ .

(٣) Aguado Bleye op. cit, p. 603.

وقد قام سانشو رميرث ملك ارغون بحصار منتشون Monzon في مملكة سرقسطة عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) وتمكن من الاستيلاء عليها (١) ، ثم رحل الى وشقة Huesca لحصارها وهناك توفى تحت اسوارها فخلفه ولده بطره الاول Pedro (٤٨٧ — ٤٩٨هـ) (١٠٩٤ — ١١٠٤م) على عرش البلاد وتابع الحصار ، فاستغاث المستعين بالله بن هود بالملك القشتالى الفونسو السادس ، ولكنه انهزم هزيمة نكراء وهو والفونسو فى بلدة الكراث Alcoraz سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) امام ضربات الارغويين وسقطت وشقة فى يد ملك ارغون سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) .

وفى سنة ٤٩٥هـ (١١٠١م) استرد بطره الاول نهائيا مدينة بريشتر (٢) ، وواصل تغلبه على حصون المسلمين حتى وفاته فى عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) وخلفه اخوه الفونسو سانشث Alfonso Sanchez

---

(١) Aguado Bleye, p. 628.

(٢) كانت قد سقطت فى يد شانجة بن رذمير Sancho Ramirez فى عام ٤٥٧هـ (اغسطس ١٠٦٤م) اثر حصار صليبى عنيف شاركت فيه قوات اوربية بدعوة من البابا اسكندر الثانى فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) ومن امراء هذه الحملة الصليبية وليم كونت بواتييه ، ودوق اقطانية وبعض النبلاء من البيت النورمندى برئاسة روبرت كريسبين Robert Crespin وبعض الايطاليين برئاسة وليم دى مونترى De Montruil وارمنقد Armengol III دوق اورخيل (قطالونيا) واسقف بيش Vich (راجع تفاصيل سقوط بريشتر وما ارتكبه الصليبيون من جرائم يندى لها الجبين فى ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) فى : ابن عذارى البيان ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٧ ، الحلل الموشية ، ص ٧٦ ، Menendez Pidal, la España del Cid, t. I, p 148 - 150).

ولكن سقوط بريشتر اثار غضب الاسلام فى الاندلس ، فتصدى المقتدر بالله بن هود لاسترجاعها ، واستنفر للجهاد سائر بلاد الاندلس ، فتقدمت اعداد كبيرة من مختلف الجهات ، بلغ عددهم ستة آلاف من الرماة والعقارة ، وشارك المعتضد بالله صاحب اشبيلية بفرقة من الفرسان عدتها ٥٠٠ فارس ، وتمكن ابن هود بفضل ذلك من استردادها فى نفس السنة التى سقطت فيها (راجع ابن عذارى ، البيان ، جـ٣ ص ٢٢٧) .

Aguado Bleye, Manual, p. 627.

الاول الملقب بالمحارب (١) ، (٤٩٨ – ٥٢٩هـ) (١١٠٤ – ١١٣٤م) المعروف فى المصادر العربية بابن رذمير (٢) ، وقد تزوج الفونسو فيما بعد باراكة بنت الفونسو السادس ، ولهذا فقد ورث سائر ممالك أسبانيا (٣) .

٦ – مملكة قشتالة وارغون بعد وفاة الفونسو السادس وبداية ظهور مملكة البرتغال :

قبل وفاة الفونسو السادس فى طليطلة فى ٥٠٣هـ (٣٠ يونيو ١١٠٩م) عمل على تزويج ابنته اراكة من الفونسو الاول ملك اراغون ، وكانت فيما سبق زوجة للكونت ريمون البورجونى كونت جليقية وابنته غير الشرعية تيريسا من هنرى البورجونى مع منحهما ولاية لجدانية التى كان قد انتزعها من المسلمين وستصبح هذه الولاية نواة لملكة البرتغال .

وقد تم زواج اراكة من الفونسو الاول فى حصن Muño بالقرب من برغش فى سنة ٥٠٣ (سبتمبر ١١٠٩م) ولكنها كانت زيجة فاشلة

---

(١) ولد فى ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) ، وكان ثمرة زواج شانجة راميرث من فيلثيا دى روكى Felicia de Roucy ، اعتلى عرش ارغون بعد وفاة اخيه بطرة الاول فى ٤٩٨هـ (١١٠٤م) واخذ الفونسو يظهر منذ وفاة الامير شانجة بن الفونسو السادس من زايدة المسلمة فى اقليش ، الرجل القوى الوحيد فى اسبانيا المسيحية (ولمزيد من التفاصيل عن الفونسو المحارب انظر
Jose Maria Lacarra, Alfonso el batallodor, coleccion Basica Aragonesa, Zaragoza, 1978).

(٢) ابن عذارى ، البيان ، جـ٤ ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان تحقيق د. محمود على مكى ، الرباط ، ص ١٠٩ ، الحلل الموشية ، ص ٩١ ، ابن الخطيب ، كتاب الاحاطة فى اخبار غرناطة ، تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان ، جـ١ ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
Aguado Bleye, op. cit, p. 628.

لاختلاف الطباع بين الزوجين ، وقد جلبت هذه الخلافات بينهما الخراب والحروب الاهلية بين قشتالة وليون وجليقية وارغون،ووصل الخلاف بين الزوجين الى حد الحروب العاصفة بل ان خلافا بين اراكة وابنها الطفل الفونسو ريموندديس Alfonso Raimundez من زوجها الاول قد نشب اثناء حربها لزوجها الفونسو المحارب ملك ارغون ، وانضم هنرى البورجونى امير البرتغال وزوج اختها تيريسا الى صف ملك ارغون ضدها وان كانت تريسا قد انضمت فى مرحلة من مراحل الحرب الى جانب اختها فى مقابل اراضى تنازلت اراكة لها عنها ، كذلك تدخلت البابوية فى هذه الحروب اكثر من مرة ، مرة حين عين البابا كالستوس الثانى احد اعوان اراكة وهو الاسقف ديجو خلمريت(١)مطرانا ،ومرة حين اصدر البابا قرارا ببطلان زواج اراكة من الفونسو المحارب لشدة القرابة بين الزوجين ، ولم تنته تلك الحروب الاهلية الا بوفاة اراكة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) تلك الملكة التى وصفتها كثير من المصادر الاسبانية بانها سيئة الطباع ومستهترة فى سلوكها لم تحترم نفسها كزوجة او كام ، بعد ان ظلت تعتلى عرش ابيها الفونسو السادس مدة عشرين عاما حاربت خلالها ابنها الوحيد الفونسو ريموندديس ،بعد ان رفضت اعلانه ملكا على البلاد ،كما حاربت زوجها الفونسو الاول ملك ارغون.وحين توفيت اعلن ولدها الفونسو ريموندديس نفسه ملكا على قشتالة وليون وسائر الاراضى التى حكمها جده الفونسو السادس وتلقب بالامبراطور الفونسو السابع (٢) ، وعرف فى المصادر العربية

---

(١) ديجو خلمريت : كان اسقفا لشانت ياقب منذ عام ٤٩٥هـ (١١٠١م)، وصفته المراجع بانه كان شديد الحزم ، كثير الاطماع ، شغوفا بتوسيع سلطانه وحقوق كنيسته مع عدم اهتمامه بالوسيلة التى يتم بها ذلك، وقد كان يتماشى مع سير الاحداث فكان تارة صديقا لاراكة ثم تتخلى عنها،وتارة مع اختها تريسا اميرة البرتغال،وتارة عدوا لها ،ومرة ينحاز فى صف الصبى الفونسو ريموندديس ثم ينقلب عليه مرة اخرى (انظر .Aguado Bleye, p. 621 ـ يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس، ص ١٥٠ ــ ١٦٠ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٨٢) .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول عهد أوراكا أنظر Aguado Bleye, p. 618

=

بالسليطين (١) (٥٢٠ — ٥٥٢هـ / ١١٢٦م — ١١٥٧م) وبه بدأت في حكم قشتالة اسرة جديدة هى اسرة بورجونيا: Borgoña استمرت حتى ٧٧١هـ (١٣٦٩م) .

٧ ـ الممالك الاسبانية النصرانية في عهد الفونسو السابع:

توفى الفونسو المحارب (٢) في رمضان عام ٥٢٨هـ (شهر يوليو ١١٣٤م) اثناء حصاره لافراغه دون أن يعقب ، وكان الفونسو قد أوصى بتقسيم مملكته الى ثلاثة اقسام ، القسم الاول يخصص لسلام روح والديه ، وللتكفير عن زلاته وللقبر المقدس ولخدمه ، اما الثانى فقد خصصه للفقراء وفرسان الاسبتارية فى بيت المقدس ، اما الثالث فقد خصصه لفرسان الداوية (٣) . وكان الفونسو قد حاول انشاء جماعات فرسان دينية على غرار جماعة بيت المقدس ولكنه وجد معارضة شديدة من الاشراف ، ولذا عمل على تنفيذ مشروعه من خلال وصيته ، وقد عارض النبريون والارغونيون هذه الوصية التى تقضى بالتصرف فيهم وفى ممالكهم بصورة سيئة للغاية لذلك فقد اجتمع الشعبان بكافة طبقاتهما من رجال الدين والاشراف ونواب الشعب فى بلدة خاقة Jaca فيما يعرف بمؤتمر وطنى وتوصل الارغونيون فيه الى اختيار ردميره الثانى الراهب شقيق الملك الفونسو المحارب

=

يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٥٠ — ١٦٠ ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٨٠ — ٤٨٨ .

(١) ابن عذارى ، جـ٤ ، ص ٨٦ ، مجموعة رسائل موحدية من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها ليفى بروفنسال ، الرباط ١٩٤١ ، ص ٧٥ ، ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان ، ص ١١٣ ، والمقرى ، نفح الطيب ، جـ٦ ص ٢٠٧ . والمراد بالسليطين تصغير السلطان وهو لقب اطلقه عليه المسلمون لانه تولى الملك صغيرا بعد وفاة امه ازاكة ابنة الفونسو السادس ٥٢٠هـ (١١٢٦م) .

(٢) عن تفاصيل وفاة الفونسو المحارب ، انظر يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ص ١٦٣ — ١٦٧ .

(٣) Aguado Bleye, op. cit, p. 630.

لحكم البلاد ولكن النبريون اعترضوا على هذا الوضع ، فاعلنوا فى ينبلونة عاصمتهم القديمة عن رغبتهم فى الاستقلال ، وبالفعل اختاروا ملكهم وهو غرسية راميريث Ramirez , Garcia ، حفيد ملكهم شانجة الرابع الذى قتله اخته ارموزنده سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) وبهذا عادت نبرة سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م) الى الظهور من جديد مملكة مستقلة لها كيان وسيادة .

ولكن الفونسو ريموندنيس (٥٢٠هـ - ٥٥٢هـ) (١١٢٦ - ١١٥٧م) ملك قشتالة لم يرغب فى ابقاء الاوضاع على مثل ما هى عليه ، لذلك فقد تدخل فى شئون ارغون بعد ان دخل سرقسطة دون مقاومة ، وانتهى الامر بان اعلن ردميره الثانى الراهب انه يحكم ارغون فى ظل قشتالة وانه يكتفى بلقب ملك ارغون وسوبراربى وريباجورسا ، كما ان غرسية راميريث ملك نبرة لم يتردد فى طلب نصرته والاعتراف بحمايته ، فقد اراد كل منهما ان يحتفظ بشىء من السلطان ، فهما يعرفان انهما لن يقويا على حرب ضد الفونسو ريموندنيس (١) ، وبهذا يكون الفونسو ريموندنيس قد وفق فى الحصول على لقب الامبراطور عن استحقاق .

وسرعان ما دب الخلاف بين ارغون ونبرة ، فبادر ردميره الراهب ملك ارغون بتقديم ابنته بترونيلا Petronila الطفلة عروسا لشانجة ولى عهد قشتالة معلنا تعاونه مع الفونسو ريموندنيس ضد نبرة ، التى كان الفونسو ريموندنيس قد بدأ ينظر الى ملكها بعين التوجس والغضب وزحف عليها بجيش كبير ، ولم ينقذ نبرة سوى معجزة جاءت نتيجة قيام الفونسو هنريكيز Alfonso Enriquez امير البرتغال بمهاجمة اراضى جليقية التابعة لقشتالة واقدام المرابطين على تهديد حدود قشتالة الجنوبية مما اضطر الفونسو ريموندنيس الى الانسحاب . وفى تلك الاثناء كان ردميره

---

(١) Aguado Bleye, op. cit, p. 635 - 636.
ومحمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٩٥ ، واشباخ « تاريخ الاندلس » ، ص ١٧٦ .

الثانى الراهب شقيق الفونسو المحارب قد تبرم بحياة الملك ، فعزم على تزويج ابنته بترونيلا من الكونت رامون برنجير الرابع Ramón Berenguer IV قومس برشلونة ، وكانت كل الطبقات فى ارغون يحبذون ذلك الزواج لتقارب الشعبين الارغونى والقطلانى فى التقاليد والعادات ، وقد تم هذا الزواج حين كانت بترونيلا لاتزال فى الثانية من عمرها ، ثم تنازل راميرو الراهب عن الحكم ، وابدى الفونسو ريمونديس ملك قشتالة موافقته على هذا كله ، وعاد راميرو الى الدير مرة ثانية فى سنة ٥٢٦هـ (١١٣١م) (١)

ومن الجدير بالذكر ان الميول الاستقلالية لمملكة البرتغال اخذت فى الظهور فى عهد الامبراطور الفونسو ريمونديس السابع : فقد كان الفونسو هنريكيز على غرار امه تريسا ماضيا فى تحديه لسلطان قشتالة ، بل انه اخذ يتصل بالثوار الجلالقة ، الامر الذى اثار غضب الفونسو ريمونديس ، فتاهب لمقابلة الفونسو هنريكيز ، ولكن هذا القتال المزعوم انتهى بصلح مؤقت عام ٥٣٢هـ (١١٣٧م) اعترف فيه ملك البرتغال بسيادة قشتالة عليه ، وكان قد اجبر على الصلح بسبب ضغط المسلمين على اراضيه (٢) .

ثم انصرف الفونسو ريمونديس الى محاربة المسلمين ، فشن حملات متتابعة على طليطلة ٥٣٤هـ (١١٣٩م) وقورية وحصن اوريليه Oreja ، واستولى على هذا الحصن ٥٣٣/٥٣٤هـ (١١٣٩م) (٣) . ورغم حروبه مع المسلمين الا انه وجد الوقت للاتفاق والتآمر مع صهره رامون برنجار الرابع امير مملكة اراجون وقطلونية المتحدة على مملكة نبرة لاقتسامها بينهما ، ولكن هذه المؤامرة انتهت عام ٥٣٥هـ (١١٤٠م) بان اعلن ملك نبرة سيادة الامبراطور الفونسو ريمونديس ، وان تتزوج الاميرة بلانكا ابنة غرسية من الامير سانشو ولد الامبراطور . وفى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م)

---

(١) Aguade Bleye, p. 636.
(٢) Aguado Bleye, Ibid, p. 636.
(٣) ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان ، ص ٢٤٥ .

تم زواج غرسية ملك نبرة من اراكة ابنة القيصر الفونسو ريمونديس غير الشرعية ، وكانت لهذه الزيجة اكبر الاثر فى وضع حد للاغارة القشتالية الارغونية على نبرة للمرة الثانية بعد صلح ٥٣٢هـ (١١٣٧م) .

واثناء هذا كله توالت المعارك القشتالية / الاسلامية ، وفى احدى هذه المعارك هزم احد قادة الفونسو السابع ، وهو مارتين فرنانديث وقتل فغضب الملك ، وهاجم احواز قرطبة واشبيلية ، ووصل حتى اراضى غرناطة والمرية ، ثم عاد لبلاده مثقلا بالغنائم ، ولعل عنف الضربات المسيحية الموجهة لبلاد المسلمين فى الاندلس كان له اكبر الاثر فى اشتعال نيران الثورات ضد الحكم المرابطى فى الاندلس كما سبق ان ذكرنا وكانت اعظم ضربة نزلت بالمسلمين استيلاء جيوش الممالك الصليبية على المرية فى جمادى الاولى ٥٤٢هـ (اكتوبر عام ١١٤٧م) وظلت تحت سيطرة الفونسو السابع الى ان استعادها الموحدون فى اواخر ٥٥٢هـ (١١٥٧م) (١) . ومن الجدير بالذكر ان الفونسو السابع السليطين طالب ابن غانية (ابو زكريا يحيى بن غانية المسوفى) كبير قواد المرابطين فى الاندلس بمدينة قرطبة ، ثمنا لما قدمه له من مساعدات ، وكان قد امده بقوة فى ٥٤٠هـ (١١٤٥م) دخلت قرطبة فى ١٢ شعبان وعاثت فسادا فى مسجدها الجامع ، وربطوا خيولهم فى اروقته ، واقاموا قداسا حافلا ، ولكن ابن غانية صالحه على ان يعطيه بياسة وتحفا كثيرة ، ويرسل اليه جزية سنوية ، فخرجوا منها بعد عشرة ايام من دخولها (٢) .

كذلك استولت الحملة الصليبية المشكلة من مقاتلين من قطلونية وارغون ونبرة وجنوة بقيادة رامون بريتجير الرابع امير برشلونة على طرطوشة ٥٤٣هـ (١١٤٨م) ولاردة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وافراغه ومكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين على الثغر الاعلى .

---

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ٩٥ ، المغرب الكبير ، جـ٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢) ابن غالب الاندلسى ، قطعة من فرحة الانفس ، ص ٢٩٩ .

وفى عام ٥٤٥هـ (١١٥٠م) توفى غرسية راميريث ملك نبرة وخلفه ولده شانجة السادس العالم (٥٤٥ ـ ٥٩١ هـ / ١١٥٠ ـ ١١٩٤م) مما حرك اطماع الفونسو السابع لاستئناف الاغارة على نبرة ، ولكن زواج بلانكا اخت سانشو ملك نبرة من الدوق شانجة القشتالى عام ٥٤٦هـ (١١٥١) أوقف التآمر على نبرة .

وتوفى الفونسو ريموندييس فى بلدة فريسندة Fresenda فى سنة ٥٥٢هـ (٢١ اغسطس ١١٥٧م) عقب عودته من المرية وكان قد قسم مملكته كما كان متبعا من قبل بين ابنائه ، فكانت قشتالة واسترامادورة وطليطلة من نصيب شانجة الثالث (٥٥٢ ـ ٥٥٣هـ) (١١٥٧ ـ ١١٥٨م) ، وآلت ليون وجليقية الى فردلند الثانى (٥٥٢ ـ ٥٨٤هـ) (١١٥٧ ـ ١١٨٨م) .

ثم توفى الكونت رامون برنجير الرابع فى ٥٥٨هـ (١١٦٢م) وكان من اعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، ويعد المؤسس الحقيقى لمملكة ارغون .

وكانت وفاة الفونسو السابع نذير شؤم على اهالى قشتالة ، فطبقا للنظام الذى كان قد وضعه فى اواخر حياته نجد انه اختص شانجة الثالث بعرش قشتالة وما يتبعها من اراضى فى اعالى التاجة ، وكانت عاصمتها طليطلة ، مع حقه اخذ الجزية من مملكتى نبرة وارغون اما ولده فردلند فقد تولى مملكة ليون وجليقية واشتوريس مع حق السيادة على البرتغال . وبهذا التقسيم اصبحت الممالك المسيحية الاسبانية خمسة ، ارغون وقطلونية المتحدة ونبرة وقشتالة وليون والبرتغال . وقد حاول شانجة الثالث ملك نبرة ان يسترد ريوخا وان يتحرر من السلطة القشتالية ولكن فرناندو (فردلند) هدده بعنف مما دفع الملك النبرى على الصلح . ثم توفى شانجة الثالث فجاة فى عام ٥٥٣هـ (آخر اغسطس سنة ١١٥٨م) بعد أن حكم عاما واحدا ولم يترك سوى ولدا واحدا هو الفونسو الثامن الذى لقب فيما بعد بالنبيل ، وكان فى الثالثة من عمره فى ذلك الوقت ، وكانت مسالة الوصاية على هذا الطفل ، الطفل الرئيسى فى القيام بحروب

اهلية مدمرة عصفت بقشتالة ، فقد تنافست اسرتا كاسترو ولارا على وصايته ، وحاول عمه الملك الليونى فرناندو أن يظفر بالوصاية ، ولكنه فشل فى النهاية (١) .

٨ ـ قيام مملكة البرتغال :

ترجع الاصول الاولى لمملكة البرتغال المستقلة عن قشتالة الى ولاية لجدانية Lusitania وهى القسم الغربى من شبه الجزيرة الاسبانية ، وهى التى كان اهلها يتمتعون بخواص تتميز عن سائر الاسبان فى شرقى الجزيرة ووسطها ، وكانت لجدانية فى العصر القديم تشمل الرقعة الغربية الواقعة جنوبى جليقية المحاذية لساحل الاطلنطى فيما بين مصب نهر دويرة ومصب نهر وادى يانة ، وقد نزلها الوندال والسوابيون ، ثم عبر الوندال الى المغرب ،وظل السوابيون يحتلونها زهاء نصف قرن،ثم أجلاهم عنها القوط الغربيون واحتلوها بدورهم ،واتخذوا ماردة حاضرة لها ، وكانت لجدانية اقليما من الاقاليم الستة التى تنقسم اليها مملكة القوط ولما افتتح المسلمون ابارية ظلت لجدانية تحتفظ بعاصمتها ماردة التى اصبحت مركزا للثورات ،ثم ظهرت بطلبوس فى عصر الدولة الاموية حين ثار بها بنو الجليقى وفى عصر الطوائف أطلق على القسم الواقع فى أبدى المسلمين من ولاية لجدانية اسم ولاية الغرب ، استقل به بنو الافطس ، الذين كان يمتد حكمهم من منتصف وادى يانة حتى مدينة قلمرية ويشتمل على ثغر اشبونة وشنترين ويابرة ، اما القسم الشمالى من لجدانية فقد اخذ النصارى ينتزعونه من المسلمين بالتدريج مدينة اثر مدينة وكان آخر هذه المدن المفتوحة هى قلمرية التى استولى عليها فردلند الاول فى عام ٤٥٦هـ (١٠٦٤م) ، وقد جعل فردلند من هذه المنطقة ولاية مستقلة

---

(١) Aguado Bleye, op. cit, p. 638 - Luis Suarez, Historia de España, p 237.
Jose Luis Martin, la peninsula en la edad media, Barcelona 1980, p 358, 359.

باسم البرتغال المشتق من اسم « بورتوكال » Porto cale وقد انتدب لولايتها وزيره المستعرب سسندو دافيدس ، وحاول اللجدائيون أو البرتغاليون اهل الولاية الجديدة ان ينالوا حريتهم واستقلالهم فثاروا ضد حكم الملك غرسية بقيادة زعيمهم الكونت نونيو مننديس ولكنهم هزموا وقتل زعيمهم عام (٤٦٤هـ) (١٠٧١م) ، وعادت ولاية البرتغال تستقبل ولاتها من قبل قشتالة (١) .

وعقب واقعة الزلاقة وفد على الفونسو السادس فرنسيان من فرسان بورجونيا هما ريموند وهنرى البورجونى ، ولما اخلص هذان الفارسان فى خدمة الفونسو السادس زوج الفونسو ريمون البورجونى من ابنته اراكة ونصبه واليا على شنترة واشبونة وشنترين (٤٨٦هـ / ١٠٩٣م) ، كما زوج هنرى من ابنته غير الشرعية تريسا ،ولما مات ريمون خلفه على البرتغال هنرى البورجونى الذى تلقب بالدوق واصبح يحكم باعتباره تابعا لمملكة قشتالة ،واتخذ قلمرية عاصمة للبرتغال ،فتسمى هنرى لذلك بصاحب قلمرية ولما توفى الفونسو السادس سجل فى وصيته بتثبيت حكم هنرى على البرتغال تحت سيادة قشتالة ،وكان هنرى قد ترك ولده الفونسو انريكث طفلا فى الثالثة من عمره ، فتولت تريسا الوصاية عليه .

وحين شب الفونسو انريكث كان الشعب قد بدا يمل حكم تريسا المستهترة والتف حول الفونسو انريكث الذى تطبع بطباع الفرسان وارتبط برجال الدين لاقصى مدى، وقد نشبت الحرب بينه وبين امه ،وانتهى الامر بسجنها لتكفر عن زلاتها ونفى صديقها فرناندو بيريث .

ولما بلغ الفونسو انريكث الثامنة عشرة من عمره أعلن نفسه ملكا على البرتغال مما اغضب الفونسو ريموندس ،فتوجه لقتال انريكث ،وفى هذه الاثناء تم تحالف كبير بين مملكة نبرة ومملكة البرتغال . وتحدثنا عن

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤

وثيقة الكوبازا ، وهى وثيقة مختومة أمر الفونسو انريكيث بكتابتها لتأريخ موقعة أوريك Auric (٥٣٤هـ) (٢٥ يوليو ١١٣٩م) وهى المعركة التى انتصر فيها الفونسو انريكيث على المسلمين وكانوا بقيادة قائد سمته الوثيقة باسم اسماء (اسماعيل) وأربعة آخرين من القادة المسلمين (١) ، انهزم البرتغاليون فى بداية المعركة ، ولكن السيد المسيح ظهر ليلا مصلوبا لالفونسو انريكث وحثه على مواصلة القتال بعنف واعدا أياه بالنصر بشرط ان يتخذ الفونسو شعار مملكته من الجروح الخمسة التى اصيب بها المسيح مع الثلاثين قطعة فضية التى نالها يهودا ثمنا لخيانته وبالفعل جعل الفونسو شعار مملكته (ولا يزال حتى الان) خمسة دروع تمثل جروح المسيح فى شكل صليب منقوش على كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ، وانتصر البرتغاليون كما تذكر الوثيقة ، وان كان باقى الروايات النصرانية لم تذكر عن هذه الموقعة اى شىء وحتى رودريك الطليطلى ولوقا التطيلى ، وكذلك الروايات الاسلامية ، وعلى اى حال فقد لقب الفونسو نفسه بالملك عقب هذه الرؤيا التى ظهرت له (٢) . وعقب هذا النصر كما تذكر الرواية المسيحية اجتمع ملك البرتغال فى لميق (لميقة) مع طبقات الشعب المختلفة حين وضعوا دستور البلاد ، ونصب ملكا وضع على راسه تاج من الذهب المرصع بالجواهر (٣) .

وبالنسبة لمملكة أرغون وقطلونية المتحدة فقد حكم ريموند برنجار الرابع منشىء هذه المملكة مدى احدى وثلاثين عاما ، وقد ضحى باستقلال مملكته وانضوى تحت سلطان ملك قشتالة القوى ، ولم يكتف ريموند برنجار بمنازلة المسلمين ومحاربة نبرة بل اهتم بحروبه فى لانجدوك

---

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٤٦ .
(٢) يوسف اشباخ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ، وتذكر الرواية المسيحية ان ولاة بطليوس ويابرة وباجة واشبيلية قد تقدموا لانقاذ اوريك
(٣) Luis Suarez, op. cit, p. 227. ، محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥٢٧ .

وبروفانس كذلك (١) . ولما توفى شانجة الثالث ملك قشتالة تجددت الخصومة بين نبرة وارغون ، وحاول رجال الدين اخماد هذه الخصومة الجديدة وسرعان ما مرض ريمون برنجار وتوفى فى سنة ٥٥٨هـ (١١٦٢م) فقامت بترونيلا ارملته باستدعاء طبقات الامة الثلاثة للاجتماع فى وشقة للاطلاع على وصية زوجها وفيها عهد الى ريموند برنجار الذى تلقب بالفونسو الثانى بحكم ارغون وقطلونية واراضى لانجدوك ، أما شرطانية ومعها قرقشونة وحق الجزية على الفيكونت ريموند ترنكافل ، وكذلك من أربونة فعهد بها الى ولده الثانى بطره، ولما كان الفونسو الثانى لايزال فى العاشرة من عمره ، فقد قامت امه بترونيلا بحكم ارغون ، وعلمت فى فترة حكمها على توطيد دعائم التحالف بينها وبين قشتالة وانجلترا ، ونبرة حتى تخلت عن الحكم لابنها .

٩ – مملكتا البرتغال وليون اثناء وبعد عهد فردلند الثانى والفونسو انريكث :

ظفر فردلند بعد وفاة ابيه الفونسو ريموندس بمملكة ليون وجليقية واشتورياس بالاضافة الى السيادة على البرتغال ، ونظرا لانصرافه الى الحروب الاهلية التى دارت فى قشتالة عقب وفاة شانجة الثالث ، فقد اهمل ممارسة حق سيادته على البرتغال ، ولكن ماكاد يبسط سلطانه على قشتالة واسترمادورة بمعاونة آل كاسترو حتى بدا يتفقد احوال مملكة البرتغال ، فتزوج من اوراكا (أوراكة) ابنة ملكها سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) ولكنه رغم هذه المصاهرة اهتم بتحصين مدينة رودريجو **Ciudad Rodrigo** الواقعة على حدود البرتغال ، واخذ يوجه منها الغارات المخربة على البرتغال .

---

(١) انظر تفاصيل هذه الحروب فى : يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٥٩ .

وكان الفونسو انريكث ملك البرتغال مشغولا انذاك بحروبه مع المسلمين ، وكان قد نجح فى انتزاع يابرة من المسلمين فى عام ٥٦١هـ / ٥٦٢هـ (١١٦٦م) ، ولكن ماكاد يرى ان سلطان فرلند قد تحطم على يد اسرة لارا حتى سار بنفسه الى جليقية واستولى على مدينة ليمبا مبررا ذلك بان هذه المناطق كانت تتبع البرتغال منذ ان منحها الفونسو السادس مهرا لابنته تريسا يوم زواجها ، ولم يكتف الفونسو انريكث بذلك بل طمع فى مزيد من السيطرة فسار فى عام ٥٦٤هـ (١١٦٨م) الى مدينة بطليوس لافتتاحها • ولكن فردلند الثانى ملك ليون غضب لتعدى البرتغال على اراضى المسلمين اذ كان يرى انها من نصيبه فى حال رجوعها للمسلمين، ثم ظهرت نوايا ليون تجاه البرتغال حين تقدم الموحدون لحصار شنترين عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) فتقدم فردلند ملك ليون فوقف قريبا من الميدان بجيوشه منتظرا هزيمة البرتغاليين للتدخل فى بلادهم ، فلما راى ان كفة البرتغاليين راجحة ، ارسل الى الفونسو انريكيث رسولا يهنئه بالنصر •

ثم صدر فى عام ٥٧٥هـ (١١٧٩م) مرسوم بابوى يقضى باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، ومنح الفونسو انريكث لقب الملك ، وكان الفونسو انريكث قد اسس جماعة فرسان يابرة الذين كرسوا حياتهم لقتال المسلمين ، ثم توفى الفونسو انريكث عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) فى السادسة والسبعين من عمره ، وبعد بضعة اعوام توفى فردلند الثانى ملك ليون عام ٥٨٤هـ (١١٨٨م) اثناء حجه الى شنت ياقب وخلفه ابنه الفونسو التاسع •

اما الفونسو الثامن ملك قشتالة ابن سانشو الثالث فقد اتخذ سياسة حكيمه فى حكم البلاد بعد بلوغه سن الرشد • فبدا بعقد صلح مع الفونسو الثانى ملك ارغون كما صالح شانجة الرابع ملك نبرة (١) ، وكان قد

---

(١) Aguado Bleye, op. cit, p 641. تم عقد الصلح بين الفونسو الثامن والفونسو الثانى ملك ارغون فى Cazorla عام ٥٧٥هـ (١١٧٩م) •

خاض حربا فى بداية الامر مع ملك ارغون ، عند قلعة رباح سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) ولم يحمله على الصلح سوى الملك هنرى الثانى ملك انجلترا الذى كان حليفا لملك ارغون وكان فى نفس الوقت صهرا لالفونسو الثامن الذى تزوج من ابنة هنرى الثانى Leonor الينور . ولما ازداد الخطر الموحدى على الممالك المسيحية اجتمع ملوك اسبانيا المسيحية على وضع خطة موحدة لقتال المسلمين ،وعلى الرغم من ذلك الخطر الاسلامى فان ملوك الدول المسيحية و فىمقدمتها ليون والبرتغال وقشتالة وارغون ونبرة أخذوا يختلفون فيما بينهم ويتنازعون على حقوق الفتح فى أراضى المسلمين وكان ذلك من أسباب الهزيمة التى أصابت الفونسو الثامن فى وقعة الارك ٥٩١هـ (١١٩٤/١١٩٥م) ([١]) ولكن اجوادو بليى يبرر الهزيمة التى منى بها الفونسو الثامن فى الارك بتعجله فى الاشتباك قبل وصول القوات المتحالفة ، وقد استغل الفونسو التاسع ملك ليون فرصة هزيمة الفونسو الثامن واقتحم بلاد قشتالة ، ورد الفونسو الثامن على هذا الاعتداء بمثله ([٢]) ، كذلك قام شانجة الرابع ملك نبرة بغزو قشتالة من جهة سرية والمزان فى حين شن الموحدون غاراتهم على طليطلة ومجريط وقونقه (قونكة) واقليش ومكادة وطلبيرة . ومع ذلك فقد احتفظ الفونسو الثامن برباطة جاشه ، وعقد حلفا مع بطرة الثانى ملك ارغون (٥٩٣هـ — ٦١٠هـ / ١١٩٦م — ١٢١٣م) وبفضل هذا الحلف تمكنا من غزو نبرة وليون ([٣]) .

وظهر فى أرغون رجل نبرى تعبر شخصيته عن صورة تلك الاحداث، ذلك هو بيدرو رويث دى أساجرا ، كان مرتزقا حارب تارة الى جانب مملكة أرغون ومرات مع نبرة ومرات اخرى مع قشتالة ، وكان يستغل خلافاتهم لتوطيد سلطانه .

---

(١) يوسف اشباخ تاريخ الاندلس ، ص ٢٨٧ .

(٢) Aguado Bleye, op. cit, p 642.

(٣) Ibid. p. 642.

وكان سانشو السادس ملك نافارا قد توفى قبله بعامين عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) ، وحاول الفونسو الثانى ملك ارغـون جمع شمل الممالك المسيحية من جديد ، فخرج الى شانت ياقب ، واجتمع مع ملك ليون ،ثم رحل الى قلمرية والتقى بشانجة ملك البرتغال ثم اجتمع مع ملكى قشتالة ونبرة فى طرسونة ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وتوفى الفونسو الثانى فى ٥٩٣هـ (٢٥ ابريل ١١٩٦م) وخلفه بطره الثانى (٥٩٣ — ٦١٠هـ) (١١٩٦ — ١٢١٣م) وكان شانجة السادس ملك نبرة قد توفى قبله بعامين وخلفه الملك شانجة السابع (٥٩١هـ — ٦٣٢هـ) (١١٩٤ — ١٢٣٤م) .

كان لهزيمة الفونسو الثامن فى الارك بالاضافة الى الصراع الداخلى بين الممالك المسيحية اعظم الاثر فى اضعاف شأنها ، فقد كلفتها الحروب المتواصلة الكثير من الارواح والاموال والاسلحة ، ولم تنج اسبانيا المسيحية من الخطر المحدق بها الا بعودة يعقوب المنصور الخليفة الموحدى إلـى المغرب ثم وفاته بعد ذلك ولقد كان من الواضح تماما انه لو كان محمـد الناصر الذى خلف يعقوب المنصور على خلافة الموحدين ، قد سـار على نفس سياسة ابيه ، او استغل حالة الضعف والانحلال التى اصيبوا بهـا بسبب منازعاتهم الداخلية فاعان المملكة الضعيفة على القوية ، لقاء عدد من المدن والحصون ، لكان مصير اسبانيا المسيحية والاندلس قد تغـير تغيرا جذريا .

وساءت احوال الممالك المسيحية فى اسبانيا بعد انتصار الموحدين فى الارك ، وحاول كل من الفونسو الثانى ملك ارغـون والبابا سلستين Celestino III التوفيق بين الممالك المسيحية بغية جمع شملها (١) ولكن دون جدوى ، فقد كان العداء قد بلغ اشده بين ملك ليون وملك قشتالة .

---

(١) Aguado Bleye, op. cit. p. 642 - Luis Suárez, op. cit. p. 263.

والقى الفونسو الثامن النبيل ملك قشتالة تبعة هزيمته فى الارك على مملكة ليون ،فاتهم الجيش الليونى بأنه لم يبادر بامداده وانقاذه،وتحولت مرحلة العتاب الى اللوم الشديد ثم الى الصدام المسلح ، وقد كان اعتداء ملكى ليون ونبرة المتحالفين على قشتالة شديدا وعنيفا خاصة بعد خروجها من هزيمة الارك ، لذا فقد تحالف الفونسو الثامن مع بطرة الثانى ملك ارغون الجديد على النحو الذى ذكرناه من قبل ثم اشهرا الحرب على حلف ليون ونبرة ، اللتين فكرتا فى الاستعانة بالموحدين رغم تهديد البابا Celostino III لكل من يستعين بالمسلمين بالحرمان من الكنيسة ، وعلى الرغم من مساعدات الموحدين الا ان الحلف القشتالى / الارغونى نجح فى اختراق مملكة ليون مرتين ، وتمكنت قواتهما من تخريب احواز ليون واسترقة واستعد الفريقان لخوض غمار حرب جديدة لولا ان تدخل رجال الدين للصلح . وفى ذلك الوقت كان الفونسو التاسع ملك ليون قد طلق زوجته الاميرة تريسا بنت ملك البرتغال طبقا لما طلبه البابا ولكنه عاد يريد الزواج من اميرة قشتالة برنجاريا ابنة الفونسو الثامن ، رغم شدة القرابة بينهما واستطاع الفونسو التاسع الحصول على موافقة رجال الدين فى اسبانيا ولكنه لم يحصل على اذن من البابا ثلستينو الثالث ، لذلك فقد بادر البابا باعلان بطلانه ، وقرر اصدار قرار التحريم ضد الملكين واراضيهما فى حالة رفضهما للطلاق وبالفعل صدر قرار الحرمان ضد ليون وملكتها وضد اساقفة شلمنقة وسمورة واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها .

ولما تولى انوسنت الثالث الكرسى البابوى اصدر قرارا بالحرمان هو الاخر ضد الملكين . وفى اثناء ذلك كان المسلمون ينفذون الى أراضى النصارى للغزو ، مستغلين الاوضاع السيئة التى آلت اليها ممالك اسبانيا المسيحية ، فقشتالة وليون رغم المصاهرة والصلح لاتزال كل منهما تنظر الى الاخرى بعين الكراهية ، فى حين كانتا متفقتين على محاربة البرتغال اما بالنسبة لمملكة ارغون فقد كان ملكها فى حرب دائمة مع اتباعه الامراء الذين كانوا متنازعين فيما بينهم ، وبينما تحالف ملك آرغون مع قشتالة

ضد نبرة التى تعاونت مع سلطان الموحدين للدفاع عن كيانها ضد هـذا الحلف ، كان شانجة السابع ملك نبرة منذ عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) قد تحالف مع ملك ليون ضد الفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعلى هذا النحو كانت قشتالة تتلقى الضربات من الموحدين والليونيين فى آن واحد ويسوق صاحب روض القرطاس رواية تؤكد ان التحالف القائم بين شانجة السابـع ملك نبرة وبين الموحدين بلغ حدا كبيرا ، يقول صاحب روض القرطاس « اهتزت جميع بلاد الروم بجوازه (محمد الناصر) ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم واخذوا فى تحصين بلادهم ،واخلى ماقرب من المسلمين من قراهم وحصونهم ، وكتب اليه اكثر امرائهم يسالونـه سلامه ويطلبون منه عفوه وجاءه منهم ملك بيونة (١) مستسلما خاضعا مستصغرا يطلب صلحه ويسال منه عفوه وصفحه ، ولما سمع هذا اللعين بدخول امير المؤمنين الى اشبيلية ادركه الخوف ، فبادر الى المداراة عن نفسه وبلاده ، فبعث رسوله اليه يستاذنه فى القدوم اليه ، فاذن له امير المؤمنين فى الوصول ، وكتب الى كل بلد من بلاد الاندلس هو على طريق هذا اللعين اذا مر بهم يضيفونه ثلاثة ايام ، فاذا عزم على الرحيل فى اليوم الرابع يحبسون عندهم من جيشه الف فارس ، فخرج هذا اللعين من قاعدة ملكه بجيوشه قاصدا وداخلا الى امير المؤمنين ، فكان اذا وصل الى بلد من بلاد المسلمين تلقاه قوادها واجنادها ، وبرز عليه اهلها فى اكمل عدة واحسن هيئة ، واضافوه ثلاثة ايام خير ضيافة ، فاذا كان يوم رحيله حبسوا له الف فارس من جيشه ، فلم يزالوا يفعلون ذلك به حتى وصل مدينة قرمونة ولم يبق معه من جيشه غير الف فارس ، فاقام فى ضيافة اهلها ثلاثة ايام ، فلما اراد الرحيل فى الرابع حبست الالف فارس الباقية معه . فقال لقوادهـا كيف تمسكون بها ومابقى لى مع من اسير غيرها ؟ فقالوا له تسير فى ذمـة امير المؤمنين وتحت ظلال سيوفه ، فخرج لعنه الله من قرمونة فى خاصته

---

(١) صحتها بنبلونة ، ويقصد به ملك نبرة ، وقد وردت مصححة فى الاستقصاء للسخاوى .

وزوجته وخدامه وهديته التى قدم بها الى الناصر ، وقدم من يديه كتاب النبى ﷺ الذى كان كتبه الى هرقل ملك الروم يستشفعه ويعلن ان الملك عنده موروثا كابرا عن كابر .... فأنزله بداخل المدينة (اشبيلية) واعطاه تحفا جليلة ، وصالحه صلحا مؤبدا مادامت دولة الموحدين ولعقبه ، ثم صرفه الى بلاده مكرما مسعفا بجميع مطالبه » (١)

أما الروايات المسيحية عن هذه الرحلة فقد وصفها يوسف اشباخ بأنها اقل تفصيلا ولكنها اقرب الى الحقيقة ، وقد تمت هذه الرحلة أو الزيارة فى عهد الخليفة محمد الناصر الذى لم يكتف بالترحيب به حين زاره وانما وافق على زواج شانجة السابع ملك نبرة من اخته وان كان لم يتحدث مع شانجة فى امور تخص تنازل الموحدين عن أملاكهم الاسبانية اليه ، ولهذا فلم يتعجل شانجة بالزواج من اخته وقد اشترك مع الموحدين فى اخماد ثورة قامت فى جبال غمارة (٢) . واذا قارنا بين الرواية العربية والرواية النصرانية نجد ان الرواية العربية تذكر ان مقابلة شانجة للناصر تمت فى الاندلس عندما كان الخليفة الموحدى مقيما فى اشبيلية ، بعكس الرواية المسيحية التى تؤكد انه جاز البحر بنفسه الى المغرب ليراه . اما بخصوص زواج اميرة مسلمة موحدية من الملك النبرى فهذا لا يمكن أن نقبله لانه لم يرد فى أى مصدر أو رواية عربية ، كما انه ليس منطقيا أن تتزوج أميرة مسلمة واخت خليفة المسلمين الذى يتمسك باهداب الدين والشريعة الاسلامية من رجل مسيحى اللهم فى حالة واحدة وهى أن يكون شانجة السابع قد وافق على اشهار الاسلام (٣) .

وبينما كان شانجة السابع غائبا عن بلاطه فى زيارته لاشبيلية ، قام

---

(١) ابن ابى زرع ، كتاب الانيس المطرب روض القرطاس ، جـ٢ ، نشره تورنبرج ، أوبسالة ١٨٤٣ ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٣٥٠ .
(٣) انظر تعليق محمد عبد الله عنان ، فى كتاب تاريخ الاندلس ليوسف اشباخ ، ص ٣٤٨ ، حاشية رقم ١ .

الفونسو الثامن ملك قشتالة مع حليفه بطره ملك أرغون بمهاجمة اراضى نبرة عام ٥٩٦هـ (١١٩٩م) ضاربين بكل المعاهدات والهدنات السابقة عرض الحائط ، وتمكن الملك القشتالى من انتزاع حصن فيتوريا Vitoria وولايات البة وبسكونيه Vasconia وجيبوسكوا Guipuscua، وقد كانت تلك الولايات الثلاثة ملكا لقشتالة من قبل (١) .

أما بطره فقد انتزع بضع مناطق متفرقة على الحدود ، فعاد شانجة من رحلته بعد عامين ٥٩٨هـ (١٢٠١م). وتمكن من استرداد كافة ممتلكاته ، التى انتزعها منه الملكان المتحالفان .

أما ليون فقد كانت أحوالها فى غاية الفوضى والاضطراب ، فقد كان الملك لايزال محبا لزوجته القشتالية برنجويلا Berenguela رافضا الانفصال عنها فلما انجب منها ولده فردلند الثالث الذى سيلقب بالقديس وافقت برنجويلا Berenguela على اعلان الانفصال لتحقق للبلاد الامن والسلام (٢) وعندئذ وافق البابا على الغاء قرار الحرمان الكنسى ، وسرعان مادب الشقاق بين قشتالة وليون من جديد ، فقد طلب ملك قشتالة من ملك ليون ان يرد له جميع الاراضى التى كان قد وهبها لابنته مهرا لزواجها ،وكان البابا قد وافقه على هذا المطلب ،وفى بداية الامر اعترض ملك ليون على هذا الطلب ولكنه فى النهاية آثر السلام فتنازل عن تلك المناطق للملك القشتالى (٣) .

١٠ - هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب وبداية النهاية :

انتصر النصارى على قوى الموحدين انتصارا حاسما فى موقعة العقاب المعروفة فى المصادر الاسبانية بـ Las Navas de Tolosa أو موقعة أبدة

---

(١) Luis Suarez, Historia de España, p. 264.
(٢) Ibid. p. 266.
(٣) Ibid. p. 262.

Ubeda ، وكان ذلك فى ١٥ صفر من عام ٦٠٩هـ (١٦ يوليو ١٢١٢م) وايا ماكانت اسباب هزيمة المسلمين ، فان هذه الموقعة كانت وبالا على الموحدين فى الاندلس ، وكانت بدايــة اضمحــلال سلطــان الموحدين بالاندلس (١)٠ويرجع السبب فى انتصار القوى المسيحية فى العقاب فيما يظهر الى غلبة روح الحركة الصليبية نتيجة الجهود التى بذلها الفونسو الثامن لجمع كلمة الممالك المسيحية الاسبانية ،فالفونسو ملك قشتالة كانت تربطه ببطره الثانى ملك ارغون(٥٩٣ - ٦١٠هـ / ١١٩٦ - ١٢١٣م)اقوى اواصر الصداقة والتحالف ، اما شانجة السابع ملك نبرة (٥٩١ - ٦٣٢هـ) (١١٩٤ - ١٢٣٤) الخصم التقليدى ، فقد زار الفونسو الثامن عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) فى وادى الحجارة ، وتفاهما حول عدد من القضايا واسفر هذا اللقاء عن هدنة لمدة خمس سنوات (٢) كما تم التفاهم بين ملكى قشتالة الفونسو الثامن وليون الفونسو التاسع(٥٨٤ - ٦٢٨هـ) (١١٨٨ - ١٢٣٠م) من جهة ، وبين ملك قشتالة وشانجة ملك البرتغال (٥٨١ - ٦٠٨هـ) (١١٨٥ - ١٢١١م) من جهة ثانية ، لاسيما بعد أن تزوجت الاميرة اراكة والقشتالية عام ٦٠٥ (١٢٠٨م) من الفونسو ولى عهد البرتغال (٣)٠ولم يكن انتصار الفونسو الثامن فى العقاب نهاية لحروبه مع الموحدين ، فقــد سعى الى استثمار هذا الانتصار فتابع غزوه لاراضى الاسلام مخترقا جبال الشارات ، ثم انحدر الى بياسة Baeza ، وافتتح عددا من الحصون من

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول موقعة العقاب انظر ابن ابى زرع ، الروض القرطاس ص ١٥٧ - ١٥٩ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٣٢١ - ٣٢٣ ، الحلل الموشية ص ١٦٠ ، محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٢٨٢ - ٣٢٦ ، يوسف اشباخ ،تاريخ الاندلس ص ٣٥٤ - ٣٧٣ ، السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٨١٩ - ٨٣٠ ،

Aguado Bleye, Manual de la historia de España, 642 - 647, Luis Suárez historia de España, edad media, p 268 - 271.
Luis de valdeavellano, historia de España, p. 596 - 605.

(٢) Aguado Bleye, manual, p 643,

(٣) Aguade Bleye, Ibid. p 643.

بينها حصن بلج Vilches ، وفرال Ferral ، وبانيوس ، وتواوسة .

كما استولى على بياسة التى هجرها فاضرم فيها النيران واستولى على أبدة عنوة . وظل الفونسو الثامن يناضل ضد الموحدين فى الاندلس دون هوادة حتى توفى فى ٦١١هـ (سبتمبر ١٢١٤) (١) اثناء رحلته الى البرتغال لزيارة ملكها الفونسو ، وبفضل الفونسو الثامن احتفظت قشتالة فى عهده بسيادتها على الممالك المسيحية الاخرى ، ويذكر اجوادى بليى انه توفى فى ٦ اكتوبر (٢) .

وخلف الفونسو الثامن على عرش قشتالة ابنه هنرى الاول Enrique I (٦١١ - ٦١٤هـ) (١٢١٤ - ١٢١٧م) وكان فى الحادية عشرة من عمره فتولت أمه الينورا الوصاية عليه ،ولكنها توفيت بعد قليل ، فآلت الوصاية الى اخته برنجويلا الزوجة السابقة لالفونسو التاسع ملك ليون ، ولكن آل لارا Lara انتزعوا منها الوصاية وقرروا تزويجه فى هذا السن الصغير (١٢ سنة) من الاميرة مافالدا Mafalda ابنة شانجة الاول ملك البرتغال ولما كانت مافالدا شديدة القرابة اليه وتكبره بنحو ثمانية اعوام فقد اعترضت اخته برنجويلا على هذه الزيجة ، فلجأت الى البابا انوسنت Inocencio III الثالث الذى اصدر قرارا بمنع الزواج لشدة القرابة بين الزوجين فى (٦١٤هـ) ٦ يونيو ١٢١٧م توفى هنرى الاول اثناء لهوه مع اصدقائه الصبية فبادرت برنجويلا باعلان نفسها ملكه على قشتالة ثم تنازلت عن العرش فى الحال لابنها فردلند الثالث الذى انجبته من ملك ليون وكان عمره انذاك ١٨ سنة وتم تتويجه ملكا على قشتالة فى بلد الوليد Valla dolid ، وقدر لفردلند ان يكون بطلا من ابطال اسبانيا المسيحية بحيث عرف بالقديس (٣) .

---

(١) Luis Suarez, op. cit. p 270.
Aguado Bleye, op. cit. p. 648.

(٢) Ibid. p. 648.

(٣) Aguado Bleye, op. cit. p. 650.

١١ — دور الممالك المسيحية فى استرداد الغرب Algarve

ا — مملكة ليون :

حرص فردلند الثانى ملك ليون (٥٥٢ — ٥٨٤هـ) (١١٥٧ — ١١٨٨م) على حرف مزيد من اهتمامه بمشكلة الحدود الجنوبية لملكته التى كان الرئيس خيرالدو سيمبافور المعروف فى المصادر العربيـة باسم جرانـده الجليقى (١) ، وعنـد البرتغـاليين بالسـيد البرتغـالى El Cid Portugés (٢) قد تصرف بالتدخل فيها لحسابه الخاص . وكان جراندة هذا قد انتزع من المسلمين ، مدينـة يابرة وترجـلة وقصرش ومنتانجش ، وتاهب للاستيلاء على بطليوس ، ولكن سقوط بطليوس فى يد الزعيم البرتغالى كان يعنى بالنسبة لملكة ليون القضاء على الامـال التوسعية التى كانت قد خططت فى ساهاجون وضياع الاتاوات التى كان يفرضها ملك ليون على المسلمين فى هذه البلاد وكانت تشـكل مصدرا رئيسيا للدخول المالية لملكته .ولهذا السبب لم يتردد فردلند فى عرقلـة مساعى جراندة عن طريق تعاونه الوثيق مع المسلمين وتمكن فى عـام ٥٦٥هـ (١١٦٩م) بفضل هذا التعاون من استرجاع الاراضى التى كان قد استولى عليها جراندة وعهد بالدفاع عنها الى ارمنجول السابع دى اورخيل Ermengol VII de Urgel والى فردلند رودريجث دى قاشترو Fernando Rodriguez de Castro وأسقف شنت ياقب الذى تدخل بنفوذه الكنسى ماديا وعسكريا فى اعداد الحملات ضد جرانده (٣) ولقـد ساعد انقسام الممالك المسيحية الموحدين على التحالف مع فردلند الثانى فى ٥٦٥هـ (١١٦٩م) ضد جراندة ومهاجمة قشتالة والبرتغال ابتـداء من سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م) غير أن قشتالة التى كانت تحرص على مخازنة

---

(١) عن جراندة انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

(٢) Jose Luis Martin, la peninsula en la edad media .p 358.

(٣) Jose luis martin, op. cit., p. 358.

نبرة اكثر من حرصها على مهاجمة المسلمين عقدت مع هؤلاء السلم فى سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م) ولم تلبث البرتغال ان حذت حذوها بعد فترة قصيرة وعقد ملكها اتفاقا مع الموحدين . وعندئذ تحول الموحدون ضد مملكة ليون ، واسترد خليفة الموحدين جميع اراضى الغرب التى كانت فى حوزة الليونيين وعندئذ بدأ فردلند الثانى ملك ليون غاراته على قاصرش ولكن الموت وضع حدا لاطماعه (1) وخلفه ابنه الفونسو التاسع .

ذكرنا فيما سبق ان الملك الليونى الفونسو التاسع تزوج من تيريسا بنت شانجة الاول ملك البرتغال فى عام ٥٨٧هـ (١١٩١م) عسى ان يقضى رباط المصاهرة على المشاكل التى كانت قد نشأت بين المملكتين ، ولكن نظرا للقرابة الشديدة بين الزوجين فقد اصدر البابا ثلستينو Celestino III قرارا بمنع هذه الزيجة وبحرمان الملكين كنسيا ، مما دفع بهما الى الانفصال عام ٥٩١هـ (١١٩٤م) رغم انجابها ثلاثة ابناء. وكان الفونسو الثامن ملك قشتالة قد فرض سيطرته الادبية على كافة الممالك المسيحية مما ادى الى كراهية هذه الممالك المسيحية له ، وربما كان سببا فى تخلى ملوك اسبانيا المسيحية عن الفونسو الثامن عندما اشتبكت قواته امام جيوش الموحدين فى الارك ٥٩٢هـ (١١٩٥م) مما تسبب فى هزيمته امامهم ، بل ان ليون بادرت بعقد صلح وحلف مع الموحدين ، وكانت ليون قد عقدت الصلح مع نبرة مما ترتب عليه مهاجمة اراضى قشتالة فى عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م) ولكن الفونسو الثامن تمكن بمساعدة البرتغال وارغون من الرد على هذا الاعتداء ، وفى عام ٥٩٤هـ و (١١٩٧م) غزا الفونسو الثامن اراضى ليون وجليقية ، ثم عاد الصلح بين ليون وقشتالة وتزوج الفونسو التاسع ملك ليون من الاميرة برنجويلا بنت الفونسو الثامن ، ولكن هذا الزواج كان باطلا لشدة القرابة بين الزوجين. ولهذا قدر للزوجين الانفصال ، وقد تحققت الوحدة بين الممالك النصرانية

---

(١) Ibid, p. 360.

بناء على دعوة البابوية من جهة وعلى جهود الفونسو الثامن ملك قشتالة من جهة اخرى ، وظهرت آثار ذلك فى موقعة العقاب التى انهزم فيها الموحدون .

وكان ملك قشتالة قد اتفق مع الفونسو التاسع ملك ليون فى العام الذى تلا موقعة العقاب على ان يتوجها لغزو بعض حصون المسلمين وبينما توجه الفونسو الثامن فى طريق بياسة ، قام الفونسو التاسع ملك ليون بغزو قطاع اشبيلية ، ولكن الفونسو التاسع مضى الى قاصرش وحاول ان يستولى عليها ولكن بلا فائدة (١) . فى هذه الفترة تلقى الفونسو رسولا من خليفة الموحدين عرض عليه مبلغا كبيرا من المال اذا رفع الحصار عن قاصرش وعاد الى مملكته ، فانسحب ملك ليون الغافل بعد ان قبل العرض السخى وانسحب مع الاسرى والغنائم ، ولكن الموحدين لم يدفعوا له المال واخذوا يحصنون قاصرش مما جعل الاستيلاء عليها صعبا ولذلك فقد تقدم الى ماردة ولكنه قرر العودة الى بلاده نظرا لقدوم الشتاء ،مما اغضب حلفائه القشتاليين الذين اجبروا بدورهم على العودة الى وطنهم ، وكان ذلك فى عام ٦١١هـ (١٢١٤م) . وفى نفس هذا العام توفى فردلند ولى عهد ليون ، واكبر ابناء الفونسو التاسع ، وكان للملك الليونى ولدان آخران من برنجويلا القشتالية هما فرناندو والفونسو فتولى فرناندو عرش قشتالة عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) على النحو الذى اشرنا اليه فيما سبق واثار اطماع والده ، وقد حاول ان يحاربه ليستولى على حكم المملكتين ، ولكنه آثر فى نهاية الامر السلام ، وتم الصلح عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) (٢) وكان الفونسو التاسع ملك ليون من اشد المهتمين بحركة الاسترداد ، لذلك فقد قام بمساعدة رجال الجماعات الدينية والمتطوعة الصليبيين للاستيلاء على القطاع المخصص له من اراضى المسلمين.وقد راينا

(١) Martinez y Martinez op. cit. p. 278.

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦ .

انه خرج فى ٦١٤هـ (اواخر عام ١٢١٧م) لمحاصرة مدينة قاصرش (١) على راس قوة مشتركة من ليون وقشتالة ثم رفعوا الحصار عنها ، وتكرر حصار الملك الليونى لقاصرش إلى ان انتهى الامر بسقوطها عام ١٢٢٧ (٢) حسبما ورد فى صلب الرسالة .

ثم عاد الفونسو التاسع فى عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) للقيام بغزوة جديدة فى اراضى المسلمين واستولى فى ذلك العام على حصن منتانجش على مقربة من ماردة ، ثم استولى على ماردة ، ودارت بينه وبين ابن هود معركة دارت فيها الدائرة على المسلمين ، وما ان وقعت ماردة فى حوزته حتى اتجه الى بطليوس التى سرعان ما سقطت بسهولة ويسر فى ايدى قواته ،وتم ذلك فىاواخر عام٦٢٧هـ(١٢٣٠م)·ولم تكد تمضى اسابيع قليلة حتى توفى الفونسو التاسع ملك ليون بعد ان انهى سيادة الاسلام فى بطليوس حاضرة الغرب الاسلامى ، ولما سقطت بطليوس فى يد هذه المملكة المسيحية شأن غيرها من الحواضر الاسلامية العريقة فى الاندلس ، بقى عدد كبير من اهلها المسلمين تحت السيادة الاسبانية ، عرفوا بالمدجنين (٣) ثم سموا بالموريسكيين .

ب - ارغـــون :

توفى الفونسو الثانى بن رامـون برينجير الرابـع فى (٥٩٣هـ) (٢٥ ابريل ١١٩٦م) وخلفه على مملكة ارغون وامارة قطلونية ابنـه بطره الثانى الكاثوليكى (٥٩٣ - ٦١٥هـ) (١١٩٦ - ١٢١٨م) وبدأ عهده بوصاية امه دنيا سانشا . وكان بطره الثانى صديقا لالفونسو الثامن

---

(١) يسميها ابن عذارى قشرش (ابن عذارى البيان ، جـ٤ ، ص ٩١) بينما يسميها ابن القطان قصرش (قطعة من نظم الجمان ، ص ٢١٦) .

(٢) José Luis Martin, la peninsula en la edad media, p. 394.

(٣) محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس ، وتاريخ العرب المتنصرين، ص ٥٦ .

وقد بذل له العون فى حملته على مملكة ليون ، ونزلا على استرقة وشلمنقة الامر الذى دعا الفونسو التاسع ملك ليون الى فتح باب المفاوضات مع الملكين المتحالفين ، ولم يلبث ملك ليون ان انضم الى هذا الحلف وبفضله تمكن ملك قشتالة من الظفر بعدد من القلاع فى مملكة نبرة ، واضطر شانجة السابع ملك نبرة الى زيارة ملك قشتالة فى وادى الحجارة عام ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) واتفقا على هدنة لمدة خمس سنوات على النحو الذى اشرنا اليه من قبل .

وقد اهتم بطرة الثانى بعد ذلك باملاكه فيما وراء البرانس واقليم بروفانس وبعض المناطق الاخرى ، كما اهتم بزيارة جنوة وبيزا للتفاهم مع هاتين الجمهوريتين على غزو الجزر الشرقية (١) ، ثم زار رومة لينال موافقة البابا على تتويجه ونجح فى الحصول على هذا الحق عام ٦٠١هـ (١٢٠٤م) .

وحاول بطره ان يصلح من النظم الاقطاعية فى بلاده ، كما حارب بعض الملحدين الالبيسيين حتى يحمى املاكه فيما وراء البرانس ، وتوفى فى عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) تاركا وراءه ابنه خايمى الاول طفلا صغيرا (٢) . ولم يكن للملك خايمى الاول اى علاقة بالغرب بل ان كل جهوده فى الفتوحات الاسلامية اتجهت نحو شرق الاندلس والجزائر الشرقية .

كذلك لم يكن لالفونسو السابع الملقب بالقوى ملك نبرة اية علاقات بالغرب او ببطليوس وكانت سياسته تتلخص فى امرين :

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الزيارات راجع :

Claudio Galindo Guijarro, historia de España, t, II, Barcelona, 1935, p. 443.

Aguado Bleye, op. cit. p 670.

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر الموحدين ، ص ٦٠٥ .

١ - محالفة الموحدين للاستنصار بهم من خطر الحلف القشتالى الارغونى ([1]) وقد سبق ان تحدثنا عن رحلته لمقابلة الخليفة محمد الناصر .

٢ - عقد الصلح مع ملوك اسبانيا المسيحية قبل موقعة لاس نافاس دى تولوسا .

جـ - مملكة البرتغال :

كان الفونسو انريكث (٥٣٣ - ٥٨١هـ) (١١٣٨ - ١١٨٥م) ويسميه العرب ادفونش بن الرنك صاحب قلمرية ([2]) قد استقل بالبرتغال عن مملكة ليون وقد حرص الفونسو انريكيث على توسيع املاكه حتى بلغت ضفاف واديانه ، وفى عام ٥٣٤هـ (١١٣٩م) اعلن نفسه ملكا على البرتغال وان كان مايزال يعتبر نفسه تابعا لالفونسو السابع ملك ليون وقشتالة . وللتخلص من تلك التبعية أقر بسلطان البابوية عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) ، ثم دعا الى مملكته الداوية والاسبتارية ، وبمساعدتهم تمكن من انتزاع شنترين من الموحدين .

وقد سخر الفونسو الصليبيين المارين ببلاده فى طريقهم الى الاراضى المقدسة فى الاستيلاء على لشبونة وشنترين عام ٥٤٣هـ(١١٤٧م) ، ثم باجة فى ٢١ من ذى الحجة ٥٥٧هـ (١١٦٢م) ، وترجالة فى جمادى الثانية ٥٦٠هـ (١١٦٥م) ، ويابرة فى ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) وقاصرش فى صفر ٥٦١هـ (١١٦٥م) وحصن منتانجش فى جمادى الاولى

---

(١) Aguado Bleye, op. cit , p. 675. ، استعان شانجة القوى بالموحدين ضد الفونسو الثامن الذى كان قد استولى على البش وجيبوسكوا عام ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) ثم عاد الى مصالحته فى العام التالى عندما اتفق معه فى وادى الحجارة على الصلح مقابل التنازل له عن عدد من الحصون والمشاركة فى الحملة الصليبية المشتركة ضد الموحدين .

(٢) Terrasse, histoire du Maroc, t, I, p 321. وانظر ابن صاحب الصلاة تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٢ .

سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) ، وحصن شيرية فى جمادى الاولى سنة ٥٦١هـ (١١٦٦م) ، وحصن جلمانية فى نفس السنة (١) ، وهدد بطليوس ولكن فرنانده بن اذفونش السليطين (ويعرف فرناندة بالببوج) قدم دافعا لجراندة عن مدينة بطليوس ونجح فى ايقاع الهزيمة بجيش ابن الرنك Alfonso Enriquez ، واصيب نفس الملك اصابة بالغة عالجه منها الملك فرنانده ثم اطلق سراحه (٢) . وفى عام ٥٦٦هـ (١١٧٠م) تمكن الموحدون من استرجاع حصن جلمانية فهدموه ثم استرد الموحدون بعد ذلك يابرة وترجلة وقاصرش ومنتانجش .

على ان استقلال مملكة البرتغال لم يصبح حقيقة ثابتة الا باعتلاء ابنه شانجة الاول (٥٨١هـ - ٦٠٩هـ / ١١٨٥ - ١٢١١م) بعد وفاة الفونسو انريكث فى ٥٨١هـ (١١٨٥م) الذى عرف بفاتح اليمتيخو ، ففى سنة ٥٨٦هـ (١١٨٩م) تمكن من الاستيلاء على شلب Silves وباجة ويابرة (٣) مستغلا فى ذلك حملة صليبية من الدانيين والفريزيين (٤) ، كانت فى طريقها الى الشرق ، وظلت شلب فى حوزته زهاء عامين الى ان استردها الخليفة يعقوب المنصور فى شوال ٥٨٧هـ (١١٩١م) مع باجة وقصر ابى دانس ويابرة (٥) ، ثم انشغل سانشو الاول فيما بعد فى خلاف نشب بينه وبين البابوية وخلافات اخرى اندلعت بينه وبين بعض الاساقفة فى مملكته الذين اصدروا ضده قرار الحرمان . وتوفى فى عام ٦٠٨هـ (١٢١١م) وقرار الحرمان لايزال ساريا ضده . فخلفه على حكم البرتغال ابنة الفونسو الثانى (٦٠٨ - ٦٢٠هـ / ١٢١١ -

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ٣٧٣ .

(٢) Pascual Madoz, Diccionario geográfico histórico de e España y sus posesiones de Ultramar, t. II Madrid, 1846, p. 258.

(٣) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٤

(٤) Luis Suarez, op. cit. p. 256 - Glaudio Galindo Guijarro, historia de España, Barcelona, 1935, p. 395.

(٥) ابن ابى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٤٤ .

١٢٢٣م) الذى تلقى لقب البدين لشدة بدانته ، وقد بدأ عهده بنزاعه مع شقيقتيه بشأن سيادته على بعض مواضع تابعة لهما ، واحتميتا بالبابا الذى عهد بالمناطق موضوع النزاع الى فرسان الداوية على ان تكون خاضعة لالفونسو البدين بينما يكون دخلها لصالح شقيقتيه الاميرتين تيريسا وسانشا(١) .ثم تمكن الفونسو الثانى بمساعدة الفرق الصليبية من الاستيلاء على ثغر قصر ابى دانس (٢) ٦١٤هـ (١٢١٧م) وتوفى الفونسو البدين فى عام ٦٢٠هـ (١٢٢٣م) وخلفه ابنه شانجة الثانى (٦٢٥ - ٦٤٥هـ / ١٢٢٧ - ١٢٤٧م) الذى أزال كل خلاف بينه وبين عمتيه منتهزا فرصة الخلافات الداخلية الموحدية ، فقد كان الخليفة المستنصر قدمات دون ان يعقب ، وبويع عبد الواحد اخو المنصور الموحدى ، وقام منافسوه واهمهم ابو محمد ابن أخيه المنصور والى مرسية الذى كان يرى نفسه أحق بالخلافة واقدم على خلع عمه مستندا على ولاة وسط الاندلس والغرب ،وبويع هو بالخلافة ،عندئذ استغل ابو محمد بن ابى العلاء والى بياسة الفرصة وطلب مساعدة فردلند الثالث ملك قشتالة ،ولكن هذا الاخير، هو الذى استثمر ثورة ابى محمد لنفسه ،فقد غزا الاندلس وافتتح جيان وابدة وبياسة (٣) ، ثم تفرغ بعد ذلك لانتزاع باقى أراضى المسلمين فى الغرب ، فاسترد البة عام ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) والبش Elvas وشيربه Serpa وجلمانية Jurumenha التى كانت تجاور بطليوس ، الى جانب كافة الحصون الواقعة على ضفاف وادى آنة مثل طبيرة Tavira والفخار Alfajar ، ثم استولى على ميرتلة Mertaola ، وسلمها لفرسان شنت ياقب ، ثم على شلب عام ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) .

---

(١) Jose Luis Martin, la peninsula en la edad media, p. 396.

(٢) يقول ابن ابى زرع:«وفى سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبى دانس بالسيف وقتل منهم العدو أمما لاتحصى وفى سنة خمس وست مائة دخل الفنش قصر أبى دانس بالسيف وقتل من به من المسلمين» ، ص ١٨١ .

(٣) Martinez y Martinez, op. cit, p. 278.

وكانت بطليوس (١) وماردة وقاصرش قد سقطت فى أيدى الليونيين وبذلك يكون المسلمون قد فقدوا أهم مدن الغرب الاندلسى ٠

١٢ ــ جماعــات الفرســان الدينية :

استوحى الملك الفونسو الاول المحارب ملك أرغون فكرة انشــاء منظمات أو جماعات الفرسان الدينية الحربية من الحركة الصليبية، وربما كان مصدر هذه المنظمات الدينية العسكرية فى الاندلس قد ظهرت نتيجـة التأثير العميق للنفوذ الروحى البابوى،على أن هناك أمرا لابد من الاشارة اليه وهو ان جماعات من المجاهدين المسلمين ، كرسوا انفسهم للربــاط والجهاد والمثاغرة بهدف اغتنام الشهادة (٢) ،وكانوا ينزلون منذ القرن الاول الهجرى فى رباطات أقيمت على السواحل أو فى المناطق الثغريــة ولعل كثرة ورود الالفاظ الدالة على الرباط فى اللغة القشتالية يؤكد هذه الفكرة مثل Rábita, Rábida, Rabato. وهنا لاينبغى ان نتجاهــل امكانية تأثير فكرة الرباط عند القوى المسيحية ، ولعل أبلغ دليل عــلى انتشار روح الجهاد والرباط ، الحركة المعروفة بحركة ابن القط التى سبق ان أشرنا اليها فى الجزء الاول من الرسالة ، وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أو خاطئا بسبب عدم وجود طبقات من رجال الدين فى الاسلام كما هو الحال فى المسيحية ، فانه مما لاشك فيه أن اسبانيا عرفت نظــام جماعات الفرسان الدينية العسكرية منذ القرن السادس الهجرى ،وان هذا النظام انتشر انتشارا سريعا وعم فى سائر الممالك المسيحية باسبانيا واول

---

(١) استولى الفونسو التاسع ملك ليون على بطليوس استنادا الى احــد الامتيازات التى منحها الملك لدير فلبورايسو Valporaiso فى (٦٢٨هـ) ٨ يناير ١٢٣٠م وفيه تلقب بملك بطليوس (راجع Madoz, op. cit, p 258.

(٢) من الجدير بالذكر أن عددا كبيرا من العلماء المتفقهين فى العلوم الدينية كانوا احرص الناس على الرباط والجهاد بغية الثواب ولا ينبغى أن ننسى أن فتح جزيرة صقلية انما قام بفضل قيادة الفقيــه أسد بن الفرات وأن كثيرا من القضاة فى الاندلس فى العصر الاموى كانوا يشاركون فى الغزو وفى كثير من الحملات ٠

من حاول انشاء جماعات الفرسان الدينية فى اسبانيا الفونسو الاول المحارب ملك ارغون الذى انشا بعد افتتاحه لسرقسطة فى ٥١٢هـ (١١١٨م) قلعة سميت بقلعة مونريال Monreal لتكون مركزا للدفاع ضد المسلمين (١).
ثم اخذ يفكر فى انشاء جماعة من الفرسان برسم القبر المقدس ولكن مشروعه لم يقدر له ان يتم لافتقاده للفرسان الصالحين لهذه المهمة وفى هذه الفترة كانت جماعة الداوية « قد انشئت عام ٥١٣هـ (١١١٩م) فى بيت المقدس عقب سقوطها فى أيدى الصليبيين وكان ملك بيت المقدس قد خصص لهم جناحا فى قصره فى المعبد المجاور له ، فعرفوا لذلك بفرسان المعبد Templars (٢) ، وعلى هـذا الاساس تطلع ملوك المسيحية فى اسبانيا الى اقامة فرع من نظام فرسان الداوية بالمشرق فىممالكهم ،وانضم ريموند برنجار الثالث امير برشلونة فى ذلك الوقت فى سلك الداوية قبيل وفاته عام ٥٢٦هـ (١١٣١م) ، فانشأ ولده عقب وفاته اول دير للداوية فى قطلونية ، ومن الجدير بالذكر ان الفونسو المحارب تنازل فى وصيته عن ثلث املاكه ومملكته لفرسان الداوية ، وللفرع المقدس وللاسبتارية (٣) ، ولما كان الشعب قد رفض تقسيم المملكة فقد اعطى للداوية فى عام ٥٣٨هـ (١١٤٣م) .

كذلك قامت فى مملكة ليون بعد سنوات قليلة جماعة سان خوليان دل بيريرو San Julian del periero (٤) أو نظام فرسان القنطرة Orden de Alcántara ، ورغم ذلك فهى لم تزدهر وتكبر بمثل ما حدث للجماعة الثانية ، جماعة فرسان قلعة رباح Calatrava . وقد ظهرت جماعة فرسان القنطرة فى عهد الفونسو السابع (ريمونديس) حيث اتفق فارسان شلمنقيان هما سويرو وجومث نذرا ان يهبا حياتهما

---

(١) José Luis Martin la peninsula en la edad media, p 361.
(٢) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ١٦٧ .
(٣) Jóse Luis Martin, op. cit. p. 361.
(٤) Martinez y Martinez, op. cit. p. 274 - 275.

لمحاربة المسلمين وانضم اليها راهب هو سانت اما ندوس ، واخذوا يبحثون عن مكان يتخذونه حصنا لجماعتهم ، فالتمسوه فى دير سنت جوليانوس وابتنوا فيه حصنا ، سرعان ما امتلأ بأتباعهم من الزهاد والنساك الذين يرغبون فى قتال المسلمين وقد تولى تنظيم هذه الجماعة الاسقف الشلمنقى اردون . وعرفت فى اول ظهورها باسم جماعة سان خوليان دل بيريرو ثم تحول اسمها بعد نصف قرن الى جماعة فرسان القنطرة Alcantara (١) ونشات فى البرتغال عام ١١٧٦م ، اجناد يابرة La Milicia de Alcántara التى اندمجت بعد احدى عشرة سنة فى جماعة قلعة رباح .

وفى عام (١٢٦١م) قامت فى غليسية جماعة دينية جديدة هى جماعة القديس ياقب Orden de Santiago (٢) ، انشأها مجموعة من قطاع الطرق وعظهم رجال الدين ونصحوهم بالعمل الصالح الجاد ، وكان أول رئيس لهذه الجماعة هو الفارس «بيدروفرنانديس» Pedro Fernández الذى اباح لاعضاء جماعته الزواج ، وقد وصلنا مخطوط مصور عن تاريخ نظام فرسان شنت ياقب Santiago ، أعده بدرو دى اوروثكو وخوان دى لابارا فى سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٨م) قبل سقوط غرناطة ، وفى القسم الاول من المخطوط مجموعة من البراءات البابوية ارسلها البابوات تعبيرا عن قبولهم لنظام فرسان شانت ياقب ، وتبدأ بترجمة قشتالية من البراءة الاولى التى ارسلها البابا الكسندر الثالث عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) ، والقسم الاول من تاريخ نظام فرسان شنت ياقب افرد لحياة ومعجزات شنت ياقب الكبير قطب اسبانيا ، ويتألف من

---

(١) Martinez y Martinez, op. cit. p. 275.
ومن الجدير بالذكر ان الطابع القومى لهذه الجماعات واضح للغاية ، فجماعة فرسان قلعة رباح قشتالية ، والقنطرة ليونية ، ويابرة برتغالية .

(٢) كانت تعرف عند نشأتها بجماعة قاصرش ، حيث نشأت بادىء ذى بدء فى عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) عقب انتصار فرناندو الثانى على جراندة الجليقى (جير الدوسمبافور) .

ثمان فصول ، والثانى من ٢٢ فصلا تتضمن موجزا عن قواعد هـذه الجماعة ، أما القسم الثالث فيشتمل على ٤٠ فصلا ، خصص كل فصل منها لترجمة رئيس واحد من رؤساء الجماعة (١) .

وكما ذكرنا فان الطابع القومى لهذه الجماعات واضح للغاية فجماعة قلعة رباح قشتالية ، والقنطرة ليونية ، ويابرة برتغالية .

وقد ذكرت بعض الروايات النصرانية ان الفونسو انريكث (٢) قد انشا فى عام ٥٦٣هـ (١١٦٧م) جماعة القديس ميخائيل المجنح San Michael del Ala لانه رأى أثناء موقعة شنترين ذراعا يتقلد سيفا ، انقذه من الهزيمة بمعجزة مما دفعه الى القول بأن هذا الذراع كان ذراع قديس (٣) .

ولعل هذه الجماعات الدينية قد صبغت حروب النصارى ضد المسلمين المعروفة بالاسترداد La Reconquista بصبغة دينية صليبية بحتة ، فكأنه كانت هناك حرب صليبية بالشام وحرب صليبية فى اسبانيا انتهت بسقوط دولة الاسلام فى الاندلس .

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ جماعة فرسان شنت ياقب انظر
Primera Historia de la Orden de Santiago (Manuscrito del siglo xv) : introducción, notas y apéndice del Marquts de Siete Iglesias, Badajoz, 1978, p. xvl).

(٢) وكان قد دعا الى مملكته الداوية والاسبتارية وتمكن بمساعدتهم من الاستيلاء على شنترين
(Aguado Bleye, op. cit. p. 659).

(٣) يوسف اشباخ ، تاريخ الاندلس ، ص ٢٧٠ .

ملحـق ٢

رسالة من عمر المتوكل على الله ابن الافطس
امير بطليـوس
الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (١)

«لما كان نور الهدى ، ايدك الله ، دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت فى الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بانك لدعوة الاسلام اعز ناصر ، وعلى غزو الشرك اقدر قادر ، وجب ان تستدعى لما اعضل الداء ، وتستغاث لما احاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بانحائها اهلكهم الله عند افراط تسلطها واعتدائها ، وشدة كلبها واستشرائها ، تلاطف بالاحتيال وتستنزل بالاموال ويخرج لها عن كل ذخيرة وتسترضى بكل خطيرة ، ولم يزل دابها التشطط والعناد ، ودابنا الانقياد ، حتى نفذ الطارق والتلاد ، واتى على الظاهر والباطن النفاذ ، وايقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت اطماعهم فى افتتاح المدن ، واضطرمت فى كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين اسنتهم وشفارهم ، ومن اخطـاه القتل منهم فانما هم بايديهم اسارا وسبابا يمتحنونهم بانواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه مـن التوثب واشرفوا على ما املوه من التغلب فيالله وياللمسلمين : ايسطو هكذا بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الفكر ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، الا ناصر لهذا الدين المهتضم ؟ الا حامى لما استبيح من الحرم ؟ وانا لله على ما لحق عرشه من ثل ، وعزه من ذل ، فانها الرزية التى ليس فيها عزاء ، والبلية التى ليس لمثلها بلاء ، ومن قبـل هذا ماكنت خاطبتك ، اعزك الله ، بالنازلة فى مدينة قورية ، اعادها

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٤ - ٣٦ ، مجموعات وثائقية دورية تصدرهـا مديرية الوثائق الملكية بالمغرب ، المجموعة الاولى ١٩٧٦ ، الرباط ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

الله ، وانها مؤذنة للجزيرة بالخلا ، ومن فيها من المسلمين بالجلا ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد ، والتدابر يتساند ، حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية ، وتحصلت فى يد العدو مدينة سرية وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع ، فى الحصانة والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة وواسطة القلادة تدركها من جميع نواحيها ، ويستوى فى الارض بها قاصيها ودانيها ، وماهو الا نفس خافت وزمر داهق ، استولى عليه عدو مشرك، وطاغية منافق ، أن لم تبادروا بجماعتكم عجالا وتتداركوها ركبانا ورجالا وتنفروا نحوها خفافا وثقالا ، وما اخصكم على الجهاد بما فى كتاب الله، فانكم له اتلى ، ولاسما فى حديث رسول الله ﷺ ، فانكم الى معرفته اهدى ، وكتابى اليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ ، يفصلها ويشرحها ومشتمل على نكتة هو يبينها ويوضحها ، فانه لما توجه نحوك احتسابا وتكلف المشقة اليك طالبا ثوابا ، عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانه ، والسلام » .

ملحـق ٣

رسالة من عمر المتوكل على الله ابن الافطس امير بطليوس الى الفونسو السادس ملك قشتالة (١)

« وصل الينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير ، واحكام العزيز القدير يرعد ويبرق ، ويجمع تارة ثم يفرق ويهدد بجنوده الوافرة ، واحواله المتضافرة ، ولو علم ان لله جنودا اعز بهم كلمة الاسلام ، واظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام ،اعزة على الكافرين ،يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون ، بالتقوى يعرفون ،وفى التوبة يتصرفون ، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فباذن الله ، وليعلم المؤمنين وليميز الله الخبيث مـن الطيب ويعلم المنافقين .

واما تعييرك للمسلمين بما وهى من احوالهم ، وظهر من اختلالهم فالذنوب المركوبة والفرك المكتوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا مـن الاملاك ، لعلمت اى صاب اذقناك ، كما كانت اباؤك من آبائنا تتجرعه فلم نزل نذيقها من الحمام وضروب الآلام ، شر ماتراه وتسمعه ، واما المال تتوزعه ، فبالامس كانت قطيعة المنصور على سلفك اهداء ابنتـه اليه مع الذخائر التى كانت تفد فى كل عام عليه ، واما نحن وان قلـت اعدادنا ، وعدم من المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولاصعب نروضه الا سيوفا شهد بحدتها رقاب قومك ، وجلادا تبصره فى ليلك ويومك .

وبالله تعالى وملائكته المسومين ، نتقوى عليك ونستعين ، ليس لنا سوى الله مطلب ولا لنا الى غيره مهرب ، وما تتربصون بنا الا احدى الحسنيين : نصر عليكم فيالها من نعمة ومنة ، او شهادة فى سبيل الله فيالها من جنة ، وفى الله العوض مما به هددت ، وفرج يبتر ما مددت ويقطع بك فيما اعددت » .

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، وانظر مجموعات وثائقية ص ١٧٠ ، ١٧١ .

ملحـــق ٤

اهم الاعلام الجغرافية الواردة فى الرسالة باللغتين العربية والاسبانية

ابدة (وبذة)	Ubeda
ابره (نهر)	Ebro
ابطير (حصن)	Abtir
ابيط	Oviedo
اجدانيـــة	Exitania (Idanha)
الارش (حصن)	Castillo de Lares
الارك	Alarcos
اركش	Arcos
ارندة	Arun
استرقة	Astorga
اشبر غوزة (جبل)	Esparragosa
اشبيلية	Sevilla
الاشبونة	Lisboa
افراغة	Fraga
اقليش	Uclés
اكشونبة	Ocsonoba
البش	Elvas
البـة	Alava
اماية (جبل)	Amaya
ام غزالة (حصن)	Magazela
انسين	Encinar
انطاطة (حصن)	Idanha - a - velha
اندوجر	Andujar
اوريط	Oreto
باجـة	Beja
بازو (بيزيو)	Viseo

Palva	بالفــة
Porto	برتقال
Burgos	برغش
Pedraja	بطريشة
Viguera	بقيرة (حصن)
Velillos	بلابيش (حصن)
Valada	بلاطة (فحص)
Belinchon	بلشون (حصن)
Valtierra	بلتيرة (حصن)
Palmela	بلماله (حصن)
Valladolid	بلد الوليــد
Albelda	البلدة (قلعة)
Tajo	تاجة (نهر)
Tacorona	تاكرنا
Trujillo	ترجالة (ترجلة)
Sierra de Almáden	جبل المعدن
Gibraléon	جبال العيون
Jerez de los Caballeros	جريشة
Guernica	جرنيق
Jurumenha	جلمانية
Jaen	جيــان
Alanje	حصن الحنش
Aznalcázar	حصن القصر
Iznalloz	حصن اللوز
Azuaga	حصن زواغة
Zacatan	حصن سكتان
Aznalfarache	حصن الفرج
Cardela	حصن قرذيره
Marvâo	حصن مروان
Almadá	حصن المعدن

Aljucén:	الحصين
Duero	دويره (نهر)
Ronda	رنده
Rueda	روطة (حصن)
Azagalā	الزجالة (حصن)
Sagrajas	الزلاقة (فحص)
Gineta	زناتة
Giudad Rodrigo	السبطاط
Sever	سبير (نهر)
Zaragoza	سرقسطة
Soria	سرية
Zorita	سرتة
Zamora	سمورة
Medina Sidonia	شذونة
Aljarafe	الشرف
Jerez	شريش
Jerez de los Caballeros	شريشة
Setubal	شطوبر (نهر)
Segura	شقورة (نهر)
Silves;	شلب
Salvatierra	شلبطرة
Saltés	شلطيش
Salamanca	شلمنقة
Sanlucar	شلوقة
Santa Cruz de la sierra	شنت اقروج (حصن)
Santa maria de Algarve	شنت برية الغرب
Santaver	شنت برية
Santarem	شنترين
Cintra	شنترة
Santiago de compostela	شنت ياقب

شيربة (حصن)	Serpa
الصخرة	Covadonga
صخرة أبى حسان (حصن)	Castillo de la peña
صفرة	Safarez
طبيرة	Tavira
طرش	Torres Novas
طركونة	Tarragona
طلبيرة	Talavera
طريانة	Triana
طليطلة	Toledo
طلياطه	Tablada
طوطالقه	Toucanique
طمان	Tomar
العقاب (حصن)	Las Navas de Tolosa
عقبة البقر	Albacar
غرناطة	Granada
فحص مروان	Vez de Marbán
فحص البلوط	Valle de los pedroches
الفخـار	Alfajar
فرنجولش	Hornachuelos
قادس	Cadiz
غرماج (حصن)	San Estéban de Gormaz
قاشتره مورش	Castro Muros
قاصرش	Cáceres
قاية	Caia
قرمونة	Carmona
قسطلة الغرب	Cacella
قصر أبى دانس	Alcaçer do sal
قلمرية	Coimbra
قلعة رباح	Calatrava

Caliosa	قليوشة
Canales	قنالش
Alcántara	قنطرة السيف
Cantich	قنتيش
Cuenca	قونكة
Coria	قوريـة
Albuquerque	كركر (حصن)
Lerida	لاردة
Niebla	لبلة
Castillo Logrosán	لقرشان (حصن)
Fuente de cantos	لقنت
Lamego	لميق
Lanchach	لنشاش (حصن)
Lobón	ليبون (حصن)
Mertola	مارتلة (مرتلة)
Merida	ماردة
Madrid	مجريط
Medellin	مدلين
Almodovar	المدور
Medinaceli	مدينة سالم
Majorrocal	مرج الرقاد
Murviedro	مربيطر
Almeria	المرية
Mestanza	مسطاسة
Maguilla	مغيلة
Mudonia	مطونية
Malagón	ملقون
Mequineza	مكناسة الاصنام
Montánchez	منتانجش
Monsalud	منت شلوط

Mentesa	منتيشة
Montemor O Velho	منت ميور
Mondego	منذيق (نهر)
Miño	منيه (نهر)
Moura	مورة
Moron	مورور
Muros	مورش (حصن)
Nepza	نفزة
Nogales	نقالش
Osma	وخشمة
Guadiana	واديانة (نهر)
Guadalajara	وادى الحجارة
Junquera	وادى خنقيرة
Guadalupe	وادى لب (جبل)
Evora	يابرة
Elvas	يلبش

قائمـــة المصـــادر والمراجـع

أولا - المصادر العربيـــة

(١) المخطـوطات العربيـة

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين احمد) : مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، الجزء التاسع ، نسخة مصورة محفوظة بمكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ،تحت رقم٢٠

الشاطبى المغربى (محمد بن على) : « عقود الجمان فى مختصر اخبار الزمان » ميكروفيلـم ، محفوظ بمكتبة البحـث العلمى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

مجهـــول « تاريخ مدينة فاس وبناء جامـع القرويين ، وجغرافيـة الاندلس ومصر والشام والحجاز » ، ميكروفيلم محفـوظ بمكتبة البحث العلمى بجامعة أم القرى ، رقم ٥٣٠

مجهـــول « ذكر بلاد الاندلس وفضلها وصفتها وذكر اصقاعها » نسخة مصورة محفوظة بمكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد تحت رقم ٢٦ (وقد حققها مؤخرا الاستاذ لويس مولينا Luis Molina وصدرت فى مدريد ١٩٨٣) .

النويـرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب) « نهاية الارب فى فنون الادب » ، المجلد ٢٢ ، نسخة مصورة محفوظـة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندريـة (وقـد حققت مؤخرا وصدرت فى الهيئة العامة للكتاب) .

(٢) المصـادر العربية المحققة

الادريسى (الشريف ابو عبـد الله محمد) : « صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس » ، مأخوذة من كتاب نزهـة المشتاق فى اختراق الآفاق تحقيـق دوزى ودى غويه ،

ليدن ١٩٦٨ (مصورة عن النسخة الاصلية) ونسخة مصورة عن القسم الخاص بالاندلس صدرت بعنوان :
Idrisi, geogrofia de España, Valencia, 1974).

ابن الآبار (ابو عبيد الله محمد القضاعى) : « كتاب التكملة لكتاب الصلة » ، تحقيق كوديره ، مدريد ، ١٨٨٦ .

« « : « المعجم فى أصحاب القاضى الامام ابى على الصدفى » ، مدريد ، ١٨٨٥ .

« « : « الحلة السيراء » ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣

ابن الاثير (على بن احمد الملقب بعز الدين) : « الكامل فى التاريخ» طبعة بيروت ١٩٦٥ ، وهى مصورة عن طبعة ليدن ، ١٨٦٥ .

« « (مجد الدين) : « المرصع فى الآباء والامهات والبنين والبنات » ، تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائى ، بغداد ١٩٧١ .

ابن ابى اصيبعة (موفق الدين ابى العباس احمد بن القاسم الخزرجى) : « عيون الانباء فى طبقات الاطباء » ، نشر وتحقيق الدكتور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .

ابن ابى زرع (ابو الحسن على بن عبد الله الفاسى) : «كتاب الانيس المطرب روض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » تحقيق تورنبرج ، او بسالة ١٨٤٣

« « : « الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية » نشر دار المنصور ، الرباط ، ١٩٧٢ .

ابن بسام (ابو الحسن على الشنتريني) : كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، أربعة اقسام فى ثمان مجلدات ، بيروت ١٩٧٩ .

ابن بشكوال (ابو القاسم خلف بن عبد الله) : كتاب الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس » مجموعة تراثنا ، نشر الدار المصرية للتاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

ابن جلجل (ابو داود سليمان بن حسان) : « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق الاستاذ فؤاد السيد ، القاهرة ، ١٩٥٥

ابن حزم (ابو محمد على بن أحمد بن سعيد) : « جمهرة أنساب العرب » تحقيق الاستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٦٢

« « « نقط العروس » تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٥١ ، والنسخة القديمة التى حققها سيبولد وترجمها الى الاسبانية لويس سيكو دى لوثينا ، صدرت ببلنسية ، ١٩٧٤ .

ابن حوقل النصيبى (ابو القاسم محمد بن على) : « كتاب صورة الارض » ، نشر دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٣

ابن حيان (ابو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبى) : «كتاب المقتبس من انباء أهل الاندلس » ، أربع قطع :

منها قطعة خاصة بعهد الامير عبد الله ، نشرها الاب ملشور انطونية ، وصدرت فى باريس ١٩٣٧ ، وقطعة خاصة بالسنوات الاخيرة من عهد عبد الرحمن الاوسط وعهد الامير محمد بن عبد الرحمن ، حققها الدكتور محمود على مكى مع دراسات وتعليقات وصدرت فى بيروت

١٩٧٣ . وقطعة خاصة بالسنين الثلاثين الاولى من عهد عبد الرحمن الناصر ، نشرهـا بدور شالميتا وكورينطى ومحمود صبح ، مدريد ١٩٧٩ ، وقطعة خاصة بالحكم المستنصر نشرها د. عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٥

ابن خاقان (ابو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى) : « قلائد العقيان » القاهرة ، ١٣٢٠هـ .

ابن الخطيب (لسان الدين ابو عبد الله محمد) : « كتاب اعمال الاعلام» ، تحقيق ليفى بروفنسال بيروت ، ١٩٥٦ .

ابن الخطيب : « الاحاطة فى اخبار غرناطة » ، تحقيق الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ٤ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، المقدمة طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة بدون تاريخ ، والجزآن الرابع والسادس طبعة بيروت ، ١٩٦٨.

ابن خلكان (شمس الدين ابو العباس احمد ابن محمد) : « وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ٨ مجلدات دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧١

ابن دراج القسطلى : ديوان ابن دراج القسطلى ، نشر وتحقيق الدكتور محمود على مكى ، دمشق ١٩٦١ .

ابن سعيد المغربى (على بن موسى) : « المغرب فى حلى المغرب » ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٣

» » » « رايات المبرزين وغايات المميزين » ، تحقيق الدكتور النعمان عبد المتعال القاضى ، القاهرة ١٩٧٣ .

ابن سماك العاملى (أبو القاسم محمد بن أبى العلاء محمد) : « الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة » تقديم وتحقيق الدكتور محمود على مكى مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد العشرون ، ١٩٧٩ — ١٩٨٠ .

» » » » (أبو عبد الله بن أبى العلاء) : « الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية » ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، والاستاذ عبد القادر زمامه ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .

ابن صاحب الصلاة (عبد الملك محمد بن احمد الباجى) : « تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين » تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤

ابن عذارى المراكشى (أبو عبد الله محمد) : « البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ٤ أجزاء تنتهى بنهاية عصر دولة المرابطين فى المغرب والاندلس ، نشر دار الثقافة ببيروت والقسم الثالث بدولة الموحدين ، تحقيق امبروسيو اويثى ميراندا ومحد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى ، مطبوعات كلية الآداب ، جامعة الملك محمد الخامس ، تطوان ، ١٩٦٣ .

ابن غالب (محمد بن أيوب الاندلسى) : قطعة من كتاب فرحة الانفس، نشرها الدكتور احمد لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية القاهرة ، ١٩٥٦

ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف) : « تاريخ علماء الاندلس» تحقيق فرنثيسكو كوديره ، جزان ، مدريد ١٨٩١ .

ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الملك الكتامى الفاسى). قطعة من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط ، تطوان (بدون تاريخ) .

ابن القوطية (ابو بكر محمد القرطبى) « تاريخ افتتاح الاندلس » نشرة خليان ربيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

ابن كثير الدمشقى (عماد الدين اسماعيل) « البداية والنهاية » ، بيروت ، ١٩٦٦ .

ابن الكردبوس (ابو مروان عبد الملك التوزرى) : « تاريخ الاندلس » وهو قطعة من كتاب الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، تحقيق الدكتور مختار العبادى ، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الاسلامية مدريد ، ١٩٧١ .

ابن مرزوق (محمد التلمسانى) : « المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا الحسن » ، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، ومحمود بوعياد ، الجزائر ، ١٩٨١ .

البكرى (ابو عبد الله بن عبد العزيز) : « جغرافية الاندلس واوروبا من كتاب المسالك والممالك » تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجى ، بيروت ١٩٦٨ .

البيذق (ابو بكر بن على الصنهاجى) : « كتاب اخبار المهدى بن تومرت » تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤ .

الحميدى (ابو عبد الله محمد بن فتوح) : « جذوة المقتبس فى ذكر رجال الاندلس » ، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦

الحميرى (ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : « صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار » ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

الرازى (احمد بن محمد) وصف الاندلس من خلال الترجمة الفرنسية للنسخة البرتغالية المنقحة الصادرة فى لشبونة ١٩٥٢ ، وقد عنى بهذه الترجمة الفرنسية الاستاذ ليفى بروفنسال فصدرت فى مجلة الاندلس بعنوان :

La Description de l'Espagne (d'Ahmad al - Razi, al'Andalus, vol. XXIIII, fasc. I, 1953 (PP. 51 - 109)

La «Cronica do Mouro Rasis» y el «Ajbar Muluk al - Andalus», de Ahmad ibn Muhammad al - Razi, ed. Diego Catalan y Maria soledad de Andres, y otros collaboradores, Madrid, 1975.

الضبى (احمد بن يحى بن احمد بن عميرة) بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس ، نشره كوديره وريبيرا ، مدريد ١٨٨٤ .

عبد الله الزيرى (عبد الله بلقين بن باديس بن حبوس) « مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، المسماة بكتاب التبيان » نشر وتحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٥٥ .

العذرى (احمد بن عمر بن انس المعروف بابن الدلائى) : « ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان والمسالك الى الممالك » ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥

القزوينى (زكريا بن محمد) : « آثار البلاد واخبار العباد » ـ
١٨٤٨ ٠

القفطى (جمال الدين ابى الحسن على بن يوسف) : «
الحكماء» ، تحقيق Julius Lippert ليبزج ،

مجموعة رسائل موحدية مـن كتاب الدولـــة المؤ
نشرها ليفى بروفنسال الرباط ، ١٩٤١ ٠

« « مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق
بالمغرب ، المجموعة الاولى ، الرباط ١٩٧٦ ٠
مجهول : اخبار مجموعة فى تاريخ الاندلس ، نشره
القنطرة ، فى مجموعة Obras arábigas ، **مدريد** ،

« مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين
نشرها وقام بدراستها وترجمتها الى الاسبانية الا
ليفى بروفنسال وغرسية غومس بعنوان :

rónica anònima de Abd al - Rahman III al - Nasir,
d - Granada, 1950.

مجهول : « نبذ تاريخية من كتاب مفاخر البربـر » ، تحقيـق
بروفنسال ، الرباط ١٩٣٤ ٠

المراكشى (عبد الواحد بن على) : المعجب فى تلخيص اخبار ا
نشره الاستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد
العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

المقرى (احمد بن محمد التلمسانى) « نفح الطيب من غصن
الرطيب » ، تحقيق الاستاذ محيى الدين عبـد
(الاجزاء الستة الاولى) القاهرة ، ١٩٤٩ ٠

النباهى (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقى) « تاريخ قضاة الاندلس المسمى كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » (نسخة مصورة من النسخة النى حققها ليفى بروفنسال وصورت بالقاهرة فى ١٩٤٨) .

الونشريشى (أبو العباس احمد بن يحى محمد التلمسانى) : « أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر » ، نشره الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الخامس مدريد ، ١٩٥٧ .

ثانيا : المصادر الاسبانيــة

;jso Henrique Florez, España ·Sagiada, t. XIV, Madrid, M Dcc

1 — Chronicon Lusitanum, pp. 402 - 419.

2 — Chronicon de Sampiro obispo de Astorga, pp. 419-457.

3 — Chronicon del obispo de Oviedo D. Pelayo, pp. 458 - 475.

-a Crónica General de España, II tomo de la tercera reimpresión, editada por Ramon Menendez pidal con un estudio de Diego Catalan, Mardrid, 1977.

a historia de la orden de Santiago (Manuscrito del siglo XV; introduccion, notas y apéndice del Marques de Siete Iglesias, Badajoz, 1978.

mentos transcritos en los apéndices de :

Matias Ramón Martinez y Martinez, Historia del reino de Badajoz, 1904.

1 — Apéndice V : conquista de Coria por Alfonso VII

2 — Apéndice XXV : donacion de varios bienes en Merida a la orden de Alcántara, en el año 1230

3 — Apendice XXVLLL : Donación de Montanchez a la orden de Santiago, en el año 1230.

ثالثا ـ المراجع العربية الحديثة والمعربة

ابو الفضل (دكتور محمد احمد) : شرق الاندلس فى ظل الدولة الموحدية ، رسالة دكتوراه ، نوقشت فى جامعة الاسكندرية فى اكتوبر ١٩٨٠ .

اشباخ (جوزيف) : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨

جمال الدين (دكتور عبد الله) ابو مروان بن حيان امير مؤرخى الاندلس ، منزلته وكتبه ومنهجه التاريخى ومصادره ، مجلة اوراق ، العدد الثانى ، مدريد ١٩٧٩

جنثالث بالنثيا (آنخل) : تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥

جومث مورينو (مانويل) : الفن الاسلامى فى اسبانيا منذ الفتح العربى حتى عصر المرابطين ، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٩

الحريرى (دكتور محمد عيسى) : عمر بن حفصون ، زعيم المولدين فى الجنوب الاندلسى ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٨٣

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : تحقيق اسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون مجلة اوراق ، العدد الثانى ، مدريد ١٩٧٩

« تاريخ المغرب الكبير ، الجزء الثانى : العصر الاسلامى ، دراسة تاريخية وعمرانية واثرية ، بيروت ، ١٩٨١ .

« التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) بطليوس ، دائرة المعارف الشعب ، عدد ٦١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

« تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

« قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس ، جزآن ، بيروت ، ١٩٧١ .

« تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة اسطول الاندلس ، بيروت ١٩٦٩ .

« اضواء على مشكلة تاريخ بناء اسوار اشبيلية مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، عدد ١٨ ، ١٩٧٥ .

« حول رفع الالوية السوداء فى المغرب والاندلس ندوة التاريخ الوسيط ، المجلد الثانى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ص ٤٩ — ٨٣ .

« واحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط الجزء الثانى البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ .

« (سحر السيد عبد العزيز) : للحقيقة والتاريخ ، مجلة أكتوبر يونيو ١٩٨٤ العدد ٤٠٠ .

الشيال (دكتور جمال الدين) : التاريخ الاسلامى واثره فى الفكر التاريخى الاوروبى فى عصر النهضة ، بيروت ، ١٩٦٩ .

العبادى (دكتور احمد مختار) : فى تاريخ المغرب والاندلس ، بيروت ١٩٧٢ .

« دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠

« تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ .

الحجى (دكتور عبد الرحمن على) اندلسيات ، المجموعة الثانية ، دار الارشاد بيروت ، ١٩٦٩ .

« التاريخ الاندلسى من الفتح الاسلامى حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧هـ دمشق ، ١٩٧٦م .

عزت قاسم تاريخ مرسية الاسلامية منذ انشائها حتى استيلاء المرابطين عليها ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

عـلام (دكتور عبد الله) الدولة الموحدية فى المغرب ، القاهرة

عنان (الاستاذ محمد عبد الله) دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الاول ، القسم الاول بعد الفتح الى بداية عصر الخلافة ، القاهرة ١٩٦٩ القسم الثانى : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، القاهرة ١٩٦٩ .

« دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، القاهرة ، ١٩٦١ .

« عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس القسم الاول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

« عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس ، القسم الثانى، عصر الموحدين وانهيار الاندلس الكبرى ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

« : الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ، دراسة تاريخية اثرية القاهرة ، ١٩٦١ .

« مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، سلسلة الف كتاب ،رقم٨٥
ترجمة د· السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ، ١٩٥٨ ·

مؤنس (دكتور حسين) : معالم تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ١٩٨٣ ·

« تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، مدريد ١٩٦٧ ·

« فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ·

محمود (دكتور حسن احمد) : قيام دولة المرابطين : صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٥٧ ·

مكى (دكتور محمود على) مدريد العربية المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) ·

رابعا : المراجع الاوربية الحديثة

Albarran (Manuel Torron); el solar de los Aftasiés.

» La sierra de Tornado; Badajoz, 1953.

Alonso (Sanchez) : Histoira de la historiografia española, Madrid, 1947.

de las Cagigas (Isidro) : Los Mozárabes, t. I, Madrid, 1947.

» » : Andalucia musulmana, Madrid, 1950.

Castejón (Rafael) : Cordaba califal, Boletin de le Real Académia dei Bellas Artes de Córdoba, Cordoba, 1929.

Castro (A.) : Acerca del nombre de Badajoz, Revista española, t. XII, 1926.

Codera (Francisco) : los Benimeruan en Mérida y Badajoz colección Estudios criticos de historia árabe Española, Madrid. 1917. (PP. 1 - 75).

» » Decadencia y desaparición de los Almorávides en España, Zaragoza, 1899.

Conde (Jose Antonio) : Historia de la dominacion de los Arabes en España, 3 vols. Madrid, 1820 - 1821.

Delgado (Rodrigo dosma) : Discursos pátrios de la real ciuded de Badajoz, Badajoz, 1870.

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi - Provençal, 3 vols, Leiden, 1932.

Fernández (Aviles) y otros : España musulmana, serie nueva, historia de España, Madrid, 1980.

» » los reinos Cristianos en la alta edad media, 1980

» » (Luis Suárez) : Historia de España, Madrid, 1977

» » Historia de España, edad media, Madrid, 1987.

Ferrandis (Jose) : Marfiles árabes de Occidente, 2 tomos, Madrid, 1932.

de Figueroa (Diego Suarez) : historia de la ciudad de Badajoz, Badajoz, 1976.

Florez (F. Henrique) : España sagrada, t. XIV, Madrid, dccc.

Garcia Gomez (Emilio) : A proposito de ibn Hayyan, al - Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946.

» » Algunas precisiones sobre la ruina de la Córdoba omeya, al - Andalus, vol. XII, 1947.

Garcia Gómez : Un supuesto sepulcro de Motamid de Sevilla en Agmat, al - Andalus, vol. XVII, 1953.

Garcia y Bellido (Antonio) : la España del siglo primero de nuestra era, según p. mela y Plinio, Madrid, 1947.

Grimbero (carl) : Historia universal, t. IV, la edad media, Madrid, 1973.

Gujarra (Claudio Galindo) : Historia de España, t. II, Barcelona, 1935.

Lacarra (Jose Maria) : Alfonso el Batallader, Zaragoza, 1972

Lévi - Provençal (E.) Histoire de l'Espagne musulmane, 2 tomes, Paris, 1950 - 1951.

» » Inscriptions arabes d'Espagne, 2 tomes, Paris, 1931.

» » L'Espagne musulmane au x e siecle, Paris, 1932.

» » La description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi, al - Andalus, vol XVIII, 1953.

» » & Garcia Gomez, oliver Asin : Novedades sobre la batalla llamada al - Zalaca, al - Andalus, vol XV, 1950.

Lovillo (Jose Guerrero) : al Qasr al - Mubarak, Boletin de la Real Academia de Bellas Artes de Sevilla, Sevilla, 1974.

Madoz (Pascual) : Diccionario geográfico - histórico de España y sus posesiones de ultramar, t. III, Madrid, 1846.

Marçais (Georges) : L'Architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.

Martin (Jose Luis) : La Peninsula en la Edad Media, Barcelona, 1980

» Historia de España;, reinos cristianos y Musulmanes (siglos xl - xlll) Madrid, Diciembre 1980.

» & Carmen Cedoñer, Manuel sanchez : La Alta edad media, visigodos y primeros reinos cristianos, Octubre, 1980.

Martinez y Martinez (Matias Ramon) : Historia del reino de Badajoz, Badajoz, 1904.

Melchor (Antuña) : Aben Hayan de Córdoba y su obra historica, el - Escorial, 1924.

Melida (José Ramón) : Catálogo Monumental de España; Provincia de Badajoz, texto Madrid, 1925.

Menendez - Pidal (Ramon) : La España del Cid, t. I, Madrid, 1947

» » &. Garcia Goméz : El conde mozarabe Sisnando Davidez y la politica de Alfonso VI con los Taifas, al - Andalus, vol. XXI, 1947.

Miguel Muñoz de san Pedro : Badajoz, ed. Everest.

Miranda, (Ambrosio Huici) : Historia musulmana de Valencia y su region, 3 vol., Valencia, 1970.

» » La salida de los Almorávides del desierto, Hesperis, 3 - 4 Trimestres, 1959.

» » La invasión de los Almorávides y la batalla de Zalaca, Hesperis t. xl, 1 - 2 trimestres, 1953.

Monés (Hussain) : Essai sur la chûte du califat umayyade de Cordoue en 1009, le Caire, 1948.

» : Consideraciones sobre la epóca de les Reyes de Taifas, al - Andalus, vol. XXXI, 1966.

Nogales (S. Gómez) : La corte de les Aftasies de Badajoz, Principalmente en el campo de la filosofia, en Actas de IV coloquio hispano-tunecino, Madrid, 1983.

Oliveira (Antonio Ramos) : Historia de España : la edad media, Mexico, 1974.

Palacios (Miguel Asin) : contribucion a la toponomia arabe de España, Madrid, 1944.

» » (Oliver Asin) : el lugar de la batalla de Zalaca - Sacralias, al - Andalus, vol. XV, 1950.

Pérès (Henri) : La poésie andalouse en arabe classique au xie siecle, Paris, 1937.

Perez de Urbel (F. Justo) · Historia del Condado de Castilla, t. I, Madrid. 1948.

Pons Boigues (Francisco) : Ensayo bio bibliografico sobre los historiaderes y geógrafos arábigo-españoles, Madrid, 1898.

Prieto y Vives (Antonio) : Los reyes de taifas, estudio histórico numismático de los musulmanes españoles, en el siglo V de la Hégira, Madrid, 1926.

Quiros (Po Carlos) : Los Almorávides, Archivo del Instituto Estudios Africanos, no 32, Madrid, 1955.

Remiro (Mariano Gaspar) : Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, 1905.

Ricard (Robert) : Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du nord et en Espagne, Paris, 1924.

» Couraça et Coracha, al - Andalus, vol. XIX, 1954

Rubiera (Maria Jesus) : Sur un possible auteu de la chronique intitulée al - Hulal al - Mowasiyya fı - dikr al - Ajbar al Murrakusıyya, en II coloquio hispano - tunecino de estudios arabes, Madrid. Barcelona, Mayo, 1972.

Salem (Elsayed Abdel Aziz) : obras almohades en la muralla almorávide de Sevilla, revista del Instituto Egipcio de estudios islámicas de Madrid, vol XX 1979.

» » Noticias, revista del institute egipcio de estudies islámicos de Madrid, vol XIX, Madrid, 1976 - 1978.

» » Historia de Murcia musulmane, art. entregedo a la

universidad dei Cairo, en memoria del defunto profesor dr. Abdel Aziz al - Ahwani.

Sanchez, Albornoz (Claudio) : Los Reinos cristionos espanoles, coleccion Austral, Madrid.

» » Adiciones al estudio de la cronica del moro Rasis, Madrid, 1978.

» » la Batalla de la Polvoraria, Analos de universidad de Madrid, fasc. III, 1932.

» » El Islam de España y el Occidente, colección Austral, Madrid, 1981.

Seybolds (H.) : Encyclopedia of Islam, art. Battalyaws

Serrano (Carlos Callejo) : Badajoz y su provincia, coleccioón guias artisticos de España, Barcelona, 1964.

Simonet (Francisco Javier) : Historia de los mozarabes de España, Madrid, 1897, 1903.

El Shayyal (Gamal al - din), el Abbadi (M.) : Islamic and arabic contribution to the european renaissance, Cairo, 1977.

Terrasse (Henri) : Les forteresses de l'Espagne musulmane, Madrid, 1954.

» Histoire du Maroc, des origines à l'etablissement du Protectoral français, t. I, Casablanca, 1949

Torres Balbás (Leopoldo) la Alcazaba almohade de Badajoz, al - Andalus, vol. VI, fasc. I, 1941.

» » La mezquita de la Alcazaba de Badajoz, al - Andalus, vol. VIII, 1943.

Torres Balbas La via augusta y el arrecife musulman, al - Andalus, vol. XXIV, fasc. 2, 1959.

» » Caceres y su cerca almohade, al - Andalus, vol, XIII, 1948.

» » Aznalfarache, al - Andalus, vol. XXV

» » Ciudades hispanomusulmanas de nueva fundación; en Etudes d'orientalisme dédiées à la memoire de Lévi Provençal, t. II. Paris, 1962.

de Valdeavellano (Luis) : Historia de España, t. 2, de los origines 3 la baja Eded Media, Madrid, 1980.

Valdeon (Julio) Aproximación historica a Castilla a Leon, Valladolid, 1983.

Valladoz (Armando Cotarelo) : Alfonso III el Magno, Madrid, 1933

Villacrosa (José Maria Millas) : la traducción castellana del tratado de agricultura de ibn Wafid, al - Andalus, vol. VII, fasc. 2, 1943.

ملخص الرسالة باللغة الاسبانية

HISTORIA POLITICA DE BADAJOZ DURANTE LA DOMINACION MUSULMANA

(1)

BADAJOZ BAJO LA DINASTIA DE BANU ABDER - RAHMAN «EL GALLEGO»

Con la llegada de los Arabes a España, algunas ciudades mantienen sus antiguos nombres que van tomando mayor o menor importancia según los hechos.

Asi vemos como Badajoz, en los primeros años del Islam Español no tiene casi importancia, pues no fué que una pequeña aldea con muy pocos habitantes y oscurecida por la importancia de Mérida.

Alló por los años 214 y 222 de la Hégira (827, 835 de J.C.) los muladies de Mérida no estaban contentos con los administradores del poder central de Córdoba por la preferencia de trato que daban a los árabes y bereberes ya que consideraban a aquellos como recien llegados al Islam y en quienes no se podia confiar; en consecuencia los Muladiés provocaran muchas revoluciones contra los Emires, uniendose generalmente a los Cristianos.

El año 213 H. el bereber Mahmud Ibn Abdel Gabbar y el muladi Suliman ibn Martin se levantaron contra el gobernador de Mérida, Merwan el Gallego que habia sido nombrado por el Emir. Merwan murió a manos de ellos y Abderrahman II tuvo ir a Mérida a someter dichas sublevaciones.

Entre los rehenes entregados, por los derrotados, estaba Ibn-

Merwan el Gallego, quien fue llevado a Córdoba y quien pronto alcanzó en ésta puestos de gran importancia por la confianza que la dió el Emir. Con anterioridad, Merwan el Gallego, antes de llegar al puesto de gobernador de Badajoz se habia incluso enfrentado al Emir, pero éste despues de haberlo perdonado lo nombró para ese puesto.

Abderrahman el Gallego despues de haber conseguido grandes honores en Córdoba, como guardaba en su corazon sentimientos nacionalistas huyó de la Corte y se dirigio a Mérida haciendo diversas revoluciones contra el poder central. Para el estudio de las mismas vamos a dividirlo en cinco partes lo que nos facilitará la comprensión del mismo.

En la primera, El Gallego ataca Mérida con algunos amigos suyos, pero el emir Mohamed ibn Abderrahman los contraatacó y los vencio llevándolos de rehenes a Córdoba.

El año 875, el Gallego huye de Córdoba y vuelve a Mérida por sus desavenencias con el ministro Hashim ibn Abdel Aziz. El Gallego se dirigió al castillo de Hielo donde se reunió con otros jefes revolucionarios algunos de los cuales recibian ayuda del rey cristiano Alfonso III.

El Gallego se apoderó del castillo «Jurumenha» por considerarlo un lugar estratégico. Sadun el Soronbaki era uno de los revolucionarios que recibia mucha ayuda del rey cristiano. Todas éstas razones hicieron intervenir al emir de Córdoba quien mandó sus ejercitos contra el Oeste andalusi (el Algarve), para sofocar todas las sublevaciones. Entre las tácticas empleadas por soldados del Emir era envenenar las aguas de las ciudades sitiadas lo que obligaba a los

habitantes de las mismas a buscar nuevos pozos y conductos de agua para poder subsistir o salir a luchar a campo abierto, con lo que ello suponia de desventaja. Posteriormente el Emir Abdula, a petición del Gallego, hizo la paz con los revolucionarios de Badajoz pero a condicion de que éstos no saliesen de sus limites.

Tras la paz el emir Mohamed dió a Ibn Gallego autorizacion o le nombró como jefe supremo de la region de Badajoz y a partir de entonces Badajoz comenzó a convertirse en la capital de la zona por su importancia cultural, militar e incluso económica.

Dado el progreso de Badajoz, a manos de Ibn Gallego, éste se permite hasta mandar espias a Córdoba para estar informado de los acontecimientos de la Corte. También mantiene contactos por otra parte con los Cristianos. concretamente con el rey de Léon, Alfonso III.

Varios acontecimientos importantes retrasaron no obstante momentáneamente el progreso cultural o la importancia de Badajoz. Guerras, traiciones, luchas, asesinatos como la muerte de Makhul en Badajoz a manos de Hashim ibn Abdel Aziz (Makhul quedó en vez de Ibn Gallego a quien se parecia fisicamente cuando éste fué a la ciudad de Monte Shalut «Monsalud»).

Como consecuencia de estas luchas vemos al ministro Hachim prisionero del rey de Léon, Alfonso, quien mas tarde le dió su confianza.

Entre los acontecimientos de estos tiempos vemos como Ibn el Gallego une a Alfonso tercero de Léon para luchar contra los musulmanes en la batalla de «Barbaria» o de Polvorosa en la cual vencieron los Cristianos a las tropas musulmanas. Ibn el Gallego siguió aliado

a los Leoneses hasta que se dio cuenta de lo que verdaderamente hacía contra sus propios hermanos de religión sobre todo cuando derrotó y mató a muchos musulmanes en la batalla de Mérida. A partir de ese momento Ibn el Gallego se separó defintivamente de los Leoneses y volvió a Badajoz.

A pesar de esta separación de Ibn el Gallego del rey de León no por eso mejoraron las relaciones de aquel y los emires correligionarios suyos ya que las luchas continuaron entre Ibn el Gallego y los principes muslmanes. También Hachim después de dejar al rey leonts por haber pagado su rescate se enfrentó a Ibn el Gallego en algunas batallas.

Tras un periodo de guerras y revoluciones, la paz volvió a la zona y las relaciones entre los Emires con Ibn el Gallego aumentaron hasta tal punto que el Emir Mohamed le nombró y dio poder como único jefe supremo de Badajoz. Tanto el Emir Mohamed como su hijo Abdallah ayudaron en la reconstrucción de Badajoz y asi vemos como se construye una mezquita con una gran cúpula y alminar y, también se construyeron baños.

Posteriormente dentro de la Alcazaba, Ibn el Gallego, con medios propios construyó otra mezquita y otras varias más, en lugares diversos de la ciudad.

Esto fué una corta época de explendor para Badajoz antes de la reanudación de los problemas revolucionarios. De nuevo Ibn el Gallego unido a los habitantes de Beja y Mértola se subleva contra el Emir y continuó las luchas hasta su muerte. Por último sus sucesores tuvieron problemas con el poder central y combates con los Emires hasta

que al final su nieto Abdalla se hizo fuerte en el poder de Badajoz al expulsar a los gobernadores impuestos por el Emirato.

La dinastia de Banu Merwan el Gallego continuno gobernando independientemente la región de Badajoz hasta la restauracion del califato omeya, y entonces, él califa Abderrahman III pudo finalmente someter a Badajoz anejandolo bajo su autoridad en el año 318 de la Hégira.

(2)

BLDAJOZ : Base y nucleo del ALGARBE durante el período de los TAIFAS :

El Andalus empezó una nueva etapa cuando el «Hakam el Mustanser» subió al Califato mostrando su gusto por las artes y la civilización y dando toda clase de facilidades a sabios y escritores con lo que llegaron a Córdoba todos aquellos a quienes interesaba la civlización y la libertad que estaban desperdigados por toda España durante ese tiempo.

Entre ellos podemos destacar a Sabur, quien tendrá un papel importantisimo en la liberación intelectual del Occidente español.

Sabur fué uno de los hombres del Mansur ibn Abi Amer quein le dió el gobierno de Badajoz influenciado por los consejos de «Sobh» esposa de El Hakam al Mustanser y como premio aparente a su trabajo y honradez aunque en realidad lo que quiso el Mansur fue alejarlo del poder central. Posteriormente el Mansur se convirtió en el auténtico gobernante en tiempo de Hisham el Moayad. A pesar de eso, Sabur continuó en el gobierno de Badajoz porque estaba lejos de la metrópoli y en consecuencia Sabur no representaba un peligro para él en Córdoba.

Tras la muerte del Mansur su estado empezó a debilitarse sobre todo en los días de Shangul. En el tiempo de la Fitna que sucedió el asesinato de Sanchuelo hubo muchas revoluciones y se independizaron varios gobernantes que anteriormente dependían de él. Entre los gobernantes que consiguieron la independencia podemos citar, a Sabur que mantuvo su poder en Badajoz durante trece años.

La mayoría de los historiadores contemporáneos creen que Sabur era de origen persa, pero en realidad no lo fué, pues no era más que un liberto amerí.

No sabía gobernar bien Badajoz por lo que quien en realidad gobernaba era su ministro Abu Mohamed Abdalla ibn Mohamed ibn Moslema que era de origen bereber. Sabur gobernaba Badajoz, Santaren, Lisboa y la Marca inferior.

Abu Mohamed Abdalla era conocido con el apodo de Ibn el Aftás y fué sucesor de Sabur a pesar de que éste tenía dos hijos : Abdel Malik y Abdel Aziz. Como hemos dicho Ibn el Aftás era de origen bereber y los bereberes vivían en esa época en la zona occidental del Andalus como los Pedroches, Trujillo, Sierra Morena, Sierra del Maden (Almaden) y los alrededores de Badajoz. Ibn el Aftás se sobreapodó «el Mansur». Lo más destacado de su tiempo fueron las guerras contra el reino de Sevilla gobernado por Abu Qasem ibn Abad. Esas guerras empezaron desde la llegada de los Aftasiés en el año 420 H. por motivo de la posesión de la ciudad de Beja que fué tomada por Ibn el Aftás para hacer de ella una base militar y un centro gubernamental desde donde extender su poderío a otras tierras del Occidente andaluz.

Como el rey Ibn Abad de Sevilla era muy ambicioso y ayudó a su amigo Mohamed ibn Abdalla ibn el Berzali, gobernador de Carmona, que era una ciudad fortificada situada la nor-este de Sevilla, esta intervencion en los asuntos internos de Beja fué la causa de las guerras.

En una de esas batallas Ibn Abad cogió prisionero al hijo de Ibn el Aftás y lo tuvoencarcelado durante un año en la prisión de Carmona. Continuó después un período de paz de tres años aproximadamente y posteriormente se reanudaron los combates cuando al pasar las tropas de Ibn Abad por tierras pacenses para atacar Galicia se vieron a su vez atacados por Ibn el Aftás deseoso de tomar la revancha, de su anterior derrota.

Ismael ibn Abad fué derrotado y huyó hasta Lisboa. Este periodo de paz de tres años tras la salida de la cárcel de Ibn el Aftás historicamente no es muy cierto, pues las fuentes arabes que nos han llegado no hablan del mismo.

A la muerte de Ibn Abad de Sevilla, su hijo (Ismael ibn Abad) continuó las guerras contra el heredero del El Mansur ibn el Aftás que se llamaba Al Muzafar ibn el Aftás.

En la época del Mansur ibn el Aftás, los dos hijos de Sabur (Abdel Malik y Abdel Aziz) que fueron a Lisboa se sublevaron contra el que había destronado a su padre, pero el Mansur los venció ya que Lisboa le prefería a los herederos de Sabur; dichos hermanos murieron en sus batallas contra el hijo del Mansur. Estas luchas no fueron unas luchas personales entre reyes y gobernantes sino que más bien fué una lucha de pueblos, es decir, entre árabes y bereberes ya que Ibn Abad era árabe mientras que Ibn el Aftas era bereber. Es

muy probable que anteriormente hubiese habido luchas entre Ibn Abad de origen árabe como indicamos e Ibn Hamud de Córdoba que era bereber también porque Ibn Abad quería apoderarse de todas las tierras pertenecientes a los reyezuelos en la zona occidental de Andalucia

Le sucede su hijo Mohamed al Muzafar, que como fué muy buen gobernante fue amado por el pueblo, también fué un gran militar y conocía todas las armas que se utilizaban en su época, por la experiencia que le dio el contacto con otros ejercitos así como el tiempo que pasó prisionero.

La fama de Badajoz durante su mandato llegó a un muy alto grado, teniendo gran prestigio tanto en el aspecto cultural y cientifico como en el militar hasta el punto que llegó a ensombrecer a Toledo y Sevilla.

En el aspecto político continuó la linea de su padre, respecto a Sevilla y su rey Ibn Abad a causa de los problemas existentes en Niebla.

Niebla fué capital cuyos habitantes tuvieron buenas relaciones con Ibn el Aftás en Badajoz. Al ser atacada Niebla por Ibn Abad, el Muzafar ibn el Aftás vino a ayudar a Abdalla Mohamed ibn yehia el Yahsubi de Niebla, y este hecho fue la causa principal de la reanudación de las hostilidades entre los reinos de Sevilla y Badajoz a pesar de los buenos deseos de Ibn Gahwar de Córdoba que se esforzo denodadamente por establecer la paz y las buenas relaciones entre aquellos.

Estas batallas tuvieron un caracter especial y distinto a los combates normales entre enemigos ; cuando Niebla fué sitiada por

Ibn Abad los Bereberes pacenses en vez de atacar a los árabes sevillanos para obligarles a levantar el sitio de Niebla atacan directamente la metrópoli sevillana lo que obligaria a los atacantes de Niebla a volver a sus tierras para defenderlas. Estos a su vez en lugar de seguir la costumbre tradicional, se dirigen a Badajoz para atacarla y obilgar a los Bereberes a correr en su defensa.

Estas guerras fueron provocadas no solo por motivos de sangre o razas sino tambien por la posesión de los reinos de Occidente andaluz : Silves, Huelva, Niebla y Santa María del Occidente. Los Bereberes no fueron muy fieles a su jefe pero a pesar de ello pudieron derrotar a las huestes de Ibn Abad en el año 1047 J.C.

Poco despues Ibn Yehia traicionó a Ibn el Aftás por lo que éste le atacó a pesar de estar comprometido en guerras con Ibn Abad lo que quiere decir que en esos momentos Ibn Yehia e Ibn Abad a pesar de sus diferencias de razas lucharon juntos contra Ibn el Aftás.

Resultado de todos estos combates fué la destrucción y el desvastamiento de Badajoz y sus alrededores por Ibn Abad aprovechando que Ibn el Aftás estaba ocupado en atacar Sevilla y Niebla. Por último volvió Ibn el Aftás y se enfrento a Ibn Abad cerca de Evora derrotandole . Ibn Basam es el informador de todos los hechos ultimamente citados.

Ibn el Aftás fue un dictador en su mandato no aceptando consejos de nadie respecto a decisiones a tomar.

Despues de un período de tregua se reanudaron los combates; atacando Ibn Abad los reinos de Niebla y otros de la zona occidental.

En este tiempo las relaciones de Ibn el Aftás y el Mamun de Toledo no eran muy amistosas. Toledo era en aquel momento la «marca» central de el Andalus por su situación estratégica. Los gobernantes de Toledo por esa situación en el centro de la Península Ibérica pudieron atacar a sus enemigos tanto de oriente como del occidente andaluz bien fuera Zaragoza, Sevilla, o Badajoz.

Siendo gobernante, el Mamun, fué muy amado por sus subditos. Ibn el Khatib dice que estas batallas se sucedieron entre los años 443 447 H. En la mayoría de los combates el Mamun fué apoyado por Fernando I quien aumentó los ejercitos toledanos con sus propios soldados.

La derrota de Ibn el Aftás por los sevillanos fué debida a varias causas, pero la principal fué la falta de preparación de sus propios soldados, y esto a pesar de los consejos de bereberes quienes pensaban que el ejercito pacense no estaba en condiciones de enfrentarse al de Ibn Abad.

Despues de varios meses y tras la derrota Ibn el Aftás no quiso mostrar su propia debilidad por lo que contrató a bailarinas y artistas de Córdoba para festejar en su palacio como si fuese el verdadero vencedor de esas luchas.

Entre todos estos combates fraticidas también podemos destacar las luchas del Mamun con otros jefes arabes; en primer lugar citamos el deseo del Mamun de apoderarse de Cordoba ampliando asi sus territorios, pero Córdoba pertenecia entonces al sevillano Ibn Abad por lo que tuvo que enfrentarsele para poder ver cumplido su deseo. En cuanto a las luchas de El Mamun con Ibn el Aftás no hay

muchos datos aunque parece probable que hubiese enfrentamientos al Este de la ciudad de Trujillo, zona limítrofe entre las provincias de Badajoz y Sevilla.

A pesar de que en la época de El Muzafar ibn el Aftás también existian desavenencias y luchas intestinas entre los Cristianos sin embargo estos se aprovecharon del hecho de que la zona norte de Badajoz no estaba muy bien defendida para apoderarse de varios territorios y ciudades. Como ejemplo Fernando I de Castilla y León sin oposición por parte de Ibn el Aftás que consideraba inutil la defensa de las mismas por lo que no llegó ni a enfrentarse a los ejercitos cristianos.

Posteriormente Fernando I como consecuencia de estas victorias exigió un tributo a Ibn Aftás quien no quiso pagarlo por lo que Fernando mandó un ejercito de diez mil hombres a Santaren, la ciudad más importante del dominio de Ibn el Aftas. El rey musulman ante el cariz de los hechos se decidió a pactar con Fernando I y pagar el tributo que fue de cinco mil dinares.

Otro hecho importante es la entrega que hizo de Coimbra su gobernante Randah a Fernando I. Randah traicionó a su su rey ibn el - Aftas y facilitó a los cristianos la conquista de Coimbra. Ibn el Aftás enfadado por esta traición juzgo y ejecuto a Randah.

Despues de la muerte de Fernando I sus herederos preocupados en asuntos internos abandonaron las luchas contra el reino de Badajoz A la muerte de Muzafar el año cuatrocientos sesenta de la hégira le sucedieron sus hijos Omar y Yehya. Según los historiadores Yehia fue el rey de Badajoz pero con la oposición de su hermano a quien prefería el pueblo y que habia recibido Evora como herencia paterna.

Consecuencia de esta división entre hermanos fue el que Omar ayudado por Ibn Abad de Sevilla ataca a Yehya a quien ayudaba el Mamun de Toledo con lo que se recrudecieron las luchas entre Toledanos y Sevillanos el territorio de Badajoz.

La pronta muerte de Yehia (muerte natural) suspendió los combates al aceptar todos a Omar como único heredero de Ibn el Aftás. Alfonso VI, sucesor de Fernando I pidió el aumento de los tributos a Yehya.

La época de Yehya fue una época triste y de poco grato recuerdo para Badajoz.

En tiempo del Motawakel ibn el Aftás los reinos de Taifas se dieron cuenta del peligro cristiano sobre todo despues de la caida de Toledo en manos de Alfonso VI e hicieron causa comun llamando en su ayuda a los Almorávides quienes sometieron a sus propios correligionarios a pesar de que llegaron en ayuda de sus hermanos. Vemos asi como Ibn Abad de Sevilla es derrotado y llevado prisionero a Marruecos donde murió más tarde.

Por su parte Ibn el Aftás al ver el comportamiento de los Almoravides pidió ayuda a Alfonso VI, lo que enojo a los Norteafricanos quienes consideraron esta unión como una traicion por lo que atacaron a Ibn el Aftás y lo mataron. Todos estos hechos principales tuvieron su origen en acontecimientos internos ocurridos en Toledo. Vemos como Ibn el Aftás es llamado por los Toledanos para que los gobierne, mandato que duró solamente diez meses porque la ciudad cayó pronto en manos de Alfonso VI quien de tiempo anterior conocía esta zona a fondo y pudo atacar mas facilmente a Toledo y apoderarse de ella.

Así Ibn el Aftás se vió obligado a retirase a sus dominios de Badajoz. la idea de Ibn el Aftás cuando aceptó la invitacion de los Toledanos para apoderarse de esta ciudad fue el temor que tenía al ver como Alfonso VI habia tomado Coria facilmente desde dondo iría a Badajoz casi sin oposición, mientras que al tener que tomar Toledo que él mismo defendria le seria a Alfonso más difícil ya que tendria que vencerlo dos veces, primero en Toledo y luego en Badajoz.

Tras la toma de Coria, Alfonso amenazó por carta a Ibn el Aftás quien le contestó altivamente pidiendo al mismo tiempo ayuda a los Almorávides y mandando enviados a otros reinos de Taifas para que se uniesen contra Alfonso.

En ese mismo tiempo los Almorávides fueron solicitados no solamente por Ibn el Aftas sino también por Ibn Abad y otros como Ibn Ziri de Granada.

Como respuesta a todas estas llamadas los Almorávides pasan al Andalus y derrotan a Alfonso VI en Sagrajas. Estaba Sagrajas situada en la zona norte de Badajoz. y alli se enfrentaron los ejercitos muslmanes y cristianos, y aunque estos eran mucho más numerosos que aquellos y llevaron ventaja al comienzo de la batalla, el final fué victorioso para los soldados de la Media Luna.

Tras la batalla, el jefe almorávide Ibn Tasfin regresó a Marruecos pero las divergencias de sus correligionarios del Andalus le hicieron pensár en la conveniencia de volver otra vez, sometiendoles a todos y enfrentándose a los Cristianos como jefe único del Islam Andaluz.

Algunos historiadores creen que la idea de Ibn Tasfin no era solo el defender a sus hermanos de religión contra el cristianismo sino que pensó también en el hecho de apoderarse del Andalus, como uno de los territorios que era incluso más rico que su propio reino.

(3)

BADAJOZ BAJO LOS ALMORAVIDES

Volviendo a Badajoz, y según dice Fernando Valdés, si Ibn el Attás no hubiese pedido la ayuda o se hubiese aliado a Alfonso VI los Almorávides no habrian tomado la ciudad tan facilmente ya que los hábitantes de Badajoz se enfadaron al ver la alianza de este con los Cristianos y facilitaron a los Almorávides su entrada en la ciudad. Ibn el Aftas y su familia no pudieron escaparse a la muerte porque se encerraron en la Alcazaba de Badajoz, esperando la ayuda de Alfonso y como ésta no llegó los Almorávides la mataron.

Pero porqué mataron los Almorávides a Ibn el Aftas y no mataron a otros reyes de Taifas ?. Según la opinión del historiador alemán Ashbaj las relaciones Ibn el Aftas - Almorávides no fueron nunca leales ya que a veces a pesar de aliarse para luchar contra los Cristianos en otras ocasiones Ibn el Aftas los traicionaba a sus espaldas firmando tratados de mutua ayuda con Alfonso VI, lo que no era del agrado de los Almorávides y luchando contra sus propios correligionarios los Almorávides, por eso se enfadaron mucho y decidieron finalmente matarle.

La muerte de Ibn el Aftás se produjo utilizando los Almoravides el engaño ya que la verle encerrado en la Alcazaba pacense fingier

ron una amistad y le propusieron un viaje a Sevilla. Al emprender dicho viaje a las puertas mismas de Badajoz dos de los hijos de Ibn el Aftás fueron decapitados en su presencia y mientras Ibn el Aftas rezaba ante ellos fue decapitado. De esta matanza se salvó solamente su hijo Mansur ibn el Aftas quien al no hallarse presente en Badajoz en ese momento se puso al servicio de Alfonso VI convirtiendose mas tarde al Cristianismo.

Badajoz tras su caida en manos de los Almorávides se convirtió en una fortaleza de las mas importantes es decir una auténtica base militar fronteriza desde donde se podian lanzar ataques al enemigo cristiano viendo asi como en el año 504 H. el capitan Sir Ibn Abi Bakr atacó el reino de Portugal.

Por estas razones estratégicas Ibn Tasfin se preocupó por dotarla y avituallarla militarmente.

Los Almorávides demostraron mucha actividad militar durante la jefatura de Tasfin Ibn Ali quien pudo lograr una gran victoria en una segunda Sagrajas cerca de Badajoz, ahora contra los Portugueses.

En esta época los habitantes del oeste andaluz sufrieron mucho con toda esta serie de luchas entre Musulmanes y Cristianos por lo que al cabo de algún tiempo hubo revoluciones que se extendieron a todo el Andalus. Destacamos a Ibn Kasi el Muladí que empezó su revolución en Silves, Mértola, Niebla y Badajoz, y su amigo Sidray ibn Wazir fue gobernador de Evora y pudo gobernar Badajoz por un poco de tiempo.

Estas revoluciones tuvieron un caracter nacionalista. Cansados los

Andaluces del dominio almorávide, pidieron ayuda a los Almohades.

Los Almohades vinieron a Badajoz como libertadores pero en realidad se convirtieron en los nuevos señores de la capital por lo que Ibn El Hagam se levantó contra ellos pero pronto fue sometido y mandó regalos al Califa Abdel Mu'men. En la época del Badajoz almohade, los reinos cristianos se fortalecen y hacen una gran presión contra Badajoz siendo Portugal el mas fuerte de los reinos cristianos. Badajoz cae en mano de los almohades el año 545H.

(4)

BADAJOZ BAJO LA DOMINACION ALMOHADE

El Califa almohade Abdel Mu'men quiso, en su segunda excursión a España, según el historiador árabe Ibn Saheb el Sala, aconsejado por sus altos jefes militares, dividir todos sus ejercitos en cuatro grandes cuerpos con cada uno de ellos atacar a reinos cristianos diferentes : Toledo, Barcelona, Ciudad Rodrigo y Coimbra. Nos vamos a referir principalmente a este último ya que es el que afecta mas directamente a nuestro trabajo.

El Califa lanza sus tropas contra el reino portugués porque quería castigar a Alfonso Enriquez quien habia atacado en diversas ocasiones, a Lisboa, habiendola saqueado y entregado a los obispos, ayudado a veces incluso por Alemanes e Ingleses, En estos dias la mezquita lisboeta fue convertida en Catedral. También el rey Alfonso Enriquez habia ocupado Santaren y despues Alcacer do Sal en el año 1160 J.C.

Estos ataques se efectuaban a veces por mar y otras veces por

fierra. Posteriomente los Cristianos de Santaren atacaron y desvastaron la tierra de Beja.

Todos los deseos del Califa almohade no pudieron verse cumplidos por su prematura muerte. Le sucedió su hijo Abu Yacoub Yousef quien tenia otras luchas con los Cristianos.

Estos dias y en estos combates destaca la figura del mercenario portugués Giraldo Simpavor quien a sueldo de Alfonso Enriquez sometió muchas ciudades musulmanas : Trujillo, Evora, Caceres, Montanchez, Jurumenha y Serpa, Este guerrero valeroso mostraba a sus propios soldados como vencer al enemigo. Dicen los histoira-dores árabes que cuando se encontraba ante cualquier ciudad amurall-ada, lo primero que hacía era sorprender a los guardianes tras haber subido a la muralla por medio de escaleras y despues de matar a los propios guardianes abría las puertas de la ciudad para que sus tropas emboscadas en las cercanías entrasen con facilidad pudiendo asi matar a los habitantes y saquear la ciudad. Todas estas ciudades tomadas una tras otra fueron el eslabon que conducia a Badajoz la cual tambien cayó en sus manos.

Los habitantes de Badajoz que esperaban la ayuda del norte de Africa no recibieron esta ayuda del Sur sino que la recibieron de la parte septentrional de la península iberica. Concretamente Fernando II queriendo atacar a Alfonso Enriquez pensó en liberar con la esperanza de quedarse con ella en el futuro la ciudad de Badajoz, on manos del caballero portugués Giraldo y efectivamente le venció. En este combate resultó herido Alfonso Enriquez quien posteriormente fue hecho prisionero por el rey leonés aunque solo fué por poco

tiempo. Tras la curación de Alfonso Enriquez fue liberado por el propio Fernando lo que permitió a aquel volver a sus territorios. Fernando dejó también Badajoz a sus primitivos dueños los musulmanes almohades ya que estos eran sus aliados en algunas luchas que el leonés sostuvo contra otros reyes cristianos.

Dentro de las construcciones y los trabajos realizados por Yehia, el gobernador de Badajoz nombrado por el Califa almohade destacan el pozo protegido por un «coracha» que mandó construir dentro de la Alcazaba con la finalidad de que si la ciudad fuese sitiada de nuevo sus habitantes no padeciesen el tormento de la sed.

Estos dias continuaron las actividades militares del caballero Giraldo Simpavor quien en una ocasión derrotó a Yehya gobernador de Badajoz, haciendole creer que se retiraban, y cogiendolo despues en una emboscada. También Giraldo apresó a una expedición de socorro y avituallamiento procedente del Marruecos almohade tras el hambre que padeció Badajoz al ocurrir un terremoto que desvastó algunas ciudades del Andalus Occidental.

El año 1170 J.C. murió Yehya, gobernador de Badajoz, como consecuencia de las heridas sufridas en une batalla contra los Cristianos quienes esos dias se mostraron muy activos en el aspecto militar.

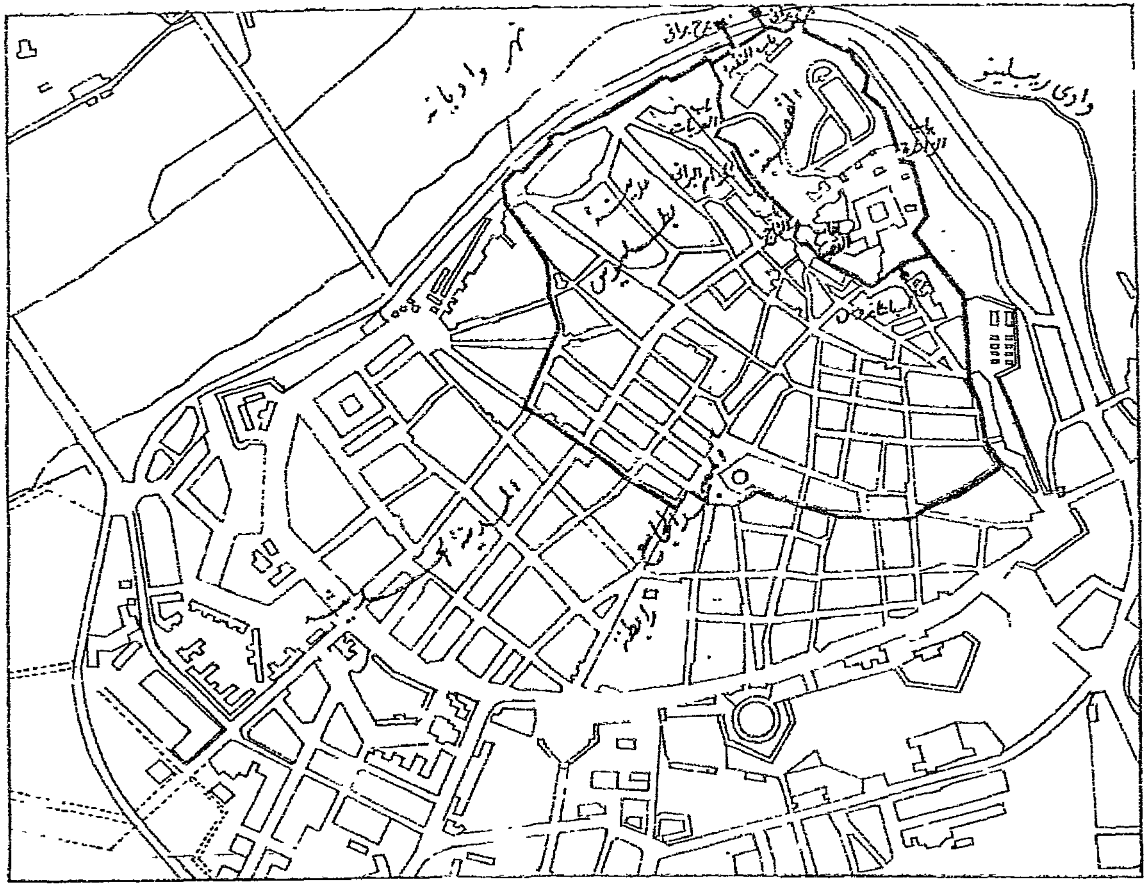
Consecuencia de estos combates fue el hecho de la venida a España de otro contingente de tropas almohades al frente del hermano mismo del Califa, quien no pudo venir por estar enfermo. Abu Said con todos los jefes y grandes personajes de los taifas andauces decidió defender Badajoz del peligro que suponia la proximidad de Giraldo y se puso de acuerdo con Fernando II quien tambien queria proteger Badajoz contra el peligro portugués para apropiarse de ella.

Los últimos acontecimientos de estos dias nos muestran como el mercenario Giraldo ofrece sus servicios al Califa almohade quien en principio le aceptó pero al ver y descubrir que Giraldo seguia en contacto con Alfonso Enriquez lo encarceló y mandó matarlo. Los almohades atacaron la ciudad de Santaren pero fueron derrotados por Alfonso Enriquez y en esa batalla murió el Califa almohade Abu Yacoub Yousof.

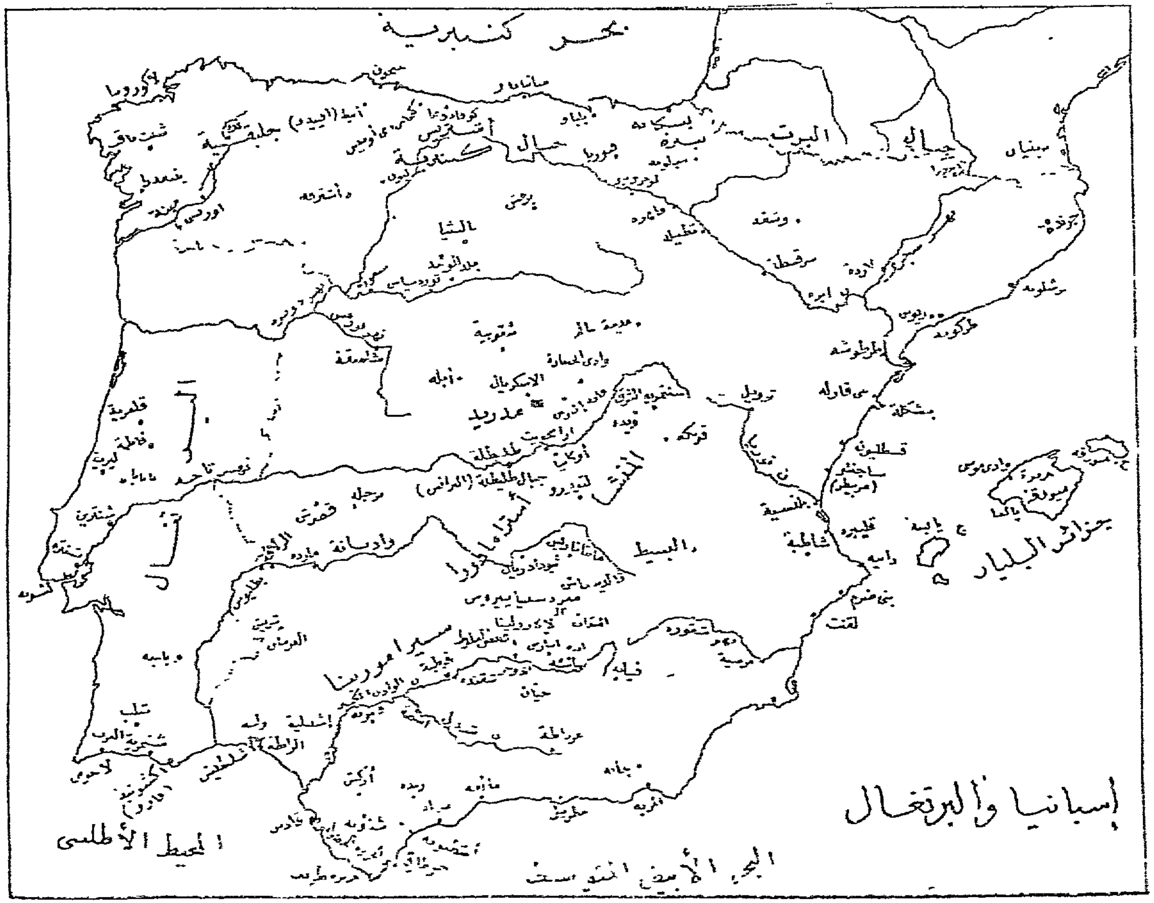
En el reinado de Almanzor las tropas almohades lograron una gran victoria en el año 591. H.

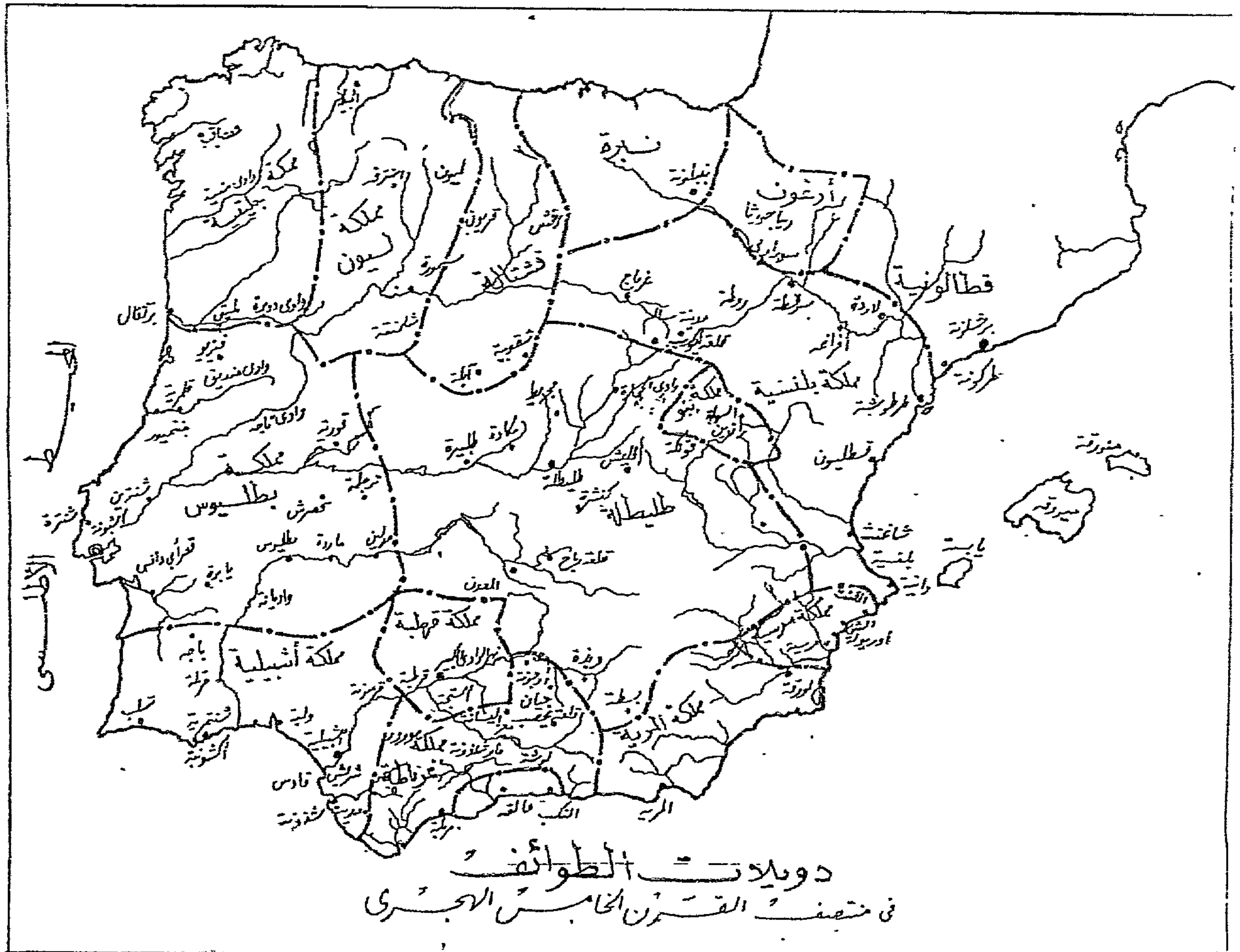
Se comprometió a liberar todas las ciudades del Algarbe ocupadas por los Portugueses pero después de su muerte y sobre todo de la fatal derrota de Las Navas de Tolosa y las divergencias entre los principes almohades en torno del trono, los Almohades del Algarbe se debilitaron hasta el punto de dejar a los Portugueses, Castellanos y Leoneses desvastar los territoirios musulmanes y asi la Reconquista empezó a tener una etapa decisiva.

Badajoz cayó en manos del rey Alfonso IX rey de León el año 1230 J.C. (627 H.). Con su caida termina una página gloriosa en la historia del al - Andalus.

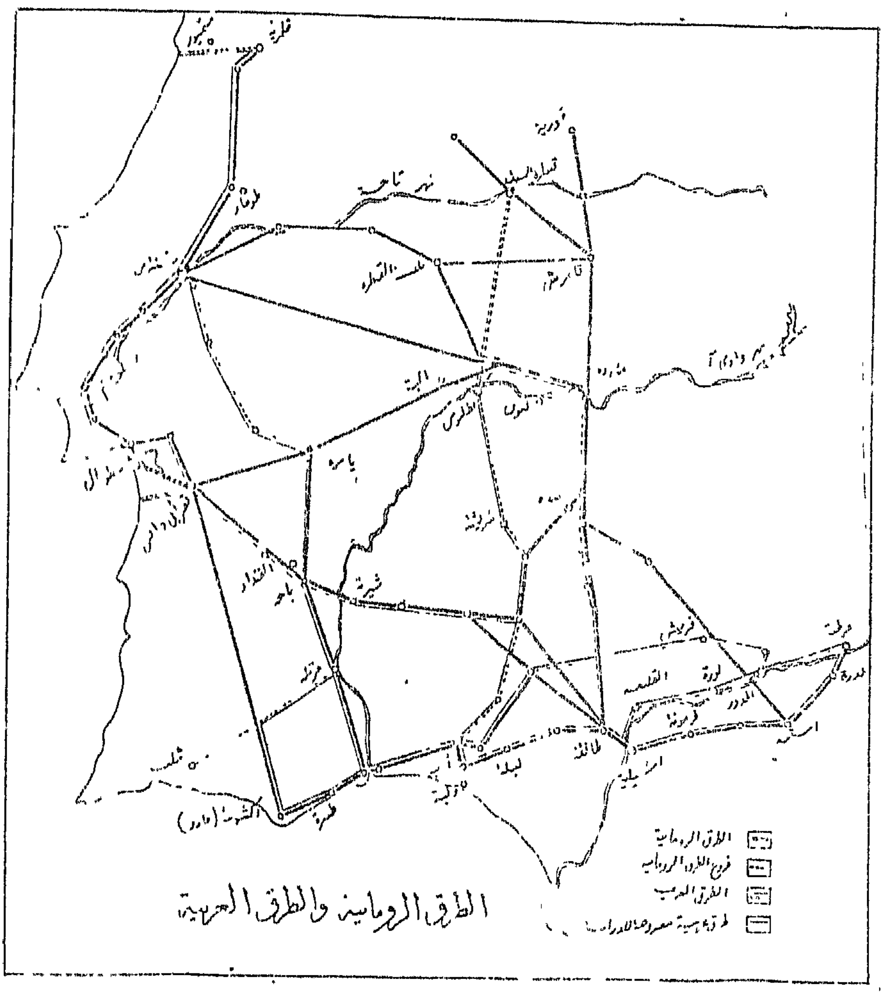


مدينة بطليوس القديمة والمدينة الحديثة

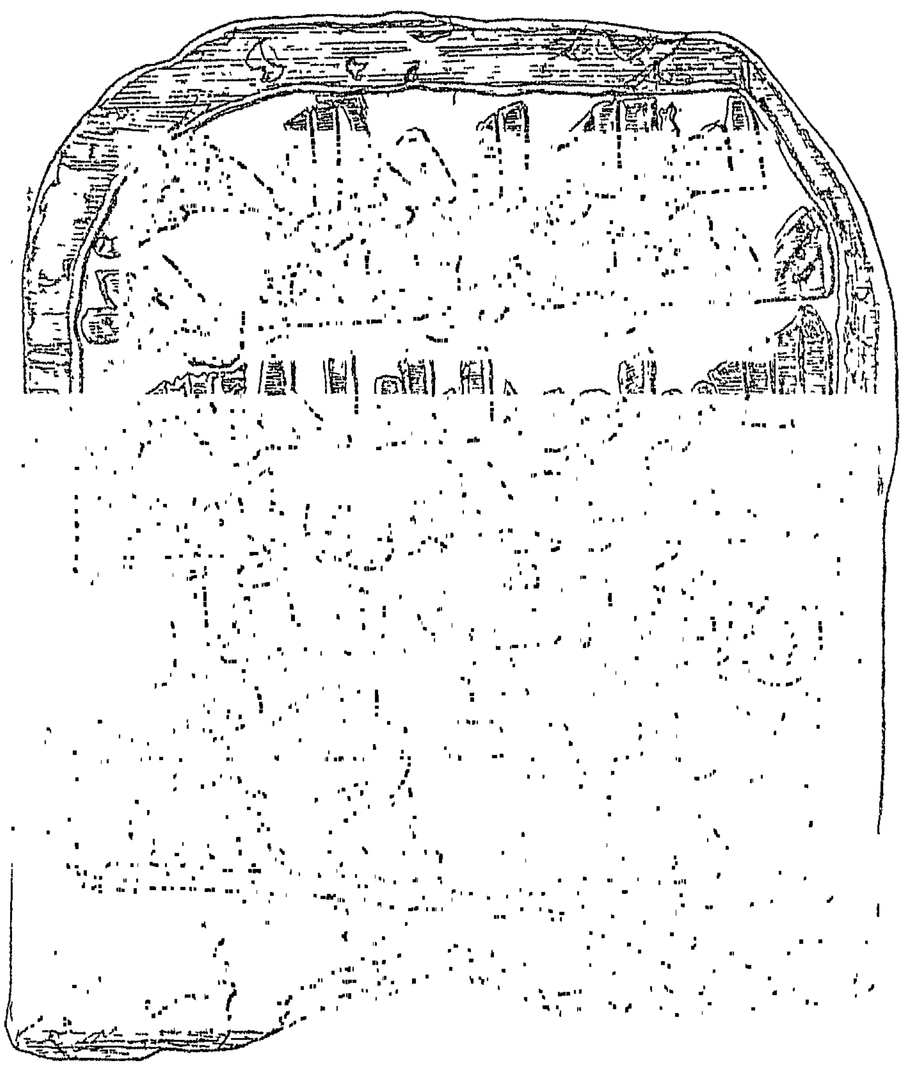

إسبانيا والبرتغال
بحر كنتبرية
المحيط الأطلسي
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
مدريد
طليطلة
بلنسية
سرقسطة
إشبيلية
مرسية
قادس



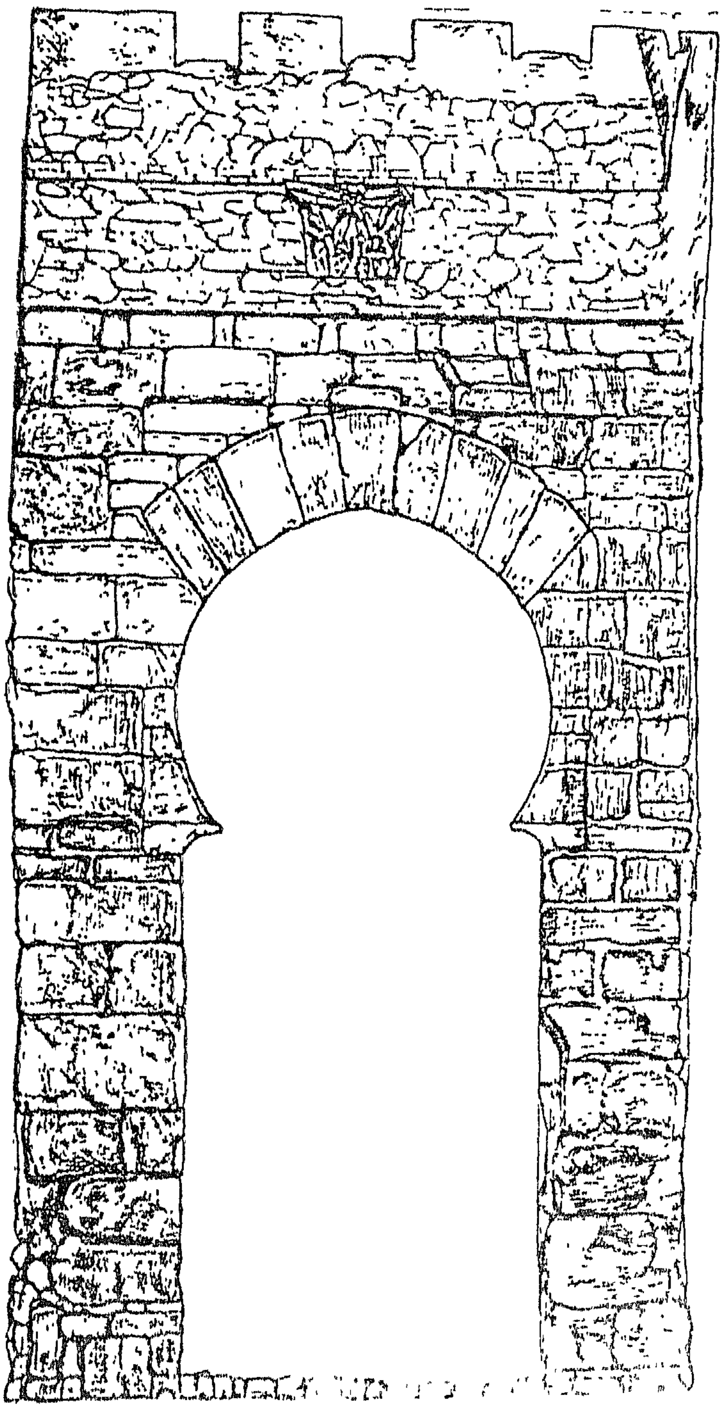
دويلات الطوائف
في منتصف القرن الخامس الهجري



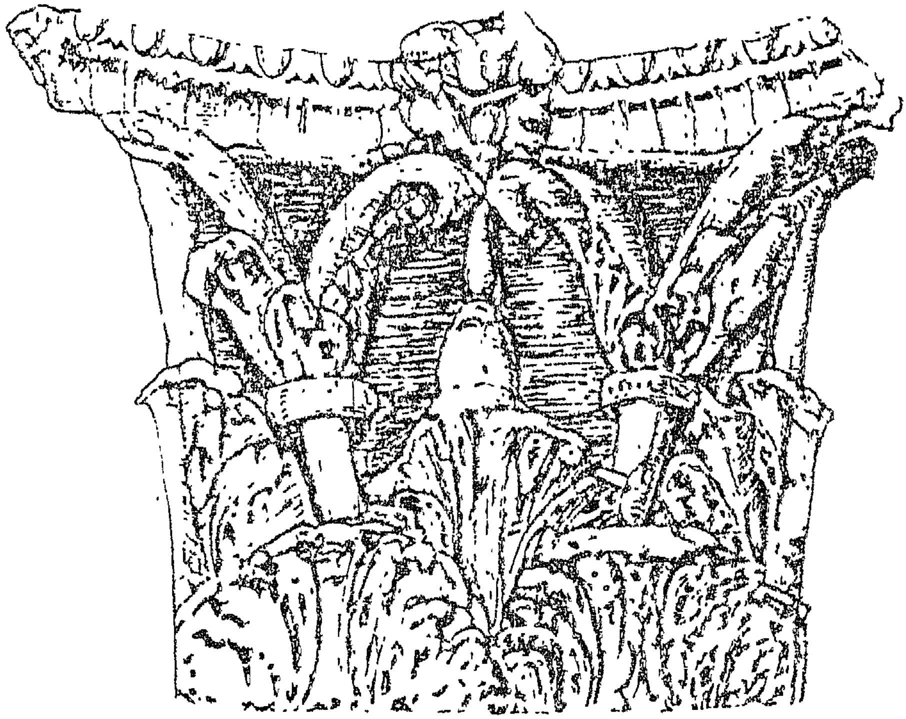
الطرق الرومانية والطرق العربية



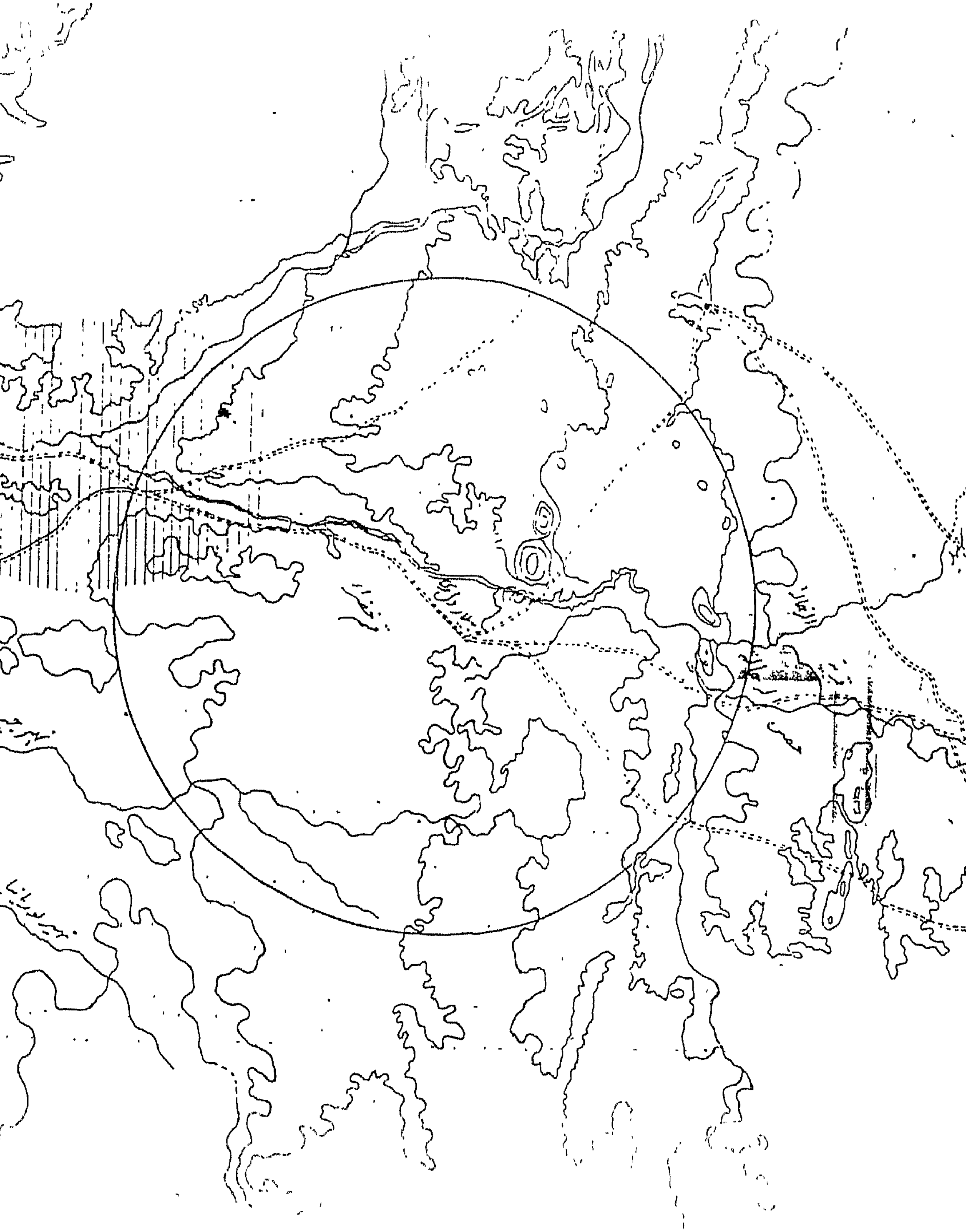
شاهد قبر سابور العامري الحاجب المتوفى ٤١٢ هـ



(Elevation)

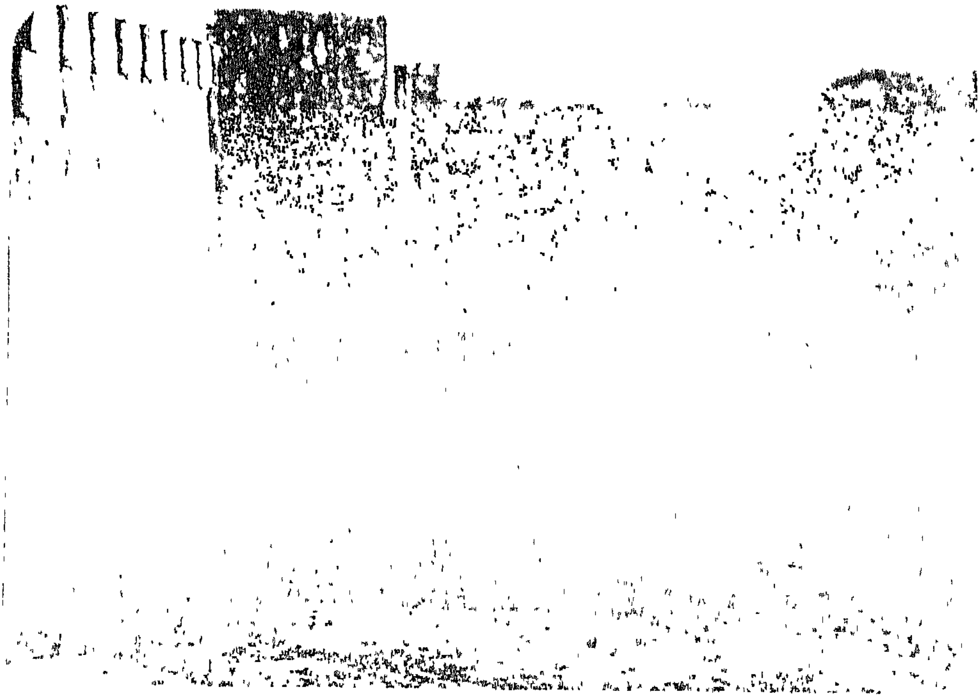


التاج المثبت بأعلى باب التاج





الطالبة مع الدكتور فرناند و بالوث رئيس البعثة الأثرية ببطليوس
أمام احدى المجسات بالقصبة



جانب من سور القصبة وتشاهد قورجة متفرعة من الســـور
تنحـــدر نحو واد يانـــة



الموقع الذى دارت فيه موقعة الزلاقة ببطحاء بطليـــوس

محتويات الجزء الثانى

الفصل الرابع

الموضوع — رقم الصفحة

بطليوس فى عصر المتوكل على الله عمر بن الافطس

(١) مرحلة الانتقال من المظفر الى المتوكل ٩
(٢) المرحلة الاولى من عصر المتوكل (٤٧٣هـ ـ ٤٧٣هـ) ١٧
(٣) المرحلة الثانية من عصر المتوكل (٤٧٣ ـ ٤٧٩) ٣١
(٤) اطماع الفونسو السادس فى مملكتى بطليوس واشبيلية ٣٧
(٥) هزيمة الفونسو السادس فى الزلاقة من بطليوس ٥٤
(٦) تحقيق موقع الزلاقة من أراضى بطليوس (ساجراخاس) .. ٩٧
(٧) نهاية بنى الافطس اصحاب بطليوس ١٠٩

الباب الثالث

بطليوس منذ دخولها فى فلك دولة المرابطين فى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) حتى سقوطها فى ايدى الليونيين عام ٦٢٧هـ (١٢٣٠م)

الفصل الخامس

بطليوس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين

(١) بطليوس فى عهد على بن يوسف ١٤١
(٢) الثورة فى غرب الاندلس وانهيار سلطان المرابطين ١٦٧
(٣) بطليوس فى عهد عبد المؤمن بن على وابنه يوسف ١٨٩
(٤) بطليوس فى عهد الخليفة ابى يوسف يعقوب المنصور .. ٢٣٦
(٥) بطليوس فى عهد خلفاء المنصور ٢٥٢
(٦) سقوط بطليوس فى ايدى الليونيين سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) .. ٢٦٢

الموضـــوع رقم الصفحة

الخاتمـــة ٢٧٩

ملاحـــق الرسالة

الملحق الاول ـ عرض تاريخى موجز للمالك المسيحية فى شبه
جزيزة ايبيريا اللتى لهـا اتصال مبـاشر بغرب
الاندلس ٢٩٣

الملحق الثانى ـ نص الرسالة الموجهة من المتوكل على الله عمر
بن الافطس الى امير المسلمين يوسف بن تاشفين ٣٧٩

الملحق الثالث ـ نص الرسالة الموجهة من اللتوكل على الله عمر
بن الافطس الى الفونسو السادس ملك قشتالـة ٣٨١

الملحق الرابع ـ ثبت بأسماء الاعلام الجغرافية والمواضع الوارد
ذكرها فى الرسالـة ٣٨٣

قائمة المصادر والمراجع الحديثة ٣٨٩

موجز الرسالة باللغة الاسبانيـة ٤١٣

فهرس الصور والخرائط والرسوم التوضيحيـة ٤٣٣

تـــم بحمـــد الله